دكتور صلاح فضل

تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي

دار الشروق

تأثير الثقافة الإسلامية
فى الكوميديا الإلهية لدانتى

دكتور صلاح فضل

الطبعة الثالثة

دار الشروق

الطبعة الثالثة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٥٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL 318/319 REGENT STREET LONDON W1 UK, TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK 257796

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من حق القارىء أن يعرف منذ الوهلة الأولى أن موضـــوع التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى ليس وليد اليوم ، وإن كانت هذه أول مرة يعرض فيها بشكل واف باللغة العربية . ففى أوائل هذا القرن نبت فى مخيلة عالم إسبانى ضليع أمضى عمره فى معايشة التراث العربى والذخائر الإسلامية أن ما يحفل به هذا التراث من صور الدار الآخرة وأدب المعراج يكمن وراء أنضج وأقوى أثر أدبى أوربى فى العصور الوسطى وهو ملحمة دانتى الخالدة ، فعكف عشرين عاما يعالج مصادره ويبحث طرائقه حتى أخرج نظريته فى هذا التأثير نموذجا منهجيا فى الدراسات المقارنة المحكمة .

وكانت مفاجأة مذهلة لأبناء الثقافة الأوروبية ؛ فعز عليهم أن يعترفوا بالدين للثقافة العربية الإسلامية فى مرحلة عطائها الخصب ، ونشبت معركة علمية حادة بين هذا الباحث المتمكن « أسين بالاثيوس » ومن اكتسبتهم نظريته من أنصار وبين من ينكرون ذلك العطاء . وبعد ثلاثين عاما من تاريخ بدء الجدل الساخن اكتشفت وثيقة دامغة تؤيد النظرية وتقطع السبيل على حجج منكريها .

كان ذلك على وجه التحديد عام ١٩٤٩ . ومن ثم أصبحت القضية من أهم منجزات الأدب المقارن فى القرن العشرين .

ومع ذلك فإن المشكلة لم تدخل كاملة إلى المكتبة العربية حتى الآن ، فلم تترجم هذه الدراسات مع شدة حاجتنا إليها ونحن نؤصل لمناهج الأدب المقارن فى جامعاتنا ، ولم تعرض نتائجها بما تستحقه من عناية وإحاطة مع

أنها تعطى لنا دفعة قوية من الثقة المدعمة بالبراهين العلمية فى ثقافتنا القومية وتحفزنا إلى الاعتزاز الواعى بتراثنا وتساعدنا على التخلص من حساسية المتخلف الذى يخشى عواقب الاتصال الفكرى على أصالته ، مع أنه شرط جوهرى لتغذيتها وإنمائها.

ولئن كان هناك علماء مصريون قد أسهموا بجهدهم النبيل فى تنوير القارئ العربى وإضاءة بعض جوانب هذه القضية له فإن ذلك قد تم فى إطار دراسات جامعة لما يناظرها من قضايا مشابهة ،وقد آن الأوان كى نفرد لكل موضوع بحوثه المستقلة الوافية ، وندعوه كى يدخل بكامل حجمه إلى لغتنا العربية حتى ينهمر فى معيننا العلمى ويحدث أثره المنشود فى وجداننا القومى .

ويطيب لى فى هذا التقديم أن أشير إلى أهم هذه الدراسات ، لا على سبيل نقد المصادر ، وإنما من قبيل التحية والتنويه والاعتراف بفضل السبق والريادة .

ولعل أول مصدر عربى مبكر عرض لتأثير الثقافة الإسلامية فى الكوميديا الإلهية عقب نشر الترجمة الانجليزية لكتاب « أسين بالاثيوس » عام ١٩٢٦ كان كتاب الأستاذ عبد اللطيف الطيباوى الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٢٨ بعنوان « التصوف الإسلامى العربى : بحث فى تطور الفكر العربى » وقد عالج هذه القضية المقارنة — كما يقتضى سياقه — فى فصل يقع فى ست عشرة صفحة بعنوان « ابن العربى ودانتى » قدم فيه عرضاً مركزاً للكتاب الذى « أقيم على طريقة تحليلية علمية يكفى أن نقول فيها إن الرأى العام عدها من عجائب التآليف » . فشرح المؤلف مباحث الكتاب الأربعة التى تناولت أولا روايات الإسراء والمعراج كمصدر للكوميديا والتراث الأدبى والصوفى عند المعرى وابن عربى ، ثم حلل بعض العناصر الصوفية كما وردت فى « الفتوحات المكية » موضحا مشابهتها لأجزاء الكوميديا ؛ وبحث فى القسم الثالث الأقاصيص النصرانية والأساطير الأوربية التى كانت شائعة فى العصور الوسطى قبل دانتى وكانت بدورها مستقاة من مصادر عربية إسلامية ، وفى

القسم الرابع وهو على حد تعبير الأستاذ الطيباوى « أهم أقسام الكتاب وأدقها بحثا وأقواها حجة » رجح المؤلف انتقال تلك الأفكار الإسلامية إلى أوربا المسيحية عامة و إلى دانتى خاصة بوسائل متعددة من تجارة وحركة حجيج وحروب صليبية ونشاط تبشيرى ، وحدد أهم مواقع التقاء الثقافات حينئذ ، وهى صقلية (التى نقل اسمها سيسيليا) وبلاط ملوكها ، ثم اسبانيا خاصة فى طليطلة وقرطبة وإشبيلية على مدار عدة قرون .

وقد نبه الباحث إلى أن المستشرق الفرنسى الأستاذ « بلوشيه » كان أول من أشار إلى أصل الكوميديا الإسلامى والتمسه فى التراث الفارسى لكنه عجز عن إثبات ذلك بالبرهان ، حتى جاء « أسين بالاثيوس » بنظريته المنهجية المدعمة ، وأخذ الأستاذ الطيباوى فى شرح الملابسات التاريخية والثقافية التى ترشح وتعزز فكرة التأثير ، فوضح أن دانتى كان معجبا بالثقافة الإسلامية وقد مكنته وسائل اتصال أوربا بالإسلام من الاقتباس منها والتأثر بها « فإذا ثبتت أسبقية الآداب الإسلامية لغيرها وبالتالى دانتى ، واتضحت المشابهة بين هذه الآداب وما جاء به الشاعر الفلورنسى ، وأمكن القول بانتقال هذه الأفكار فقد اتصلت الحلقة دون انقطاع ، وإذن فنظرية أصل الألعوبة (يقصد الكوميديا) الإسلامى أمر لا يمكن جحده » .

ويبدو أن هذا العرض الذى كتب منذ ما يربو على نصف قرن ، وقدم المشكلة للقارىء العربى لأول مرة فيما نعلم كان يتجه إلى دارسى التصوف بصفة خاصة ، واعتمد على الترجمة الانجليزية المختصرة التى حذفت منها أبيات دانتى والنصوص الإسلامية الواردة فى أصل كتاب « أسين بالاثيوس » ، فاهتم فى المقام الأول بتاريخ الأفكار طبقا لمنظوره الفلسفى ، وأغفل بقية النواحى الفنية التصويرية التى حفل بها الكتاب المعروض ، كما أنه بطبيعة الحال وقف التعريف بالمشكلة عند هذه المرحلة المبكرة .

وفى عام ١٩٥٣ م نشر أستاذنا المرحوم الدكتور غنيمى هلال الطبعة الأولى من كتابه الفذ « الأدب المقارن » الذى جمع فيه مادة علمية ضخمة يمكن أن تتوزع على عدد كبير من الكتب والدراسات المفصلة ، وقد قام

فيه المؤلف بجهد كبير فى تأصيل مناهج الأدب المقارن وتخطيط ميادينه طبقا لمنظور المدرسة الفرنسية ، وأشار إلى كثير من إنجازاته وقضاياه بتركيز شديد بغية رسم معالمه وتحديد مناهجه فى الجامعات المصرية والعربية .

وقد عرض لقضية التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية فى نطاق الحديث عن الملحمة كجنس أدبى تضافرت الآداب المختلفة على إنمائه وتطويره ، فوضعت القضية منذ ذلك الوقت فى إطارها الملائم ، كما كان قد نشر فى اسبانيا وإيطاليا حينئذ نص وثيقة المعراج التى قدمت الدليل الحاسم على صدق النبوءة الأولى ؛ فعرض غنيمى هلال فى خمس صفحات موجزاً لتاريخ الموضوع وأشار إلى أهم تطوراته ونتائجه ، والتقط بضعة مشاهد من وثيقة المعراج كأمثلة عامة موضحا عمق تأثيرها فى الكوميديا الإلهية بعد أن قدم ملخصا لها أبرز فيه طابعها الدينى الرمزى ، ووعد بأنه سيعالج « هذه المسألة الهامة بالتفصيل فى كتاب آخر » ولكن القدر أعجله عن إتمام هذا المشروع وغيره من المشروعات الواعدة الوفيرة التى ألمح إليها وترك لتلاميذه مهمة إنجازها . على أن ما تميز به هذا المفكر الجامعى الطموح من قدرة هائلة على الاستقصاء ، وروح طليعى وثاب ، وإيمان متوهج برسالته العلمية النقدية لم يلبث أن احترق به قد جعل مهمة تلاميذه شاقة من بعده ؛ فقد يصيبهم الإحباط إذا ما سموا بأنظارهم إلى أفقه دون أن تكون لهم أجنحته ، فلا يبقى أمامهم إلا المغامرة الجسور ، وحسبهم المحاولة المخلصة الدؤوب .

وبعد قرابة عشر سنوات قدم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى ، أغزر المعاصرين إنتاجا وأوفرهم مادة ، كتابه الجامع « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » فلخص فى عشر صفحات بعض جوانب المشكلة التى تشغلنا ، وركز على المرحلة الأخيرة منها ، معتمدا على الدراسة التى كتبها الباحث الإيطالى « انريكو تشيرولى » عند نشره لوثيقة المعراج .

ثم أورد الدكتور بدوى حديثا مطولا من الفتوحات المكية ، استغرق أربع صفحات ، عن مواقف الحشر الخمسين التى يبلغ طول كل منها ألف

عام ، وسرادقات الحساب يوم القيامة ، بحجة أن « هذا الوصف المفصل الدقيق لمرحلة الأعراف نجد له نظائر عديدة ومطابقة (أى عند دانتى) يأخذ أسين فى بيانها » والواقع أن « أسين بالاثيوس » اعتمد - كما سنرى - على نصوص أخرى فى التراث الإسلامى أقرب إلى الروح الملحمى التصويرى عند دانتى ، ولم يقف كثيراً أمام هذا الحديث بالرغم من قراءته المتأنية المستوعبة لجميع فصول الفتوحات ، لأنه لايقدم له مادة تتسق مع هدفه المقارن ؛ إذ أن الأعراف عند دانتى ليست - كما يقول الدكتور بدوى - « طريقا منزلقا وعقبات يصعب اجتيازها وصخرة عالية جداً » وليست هذه نقطة الضعف الوحيدة فى عرضه الذى يتسم بالتسرع وعدم التثبت ، وكان الأحرى بمن فى مثل علمه وإحاطته وأستاذيته أن يكون أكثر منهجية ودقة ؛ فهو يقول عن الباحث الإسبانى الآخر « مونيوث سنديتو » إنه « نشر فى نفس السنة - سنة ١٩٤٩ - الترجمات الثلاث : الأسانية واللاتينية والفرنسية مع مقدمة وتعليقات (ويورد فى الهامش اسم الكتاب بالإسبانية) فزادت هـــذه النشرة إذن على نشرة تشيرولى بنشر الترجمة الإسبانية ، ولكنها لاتحوى تلك الشواهد والنصوص الخطيرة التى نشرها تشيرولى » .

ومن الواضح أن الدكتور بدوى لم يطلع على كتاب « سنديتو » اللهم إلا إطلالة عجولة على عنوانه فحسب ؛ لأنه لاتوجد بين يدى الباحثين هذه الترجمة الإسبانية ، بل هى مفقودة مع الأصل العربى ، حتى ليظن بأنها كانت مجرد مسودة للترجمتين اللاتينية والفرنسية طرحت بعد استخدامها ، وكل ما فعله (سنديتو) أنه قام بتلخيص واف للوثيقة ، وعرضها باللغة الأسبانية الحديثة - وهذا ما أفدت منه فى عرضى - وهى تختلف عن القشتالية القديمة التى ترجم النص إليها أولا .

ثم يشير الدكتور بدوى إلى تلخيص (بدرو باسكوال) لنص المعراج فى كتابه عن (الطائفة المحمدية) فيذكر أن « تشيرولى » نشره فى نصوصه ،

ويغفل أن (سندينو) فعل أيضاً نفس الشيء ونشره ضمن وثائق أخرى تكشف عن شيوع قصة المعراج لدى المؤلفين الأوربيين فى العصر الوسيط. والواقع أن كتاباً مثل (دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى) فى طموحه واتساع ميدانه لم يكن ينتظر منه أن يكون أوفى أو أشمل فى عرضه للقضية التى تشغلنا ، إذ أنه يقدم فى حيز محدود ما تنوء به المجلدات الطوال ، فيضطر إلى أن يقتطف من هنا وهناك . معتمداً على بحوث الآخرين فيوجزها دون نسبة أحياناً إن ضاق المقام ودون تثبت أحياناً أخرى إن أعجله الوقت ، ومن ثم يقع فى مثل الهنات التى ذكرناها . لكنه يظل مفيدا فى تقديم صورة بانورامية مجملة لكثير من القضايا الحيوية الخطيرة .

ثم أصدر الأستاذ الدكتور ابراهيم عبد الرحمن كتابه القيم « دراسات مقارنة » عام ١٩٧٥ ، فأورد فيه فصلا محكماً بعنوان « الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية » تناول فيه أيضاً تاريخ المشكلة ، لكنه عرض أهم عناصرها بدقه شديدة وتوازن كبير ، ثم أخذ فى عقد مقارنة علمية خصبة بين الرموز الدينية والاجتماعية عند دانتى ونظائرها فى رسالة الغفران للمعرى ، مبرزاً الطابع الذاتى والمستوى الفنى لهذه الرموز ، وكيف كانت تتكيف لدى كل من الشاعرين بالمناخ الثقافى والسمت الحضارى لعصره ، وقد أوضح الدكتور ابراهيم عبد الرحمن أن التشابه بين دانتى والمعرى يشمل فلسفة أثريهما وشكلهما الفنى معاً ، وأورد عديداً من الأمثلة التى تشهد على ذلك . وإذا كان « أسين بالاثيوس » قد كتب بعد تحليله العميق للعناصر الإسلامية لدى دانتى يقول : « إن الشاهد التاريخى أو الوثيقة المكتوبة — فى حالة وجودها — سوف تبرهن على التأثير الذى تؤكده الوقائع والنصوص ، لكنها لن تضيف إليه أى قدر من قوة الإقناع العلمى المنبثقة من شواهد هذا التأثير قبل أن يكتشف دليله التاريخى » فصدقت بنوءته ، واكتشف بوثيقة المعراج الشاهد التاريخى ، لكنه بالفعل لم يضف كثيراً إلى قوة الإقناع العلمى التى تميزت بها بحوثه ، إذا كان الأمر كذلك فيما يتصل بالمعراج فإن رسالة

الغفران بمظاهر التشابه العميقة التى ألمح إليها الدكتور ابراهيم عبد الرحمن تنتظر بدورها الشاهد التاريخى الذى يثبت نقلها كاملة أو ملخصة إلى إحدى اللغات الأوربية فى العصر الوسيط لتتم به دورة هذا التأثير الخلاق وتكتمل قرائنه .

أما آخر بحث جاد فى هذا الموضوع فهو كتاب الدكتور رجاء جبر الذى صدر عام ١٩٧٧ بعنوان « رحلة الروح بين ابن سينا وسنائى ودانتى وأراد فيه — على حد تعبيره — أن يتقدم بالبحث خطوة فى هذا المجال ، فتناول علاقة الكوميديا الإلهية بالمصادر الشرقية التى عالجت الرحلة إلى العالم الغيبى علاجاً فلسفيا صوفيا ؛ خاصة منظومة « سير العباد إلى المعاد » للشاعر الفارسى سنائى الغزنوى (٥٢٥هـ/١١٣١م) المتأثرة بدورها برسالة حى بن يقظان لابن سينا . على أن هذه الخطوة — كما يشرح بأمانة الباحث نفسه — سبق أن تقدم بها المستشرق الإنجليزى (أرنولد نيكلسون) فى بحث نشره عام ١٩٤٣ بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعنوان « رائد فارسى لدانتى » وانتهى إلى نتيجة علمية موثوق بها ؛ وهى أن تفصيلات المشابهات بين الأثرين تحمل على الاعتقاد بأن هناك مصدراً مشتركاً للشاعرين ، وهو المادة الماثلة فى الروايات الإسلامية عن المعراج ؛ إذ ليس ثمة دليل على أن هذه المنظومة قد نقلت إلى إحدى اللغات الأوربية بطريقة تسمح باطلاع دانتى عليها ، بالإضافة إلى صعوبتها واستغلاق رموزها قبل أن تكتشف شروحها ، وبوسعنا أن نقول إن الزميل الكبير الدكتور رجاء جبر قد نجح فى أهدافه التى وضعها لبحثه الدقيق وهى : —

— إثارة الاهتمام بدور ابن سينا الأدبى بجانب دوره كفليسوف .

— إلقاء مزيد من الضوء على فكر الشاعر الفارسى سنائى .

— تنمية موضوع التلاقى بين الآداب الإسلامية والعالمية .

بيد أن هناك بعض الملاحظات اليسيرة التى لاتنقص من قدر بحثه ولا

أهميته ، منها أنه اعتمد فى عرضه لمعراج أبى يزيد البسطامى على نشر مجلة « إسلاميكا » الإنجليزية وكان الأجدر به أن يعتمد على النشرة العربية الموثقة التى أصدرها ضمن مكتبة الآداب الصوفية الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر بالقاهرة عام ١٩٦٤ . كما أنه عمد إلى تقديم ملخص مطول نسبياً للكوميديا الإلهية لا تدعو إليه الضرورة بعد الترجمة المتقنة الدقيقة النموذجية التى أثرى بها المرحوم الدكتور حسن عثمان المكتبة العربية بأجزاء الكوميديا الثلاثة بجميع شروحها وهوامشها وتعليقاتها ، وياليت كل عيون الأدب العالمى تحظى بجزء من مثل هذا المجهود ، وكان الأولى بالدكتور رجاء أن يصرف همه إلى تقديم ترجمة كاملة لمنظومة سنائى التى تقع كما يقول فى ثمانمائة بيت لا أكثر ، فيضيف بهذا جديداً حقاً إلى الأدب العربى ، ويضع ما تبقى من وثائق موضوعنا بين يدى القارئ ، ولا زلت آمل أن يقوم فى المستقبل بذلك

هذه — فى تقديرى — أهم الدراسات التى تعرضت للمشكلة ، وهى تتراوح فى جملتها — كما رأينا — بين إشارات موجزة لتاريخ القضية أو محاولات مختصرة لتعميق بعض جوانبها ، لكن القارئ العربى يظل بالرغم منها فى حاجة إلى الإلمام بصورتها متكاملة ؛ إذ أنه صاحب التراث الذى أثمر والأدب الذى أخصب .

من هنا نشبت ضرورة هذا البحث الذى حاول أن يستوعب بشكل مباشر المادة العلمية المقارنة التى استخدمت فى الدراسات الأوربية ، ويطلع على نصوصها العربية الأصلية ، ثم يقدم إعادة ترجمة وعرض لوثيقة المعراج التى أصبحت البرهان الأخير فى القضية . ويبحث عن نماذج لنظائرها فى التراث متفرقة حتى يعثر عليها مجتمعة .

وقد تطلب هذا معايشة حميمة لعناصر التراث الإسلامى وأدب المعراج والدار الآخرة فى كتب الرقائق الدينية والتاريخ والموسوعات الثقافية الشاملة أملا فى الوصول إلى أصل المخطوطة العربى ، وإذا كان هذا لازال مستعصياً حتى الآن فإنى أدعو جميع المشتغلين بالفكر الدينى والفلسفة والأدب المقارن

أن يجدوا معى فى البحث عن هذا الأصل ، وأعدهم بأن صحية هذا التراث بما يختزنه من ثروة أدبية وروحية هائلة ؛ إذا اقترنت بالتوتر الثقافى واليقظة المنهجية ،كفيلة بأن تفتح فيه آفاقاً جديدة شديدة الخصب؛ خاصة فى عناصره المتقدة المستسرة .

وقد كان الخيار الماثل أمامى فى هذا البحث هو التركيز على أحد الجانبين فى دراسة مصادر دانتى الإسلامية : إما جانب الأفكار ، وإما جانب الصور ؛ إذ أنه لامفر عند تحليل الحدود الفاصلة بين الآداب المختلفة من فك هذه الوحدة المشتبكة فى البنية الأدبية وعزل جزئياتها وإن أفقدها ذلك كثيراً من خصائصها .

وإذا كانت الأفكار بطبيعتها — كما يقول نقاد الفكر — أقرب إلى أن تكون محدودة فى صيغها المجردة وحلولها الميتافيزيقية وامتداداتها المباشرة مما يكاد يقصرها على قليل من المقولات (الأمهات) التى تصدر جميعها عن نفس الطبيعة العقلية للانسان فتتشابه بقدر ما تتوافق الظروف التاريخية وتلتقى قوى التجريد البشرية ؛ فإن الصور باعتبارها انعكاساً محدداً للأشكال الواقعية وتجسيداً مناظراً للمحسوسات فى كثرتها وتغيرها واختلاف نماذجها أعز على التوافق العفوى غير المقصود ؛ إذ كيف يستطيع الإنسان أن يتمثل مسبقاً الإمكانات المختلفة لتشكيلات الصور التى لا حصر لها ،وتراكيبها اللانهائية التى يستطيع الخيال الإنسانى أن يبدعها خلال محاكاته للواقع الشديد الثراء والتغير ؟

وكيف نتوقع أن تولد من بين هذه الاحتمالات الهائلة للصور والرموز الممكنة للعالم الآخر مثلا مجموعات مركبة متجانسة ، ومتطابقة فى كثير من خصائصها دون أية علاقة تربط بينها ؟ خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن مبدع أحد الطرفين إنما هو عقلية فردية لشاعر عظيم تبلورت لديه رؤية عصره وقومه ، ومبدع الطرف الأسبق إنما هو الخيال الشعبى الذى اشتركت فى إثرائه وتنميته معطيات دينية وثقافية فى غاية التعقيد والأصالة ، مما لا يمكن لفرد كائناً من

كان أن يصوغ مثله عمره القصير . ومن هنا فإن إيقاع هذه الدراسة قد اختار أن يضغط على المشاهد والصور باعتبارها الأداة الفنية فى التأثير والوسيلة الضرورية لضمان أدبية الدراسة .

ولا يسعنى فى ختام هذه الكلمة إلا أن أتقدم بأخلص الثناء وأجمل التقدير لجميع من أعانونى فى إتمام هذا البحث ، وأخص بالذكر منهم أستاذنا العالم الجليل الدكتور عبد العزيز الأهوانى الذى تفضل بإعارتى بعض النسخ الخطية للمعراج ، وأستاذى وصديقى الدكتور أحمد هيكل الذى تكرم بإعطائى نسخته النادرة من الكتاب الذى يضم وثيقة المعراج ، ولكل الأصدقاء والزملاء الذين لقيت من حدبهم ورعايتهم ماعمر قلبى بمزيد من محبتهم والعرفان بصنيعهم الجميل .

والله ولى التوفيق ،

دكتور صلاح فضل
المعادى فى أغسطس ١٩٧٩

فهرس المواد

مدخل للموضوع

- مشكلة الأدب المقارن اليوم .
- الفرق بين التأثر والتقليد .
- تاريخ الموضوع .

مشكلة الأدب المقارن

عند الإطلال على ميدان الأدب المقارن اليوم يبدو للباحث أنه يمر بأزمة دقيقة نتيجة لتطور مناهج البحث واختلاف مدارسه من ناحية ولنمو نظرية الأدب وتفرع مفاهيمها من ناحيـــة أخرى . على أن ظروفنا الخاصة المتميزة فى العالم العربى تجعلنا أكثر حساسية فى علاج هذه القضايا نظراً لحاجتنا الشديدة إلى دخول هذا الميدان مسلحين بوسائله المنهجية ونظرياته العلمية أولا ثم الإفادة من جميع طرقه ومدارسه وتكييفها لتتلاءم مع حاجاتنا القومية ثانياً . وقد نرى أنفسنا مضطرين إلى تأصيل البديهيات والإلحاح على المبادئ الأولى للعلم فى مواجهة نزعات بعض كاتبينا إلى الاستسهال والاسترسال دون التحرج والتثبت الضروريين . وقديكون من صالحنا نتيجة لذلك أن نتمسك بمفهوم تجاوزته بلاد أخرى دون أن نغفل إنجازاتهم وإضافاتهم ؛ أى أننا نقف على بينة من أمرنا ونختار ما يسهم فى دفعنا حثيثاً إلى طريق العلم على وعى وبصيرة دون تمذهب منقول .

فالأدب المقارن فى أقوم تعريف له اليوم هو العلم المنهجى الذى ينشد دراسة روابط التشابه والقرابة والتأثير بين الأدب ومظاهر المعرفة الإنسانية الأخرى ، أو بين النصوص الأدبية نفسها ، مماقد يبدو والوهلةالأولى متباعداً فى الزمان أو المكان ، بشرط أن تنتمى إلى لغات أو ثقافات عديدة ، حتى ولو كانت تدين لتراث مشترك واحد . وتنحو هذه الدراسة إلى وصف ظواهر الالتقاء الأدبى وفهمها و تذوقهابأكبر قدر من التعمق والاستبصار ، مما يجعلها تتخذ منهج الوصف التحليلى والمقارنة المنظمة التى لاتلغى الفروق بين الأشياء ، بل تبرزها وتؤولها كظواهر أدبية تقوم بين اللغات والثقافات المختلفة استجابة لعوامل تاريخية ونقدية وفلسفية . كل هذا يهدف النفاذ إلى فهم الأدب ووظائفه الحيوية فى خدمة الروح الإنسانى العام(١) .

---

(١) انظر : Pichois Claude. Rousseau, Andre, M. « La literature Comparée » Trad. Madrid 1969. P. 93.

بيد أن هذا المفهوم قد تعرض فى الآونة الأخيرة لنقد متواصل من قبل أنصار الاتجاهات الحديثة فى النقد الأدبى ونظرية الأدب ممن أطلق عليهم اسم المدرسة الأمريكية من ناحية، ومجموعة البنائيين ودعاة منهج اجتماعية الأدب من ناحية أخرى، ويجدر بنا أن نعرض بإيجاز تفرضه طبيعة الدراسة التى نقدم لها لأهم هذه المقولات .

ولعل أكبر من تزعم الحملة ضد النظرة التقليدية فى الأدب المقارن ونبه على خطورة المنهج الوضعى القطعى الذى تحتذيه هو الكاتب الموسوعى « رينيه ويليك » الذى ندد بمحاولة بعض الباحثين قصر الأدب المقارن على دراسة العلاقات الخارجية بين الآداب المختلفة ، مما ينتهى إلى التركيز على المظاهر السطحية للأدب والعناية بكتاب الدرجة الثانية فحسب ، فلا تشغلهم سوى الترجمات ويوميات الرحالة ومذكرات الوسطاء ، مما يجعل الأدب المقارن مادة تابعة لغيرها ، تبحث فى مصادر بعض الكتاب الأجنبية ، وتقصر عن الإحاطة بجوانب عبقريتهم الحقيقية ؛ إذ أن الأعمال الفنية التى تستحق هذه التسمية ليست مجرد مجموعة من التأثيرات والمصادر ، وإنما هى تراكيب كلية تختلف جذرياً عن موادها الأولية الغفل التى قد تعزى إلى بعض العناصر الخارجية ، وتكون أبنية جديدة ذات خصائص مختلفة ومتميزة .

ومن هنا فإن التأثيرات لا يمكن أن تشرح وجود الأعمال ذاتها ولا حتى أهم ما فيها طبقاً لقوانين السببية الحتمية ، وإنما تمثل فحسب إضاءة لبعض العناصر التى تخضع لعمل الخيال المبدع الحر ، وتكتسب قيماً جديدة ودلالات مستحدثة ، مما يجعل دراستها فى واقع الأمر فرصة – لا لمعرفة ما يدين به كاتب لآخر – وإنما على العكس من ذلك لاختبار جوانب الأصالة والإبداع فى آثاره الفنية(١) .

---

(١) أنظر : Wellek, Rene. « Concepts of criticism » Trad. Caracas. 1968. p. 212.

ينبغي إذن أن نرفض تطرف بعض الدارسين الذين يظنون أنهم قد بلغوا المدى في تفسير الظواهر عندما يعثرون على بعض السوابق الأدبية ، ويتصورون أنهم قد وضعوا أيديهم على علة الإبداع وسببه المولد ، بينما لا يتجاوز صنيعهم في نهاية الأمر أن يكون إقامة مجموعة من الاحتمالات المفسرة التي قد تشير فحسب إلى الطريق الصحيح لفهم العمل وتعمق جوانبه المختلفة . ومن هنا فإن هذه الآراء لا تغلق باب الدراسات المقارنة وإن دعت إلى إعادة النظر في أهدافها ومناهجها ، إذ لا تتخذ موقف الرفض الكلي الذي عرف به من قبل الناقد الجمالي الإيطالي « بينديتو كروتشيه » في مطالع تبلور الاتجاهات المقارنة ، عندما كان يرى أن كل أثر فني كبير يتميز بأصالة مطلقة ويختلف طبقاً لذلك كلياً عن غيره من الآثار ، بل إن بعض الآثار المتوسطة أو الضعيفة مهما كانت ناقصة تختلف في تركيبها اختلافات جوهرية عن مادتها الأولية ، وهي لهذا متفردة متميزة تماماً تقوم وحدها دون إمكانية إقامة أي صلات بينها وبين ما يعتبر مصادرها الأولى(١) ، وقد ساد هذا الرأي خارج فرنسا في الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن ، وتأثرت به إلى حد كبير مدرسة النقد الجديدة الأمريكية ، لكنها لم تصل إلى درجة الرفض الكلي للأدب المقارن ، بل عمدت إلى محاولة استبعاد الطابع الوضعي الغالب منه بتعميق مفهوم الأصالة ونقد طبيعة التأثير . كما قللت من أهمية شرط الالتقاء التاريخي لإجراء الدراسة المقارنة ، وهو الشرط الذي ألحت المدرسة الفرنسية على اعتباره أساسياً لمشروعية البحث المقارن ، وهو المسئول إلى حد كبير عن تحويل الدارس في هذا الفرع إلى محقق جنائي يستقصي أسباب التأثير ويبحث عن الأدلة المادية له كأنه جريمة ، فإذا عثر عليها أصدر حكماً قضائياً قطعياً دون أن يأخذ في اعتباره أن الأدب لا يخلق من عدم ، وأن النماذج السابقة لا فضل لها لذاتها ، وأن عمليات الإبداع من التعقيد

---

(١) أنظر : Weisstein, Ulrich. «Introduccion a la literatura Comparada» Trad. Barcelona 1975. p. 171

والتشابك والثراء بما يجعل وجود نموذج سابق ليس حاسما فى شرحها ولا بيان قيمتها الفنية الخاصة . وقد عقدت منذ الستينات عدة مؤتمرات دولية للتوفيق بين هذين الاتجاهين فى الأدب المقارن : الاتجاه الذى يلغى شرط الالتقاء التاريخى ، والاتجاه التقليدى الذى يعتد به أصلا للبحث المقارن .

ويبدو لى أن الطريقة المثلى للإفادة من الوعى النظرى والحذر المنهجى لكل من الفريقين هو التمييز بين مرحلتين حاسمتين فى تاريخ الإنسانية ، المرحلة القديمة التى كان المكان فيها عنصرا غالباً على فرض عوامل العزلة والانفصال بين الشعوب ، والمرحلة الحديثة التى انتصر فيها الإنسان على المكان باختراعه لوسائل الاتصال الحديثة التى تلغى المسافات وتجعل الكرة الأرضية كأنها بيت عائلى صغير ، فإذا كان الفرض الملائم لطبيعة المرحلة الأولى أن الأصل هو العزلة بين الثقافات والآداب ما لم يقم الدليل على الاتصال التاريخى فإن الفرض الملائم للمرحلة الثانية هو عكس ذلك تماماً ، إذ أنه من الصعب أن تثبت عزلة أى أديب فى العالم يستطيع أن يدير جهاز راديو فى حجم الكف ليسمع نبض إنسان آخر فى الطرف المقابل من العالم ، فالأصل اليوم هو الاتصال ، والعلاقة التاريخية قائمة بالقوة ، وليس هناك مبرر لوضعها كشرط للبحث المقارن فى الآداب المعاصرة ، أما فى الآداب الكلاسيكية القديمة فلا زلنا محتاجين إلى وضع هذه الضوابط المنهجية حتى لا يتحول الأدب المقارن إلى ميدان مفتوح للموازنات الفجة والتقابلات المفتعلة التى لا تفيد البحث العلمى فى شىء .

أما بالنسبة للتطور الذى لحق بنظرية الأدب فى الآونة الأخيرة ، وكان من ثماره قدر كبير من التحفظ النقدى تجاه الأدب المقارن فإن أبرز مظاهره تتجلى لدى دعاة اجتماعية الأدب من ناحية والبنائيين من ناحية أخرى . فيرى « جولدمان » مثلا أن القول بتأثر كاتب ما بكاتب آخر لا يحل مشكلة الإبداع ، بل يقتضى منا — من الوجهة النفسية والاجتماعية خصوصاً — جهداً آخر

لتفسير سبب هذا التأثر ومداه ، ولماذا خضع الكاتب لهذا التأثير دون سواه، مما يتطلب جهداً تحليلياً للعوامل الاجتماعية والفردية المركبة ، وعلى أية حال فإن الخصائص الجمالية الكبرى للأعمال الفنية تعتبر بلورة لرؤى جماعية تستحيل استعارتها بطريقة خارجية من آداب أخرى ، وإذا استعيرت بعض أساليبها وعناصرها الجزئية فإن بنيتها الجديدة تختلف حتماً عن البنية الأولى مما يجعل القول بالتأثير لايشرح شيئاً بقدر ما يحتاج بدوره للشرح والتعليل(١) على أن بعض علماء اجتماعية الأدب يولون الظواهر المقارنة عناية فائقة لقياس الفروق الدقيقة العميقة بين المجتمعات على المستوى الثقافى ، فهم يتخذون المشابه ذريعة لمعرفة الخلافات ، خاصة إذا أدت إلى التفسير الخاطئ لبعض الأعمال الأدبية فى أوساط جديدة وتأويلها بشكل ينحرف بها عن معناها الحقيقى الأصلى . ويطلقون على هذا النوع من التفسير اسم « الخيانة الخلاقة » ، فهى خيانة لأنها تضع العمل الفنى فى إطار نظام جديد من الإشارات اللغوية والثقافية غريب عن نظامه الأصلى ، وهى خلاقة لأنها تهبه إمكانات لاكتساب معان جديدة لا تقل أهمية وإبداعاً عن معانيه الأولى ، ويضربون مثلا على ذلك قصة « روبنسون كروز » «لدانييل دى فو» التى كتبت لتمجيد الحركات الاستعمارية فى بداياتها المبكرة واحتشدت بالمغامرات العجيبة التى كانت محببة للناس عندئذ كوسيلة فنية لتحقيق هذا الغرض ، لكنها الآن قد أصبحت قصة من أدب الأطفال ، تضحكهم وتلهيهم بعد أن فقد الاستعمار مبرراته ولم يصبح بوسع أحد أن يدافع عنه بطريقة جدية . بينما نجد أن قصة أخرى وهى « أليسيا فى بلاد العجائب » التى كتبها « لويس كاول » للصغار أساساً قد أصبحت مطابقة لذوق القارئ الناضج الكبير ولم تعد من أدب الأطفال (٢) ، فعلماء اجتماعية

---

(١) انظر الفصل الخاص بآراء جولدمان فى اجتماعية الأدب من كتابنا « منهج الواقعية فى الابداع الأدبى » القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٢) أنظر : Escarpit, Robert. «Sociologia de la literatura» Trad Buenos Aires. 1962. P. 150.

الأدب يلتقطون هذه الخيوط والتحولات ليدرسوا من خلالها تطور الرؤية الفنية والاجتماعية لدى الأجيال والأوساط المختلفة فى عوامله ونتائجه ، وهى دراسة تختلف إلى حد كبير عن مفهوم الأدب المقارن التقليدى ، إذ تشده إلى دائرة الدراسات الإنسانية الثقافية العامة ودلالاتها الاجتماعية،

وقد تراوح موقف البنائيين بين الرفض الأولى لأهمية قضايا التأثير الأدبى الذى لايمكن أن يتم بطبيعة الحال إلا فى نطاق الجزئيات والمواد الأولية التى لاتمثل نظاماً ولا بنية عامة ، وأخذ النقاد مجدداً يبحثون داخل النظرية البنائية عما يدعم الدراسات المقارنة على أساس أن الأدب المقارن هو الذى وضع فى مقابل التفتيت الجزئى المتكاثر للآداب المحلية اتجاهات إلى التوحد العالمى الذى ينحو إلى الاعتداد بالقواعد العامة للفن والشعر ؛ إذ أن هذا التوحد ينبغى البحث عنه أيضاً على ضوء النظريات النقدية التى تنشد الكشف عن الأبنية الفردية والجماعية ، فتنوع الظواهر الأدبية الذى لاحصر له لايستبعد ضرورة العثور على المبادئ التى لاغنى عنها لفهمه(١) .

ومن الناحية المنهجية فإن بوسع الأدب المقارن أن يستلهم من المنظور البنائى روح العلم والبحث عن النظام فى الدراسات الفنية ، فعليه أن يبدأ بالوصف الدقيق القائم على الملاحظه ثم يحدد الموضوعات والمواقف والأشكال وطرق الأداء ، حتى إذا شرع فى تصنيفها كشف عن مظاهر التشابه والاختلاف بين الناس والعصور وأبرز تعدد الأنساق وخصائص الأنماط المختلفة فى الصيغ المقترنة ، وإذا كانت البنائية تعتمد على التحليل والتركيب فإن الأدب المقارن يستفيد بشكل منهجى حاسم من أدواتها المرهفة فى عمليات التحليل والتركيب هذه ؛ وبدلا من أن تصبح البنية عائقاً فى المقارنة تتحول إلى وسيلة قياسية بالغة الجدوى فى توضيح مدى التأثر وشموله للعنصر والوظيفة

---

(١) انظر : المصدر السابق عن الأدب المقارن لصاحبية :

Pichois – Rousseau.

او لأحدهما فحسب ، على اعتبار أن المغزى الأخير لهذه البنية – إن كان ثمة مغزى أخير – يظل فى حدود المنطقة الخاصة لكل عمل أدبى تعز على الانتقال المقصود الذى يحيلها إلى مجرد تقليد .

على أن من النتائج الإيجابية لنظرية البنائية تأصيل فكرة أساسية مفادها أن البحث الأدبى يحتاج قبل كل شىء إلى ضرورة تحديد مجال دراسته ومحاوره المركزية ، فينبغى أن يتميز عن دراسة تاريخ الأفكار والتصورات والمشاعر الدينية والسياسية التى كثيراً ما تختلط به وتحل محله . وكثير من كبار الباحثين فى الأدب – خاصة فى مجال الأدب المقارن – لاتعنيهم دائماً الجوانب الأدبية المحضة بقدر مايعنيهم تاريخ الأفكار والتحولات والخصائص القومية وغير هذا من العناصر الثقافية العامة .وهم لذلك غالباً مايتوسعون فى مفهوم الدراسة الأدبية ليجعلوا منها مرادفاً للتاريخ الإنسانى بأكمله ، لكن البحث الأدبى يحتاج إلى ضوابط منهجية تشده دائماً إلى الإصرار على دراسة الأدب كوجه متميز من الأنشطة الإبداعية للإنسان ،وتجعله يقيم مملكته الخاصة حول العناصر الأدبية البحتة طبقاً لتصورات جمالية تحدد طبيعة الفن والأدب ، وعندئذ يدور البحث الأدبى على أعمال محددة ، ويصبح من الضرورى لنا أن نعترف بأننا نتطرق إلى جوانب هامشية عندما نتعرض لدراسة حالة المؤلف النفسية أو حالة القارىء الاجتماعية. وأنه ينبغى لنا أن نعود إلى اعتبار العمل الفنى كبنية مركبة من مجموعة من الرموز لأداء جملة من الدلالات تختلف أساساً عن عمليات المؤلف الذهنية عند إبداعها وعما يمكن أن تخضع له من مؤثرات لاتشرح سوى مادتها الأولية فحسب ، وعلى هذا الأساس توجد « قفزة كونية » بين نفسية المؤلف والعمل الفنى ، بين الحياة والمجتمع من جانب والأثر الجمالى من جانب آخر (١) .

على أنه قد يصبح من الضرورى للباحث فى مرحلة خاصة من التحليل

---

(١) أنظر كتاب « ويليك » المشار إليه قبل عن مفاهيم النقد ص ٢١٩ .

أن يقفز بالذات هذه القفزة النوعية التى يتصورها البعض مستحيلة التحقيق ، ويظل القدر الذى نستطيع الاستفادة به من هذه التحفظات فى الأدب المقارن هو الحرص على اصطفاء العناصر الثقافية ذات التأثير الفعال فى تشكيل البنية الفنية وعزل الإشارات المفروزة والمشابه السطحية توطئة لتعميق الوعى بالسمات الجمالية الأصيلة فى الأثر الفنى المدروس . كما تدفعنا هذه التحفظات إلى القصد فى نسبة المكاسب والانتصارات الفنية للعمل المؤثر نتيجة لسبقه الزمنى فحسب ، وافتراض مجرد التوافق العفوى فى الحلول المعروضة نتيجة إيجابية ، ونحن أحوج ما نكون إلى التذرع بهذا الروح خاصة فى موضوع مثل تأثير الثقافة الإسلامية فى واحدة من قمم الإبداع الأدبى الأوربى فى العصور الوسطى لما يثيره عادة من حماس قد يؤدى إلى المبالغة التى تحجب الرؤية السليمة أو التمادى فى نزعة الفخر القومى من دون محاولة للفهم المتأنى لقيمة العناصر بجوار البناء الكلى الشامخ .

الفرق بين التاثر والتقليد

ينبغى أن نميز بطريقة حاسمة بين ظاهرتى التقليد والتأثير ، وحتى إذا تمثلت نتائج هذا التأثير فى نوع من الاستجابة الواعية فانها تنفذ ببطء واستلهام وتنوير ، ولا تأخذ الطابع الشعورى المنتظم الذى يتسم به التقليد ويجعله خاضعاً لعوامل مرضية يتوفر على دراستها علم النفس، أو اجتماعية تدخل فى نطاق قانون العقوبات .

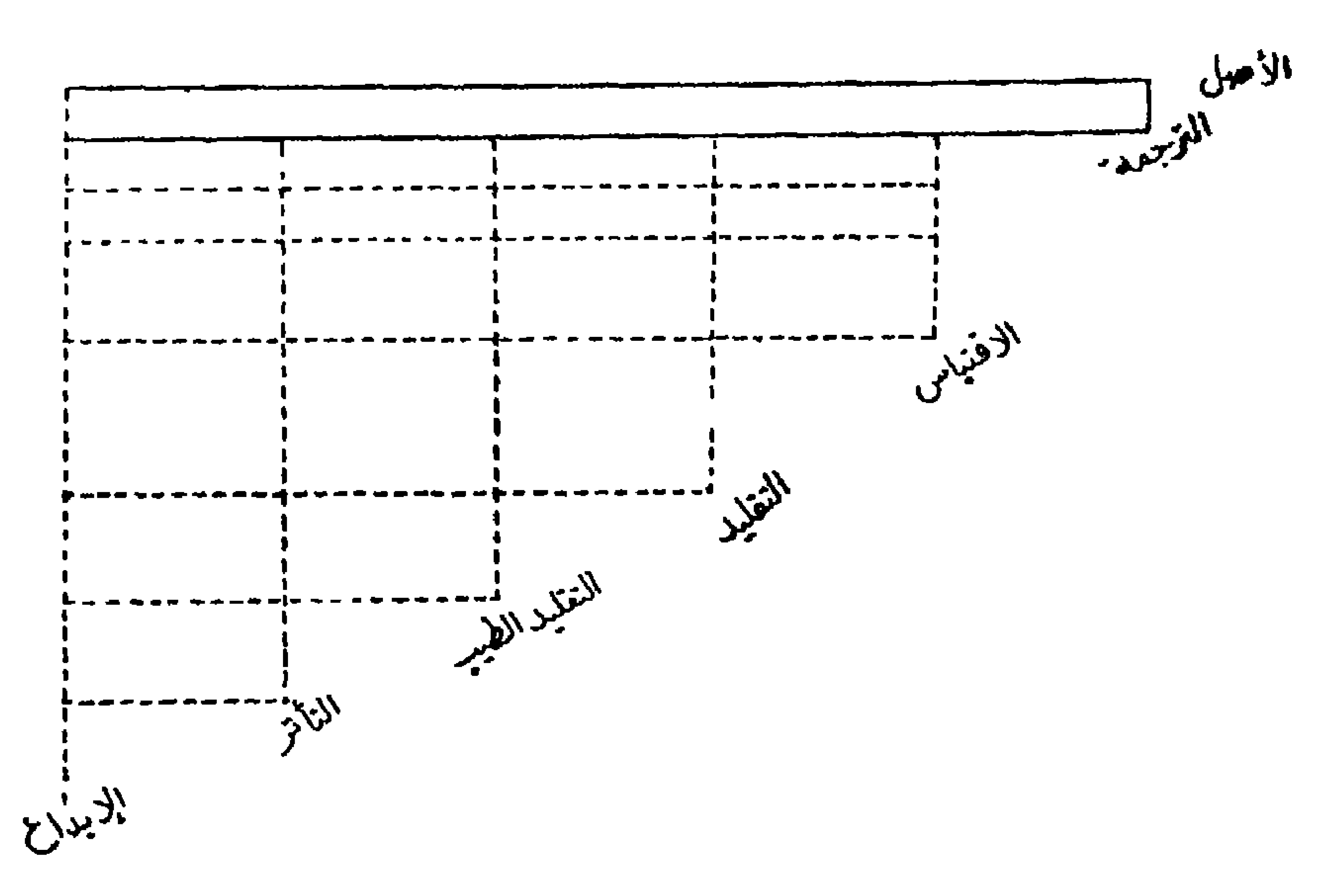
وربما كانت هناك بعض الظروف التاريخية التى تفرض على أمة ما استيراد كل شىء قبل أن تتمكن من جنى الحصاد القومى المحلى ، لكن هذا يقتصر على حالات استثنائية موقوتة تزول بزوال أسبابها ، وكما يقول بعض الباحثين فان الشعوب لاتثرى على أساس القروض الشكلية ، وإنما اعتماداً على استصفاء المبادىء التى تجدد حياتها الفكرية وامتصاصها بروية وتمهل ، وعندما يحدث تماس بين حضارتين مختلفتين ، ويبتل ريق شعب بحلاوة الآخر فإن المزيج الذى يتكون منهما لايدانيه شىء فى قوته المخصبة الخلاقة ، لكن عندما يقتصر الأمر على مجرد التقليد فانه لاينبت من ذلك سوى الأزهار الصناعية المفتعلة (١)

ومن الضرورى أن ننطلق عند تحليل عمليات التأثير من حقيقة بينة وهى أن المرسل لا يفطن عادة إلى دوره كمؤثر . كما أن المتلقى لاينتبه إلى فعالية العناصر التى يحتفظ بها ، وإن كان أهم استثناء يعرض لنا فى هذا الصدد يتمثل فى أتباع المذاهب والمدارس الأدبية ؛ إذ أنهم غالباً مايكونون على وعى تام وإحساس واضح بالتبعية بين الزعماء والأتباع ، مما ينحدر بهؤلاء الأخيرين إلى مرتبة التقليد . ومن هنا فان أدق تحديد للفرق بين المصطلحين هو اعتبار التأثر تقليداً لاشعورياً واعتبار التقليد تأثراً واعياً محسوباً ، ويقع كل منهما فى مرحلة تتدرج على مساحة كبيرة تمتد من الترجمة

---

(١) انظر نفس المصدر السابق عن الأدب المقارن تأليف . Pichoios .y Rousseau. ص ٩٤ .

الحرفية فى جانب وتنتهى عند الأعمال الفنية الخلاقة فى جانب آخر ، هذه الأعمال التى لايقتصر عطاؤها على التجديدات المتصلة بتجاربها وأبنيتها فحسب ، وإنما تشمل كذلك بقية جوانب الإبداع التى لاينقص من قيمتها وجود نماذج سابقة عليها ومنظور إليها بشكل ما فى تكوينها ، ويظل هناك ملمحان أساسيان يميزان بين مختلف المراتب والمستويات ، أحدهما لايمكن ضبطه بدقة إذ يتصل بالقصد والنية وشعور الكاتب بما يفعل واعياً أو غير واع ، والثانى متعلق بمدى ثراء التجارب التى تتدخل فى إمداده بالحلول التى يوفق إليها ، وكلما اتسع نطاق هذه التجارب كان أثره أقرب إلى الإبداع منه إلى الاحتذاء . ويمكن تمثل هذه القضية بالرسم التقريبى التالى : —



ويشير الخط الأفقى إلى الأعمال السابقة على العمل المدروس كما يشير الخط الرأسى إلى العناصر الذاتية للمؤلف التى تعتمد على الانتقاء والاختيار ، ومعنى هذا أن الترجمة تأخذ فى اعتبارها أساساً عملا واحداً تتوافر على أدائه فحسب ، أما الاقتباس فينظر إلى جملة أعمال أخرى يكيف النموذج الأصلى طبقاً لها ويستخدم قدراً أكبر من العناصر الذاتية ، والتقليد — مع أن الخط فيه لايزال متصلا — إلا أنه أكثر اعتماداً على العنصر الشخصى للمؤلف ، وهكذا حتى نصل إلى مرحلة الإبداع التى يتم فيها توظيف أكبر قدر من

العناصر الشخصية فى نفس الوقت الذى يستفاد فيه بأعلى نسبة من السوابق الأدبية والفنية بطريقة واعية متمثلة ناضجة مقتدرة .

ويلاحظ أن الحد المسنون الدقيق الذى يفصل بين الأصالة والتقليد لم يفقد خطورته فى تاريخ الأدب على مر العصور ، ففى العصر الكلاسيكى كانت محاكاة الأقدمين تتمتع بقدر كبير من التقدير والاحترام ، بينما رفضت الرومانتيكية والمذاهب التالية لها هذه المحاكاة رفضاً قاطعاً ، إلا أن طريقة السرقات الأدبية كتقليد واع لنموذج سابق دون الإشارة إليه واقتطاع شىء من إنتاج الغير وادعاء ملكيته : كل هذا قد اعتبر شيئاً معيباً مهيناً فى جميع العصور ، ومن ثم فإن من الوظائف الأولى للدراسة المقارنة تحديد الفروق المميزة بين السرقة وإعادة البناء الخلاق على أساس رفض الظاهرة الأولى واتخاذ الثانية موضوعاً للأدب المقارن فى محاولة للكشف عن جوانبها الأدبية والفنية ومعرفة العوامل التى أدت إلى تخلقها بهذا الشكل دون غيره.

وقد نستطيع التعرف على طبيعة التأثيرات الأدبية المحمودة من خلال تصورها كعمليات مرهفة مستسرة يتولد فيها عمـــل ما بفضل جملة من الأعمال الأخرى وعبقرية المؤلف الخاصة ، وإذا كان هناك من النقاد من ينكر عملية التأثر هذه ويحسبها مبهمة غامضة بالقدر الذى ينبغى فيه إسقاطها من حساب الدارس فإن بعض المبدعين الكبار الذى رزقوا رؤية نقدية واضحة وعميقة قد حاولوا الكشف عن طبيعة هذا التأثر ومداه . ونضرب مثلا لذلك ما يقوله واحد من أكبر أدباء ونقاد عصرنا الحديث وهو «إليوت» الذى سنستشهد بآرائه فى موضوعنا المباشر أيضاً إذ يقول :

إن الكاتب يتميز بحساسية شديدة فى تلقى الحوافز المتمثلة فى إعجابه بكاتب آخر ، بل إن هذا الإعجاب قد يصبح شعوراً عميقاً بالقرابة أو بوجود نوع من العلاقة الخاصة الحميمة بينه وبين أحد أسلافه الغابرين ، وقد ينبثق فى داخله هذا الشعور فجأة كشعاع خاطف أو يتكون ببطء عقب معايشة طويلة ، ولكنه ربما أضحى فى نهاية الأمر لوناً من التأزم الداخلى ، خاصة عند هؤلاء الأدباء الشبان الذين تتراكم لديهم مشـــاعر مستعارة تبلغ من

قوتها حدا تمارس فيه تأثيراً محولا خطيراً على شخصياتهم ، بما يصحب ذلك عادة من حيرة حقيقية لا محيص عنها ، وإذا كانت علاقاتنا الواقعية الشخصية بالحياة وبالآخرين تمثل مكوناتنا الحميمة فإن هذا النوع الآخر من الصلات الأدبية لايقل عنها نفاذا إلى أعماقنا ؛ بحيث يستحيل له أن يمحى فى نهاية الأمر . ولانلبث حينئذ أن ندرك أننا لانقلد أحداً آخر ، وإنما عانينا فى أنفسنا تغييراً كبيراً ، وما نبدعه حينئذ إنما هو من صنع هـذا الكاتب الجديد ، فنحن لم نقترض من أحد ، بل تيقظنا وأدركتنا صحوة الحياة بهذا الميلاد المفاجىء الذى جعلنا من حملة لواء التقاليدالعريقة»(١) .

هذا المفهوم العميق لنظرية التقاليد فى الأدب هو الذى يجعل منها عاملا لميلاد جديد ومساعدا على اكتشاف الأمكانيات الخاصة ورابطا فى نهايةالأمر بين الأجيال والآفاق المختلفة ، والشاعر العظيم يضرب بجذوره فى هـذه التقاليد بقدر ما يخلق منها كيانات جديدة .

فاذا اتضح الأمر على هذا الضوء أدركنا أن حظ الأديب من الدراسات المقارنة يتسق مع قامته الفنية إيجاباً وسلباً ؛فكلما أعطى إنتاجه فرصة أوسع لتحليل مكونات التقاليد السابقة كان شاهدا على عظمته واقتداره فى جمل لوائها وكان إنتاجه أدخل فى تكوين الأعمال التالية له . وأكثر فعالية فى تاريخ الأدب المحلى والعالمى .

وموضوع هذه الدراسة هو فنان إيطاليا الأكبر « دانتى أليجيرى » وتأثره العميق بالتراث الإسلامى عند كتابته لملحمته الخالدة « الـكوميديا الإلهية » بأجزائها الثلاث ، ومن هنا يجدر بنا أن نقدم لمحة موجزة عن قيمة دانتى فى الثقافة العالمية ومدى تأثيره فيمن لحقه من أدباء الغرب خاصة حتى تتضح لنا أبعاد هذا التأثير من جانب وتنتفى أية شبهة تقلل من شأنه من جانب آخر ، ولن نفيض فى الحديث عنه اكتفاء بالمقدمات الثلاث التى كتبها مترجمه العظيم إلى اللغة العربية الدكتور حسن عثمان الذى ارتفع على

(١) انظر : T. S. ELiot. « To criticiz The Critic. Trad. : Madrid 1967. P. 112.

بوة دانتى باخلاصه وترهبه وتوفره على تقديمه بشكل لانظير له فى تاريخ الترجمة الحديثة إلى اللغة العربية(١) .

أما عن تأثير دانتى فى الآداب الأوروبية فيرى كبار النقاد أنه لايمكن أن يقتصر على مواقع محددة ومشاهد معينة يتسنى للباحث أن يشير إليهـا قائلا : « هاكم ما استفاده الأدباء منه » ، كما أنه لايتصل بطبيعة تفكيره وآرائه وفلسفته وأبنيته الدينية التى تقوم عليها الكوميديا الإلهية ، بل إن تأثيره الأدبى الحقيقى يمكن التماسه فى الجوانب التالية :—

أولا : إذا كان هناك حفنة من كبار الشعراء العالميين الذين يمكن مقارنتهم بدانتى فإن أحداً منهم لايرقى إلى مستواه فى دراسته المتأنية العميقة لفن الشعر ولافى ممارسته كصنعة واعية دقيقة ، وإدراك هذه الحقيقة كفيل بأن يعد فى حد ذاته درساً بالغ التأثير فى الشاعر الحديث طول حياته ، ولعل أهم ما يمكن إستخلاصه من ذلك هو أن دانتى يعلم الشعراء أن يكونوا خدماً للغة لاسادة عليها ؛ بمعنى أن لايثقلوا عليها بما لا يستطيع أن ينتفع به أحد سواهم ، بل يعطونها روحا عندما يكتشفون جميع إمكاناتها وينقلونها للأجيال التالية أكثر نماء وصفاء ودقة . على أن الشاعر العظيم حقيقة يجعل الشعر أكثر صعوبة على من بعده ، وهذا هو الثمن الذى تدفعه أى لغة .

ثانياً — أن دانتى فى تقدير هؤلاء النقاد لايضاهيه أى شاعر آخر فى الآداب العالمية المعروفة من حيث سعة معينه وتنوع العواطف التى يعبر عنها كأنه سلم موسيقى كامل لاتفلت منه أية نغمة . وعندما يستخدمون هذه الصورة فإنهم يشيرون بذلك إلى أن الشاعر العظيم لايتلقى الأحاسيس ويميزها بطريقة اوضح مما عداه من الناس فحسب ، بل إنه يتلقى الألوان والأصوات بكل ذبذباتها التى تند عن غيره من عامة الناس ، مما يجعل مساعدته ضرورية لهم كى يستوعبوا جميع مراتبها ودرجاتها ،

فإذا كان فى الأدب الإنجليزى مثلا شعراء دينيون فإنهم بالمقارنة مع

(١) أنظر : مقدمات الجحيم والمطهر والفردوس وملحقاتها للدكتور حسن عثمان ، دار المعارف بالقاهرة .

دانتى لايحسبون سوى « شعراء متخصصين فى الدين » ، أما هو فإنه أكبر شاعر « دينى » دون أن يكون فى ذلك انتقاص من عالميته . ففى الكوميديا الالهية نجد تعبيراً تاماً عن كل ما يمكن للإنسان أن يكون جديراً بممارسته من تجارب ومشاعر دينية ابتداء من اليأس الأليم إلى الرؤية الإلهية نفسها ، لهذا فهى تذكر الشاعر دائماً بواجبه فى البحث عن كلمات وصيغ جديدة تؤدى مالم يتم التعبير عنه من قبل فى محاولة لالتقاط هذه المشاعر الهاربة التى يصعب على الناس تجريبها لأنه ليس لديهم كلمات من أجلها ، كما أنها تذكر المبدع الرائد الذى يذهب إلى ما بعد جدود الوعى العادى للناس أنه لن يستطيع العودة لإخبارهم بما شاهد إن ظل قابضاً بشدة جرفية على الواقع الذى يألفونه.

فرسالة الشاعر إذن كما حققها دانتى هى أن يحمل قومه على إدراك وفهم ما ليس قابلا للفهم والإدراك ، مما يتطلب منه استخدام وسائل لغوية وتصويرية فذة ويجبره على تنمية اللغة وإثراء دلالاتها وحملها على أداء أقصى ما يمكن لها أن تؤديه . وعندئذ يصبح من الممكن التعبير عن مجموعة أغنى وأخصب من العواطف والمشاعر . وهذا بالذات ما فعله دانتى بلغته وباللغات الأوربية الأخرى ، إذ أنه يتميز عن جميع كبار الشعراء الأوربيين بأنه أكثرهم أوربية وأقلهم إقليمية ، بالرغم من أنه كى يصل إلى هذه الدرجة لم يتخل عن مذاقه المحلى الخاص ، بل إنه ليس هناك من هو محلى أكثر منه ، ولاينبغى أن ننسى أن هناك من الإشارات فى أشعار دانتى ما يند عن أى قارئ ليست الإيطالية لغته الأم . إلا أن القارئ الأجنبى لاينتبه إلى الدقائق التى تخفى عليه بنفس الحدة التى تحدث له عند قراءة غيره من كبار الشعراء ، فإيطالية دانتى تصبح لغتنا فى اللحظة التى نبدأ قراءته فيها ، إذ تصبح وسائله التعبيرية وإنجازاته فى إيقاظ حساسيتنا لتلقى صيغه اللغوية دروساً على كل منا أن يأخذها بجدية بالغة ويحاول تطبيقها على لغته القومية الخاصة .

على أن من العلامات المميزة لكبار الأدباء أن تقييم تأثيرهم يستغرق حيوات طويلة ، فليس بوسع أحد أن يقوم به دفعة واحدة ، بل نجده

ينمو فى كل مرحلة من مراحل نضجه ، حيث يصبح أقرب إلى فهمه واستيعابه ، كما يحـــدث فى الآداب الغربية مع أمثال هوميروس وفرجيل ودانتى وشيكسبير .

ويمضى « إليوت » فى تحديد ما يعنيه دانتى بالنسبة له قائلا إنه لا يمكن الاقتصار على ما استخدمه من أبياته لإثارة بعض مشاهده وعقد صلة ما بين الجحيم والحياة المعاصرة « ولعل قراء قصيدتى « الأرض اليباب » يذكرون الرؤية التى قدمتها لموظفى المدينة المزدحمين على جسر لندن عند خروجهم من محطة السكة الحديدية فى طريقهم إلى مكاتبهم مما أثار البيت التالى :

« لم يدر بخلدى أن الموت قد أتى على كل هؤلاء الناس »

كما عمدت إلى أبيات دانتى وغيرتها عن قصد ، وحتى يدرك القارئ إشاراتى وتضميناتى وضحتها بملاحظات هامشية . وبعد عشرين سنة من الأرض اليباب » كتبت مشاهد أخرى توازى أناشيد الجحيم والمطهر فى أسلوبها ومحتواها معا بنفس القصد الذى رميت إليه من قبل ، وهو إثارة لون من التوازى فى ذهن القارئ عن طريق التضاد بين الجحيم والمطهر من جانب والمشهد المذهل الناجم عن غارة جوية مدمرة من جانب آخر ، لكن الطريقة كانت مختلفة ، فلم يكن بوسعى تضمين شىء من أبيات دانتى وإنما اتخذت بعض عباراته بشئ من التوسع والتحرر » (١) .

فإذا كان هذا هو دين كبار شعراء الغرب لدانتى ومدى تأثيره فيهم فإن تحليل ما يدين به بدوره لثقافتنا العربية والإسلامية يكشف عن مدى اتصال التراث الإنسانى وتشابك علائقه ، ويدفعنا إلى أن نكون أكثر حرية فى الأخذ من هذا التراث اليوم دون أدنى حساسية ، كما يدفعنا إلى مراجعة فهمنا لطبيعة الأصالة التى لا يمكن أن تعنى العزلة السطحية وإدارة الظهر للإنجازات الانسانية بل تعنى أن نأخذ بقدر ما نطيق الهضم والتمثيل والاستيعاب والابداع .

---

(١) أنظر : نفس المصدر السابق لإليوت ص ١٦٩

تاريخ الموضوع

إذا كان اكتشاف التأثير الاسلامى فى الكوميديا الالهية من أنجح موضوعات الأدب المقارن المتصل بالعصر الوسيط فى الغرب فإنه يتمتع لدينا بأهمية خاصة باعتباره نموذجاً واضحاً للعلاقة بين العالمين العربى والأوربى فى وقت كانت الحضارة الاسلامية فيه متفوقة دائنة معطاءة ، وليس من السهل توثيق هذا التفوق فى الوقت الراهن ، إذ أن عصور الجهل والتخلف والتبعية قد ثبتت فى الاطار العالمى صورة مهينة للإنسان العربى وثقافته اليوم ؛ حيث يلقى الحاضر ظلاله البغيضة على الماضى ويكاد يطمس معالمه .

ولم نكن نحن فى بداية نهضتنا فى موقف يسمح لنا بالتصدى لهـذه القضايا ، فلم نتمرس بعد بمناهج البحث الموضوعى ، ولم نتعمق فى تحليل مكونات الثقافة الغربية حتى نفـرز ما يخصنا فيها ، وكنا نكتفى بالأخذ المندهش النهم ، كما لم تكن لدينا حينئذ رؤية تاريخية مستوعبة تسمح لنا بأن نطل واثقين على مجريات التطور الثقافى العالمى ونشير إلى مواقعنا فيه.

بيد أنه كان هناك شعب آخر مرشح للبدء عنا فى أداء هذه المهمة . شعب تجمعنا به صلات عميقة مركبة تبدأ من ذروة التوحد والاندماج وذوبان الشخصية خلال عصور طويلة وتنتهى إلى أشد حالات الكره والتنافر والانفصال الذى يأتى فى قوته مساوياً لدرجة الحب والاتصال ، هذا الشعب هو الشعب الإسبانى الحالى ، حفيد العرب الأندلسيين ووريث حضارتهم . وقد أدرك مؤرخو الشخصية القومية الاسبانية أنها مزيج قد تكون خلال ثمانية قرون من العناصر العربية الغالبة والأقلية اليهودية والأوربية المتطلعة للتغلب ، وأدركوا أن محاكم التفتيش وأقسى اضطهاد

عنصرى شهده التاريخ الوسيط لم يكونا سوى تعبير رهيب عن حالة انفصام فى الشخصية ، ومن هنا فإن القطيعة كانت من دلائل الحب ، حب الذات والثورة على النفس .

والآن فان هناك تاريخاً مشتركاً بيننا وبينهم يبلغ طوله ثمانمائة عام كانت الأندلس فيها تنطق العربية وتدين بالإسلام . ولم يخرس اللسان العربى فجأة عام ١٤٩٢م بسقوط غرناطة ، ولم يكف الناس هناك عن إيمانهم بالإسلام عند تولى الملوك الكاثوليك الحكم ، بل ظلت الثقافة العربية الإسلامية تحفر تياراتها القوية فى وجدان الناس حتى بعد أن تمسحوا إلى اليوم . وهم لذلك عندما يدرسون إنتصارات هذه الثقافة فى الميدان العالمى يثبتون بذلك تفوقهم القومى ويردون بذلك على بعض أنصار الفكرة الأوربية الذين يزعمون بأن حدودها تقوم عند جبال البرانس لنفى اسبانيا من نطاقها الحضارى وإن كانت تقع فيها جغرافيا ، يردون بانتمائهم إلى حضارة أخرى كانت أزهى وأرقى ، ويثبتون لأوربا أنها مدينة جزئياً فى نهضتها إلى الخمائر العربية الإسلامية التى نبتت فى الأندلس وترعرعت فى طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغيرها من عواصم الحضارة الوسيطة وانتقلت منها إلى المراكز الثقافية فى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا وبقية أنحاء القارة العجوز .

فإذا كانت إسبانيا قد قامت بدور الوسيط فى البث الحضارى قديماً فإن علماءها فى العصر الحديث قد توفرت لهم الدوافع القومية والأدوات المنهجية للكشف عن مختلف مظاهر هذه الوساطة بكثير من الأناة والدقة والموضوعية ، وكان أنجح نموذج لهذا هو موضوع التأثير الإسلامى فى دانتى الذى استقطب من اهتمام الدارسين فى الغرب أكثر من أى موضوع مقارن آخر بينما لانكاد نعرف عنه هنا — فى موطنه الأصلى — سوى إشارات متناثرة ،

وكان أول من أثار هذا الموضوع — بقدر من النبوءة الجريئة — هو

المستشرق الأسبانى أسين بالاثيوس « Asin Palacios »(١) فى المحاضرة التى ألقاها عام ١٩١٩ م أمام المجمع اللغوى الملكى فى أسبانيا بمناسبة اختياره عضواً فيه والتى لخص فيها موجزاً لنظريته ، ثم لم يلبث أن نشرها فى نفس هذا العام . واستمر بعد ذلك بدأب لايقدر عليه سوى الرهبان العلماء بجمع النصوص وينظم المواد ويتابع المقارنة حتى نشر بحثه مرة أخرى عام ١٩٢٧ بعنوان « دانتى والإسلام » فلقى صدى ضخماً فى الأوساط العالمية ، وشرع كثير من العلماء فى ترجمته للغاتهم أو نشر ملخصات وافية له ، فنشرت ترجماته إلى الإنجليزية والفرنسية ، ولم يستطع الناشر الإيطالى أن يواجه المناخ العدائى للبحث فلم يجرؤ على نشر الترجمة الإيطالية التى قام بها

---

(١) نظراً لأهمية صاحب هذا الاكتشاف نقدم ترجمة موجزة لحياته . ولد « ميجل أسين بالاثيوس » بمدينة سر قسطة بوسط أسبانيا عام ١٨٧١ ، وتتلمذ على أكبر أستاذين للدراسات العربية والإسلامية فى أسبانيا حينئذ وهما « ريبيرا » و « كوديرا » ، ثم حصل على الدكتوراه فى الدراسات الإسلامية عام ١٨٩٦ برسالته عن « الغزالى متكلما وزاهدا ومتصوفاً » . وفى عام ١٩٠٣ تولى رئاسة قسم الدراسات العربية والسامية بجامعة مدريد المركزية ونشر فى العام التالى بحثه الرائد الخطير عن « تاثير ابن رشد فى فلسفة القديس توماس الإكوينى ». وعندما فتحت له الأكاديميات العلمية أبوابها كانت أولى محاضراته فى مجمع العلوم الأنسانية والسياسية عام ١٩١٤ عن « ابن مسرة مؤسس المدرسة الفلسفية الأندلسية » وأولى محاضراته فى المجمع اللغوى عن موضوع بحثنا بعنوان « تراث البعث الإسلامى فى الكوميديا الإلهية » وعندما دخل مجمع التاريخ عام ١٩٢٤ تحدث عن « ابن حزم القرطبى أول مؤرخ للأفكار الدينية » . وتابع بعد ذلك دراساته فى مختلف مناحى الفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية وصلتها بالفكر الغربى فى العصور الوسطى ، وأسس مجلة « الأندلس » التى تزال تصدر حتى الان وتعتبر من أهم المجلات التى تعنى بالتراث العربى الاندلسى فى أوربا ، كما أنشا المعاهد المتخصصة فى الدراسات العربية والتابعة للمجلس الأعلى للبحث العلمى فى مدريد وغرناطة . وتخرجت على يديه كوكبة من كبـار المستشرقين أمثال « جونثاليث بالبينثيا » و « جارثيا جوميث » وغيرهم وتتابعت دراساته وكتبه عن الفكر العربى والإسلامى حتى توفى عام ١٩٤٤ .

أنظر مقدمة الدكتور عبد الرحمن بدوى لترجمة كتاب أسين بالاثيوس عن ابن عربى — القاهرة ١٩٦٥ ومقال الدكتور طاهر مكى عن أسين بالاثيوس فى عدد الهلال الخاص بالمستشرقين يناير ١٩٧٦ .

« Benedetto Neri » واكتفى بنشر ملخصها وقد عرض أسين بالاثيوس في هذا البحث أهم المصادر الإسلامية وحللها بمنتهى الدقة والموضوعية ، ثم كشف عن مشابهها التي لاتخطىء بالبنية العامة للملحمة دانتي وبالتفاصيل الجزئية والمشاهد الخاصة مما يستحيل أن يكون بمحض الصدفة . ثم شرع في بيان احتمالات وصول العناصر الإسلامية إلى دانتي عن طريق عدة فروض ووسائل ، إلا أنه لم يتمكن من إثبات هذه الصلة التاريخية فاستعاض عنها بحشد هائل من المقارنات الدقيقة المرهفة بين الكوميديا الإلهية وعيون التراث الإسلامي .

وأثارت نظريته وبراهينه معاً معارضة محمومة لدى بعض الدارسين ، خاصة من الإيطاليين الذين عز عليهم أن يعترفوا بهـذا الدين الكبير ، متذرعين بحجج واهية لاتقف أمام الهيكل المنطقي الجبار الذي أقامة الباحث ؛ مثل قول أحدهم « إنه كي نتقبل تأثر دانتي بالتراث الإسلامي بهذا الشكل لابد أن نفترض أنه قد وصل في تعمقه إلى درجة اعتناق الإسلام »(١) . مما يعد خلطاً شديداً بين الموقف العقائدي والتأثر الأدبي ، ومع ذلك تصدى الباحث لكل الاعتراضات بالتفنيد والتحليل ، وتجمع لديه من ذلك كتاب آخر ألحقه بالكتاب الأول ، واستطاع أن يثبت أن دانتي قد أفاد من التراث المتصل بالحياة الآخرة في الإسلام دون أن يعرف اللغة العربية « عن طريق الترجمات الشفوية والكتابية التي ما زالت مجهولة لدينا » وكان ذلك بمثابة نبوءة صائبة لما تم اكتشافه بعد ذلك بأعوام قليلة . إذ تبين وجود جملة مخطوطات لترجمة أكمل قصة عن المعراج المحمدي في مكتبات « بودليانا » في « أكسفورد » والمكتبة الوطنية » في باريس ومكتبة الفاتيكان بايطاليا وغيرها من دور الكتب الأوربية .

وعندئذ قام كل من الباحث الإسباني « مونيوث سنديو » والباحث

---

(١) أنظر : Sanchez-Albornoz « EL Islam de EsPana y el occidente », Madrid 1974. P. 215.

الإيطالى « إنريكو تشيرولى » بنشر الترجمات اللاتينية والفرنسية لوثيقة « معراج محمد » فى نفس الوقت دون اتفاق مسبق عام ١٩٤٩ . واعتبرت هذه الوثيقة هى الدليل الحاسم الذى كان ينقص نظرية « أسين بالاثيوس » فى تأثير التراث الإسلامى على دانتى ، وعرف العالم من هذه الوثيقة أن ملك أسبانيا ألفونسو العاشر أو العالم قد أمر طبيباً يهودياً يعمل فى بلاطه ويدعى « إبراهام الحكيم » بترجمة قصة المعراج الإسلامية من العربية إلى الأسبانية القشتالية عام ١٢٦٣ ، وأن هذه الترجمة كانت أصلا لترجمة أخرى إلى اللاتينية والفرنسية قام بها مترجم وموثق إيطالى كان يعمل فى نفس البلاط وهو « بونا فينتورا دى سينا » فى العام التالى أى ١٢٦٤ م . قبل أن يولد دانتى بسنة واحدة .

وأثبت المستشرق الإيطالى «تشيرولى» أن أجزاء من هذه الترجمات قد دخلت فى كثير من مجموعات المخطوطات التى انتشرت فى أوربا عامة ، وإيطاليا خاصة فى هذه الفترة ، وأن بعضها محفوظ فى مكتبة الفاتيكان حتى الآن ، وأنها كانت كفيلة بشيوع قصة الإسراء والمعراج فى جميع الأوساط الثقافية الأوربية فى عهد دانتى ، مما يقطع سبيل أى شك فى صحة نظرية « أسين بالاثيوس » ويقدم الحجة الدامغة التى كانت تنقصه ، ويشرح كثيراً من جوانب التأثير التى التمس لها هذا العالم مصادر يصعب تصور إطلاع دانتى عليها من دقائق الفلسفة والتصوف والفكر الإسلامى(١) ، ومع ذلك فإن مقارناته لاتزال تحتفظ بقيمتها ، وسنعتمد عليها إلى حد كبير فى هذا البحث ، لأن اكتشاف وثيقة لايلغى إمكانية اكتشاف وثائق أخرى ، بل يزيدها ، ولأن مصادر دانتى لايشترط أن تكون مباشرة ، بل ربما كان أعمق التأثير هو الذى يتسرب إليه عن طريق وسطاء لايشك فى قوة علاقاتهم

---

(١) انظر : Cerulli, Enrico "Libro della Scala » e La questione delle fonte Arabo– Spangnola de le Divina Comedia» Vaticano. 1949 .

بالفكر الإسلامى وقوة تأثيرهم فى الثقافة الأوربية مثل القديس « توماس الإكوينى » وغيره . ثم لأن النموذج التحليلى الذى قدمه « أسين بالاثيوس » يعد درساً فى البحث المقارن ينبغى لنا أن نتأمله عند ارتيادنا لهذه الآفاق .

أما أصول المخطوطات التى عثر عليها فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا لكتاب « معراج محمد » فأهمها ما يلى : ــ

١ ــ مخطوطة أكسفورد بمكتبة « بودليانا Bodleiana » تحت رقم ٥٣٧ ، وتقع فى إحدى وخمسين صفحة من القطع الكبير وتحتوى على ترجمة قصة المعراج إلى اللغة الفرنسية .

٢ ــ مخطوطة المكتبة الوطنية فى باريس برقم ٦٠٦٤ وتقع فى مائة وست وعشرين صفحة من القطع الكبير ، كتبت على عمودين مثل المخطوطة الأولى ، وتحتوى على الترجمة اللاتينية لنفس كتاب « معراج محمد » .

٣ ــ مخطوطة الفاتيكان التى تتضمن نفس الترجمة اللاتينية لقصة المعراج ، وهى برقم ٤٠٧٢ فى مكتبة الفاتيكان بروما(١) .

٤ ــ كما عثر الباحثون بعد ذلك على عدة مخطوطات أخرى فى إيرلاندا وغيرها من البلاد الأوربية ضمن مجموعات من المخطوطات التى تعود إلى نهاية القرن الثالث عشر أو بداية الرابع عشر طبقاً لتحقيقات الدراسين .

وقد لوحظ أن الترجمة الإسبانية الأولى للقصة مفقودة ؛ فلم يعثر الباحثون سوى على النصين اللاتينى والفرنسى ، مما جعلهم يميلون إلى الاعتقاد بأن النص الإسبانى كان مجرد مسودة وضعت طبقاً لمنهج مدرسة طليطلة فى الترجمة ليعمل عليها المترجم الإيطالى الذى لا يعرف العربية كما سنعرف فيما بعد أما

---

(١) أنظر : Sendino, José Munoz «La Escala de Mahoma· Traduccion del Arabe al Castellano, Latin Y Frances, Orcdenada Por Alfonso X El Sabio» Medri d 1949 P. 3 – 9.

الأصل العربى لهذه القصة فلا أثر له فى تلك المكتبات . وليس من الطبيعى أن نتوقع تداوله مع النصوص اللاتينية والفرنسية ، كما أنه لا يتطابق مجتمعامع نصوص المعراج المتداولة فى التراث الإسلامى الآن ، مما يدفعنا إلى الظن بأنه كان قصة شعبية فولكلورية منتشرة فى المغرب و لأندلس، تستقى جميع عناصرها من المأثورات الاسلامية ولاتلتقى مع إحداها بدقة ، ولم يعثر حتى الآن على أصل هذا النص العربى ، وسنقدم عرضاً مسهباً له فى نهاية هذا البحث مع تحقيق لمصادره ، لكن هذا لايغير من جوهر القضية فى شىء ؛ فالقصة عربية إسلامية لاشك فى أصلها ؛ إذ أنها تعرض كترجمة صريحة ، وليس من شأن هذا النوع من القصص أن يكون معلوم المؤلف أو موثق الإسناد ، فهو أدخل فى باب التراث الشعبى ، وبنقلها إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية — وهما أهم لغات العصور الوسطى وأكثرها تداولا — أصبحت بجميع عناصرها فى متناول دانتى مما أعطى لنظرية « أسين بالاثيوس» البرهان التاريخى الذى كان ينقصها وجعل القضية بعد ذلك مسلما بها ومفروغاً منها فى الأوساط العلمية والأدبية فى العالم كله .

عوامل التأثير ومستوياته

منابع الثقافة المؤثرة .
مرحلة العطاء العربى .
مدرسة الترجمة فى طليطلة .
ترجمة كتاب معراج محمد .
قنوات تسربها إلى دانتى .
اشتراك المصادر وتعدد المستويات .
رسالة الغفران والوسائل العامة .
التشابه فى حوادث خاصة .
تحليل العناصر الصوفية .
كيمياء السعادة لأبن عربى .
ملامح الاتفاق مع دانتى .
بين سنائى ودانتى .

منابع الثقافة المؤثرة :

إن أشهر تعريف علمى للثقافة هو الذى كتبه « تايلور » فى نهاية القرن الماضى وتداوله الباحثون من بعده حتى الآن ، على أساس أن الثقافة إنما هى كل معقد متشابك يشمل المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق ، والقوانين والعادات ، وجميع مظاهر الخلق التى يبدعها الإنسان ويكتسبها فى مجتمع من المجتمعات ومن هنا فإن الآداب سواء كانت رسمية أو شعبية ، والمعتقدات سواء كانت دينية أو أسطورية ، مسجلة كتابة أو متداولة شفاها ، كل ذلك يدخل من باب الثقافة الواسع العريض ، وقد تعرض مفهوم الثقافة منذ ذلك التاريخ لكثير من البحث والمراجعة والتمحيص ، فنوقشت قضية هامة هى :

هل تتمثل الثقافة فى مجموعة من الأفكار التجريدية فحسب أم أن لها وجوداً مادياً ملموساً أيضاً ؟ فمن يتمسك بالطابع الفكرى للثقافة يرى أن الأفكار قوة محركة للإنسان فى سلوكه الفردى والجماعى ، وهى التى تحدد نوعية ثقافته ، فليست الثقافة إذن سوى ظاهرة عقلية ، ليست أدوات مادية أوسلوك يمكن وضعه تحت المراقبة والتجريب ، فإذا كان الهندى الأحمر مثلا يرقص بطريقة خاصة شعائرية فإن هذا ناجم عن فكرة معينة فى فى رأسه عن الرقص وطقوسه . ومن يتمسك بشمول الثقافة للمظاهر المادية يعيب على أصحاب الاتجاه الأول عدم الإعتداد بواقعية الثقافة بالقدر الكافى نتيجة للطابع التجريدى الذى يقصرونها عليه ، ويرى أن الثقافة غالباً ما تتمثل فى شكل ما ؛ أى أن لها تجسيدات مادية محددة ، فالفنون اليدوية والأدوات الحضارية تعبيرات متعينة عن خبرات ثقافية خاصة (١) .

---

(١) أنظر : Tylor, Koeber Malinowski, White, y Coodeno-ugh . en « El Concepto de Cultura : Textos Fundamentales» Trad. Barcelona 1975. P. 141 – 142.

وحسبنا أن نقف عند هذا الحد فى تحديد مفهوم الثقافة لنرى أن المؤثرات الإسلامية فى الكوميديا الإلهية ذات طابع ثقافى شامل ، فهى لاتقتصر على نصوص أدبية بذاتها ، ولاعلى الأفكار الدينية المعتد بها ، بل تخللتها عناصر فولكلورية شعبية ، لعب خيال الناس فيها دوراً هاماً وأشبعها بقدر كبير من المبالغة والتحرر .

وعندما حلل « أسين بالاثيوس » العناصر التى دخلت فى تركيب الكوميديا الإلهية لدانتى من الثقافة الاسلامية أرجعها فى جملتها إلى مجموعتين أساسيتين :

١ — مجموعة الأحاديث النبوية التى تفصل حوادث الإسراء والمعراج ، وتتخذ محوراً لها الآية الكريمة « سبحانَ الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا » (١) فيما يتصل بالإسراء ، كما تتخذ محوراً لها فيما يتصل بالمعراج الآيات الكريمة « ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (٢)

على أنه يقسم هذه المجموعة من الأحاديث إلى حلقات مختلفة ، أولاها مستقاة من كتاب « كنز العمال فى ثبوت سنن الأقوال والأفعال » للهندى ، وهى من روايات البخارى ومسلم ، أما الحلقة الثانية فهى رواية ابن عباس للإسراء والمعراج كما ساقها الخازن فى كتابه « تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل » ،

ويستقى الحلقة الثالثة من الروايات التى ساقها الطبرى فى « كتب جامع البيان فى تفسير القرآن » . ومن هنا نرى ان معيار التقسيم ليس مدى

---

(١) سورة الإسراء : الآية الأولى .

(٢) سورة النجم : الآيات ١٤ — ١٩ .

صحة الرواية والوثوق بها ، لأن كتب التفسير تخلط بين الروايات القوية والضعيفة ، بل مدى ماتقدمه كل رواية من مادة صالحة للمقارنة من جانب ، وبعض الاعتبارات العملية المتصلة بماكان تحت يده من مصادر إسلامية من جانب آخر . وغنى عن الذكر أن المنظور الذى يتخذه الباحث فى هذا الصدد ليس منظوراً دينياً يدفعه إلى تحرى الدقة فى الرواية والتثبت من صحتها ، فلهذا مجاله ورجاله ، وإنما هو منظور ثقافى مقارن ، يعتد بالمادة فى جملتها ، بكل عناصرها وأبعادها ، بل يرى أن القدر الذى ابتدعه الخيال الشعبى منها وأضفى عليه مسحة أسطورية أو رمزية أحفل بالعناصر التى ينبغى تحليلها وتصنيفها بالطرق العلمية الحديثة طبقاً لمناهج علم الفولكور . إذ أن النص يكتسب أهميته فى هذا السياق من مدى شيوعه وانتشاره وتداول الناس له ، وهم أكثر احتفالا بما يرضى نزعاتهم إلى رواية القصص الخيالى المغرق وأشد حرصاً على ترويج الأساطير منهم على تحرى الدقة ، وبوسع الباحث فى الأنثروبولوجيا الثقافية أن يتكىء على هذه المادة ليحلل دلالتها التاريخية والاجتماعية والانسانية ، فيدرس ارتباط الروايات المختلفة بالبيئة التى نجمت منها مثلا ، فليست كلها إسرائيليات من صنع اليهود وكيدهم للدين كما يقال فى تاريخ الفكر الإسلامى عادة ، بل تتمثل فيها شواغل اجتماعية وتاريخية محددة ، من صنع الشعب نفسه ، أوالمعبرين عنه ، فالحديث المنسوب إلى ابن عباس عن الإسراء والمعراج مثلا ، والذى تتتابع طبعاته الشعبية فى القاهرة كل عام أوعدة أعوام يلاحظ فيه اختمار كثير من العناصر الثقافية المصرية الخاصة ، فهى تحمل طابع الفترة التى ابتدعت فيها ، وحرص الواضع على تأويل التراث الدينى وفقاً لرؤيته المميزة ، ويكفى أن نقرأ مثلا هذه الفقرة من مشاهد الجحيم منه « ورأيت نساء معلقات بشعورهن فى شجرة الزقوم والحميم ، يصب عليهن فتهرى لحومهن ، فقلت : من هؤلاء يا أخى جبريل ؟ قال : هؤلاء النساء اللاتى كانوا (!!) يشربون الأدوية ويتعاطون الحبوب

حتى يقتلن أولادهن خوفاً من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم » (١) ونرى أن واضع هذه الرواية لايتورع عن إضافات مستحدثة تنتمى بوضوح إلى عصر تحديد النسل وتعاطى الحبوب من أجله ، وتنم عن اهتمام الشعب بتربية الأولاد إلى جانب مأكلهم ومشربهم ، مما يدل على أن عمر هذه الرواية لايتجاوز عقداً أو عقدين من السنين ، كما نلاحظ ضيقه بنون النسوة — على عادة المتحدث المصرى اليوم - وتخلصه منها فى بعض الأبنية ، ثم التزامه بها فى بعضها الآخر محاولة لإضفاء طابع الأصالة والفصاحة على روايته .

وإذا كان النقد الداخلى للنص يفيد الباحث الدينى — إلى جانب وسائله الاخـرى فى الجرح والتعديل — فى تحديد مدى صحته فإنه يفيد الباحث الأنثروبولوجى فى تحديد المناخ الثقافى للبيئة التى نبت فيها وتحليل العوامل الاجتماعية التى شكلته بهذه الصورة وأياً ماكان الأمر ، فإن روايات الإسراء والمعراج ، خاصة بما أضيف إليها على مر العصور من زيادات وإضافات ، تمثل المجموعة الأولى من العناصر الثقافية التى مارست تأثيراً كبيراً مباشراً على دانتى فى تصوره وصياغته للكوميديا الإلهية .

٢ — أما المجموعة الثانية التى حللها « أسين بالاثيوس » فتتكون من بعض الأعمال الأدبية والنصوص الصوفية ، أهمها رسالة الغفـران لأبى العلاء المعرى ، وفصل من موسوعة إبن عربى الكبرى « الفتوحات الملكية » بعنوان « كيمياء السعادة » يحكى فيه قصة مجازية عن معراج بعض المريدين والفلاسفة . وبالرغم من أن هذه النصوص لم يثبت حتى الآن أنها قد ترجمت بصفة مباشرة إلى اللغات الأوربية إلا أن الباحث يلتمس أدلة عديدة وبراهين مختلفة على توافقها فى المحتوى مع كثير من ملامح « الكوميديا الإلهية » مما يعتبر دليلا موضوعياً على التأثير غير المباشر يمكن الاعتماد على

---

(١) أنظر : الإسراء والمعراج للامام ابن عباس . مكتبة الجمهورية بالأزهر — بدون تاريخ ص ٢١ .

مشروعيته ربما يقوم دليل تاريخي ثابت ، وهذا قريب مما يسمى الآن بمنهج « التقاطع الثقافي » في المقارنات المعاصرة . ويعززه أيضاً أن دراسة هذه النصوص تكشف عن علاقتها بالفكر المسيحي وتأثرها فيه مما كان له صداه عند دانتي . وسنرى عند دراسة نماذج من هذه النصوص أنها استخدام متطور لعناصر التراث التي تبت أنها مصدر مباشر لدانتي مما يبرر تحليلها كمصادر فرعية تنتمي إلى نفس مجال التأثير بالأصل المشترك (١) .

٣ — وبعد وفاة « أسين بالاثيوس » بعدة سنوات ، نشر الباحثون في إسبانيا وإيطاليا — كما أشرنا من قبل — مخطوطة الترجمة اللاتينية والفرنسية لقصة المعراج ، وهي تقع في خمس وثمانين فصلا ، وتحتوي على أكبر رواية موسعة ومستوعبة لمعظم العناصر الثقافية التي لوحظت عند دانتي دون معرفة مصدرها ، مما أكد النظرية الأولى وأعطاها الدليل التاريخي الثابت وتعد هذه القصة إذن المنبع الثقافي الأول الذي استقى منه دانتي تصوراته عن البناء الهندسي للفردوس والجحيم ومجمل المشاهد المتصلة بالعالم الآخر طبقاً لرؤية الشعوب الإسلامية ، وهي كفيلة وحدها بشرح كل المشابه التي حللها « أسين بالاثيوس » وحدس بأصلها الإسلامي ، وإن كانت لا تجب نظريته في تأثير النصوص الأخرى ، خاصة عن طريق الروايات الشفهية والوسائل الوسيطة المتعددة .

ويتضح نتيجة لذلك أن المادة الثقافية التي تقارن بالكوميديا الإلهية تنتمي إلى مجالات وأعمال متعددة ، ولا تتسم بخصائص فنية أو تركيبية موحدة ، فهي أشتات من المأثورات القصيرة ، والروايات المطولة المتضامة ، يتميز بعضها بطابع ديني تقليدي ، وبعضها الآخر بروح صوفية مغرقة في حالات الوجد والإشراق ؛ أو بطابع لغوي وأدبي واضح ، ويقوم النموذج

---

(١) أنظر : Asin Palacios. Meguel « La Escatologia Musulmana en La Divina Comedia » Madrid 1961. P. 425-443.

الأخير منها بتجميع هذه الأشتات وصهرها من منظور شعبي خيالي في حكاية متشعبة الاتجاهات ، غنية بالصور والتفصيلات ، لكن تنقصها وحدة فلسفية أو فكرة مركزية أم

ومقارنة هذه المادة المتناثرة بعمل فني متكامل ، ذي إطار ملحمي متين ، ونسق أدبي منظم ، وبنية قوية محددة ، وفلسفة دينية مركزة كما هو الحال في الكوميديا الإلهية ، يصعب أن يتم على أساس بنائي ملتزم ، نظراً لاختلاف المستويات ، ولا مفر إذن من أن يعتمد على مجرد تحليل العناصر وتقابل المضمون والصور . وإذا كان التركيز على شكل العمليات الفكرية ، وعلى العلاقات التي تربط الجزئيات المختلفة والنظام الذي تتتابع وفقاً له قد جعل الكلام عن المضمون يتقهقر إلى مركز متأخر في دراسات الأنثروبولوجيا الثقافية (١) ، فإنه قد أصبح أقل قيمة وغناء في دراسات الأدب المقارن ، إذ أن طبيعة الأدب أو أدبيته على حسب التعبير النقدي الحديث تتمثل في أنساق الصياغة وصور الفكر وأبنية الأعمال نفسها ، مما يجعل مسئولية الباحث مضاعفة في التركيز على تحليل العناصر المكونة للعمل الأدبي والتماس مصادرها التي أفادت في تشكيلها بهذا النسق دون غيره ، واعتبار الآراء والمشاكل الفكرية والفلسفية مجرد مادة تتزحزح إلى المرتبة الثانية من الأهمية . لكن ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أننا لا نجرى مقارنة تعتمد على إقامة الأنماط والطرز بين المجتمعات المختلفة ، سواء ارتبطت تاريخياً أم لم ترتبط ، للوصول إلى تعميمات تفيد في عمليات المسح الثقافي الشامل ، ولا نقوم بتحليل وصفي خالص للعناصر الثقافية الإسلامية المتجانسة طبقاً لمنهج بنائي منظم ، فإن هذا ليس هدف دراستنا تلك ، بل نحن ملتزمون بمقارنة أدبية بين أثر واحد لمؤلف معروف من ناحية وتراث شعبي متكاثر

---

(١) أنظر : علم الفولكلور : دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية للدكتور محمد الجوهري القاهرة — الطبعة الثانية ١٩٧٧ ص ١٣٢ وما بعدها .

متعدد الدوجات من ناحية أخرى ، مما يجعل البحث عن النظم والأنسقة واستخلاص المعنى العام للبنية أمراً غير ميسور فى مثل هذه الظروف .

وكل ما نستطيع أن نحرص عليه أن لايكون إدراكنا لاختلاف المستويات بين مادة الثقافة الإسلامية وبنية الكوميديا الإلهية عائقاً دون إفادتنا من روح المنهج والتقدم فى تحليل العناصر المكونة لكل من الجانبين ورصد العلاقة بينهما دون مبالغة فى التفسير أو قصور عن تقدير العمل المدروس .

مرحلة العطاء العربي :

عرف دانتي بنهمه الشديد للمعرفة ، وتعلقه بجميع مصادرها ، وقد أجمع كبار المفكرين الأوربيين في عصره مثل «ألبرتو ماجنو» و «روجر بيكون» و « رايموندو لوليو » على تفوق الثقافة العربية ، مما أيقظ في نفسه رغبة ملحة في الاطلاع عليها ، فنجده يسير من طرف خفي في إحدى رسائله المسماة « De Vulgar eloquio » إلى اللغة العربية وما تتميز به من دقة التعبير وعظيم الفائدة للعلماء . وعندما يذكر رسول الاسلام محمداً صلى الله عليه وسلم في الكوميديا الالهية يخضع بطبيعة الأمر للمبادئ المسيحية في تقييمه ، ولكنه يبرهن على معرفته بالعلاقة الوثيقة الحميمة التي كانت تربطه بصهره وابن عمه على بن أبي طالب ، وهي علاقة كانت مجهولة في العالم المسيحي في العصور الوسطى ، كما يبرهن على تقدير خاص للفلاسفة المسلمين مثل ابن سينا وابن رشد فيضعهم في الأعراف بالرغم من عقيدتهم عنده . وهناك إشارات إسلامية أخرى في آثار دانتي إلا أنها لاتخرج عما ذكرناه . وفي منطق العصر الذي كتبت فيه قد يكون إغفال الذكر ، أو رد الفعل العدائي . دليلا على التمثل والأخذ في الاعتبار كذلك .

ويرى بعض الباحثين الغربيين أنه ربما كان اطلاع دانتي على فلذات هامة من التراث الإسلامي ، ومعرفته بتصور المسلمين لمجالي العالم الآخر هما الدافع الأساسي عنده لتقديم رؤية مسيحية غربية لهذا العالم يعارض بها الرؤية الإسلامية ، مدفوعاً بروح العصر العام فيما يسمى في الأدب المقارن بالتأثير العكسي (١) . إلا أنه يبدو من ملامح الاتفاق ، والبعد عن الجدل الديني ، والاستغراق في عالم الملكوت السماوي ، ونقد المجتمع الفلورنسي ، يبدو من كل ذلك أن همه الأكبر لم يكن معارضة الإسلام ولانقده ، بل نقد الحياة المسيحية نفسها ، مما يجعل هذا الفرض بعيداً عن الصواب ، وكل

---

(١) أنظر : المصدر السابق عن الإسلام والغرب لمؤلفه : Sanchez –Albornos ص ٢٢١ .

ما يمكن المجازفة به فى هذا الصدد هو أن معرفته بالتراث الإسلامى للعالم الآخر قد زكت فى نفسه هذا الإطار بالذات ، وحفزته إلى اتخاذ نموذج الرحلة إلى عالم الغيب قالبا فنياً لعمله ؛ خاصة عندما بهرته المشاهد الإسلامية بما تحفل به من تنظيم دقيق وصور فنية ، ولم تكن محاكاة النماذج القديمة شيئاً معيباً فى عصر دانتى ، بل كانت قانون الكلاسيكية العام وروحها الغالب ، تكتسب بها الأعمال الفذة لوناً من مشروعية الوجود وتبرير النهج ، والكوميديا حافلة إلى جوار ذلك بكثير من العناصر الهيلينية الميثولوجية ومفعمة بلب الروح المسيحى مما يجعل احتواءها على تلك الفلذات الإسلامية أمراً دقيقاً لابد من تحويره وتغيير معالمه .

وعندما نبدأ فى تحديد الطرائق التى وصلت من خلالها هذه العناصر الثقافية الإسلامية إلى دانتى ينبغى أن لا نغفل الإشارة المركزة إلى جملة مظاهر الاحتكاك الحضارى العام بين أوربا والعالم الإسلامى ، وفى مقدمتها الحركة التجارية المكثفة التى أخذت ابتداء من القرن الثامن الميلادى تنشط بين أوربا ومختلف المناطق الإسلامية فى أسبانيا وشمال أفريقيا وسوريا ومصر والشرق الأقصى . ثم حركة الحجيج التى كانت تتم أحياناً فى جماعات كبيرة إلى الأراضى المقدسة مع كل ما تتطلبه من خانات وفنادق ومستشفيات ومعابد فى الطريق ، ثم الحروب الصليبية وما أدت إليه من إنشاء إمارات مسيحية يحكمها الأوربيون فى قلب الشرق الأوسط ، ثم موجات التغلغل الدينى على كلا الجانبين . بيد أن مجال الاحتكاك الأكبر كان بلاشك هو تلك البلاد التى جمعتها بالعالم المسيحى حدود جغرافية ومناطق مشتركة فى معايشة سلمية وحربية طويلة الأمد ، مثل صقلية والأندلس ، حيث تمت بالفعل أكبر عمليات الاحتكاك الحضارى المثمرة .

ففى صقلية اختلطت أبعد العناصر الأوربية عن التجاور الجغرافى مع العالم العربى ، مثل الدانيماركيين والسويديين والإنجليز وغيرهم خلال قرنين من الزمان تم على إثرهما — وبعد عديد من الغزوات والحروب والمحالفات — تكوين مملكة صغيرة أصبحت فى القرن الثالث عشر مركزاً إسلامياً للإشعاع

والتأثير الثقافى ، بنشر العلوم والآداب العربية فى جميع أنحاء أوربا والعالم الغربى عامة .

أما المركز الآخر – وهو اسبانيا المسلمة – فيعتبر بلاشك قمة التغلغل العربى الإسلامى فى أوربا الذى استمر ظاهراً للعيان زهاء ثمانية قرون ، ومر بمراحل عديدة لعبت فيها الحضارة الإسلامية دوراً رائداً فى بعث الثقافات الغربية وتلقيحها بأهم العناصر التى أدت باعترافهم إلى التعجيل بأسباب النهضة الأوربية وفتح أبواب العصر الحديث ، وما زالت مكونات هذه العناصر هدفاً للدراسات العلمية التحليلية حتى الآن (١) . سواء منها ما يتصل بالعلوم الطبيعية أو بالآداب والفنون .

ولما كانت الترجمة هى الوسيلة الكبرى لانتقال التراث الإسلامى عامة ، والمتصل بمجال بحثنا الآن ، إلى العالم الغربى ، وكانت الوسيلة التى اطلع دانتى عن طريقها على الثقافة الإسلامية فإن علينا أن نبرز الدور الذى قامت به الأندلس فى هذا الصدد بشكل منقطع النظير فى تاريخ العصور الوسطى ،

---

(١) أنظر مثلا : Vernet, Juan : « La cultura Hispanoarbe en Oriente Yoccidente». Barcelona 1978.

مدرسة الترجمة فى طليطلة :

كانت طليطلة من أولى القلاع الإسلامية الكبرى التى سقطت فى الأندلس عام ١٠٨٥ م ، وانحسر بهذا المد العربى وأخذ ينكمش إلى الجنوب ، لكن حضارته كانت لاتزال تدهش العالم الأوربى حينئذ ، فلم تكد هذه المدينة تعود إلى أيديهم حتى خف إليها الناس يودون لو عرفوا سر التفوق الإسلامى الواضح فى مختلف الجوانب . وأبقت شروط تسليم المدينـــة على جميع حقوق الغالبية المسلمة فيها التى ظلت تعايش الأقليات المسيحية واليهودية المصطبغة بدورها بصبغة الثقافة العربية . ولم يلبث أن انضم إليهم من هاجر من أهل قشتالة المسيحيين الإسبان ومجموعات من الفرنسيين الذين قدموا من وراء جبال البرانس يبتغون مغانم سريعة فى المملكة المسيحية المتوسعة ، كما صعد إلى طليطلة بعض يهود الجنوب ممن ساورهم القلق من تشدد المرابطين فى شمال أفريقيا وخطر ذلك على روح التسامح الإسلامى السائد فى الأندلس . كل هذا جعل من مدينة طليطلة ملتقى حقيقياً للأديان الثلاثة ، ومعرضاً منظماً للثقافة العربية فى قلب الإمارات والممالك المسيحية الإسبانية . وكان الصراع لايزال حينئذ ذا صبغة سياسية نظيفة لم تكدره الأحقاد ، ولم يفقد الإسلام هيبته فى قلوب جيرانه ، فأبقى المغيرون على المعالم الهامة للمدينة بمساجدها وأسواقها دون تغيير جوهرى لفترة طويلة . وكانت القوانين التى شرعت لها تقضى بضرورة عودة المهاجرين إلى أوطانهم الأصلية حالما تستقر الأوضاع فيها مع ترك حامية صغيرة مسلحة لحراستها ، أى أن البنية الاجتماعية فيها لن تعانى من اهتزازات عنيفة .

لكن الكنيسة لم تلبث أن أخذت فى دعم موقفها الفكرى بتعيين أساقفة جدد كانت جذورهم تضرب إلى خارج الإمارات القشتالية الإسبانية ، فأخذوا فى محاولة تمسيح هذا المجتمع بقوة ، فتحول المسجد الجامع فى المدينة إلى كاتدرائية ، ولهجت فى شوارعها ألسنة كثيرة غير عربية ، وأخذت تتكون على سطح الحياة فيها حركة عنيفة تنبىء عن احتكاك ثقافى متصاعد

تمثل فى مظاهره الأولى فى ازدهار أكبر مدرسة للترجمة فى العصور الوسطى زرعت أعلامها فى مفترق الطرق بين العالم الإسلامى الشرقى و المسيحى الغربى ، وهى مدرسة طليطلة .

ويعزو بعض الباحثين الفضل فى قيام هذه المدرسة فى القرن الثانى عشر إلى شخصية دينية هى « دون رايموندو » أسقف المدينة ، بما كان يسبغه على مجموعات المترجمين من عطف وتوجيه ، وما كان يمنحهم من جوائز مادية وتشجيع أدبى ، بينما يرجح المحققون اليوم أن نشأة حركة الترجمة فى طليطلة لاتدين لشخص بذاته ، بل تعود فى أساسها إلى الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية للمدينة التى أخذت تموج حينئذ بالباحثين عن الثراء المادى والفكرى . وأخذ بعضهم يعكف على ترجمة مخلفات العرب والإسلام إلى لغاتهم الحديثة أحياناً وإلى اللاتينية الأم أحياناً أخرى دون أن يكون هناك زعيم واحد يرعى هذه الحركة أو يوجه القائمين بها فى اختيارهم .

وقد شملت هذه الحركة مختلف العلوم والمعارف ، فقام « خوان دى سيبيا : Juan de Sevilla » مثلا بترجمة كثير من المؤلفات فى علم الفلك من العربية إلى اللاتينية فى منتصف القرن الثانى عشر وصل عددها إلى ٣٧ كتاباً من بينها لوحات الزرقالى ، كما نشطت الترجمات الفلسفية إلى حد كبير ، فبدأ « جونديسالفو : Gundisalvo » فى عام ١١٣٨م بترجمة آثار الفارابى وما وراء الطبيعة والشفاء لابن سينا والمقاصد للغزالى وغيرهم من الفلاسفة المسلمين ، وأسهم بعض اليهود مثل ابن جبريل وابن داود بدور فعال فى ترجمة كثير من الكتب الهامة فى الفلسفة والعلوم والطب (١) .

وبرزت فى الثلث الأخير من هذا القرن نفسه شخصية « جيراردو كريمونا » أكبر مترجمى هذا العصر وأغزرهم إنتاجاً ، وقد استعان فى بداية الأمر ببعض العرب العارفين باللغة اللاتينية ، مثل شخص يدعى غالب ،

---

(١) أنظر : تراث الإسلام : تصنيف شاخت وبوزورث وترجمة الدكتور حسين مؤنس والدكتور إحسان صدقى العمد . الجزء الأول . نشر الكويت ١٩٧٨ .

ثم لم يلبث أن أتقن بنفسه العربية ، وعكف على ترجمة ملخصات وشروح أرسطو التى قام بها الفلاسفة العرب ، وكتب الطبيعة والفلك والرياضة والطب والكيمياء التى ألفوها أو ترجموها عن اليونان مما أصبح ثروة هائلة فى يد الأوربيين فى العصور الوسطى .

ولعل أهم مايميز هذه الحركة النشطة الفعالة أنه قد أسهم فيها مترجمون من جميع أنحاء أوربا ، فقد جاء من إيطاليا « أفلاطون دى تيفولى Platon de Tivoli » و « هوجو دى سانتالا Hogo de Santalla » ومن ألمانيا « هيرمان Hermann » ومن هولاندا « رودولفو دى بروخاس Rodolfo de Brujas » ومن بريطانيا « ميجيل اسكوتو Miguel Escoto » بالإضافة إلى عدد كبير من المترجمين الفرنسيين ، وأخذ بعضهم يعمل فى مجموعات تتكون من أحد المستعربين ، وغالباً ما كان يهودياً ، وأحد اللاتينيين المختصين بالترجمة ويشرف عليهما العالم المعنى بهذا الكتاب أو ذاك . وقد حفظ التاريخ كثيراً من الترجمات التى تمت فى هذه الفترة وانتقلت إلى جميع المراكز العلمية فى أوربا وأخذت حظها من الشيوع باعتمادها للدراسة فى هذه المراكز .

ولا مفر أمامنا من الاكتفاء بهذه الإشارات ، إذ لا يتسع المجال للافاضة فى استقصاء الأعمال التى أنجزت ترجمتها فى هذه الفترة ، خاصة وأن البحوث المتتالية المتخصصة لاتزال تثرى من الرصيد البيبليوجرافى المتصل بالموضوع ممايستدعى الإحالة إليها (١) .

---

(١) نقدم فيما يلى موجزاً ببليوجرافيا لأهم الدراسات التى تعرضت لمدرسة طليطلة فى الترجمة خلال العقود الأخيرة فحسب ، محيلين بالنسبة للدراسات الكلاسيكية على الثبت الوافى الذى أورده « سانشيث ألبورنوس » فى كتابه الوارد فى نهاية القائمة : —

– Thorndike: «A Catalogue of Incipits of Mediaeval Scientifiques Writings» . Cambridge 1937 . =

وشهد النصف الثانى من القرن الثالث عشر وصول هذه الحركة إلى قمة ازدهارها فى عهد ألفونسو العاشر ملك قشتالة الذى كان يسمى بالعالم لاهتمامه الشخصى الكبير بحركة الترجمة المنظمة ، وإسهامه فى وضع موسوعات تاريخية وعلمية ، وكان يختار بنفسه أهم الآثار التى ينبغى ترجمتها ، ولا يكتفى بأن تتم هذه الترجمة إلى اللغة اللاتينية ، بل يصر على أن تشمل القشتالية الرومانسية وغيرها من اللغات الأوربية العامية حينئذ . كما لم يكن يكتفى بالمترجمين الإسبان ، بل يجند كل من يستطيع من أنحاء أوربا للعمل الثقافى فى بلاطه ، وأنشأ فى مرسيليا معهداً للدراسات بمعرفة « الرقوطى » الفيلسوف المسلم ، ثم نقل هذا المعهد إلى إشبيلية . وأخذ شكل مجموعات الترجمة يتحدد فى عهده أيضاً على طريقة ثلاثية تتكون من فقيه عربى وراب يهودى وقسيس مسيحى ، حتى يتحروا الدقة والعمق فى تصور ونقل معطيات الثقافة الإسلامية ، وكان الجهد الفذ النبيل الذى بذله هذا الملك حاسماً فى تهيئة قدر هائل من التراث الشرقى الإسلامى للتأقلم فى الغرب ، وألف

- Bedoret: «Les Premiéres traductions toledans de Philosophie» = Revue Neo – Scolastique de Philosophie XLI. 1938.
- Millas Vallicrosa : « Las traducciones orientales en los manuscritos de la Bibliotica de la Catedral de Toledo. Madrid. 1942.
- D, Alverny : (Deux traductions Latines du Coran au Moyen-Age. En Archives d' histoire doctrinale et litteraire du Moyen-age. 1947–1948.
- Menendez Pidal : « Espana Y la Intruducoion de la ciencia arabe en occidente ». 1955.
- Vernet, Juan : « La Cultura Hispanoarabe en Oriente Yoccidente ». Barcelona 1978.
- Sanchez – Albornos. « EL Islam de Espana Y el occidente» . Madrict. 1975. P. 192.

بنفسه أغانى كانت تعد من أقدم روائع الشعر الغنائى الدينى ، وأشرف على تحرير المدونة الأسبانية الأولى فى التاريخ ، وشجع على نشر أعمال مستقاة من النسخ العربية مثل كليلة ودمنة والسندباد التى برهنت على خصبها فى القصص والأقوال المأثورة الأسبانية اللاحقة . ومن بلاطه عرف الغرب الأعمال العلمية لابقراط وإقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم من العلماء فى الترجمات العربية ، ومؤلفات الخوارزمى والتبانى والفرغانى وابن سينا والرازى والبطروجى والزرقالى ، وفاض العلم العربى على أوربا وملأها خصباً فكانت جميع القرون الوسطى المتأخرة مشبعة به » (١) .

وهكذا أخذت تتشكل فى أذهان المفكرين الغربيين صورة للعالم الإسلامى بوصفه مهداً لفلاسفة عظام ؛ بعد أن ترجمت موسوعة ابن سينا العظيمة « كتاب الشفاء » واستطاع علماء اللاهوت والفلاسفة أن ينقلوا إلى المسيحية ما كان يذكره ابن سينا فيها عن الحضارة الإسلامية ، فمثلا إستخدم « روجر بيكون » من أجل تفخيم منصب البابا ما ذكره ابن سينا عن الإمام الإسلامى ، وأصبح كبار المؤلفين المسلمين الذين كان اكتشافهم قوة تجديدية فى الفكر الغربى أصبحوا يتمثلون ويهضمون بصورة تدريجية ويدمجون ضمن الثقافة العامة ، وخلال عدة قرون كانت كتب ابن سينا وابن رشد والرازى تعاد طباعتها ويعلق عليها وتعتمد باعتبارها نصوصاً أساسية للدراسة فى المؤسسات العلمية ، ويستشهد « رود نسون » بفقرة من حكايات كانتربرى على مدى ذيوع هذه الأعمال ؛ إذ قابل المؤلف طبيباً — يمثل عصره — لايعرف الكتاب المقدس جيداً ، لكنه :

كان يعرف جيداً . أعمال الرازى وابن سينا
وابن رشد والدمشقى »(٢)

---

(١) أنظر : الفصل الذى كتبه المستشرق الإيطالى جابر يلى فى كتاب تراث الإسلام المشار إليه ، ترجمة د . محمد زهير السمهورى ص ١٥٤ .

(٢) أنظر : المصدر السابق ص ٥٢ .

ترجمة كتاب معراج محمد :

كلف الملك ألفونسو العاشر طبيبه إبراهام الطليطلى بأن يترجم من اللغة العربية إلى القشتالية الأسبانية كتاب « معراج محمد » فأخذ هذا على عاتقه مهمة القيام بهذه الترجمة متبعاً تقاليد مدرسة طليطلة العريقة ، ولما كانت الترجمة الفرنسية التى نقلت عن الأسبانية قد تمت عام ١٢٦٤ طبقاً لما ورد فيها فإن الذى يستنتج من ذلك أنه لابد أن يكون قد فرغ من الترجمة الأولى عام ١٢٦٣ على أكثر تقدير .

ونفس هذا الطبيب العالم اليهودى هو الذى قام بعد ذلك بترجمة كتاب ابن الهيثم « فى هيئة العالم » إلى الأسبانية حوالى عام ١٢٧٠م ، ثم لم يلبث أن نقل إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية . وهو الذى قام أيضاً بترجمة كتاب « الأسطرلاب » للزرقالى من العربية إلى الأسبانية ، ثم نقل بعدها إلى إلى اللاتينية والإيطالية .

وعلى أساس الترجمة الأولى الإسبانية لكتاب « معراج محمد »قام مترجم إيطالى كان يعمل رئيساً لسجلات ألفونسو العاشر وكاتبا له وهو « بوينا فينتورا دى سينا » بترجمته إلى اللغتين الفرنسية واللاتينية ، وهما الروايتان اللتان لاتزالان موجودتين فى المكتبات الأوربية حتى الآن . أما الصياغة الإسبانية الأولى فقد فقدت مع الأصل العربى الذى لم يكن يعنيهم الاحتفاظ به بعد نقله إلى لغاتهم كما أشرنا من قبل .

أما لماذا اختار الملك العالم هذا النص بالذات من التراث الثقافى الإسلامى ليترجمه لأشهر اللغات الأوربية الحية فى عصره فإن هذا يقتضى أن نورد عدة أمور من أهمها : —

أولا : أنه يقع ضمن دائرة اهتمامه الكبرى بترجمة عيون الفكر والعلوم العربية إلى اللغة الإسبانية ، وإذا كانت هذه الدائرة تشمل — كما رأينا — علوماً متنوعة مثل الرياضيات والفلك والطب والكيمياء وعلوم النبات والطبيعة والفلسفة والآداب فإن هذه القصة تنتمى إلى النوعين الأخيرين .

ثانيا : أنه كان يعد موسوعة تاريخية هامة عن تاريخ العالم كله عامة ، واسبانيا بصفة خاصة ، وقد صدرت هذه الموسوعة بالفعل بين عامى ١٢٦٨ و١٢٧٢م ، ولاشك أن مثل هذه الواقعة الخطيرة فى حياة نبى الإسلام عليه السلام تستلفت نظر المؤرخ فيبحث لها عن المصادر المطولة المستفيضة ويجهزها للاستعمال بالترجمة والإعداد ، ثم قد يحدث أن يكتفى بتلخيصها بعد ذلك كما حدث بالفعل فى هذه الحالة .

ثالثا : لكن يبدو أن السبب الحاسم فى ترجمة هذه القصة المليئة بالعناصر الأسطورية كان كما ورد فى المقدمة اللاتينية التى كتبها « بوينا فينتورا دى سينا » « كى يعرف الناس حياة وتعاليم محمد وما فيهما من مبالغات خرافية (!) فيثبت إيمانهم وتمسكهم بالمبادىء والحقائق المسيحية »(١). أى أنها قد استخدمت سلاحاً فى حرب الأديان التى كانت قد اشتعلت فى تلك الفترة كخلفية أيديولوجية للصراع الطويل المرير بين العالمين المسيحى والإسلامى ، خاصة على أرض الأندلس .

ويحدثنا المؤرخون عن أن الكتاب اللاتينيين قد أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد دون أى اعتبار للدقة ، فأطلقوا العنان « لجهل الخيال المنتصر » كما جاء فى تعبير بعضهم(٢) . فكان محمد فى عرفهم ساحراً هدم الكنيسة فى أفريقيا وفى الشرق عن طريق السحر والخديعة ، واستعملت أساطير من الفولكور الشعبى ومن الأدب الكلاسيكى ومن القصص البيزنطية عن الإسلام وحتى من المصادر الإسلامية بعد تشويه باطل من قبل المسيحيين الشرقيين ، كل هذه الأشياء استخدمت لتزيين الصورة الموجهة أساساً إلى العامة ، ولقد قدر لهذه الصورة أن تزداد زخرفاً فى الكثير من الأعمال الأدبية ، فقد

---

(١) أنظر : Munoz Sendino, Jose «La Escala de Ma homa» op. cit. P. 16.

(٢) أنظر : R.W. Southern : «Western Views of Islam in the Middle Ages» Cambridge. 1962.

نقلا عن « تراث الإسلام » الجزء الأول ص ٣٤ .

اختلطت الروايات المحضة التى كان هدفها الوحيد إثارة اهتمام القارىء على نسب متفاوتة بالعرض المشوه للعقيدة التى ألهبت حقد العدو ، ووصلت الملاحم إلى أعلى ذرى الابتكارات الخيالية ؛ إذ اتهم المسلمون بعبادة الأوثان، وهم الذين رموا المسيحيين بتعدد الآلهة والشرك .

ويبدو أن الكتب العلمية والفلسفية الجادة التى كانت تترجم حينئذ من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية قد أخذت تفتن جمهور المثقفين بالحضارة الإسلامية مما اضطر رعاة هذه الحركة إلى إدماج مثل هذه النصوص الدينية التى يراد منها التقليل من شـــأن الإسلام كدين والتهوين من خطر زعيمه كرسول بإظهاره فى شكل أسطورى مشوه ، وهذا بالذات ما ضمن لترجمة المخطوط الذى نتحدث عنه ذيوعاً وشهرة فى جميع الأوساط ؛ إذ كان من المستحيل أن تولد هذه الترجمة فى ظل الظروف العدائية التى نبتت فيها ثم لاتذيع بأقصى سرعة إلى جميع أنحاء العالم المسيحى، لأن موضوعها ، وهو حياة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم كان بالغ الدقة والحساسية بالنسبة لمصير حرب الأديان المشتعلة حينئذ .

قنوات تسربها إلى دانتى :

أما الطرق التى يحتمل أن تكون هذه الترجمة قد سلكتها للوصول إلى دانتى فهى متعددة ومفتوحة ؛ وتعود إلى جملة عوامل ثقافية وسياسية ودينية، نوجز القول فيها على النحو التالى :

إذا كانت حركة الترجمة عامة هى أقوى الشواهد على وصول النشاط الثقافى إلى ذروته استجابة لشعور الأوساط العلمية فى الغرب بضرورة استيعاب العناصر الإسلامية فإن المشاركة الإيطالية فى هذا النشاط هى التى تفتح المسارب لاطلاع دانتى على ثمراته . ومن أهم الشخصيات الإيطالية التى أثبتت البحوث الحديثة تعاونها فى بلاط ألفونسو العاشر؛ إما كمترجمين من الأسبانية — وربما العربية — إلى اللاتينية ، وإما كخبراء فى الشئون القانونية والإدارية إلى جانب أعمالهم فى الترجمة نذكر الأسماء التالية : —

١ — بوينا فينتورا دى سينا	Buenaventura de Sena
٢ — جيل دى ثيبالديس	Gil de Thebaldis.
٣ — خوان دى ميسينا	Juan de Mesina.
٤ — خوان دى كريمونا	Juan de Cremona.
٥ — بدرو دى ريجيو	Pedro de Reggio.
٦ — مايسترو جاكوبو	Maestro Jakobo.

وكان بعضهم كثير التردد على إيطاليا ؛ خاصة فلورينسيا موطن دانتى ، وسينا وروما وبولونيا وبارما ، مما يفتح الطريق لوصول الترجمة إلى إيطاليا فى وقت مبكر يسمح للشاعر الكبير بالاطلاع عليها ،

وقد صحب هذا النشاط الثقافى للعلاقات بين أسبانيا وإيطاليا نشاط آخر سياسى لايقل عنه توهجا وخصوبة ؛ إذ أنه على إثر نشوب النزاع حول

الإمبراطوية الألمانية التي كانت تشمل قطاعات عريضة من الأقاليم الإيطالية أخذ اتصال ألفونسو العاشر بإيطاليا يتكثف وتتعدد طرائقه ، فلا تكاد تهدأ حركة السفراء القادمين إليه من إيطاليا — ومنهم العلماء والشعراء ورجال الدين -- حتى تنشط حركة مبعوثيه إليهم . ومن أهم هذه السفارات سفارة « برونيتو لاتيني Brunetto Latini » الذي أوفد من قبل الحزب الحاكم فى فلورنسيا عام ١٢٦٠م إلى ألفونسو العاشر ليعرب له عن تأييد هذه الولاية وجاراتهـا فى إيطاليا لتنصيبه امبراطورا لألمانيا واستحقاقه للقب « ملك الرومان » .

ولكن انقلاباً سياسياً يحدث فى هذه الأثناء فى فلورنسيا يحول بين لاتيني وعودته إلى إيطاليا مباشرة ، مما يجعله يذهب إلى فرنسا ويمكث فيها ثمانى سنوات قبل أن يتمكن من الرجوع إلى موطنه . وفى هذه الأثناء يكتب كتابه الشهير « الكنز » شعراً فى البداية عام ١٢٦٢م ثم نثراً مطولا موسوعياً عام ١٢٦٦م ، ويضمنه جملة من المعارف والعلوم العربية التى استقاها من بلاط طليطلة ومن قراءته للمادة المعدة لموسوعة ألفونسو العاشر خلال إقامته التى امتدت شهوراً فى اسبانيا .

ومن الثابت تاريخياً أن لاتيني كان أستاذاً لدانتى ومعلمه الأول ، وأن العناصر العربية التى تمثلت فى الكنز كانت من أشد ما لفت دانتى إلى الثقافة العربية والإسلامية ، وأن اهتمام لاتيني كشاعر مثقف بالترجمات الفرنسية — مع ملاحظة أنه كتب الكنز أولا بالفرنسية ثم ترجمه هو نفسه للإيطالية — واللاتينية للتراث الثقافى الإسلامى يجعل من المحتمل أن يكون قد حمل معه إلى إيطاليا مسودة للترجمة التى قام بها مواطنه الإيطالى لقصة المعراج بعد أن حصل عليها وهو فى فرنسا ، خاصة وأن كتابه الذى وضع فى فرنسا قد ترجم فوراً إلى الأسبانية وأرسل إلى بلاط ألفونسو العاشر : مما يدل على أن تبادل الترجمات وسهولة تداولها كانا يسمحان بذلك ، ويجعل بعض الباحثين يؤكد أن معارف لاتيني من الثقافة الإسلامية تمثل الحد الأدنى لمـا

وصــــل إلى دانتى بصفة موثقة لاريب فيها(١) . وهى معارف تنم فى شعره الرمزى والمجازى عن محاكاته لبعض العناصر الوصفية التى وردت فى قصة المعراج ، مما يرجح اطلاعه عليها .

أما القناة الدينية فتبدأ من مطالع المرحلة الإسلامية فى حياة الأندلس ؛ إذ كان هناك ولع خاص بالسيرة النبويه الشريفة ، واهتمام كبير بمجموعات الأحاديث التى تروى تفاصيل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسرعان ما سرت عدوى هذا الاهتمام – لأسباب مختلفة – إلى الأقليات المسيحية التى كانت تعايشهم فى طليطلة وقرطبة وغيرهما من العواصم الأندلسية ، وظهرت آثار ذلك كما أشرنا فى الحرب الدينية التى شنها القسس على الإسلام فى العصور الوسطى ، ومن أهمهم شخصية « بطرس الموقر Peter the Venerable » ١٠٩٤ –١١٥٦م رئيس رهبان دير كلونى » فى فرنسا الذى قام بدور نشط فى مقاومة الإسلام ، فجاء إلى اسبانيا عام ١١٤١ ليطلع عن كثب على مصادر الإسلام ويتعرف على أعمال مدرسة طليطلة للترجمة ، وجمع ثلة من المترجمين بأجر وكلفهم بترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية ، ثم ضمها إلى مجموعة من الكتابات المضادة التى تشمل : –

١ – تمهيداً موجزاً ضد الإسلام ورسالته من وجهة النظر المسيحية .

٢ – ملخصاً لحياة رسول الإسلام وخلفائه .

٣ – سيرة مطولة عن حياة الرسول وأحاديثه و « مخترعاته » .

٤ – عرضاً لمبادئه وشريعته « الزائفة » .

٥ – ترجمة القرآن .

٦ – خطاباً موجهاً من مسلم إلى مسيحى يحاول إقناعه بالإسلام .

---

(١) أنظر : Zingarelli : « La Vita, I tempi e la opera de : Dante en « Storia Letteraria de Italia » Milan 1931. p. 271.
نقلا عن كتاب « مونيوث سنديno » المشار إليه ص معراج محمد .

٧ ـ رد المسيحي عليه رافضاً حججه وناقضاً لنظريات الإسلام .

ثم لم تلبث قصة المعراج أن ضمت بعد ترجمتها إلى هذه المجموعة التى أخذت تذيع بسرعة بالغة فى أنحاء أروبا : وإن كان الجدال الدينى الذى تحتويه ـ كما يعترف بذلك المؤرخون اليوم عديم الفائدة ، لأنه يستهدف مسلمين خرافيين لا وجود لهم كانوا يبادون بسرعة على الورق ، بينما يبدو أن الهدف الحقيقى إنما كان تزويد المسيحيين بحجج تثبت إيمانهم فى مواجهة النهضة الدينية والعقلية فى الشرق الإسلامى .

وعندما وقع قسيس آخر يدعى « سان بدرو باسكوال » فى الأسر وحمل إلى بلاط غرناطة المسلم عام ١٢٩٩م تسربت إلى يديه نسخة خطية من هذه المجموعة وعلق عليها بخطه ؛ الأمر الذى يدل على أن وصولها إلى إيطاليا ـ معقل المسيحية والبابوية ـ ووقوعها فى يد دانتى كان أيسر وأقرب من ذلك ، وهـذه هى نفس المجموعة التى وجدت فى الفاتيكان وباريس وانجلترا وغيرها من البلاد الأوروبية ، ويرجح هذا الاحتمال أن «سان بدرو» هذا قد مر بفلورنسيا وظل بها فترة طويلة عندما كان دانتى يقوم بتأمل خطته ووضع تصميمه للكوميديا الإلهية ، مما يجعل الباحثين لايستبعدون أن يكون هو القناة التى تعرف دانتى من خلالها على القصة الإسلامية ، ويؤيد ذلك أنه أورد فى كتابه « تفنيد مزاعم الطائفة المحمدية » قصة المعراج بالتفصيل ؛ وهو كتاب اشتهر فى جميع الأوساط المسيحية الأوربية وكان فى متناول دانتى (١) .

ويتصل بهذا العامل الدينى الوساطة اليهودية فى العصور الوسطى ؛ فإذا كان المترجم الأول لقصة المعراج « ابرهام الحكيم » يهوديا ، والمترجم الثانى لها إلى اللاتينية إيطاليا كان فى خدمة ألفونسو العاشر ، فقد يكون فى ذلك

---

(١) انظر المصدر السابق عن « معراج محمد » لمؤلفه : Munoz Sendino ص ١٨٣ .

تلخيص للطريق الذى يحتمل أن تكون القصة قد سلكته إلى دانتى نفسه ، فمن الثابت تاريخياً أن اليهود فى القرن الثالث عشر الميلادى بالذات قد قاموا بدور حيوى ونشيط فى نقل عيون الثقافة الإسلامية والعربية إلى مناطق متعددة من حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق سلسلة من المراكز الدراسية فى قطلونية باسبانيا وإقليم بروفنس بفرنسا وصقلية وبعض الأقاليم الإيطالية .

وساعد على هذا الدور عاملان هامان فى ذلك الوقت هما :

١ ـ الانقسام اليهودى إلى مجموعات التلموديين والقبالة من جانب وأنصار الميمونيين من العقليين الأرسطيين من جانب آخر ، بما تبع ذلك من تعدد المراكز للدفاع عن آرائهم وفلسفاتهم .

٢ ـ اضطهادهم وطردهم من جنوب فرنسا وانتشارهم فى إسبانيا وجنوب إيطاليا قبل أن يطردوا نهائياً بعد العرب من إسبانيا إثر سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ، وقد أدى هذا الاضطهاد فى القرن الثالث عشر إلى كثافة حركة التنقل اليهودية حتى لم يستقر من علمائهم ومترجميهم أحد فى بلد واحد طيلة حياته .

وبالدراسة المتأنية للأوساط الثقافية التى كان يتحرك فيها دانتى أمكن للباحثين أن يحددوا مجموعات من أصدقائه اليهود ، خاصة « إمانويل بن سالومو » و« بدرو إسبانو » و « حيليل دى فيرنا » ممن كانوا على علم بقصة المعراج كما يتضح من بعض مؤلفاتهم الشعرية من ناحية ، وتاريخهم الدينى والفلسفى من ناحية أخرى ، ويستنتج الدارسون من ذلك أن هذا العنصر اليهودى ربما كان من أوسع القنوات التى حملت لدانتى أفكاراً إسلامية مفصلة عن الإسراء والمعراج ، وأنها كانت ـ فى أغلب الظن ـ هى التى قامت بدور الوسيط ونقلت إليه الترجمة اللاتينية للقصة بعد إتمامها فى إشبيلية(١).

(١) أنظر : نفس المصدر السابق ص ١٨٤ .

وإلى جانب هذه القنوات الرئيسية تجدر الإشارة إلى بعض الطرائق الفرعية التى يحتمل أن تكون القصة قد سلكتها إلى دانتى . ومنها بعض المصادر التاريخية التى قدمت عرضا موسعا للقصة مثل الفصل الخامس من كتاب « تاريخ العرب : Historia Arabum » للمطران « رودريجيث خيمينث دى رادا » الذى كتبه فى طليطلة فى القرن الثانى عشر ويضم بعض روايات المعراج . وهو تاريخ تداولت نسخا منه جميع الأوساط الثقافة فى أوربا فى ذلك العصر .

وكذلك فإن كتاب ألفونسو العاشر الموسوعى عن « أخبار عامة فى تاريخ إسبانيا » يضم موجزاً لقصة المعراج كان من الميسور لدانتى بأن يلم به كما أشرنا من قبل .

ومن هذه الطرائق أيضاً مايتصل بإمكانيات وصولها بالرواية الشفوية — وكانت لها أهميتها البالغة إبان العصور الوسطى — عن طريق التجار والمثقفين الإيطاليين الذين قدموا إلى إشبيلية باسبانيا فى الفترة التى شهدت ذيوع المعراج ، أو عن طريق بعض الأسرى المسلمين الذين حملوا إلى « توسكانا » فى ولاية « بيسا » بايطاليا ، أو عن طريق شعراء التروبادور الإيطاليين الذين كانوا ينتقلون من بلاط ألفونسو العاشر إلى بقية مناطق اسبانيا المتاخمة للإمارات الإسلامية ، أو عن طريق بعض أصدقاء دانتى من الحجيج الذين كانوا يذهبون إلى « سانتياجو » باسبانيا مثل « جيدو كافالكانتى » وغيره ، أو من المثقفين العلماء باللاهوت المسيحى المطلعين على خبايا التاريخ الإسلامى مثل « راموندولوليو » ومن على شاكلته .

وإذا كان دانتى قد ولد فى مايو سنة ١٢٦٥م بعد عام واحد من ترجمة قصة المعراج فى اسبانيا ، ثم كتب جزءاً من الكوميديا الإلهية عام ١٣٠٧ وأكملها على أرجح تقدير بين عامى ١٣١٤ و ١٣١٩م أى بعد مضى خمسين سنة على هذه الترجمة ، وإذا كانت قنوات التوصيل بهذا القدر من الاتساع والتعدد وتضافرت جميع العوامل لتهيئة المناخ الملائم للتأثير ،

ثم قام هناك توافق تام بين كثير من عناصر الأثرين فاننا لندرك حينئذ قوة الأسباب التى تجعل المفكرين الإيطاليين أنفسهم يقولون : « اليوم لم يعد هناك مجال لأى شك فى هذه الحقيقة ؛ وهى أن كتاب المعراج الذى كان بوسع العالم اللاتينى الاطلاع عليه بلغتين أوربيين ، إن لم يكن بثلاث ؛ ما كان ليبقى بعيداً عن متناول دانتى ، وإلا كان أمراً خارجا عن المنطق المعقول ، وهكذا يتأكد لنا اليوم أن نظرية أسين بالاثيوس قد أصبحت فوق مستوى النقاش . إن القضية لم تعد قضية إمكان اطلاع دانتى على المصادر العربية . وإنما هى قضية حقيقية ينبغى التسليم بها »(١).

---

(١) انظر : Della Vida, Levi: Nouva luçe sulle fonte islamiche della Divina Commedia en Al-Andalus 1949 p 407

وأنظر : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية – القاهرة ١٩٧٠ . فصل الأدب إعداد د سهير القلماوى ومحمود على مكى ص ١١٨ .

اشتراك المصادر وتعدد المستويات :

تعد دراسة تأثير الثقافة الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لدانتى من قبيل دراسة المصادر فى الأدب المقارن ، ذلك لأننا نعمد إلى واحدة من عيون الآداب العالمية ونبحث عن مصادرها فى الثقافات الأجنبية المعاصرة لها أو السابقة عليها . وقد يشترط للاعتداد بهذه المصادر أن تكون ذات قيمة أدبية فنية أو قيمة فكرية فلسفية تضمن لها تأثيراً فعالا فى مكونات العمل المدروس لامجرد قدر من الاشتراك العفوى فى الموضوع أو بعض الأفكار . ومن هنا فان دراسة السوابق الأدبية والصوفية تكتسب أهمية خاصة فى هذا السياق كمدخل لبحث بقية جوانب هذا التأثير .

وبالرغم من أن كلمة « السوابق » وصحفها قد تلقى ظلا بغيضاً على الدراسة المقارنة وتوحى بتجريم التأثير إلا أننا نستخدمها هنا بالمعنى التاريخى البحت للإشارة إلى الحالات السابقة على الكوميديا الإلهية التى أفادت من قصة الإسراء والمعراج الإسلامية وأقامت منها هياكل أدبية أو صوفية ذات كيان متماسك ، بغض النظر عما إذا كان لهذه الحالات من علاقة توليدية مباشرة بالملحمة الإيطالية أم لا ، وسنرى أن هذه العلاقة ليست مستحيلة فى إطار التبادل الثقافى العام فى العصور الوسطى ، وإن لم تكن ثابتة من الوجهة التاريخية ولم يقم عليها دليل موثق كاف حتى الآن ، إلا أنه من الناحية المنهجية لابد أن نؤكد على أمرين سبق أن ألمحنا إليهما :

١ — أن واقعة التأثير تثبت بمجرد رصد ملامح التشابه التفصيلية التى يستبعد أن تقوم بمحض الصدفة ، حتى ولو لم نستطع كشف كيفية وطرق وقوع هذا التأثير بالوضوح الكافى ، وحسبنا فى هذا الصدد أن لا يكون هناك مانع مادى أو تاريخى حاسم يحول دون إمكانية وقوع هذا التأثير ، أى أنه مادام التأثير ممكنا فإن براهينه تكمن حينئذ فى تطابق المادة وتناظر الأصول والتفصيلات ، أما لو اعترف الكاتب بتأثره بعمل معين ، أو شهد عليه أحد معاصريه ،

ثم لم نعثر فى إنتاجه على دلائل هذا التأثر الموضوعية فان اعترافه حينئذ يظل بلا جدوى ويصبح من قبيل النوايا التى لم تتحقق أو لم ترق إلى مستوى التأثير ذى النتائج الفنية الخصبة .

٢ ـ أنه قد ثبت من الوجهة التاريخية استقاء دانتى من المنبع الأساسى لهذه الصيغ الأدبية والصوفية ـ وهو تراث الإسراء والمعراج ـ بما لايدع مجالا للشك ، ويبرر بالتالى الإعتداد بهذه السوابق التى تمثلت فيها خصائص جمالية وفلسفية لانلبث أن نرى نظائرها عند دانتى ، مما يدعونا إلى تحليل العلاقة بين المجالين على أساس اشتراك المصدر وتعدد الصيغة والمستوى ، وتؤدى المقارنة حينئذ دورها فى إضاءة النصوص داخليا وتعمق فهم مكوناتها الحميمة .

رسالة الغفران والوسائل العامة :

والأثر الأدبي الإسلامي الأكبر الذى صاغ ملحمة المعراج أوائل القرن الحادى عشر الميلادى هو رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى التى تعد من أنضج نماذج الثقافة العربية ، إذ لو طبقنا عليها المعيار النقدى المعترف به الآن عالميا عن الأعمال التى توصف بأنها كلاسيكية — لا تلك التى تنتمى إلى مذهب الكلاسيكية الأوربى المعهود — وإنما تلك التى تمثل عنصراً فاعلا فى تراثها وتعد من عيونه لوجدنا أن شرطى هذا الوصف هما :

توفر النضج الأدبى واللغوى والأخلاقى للأمة التى ينهض فيها كاتب كلاسيكى من ناحية وضرورة ارتكازه على عصور أدبية سابقة عليه من ناحية أخرى(١) .

إذا طبقنا هذا المعيار على المعرى لوجدنا كاتبا عربيا كلاسيكيا من الطراز الأول ، فقد أصابت اللغة العربية وآدابها من النضج قبله قدراً عظيما جعله شغوفاً بهما حريصا عليهما ، وكان هذا ماحدا به إلى وضع رسالة الغفران كنموذج فنى يستفيد من إطار الرحلة إلى الحياة الآخرة ليقدم فيضاً من البحوث اللغوية والأدبية التى كانت شغله الشاغل فى هذا الأثر ، كما أن تعدد العصور السابقة عليه وقدرته على تمثلها ومحاولة تجاوزها مع الفهم العميق لتراثها — حتى أنه كان يسمى ديوان المتنبى « معجز أحمد » كل هذا قد أتاح له فرصة كبرى لتأصيل نظراته فى لغة الأدب وابتداع أطر جديدة أثرت الثقافة العربية بقدر ما جددت من أنسجتها وأضافت إلى محصلتها .

فإذا أخذنا فى المقارنة بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية وجدنا أننا أمام رحلة للعالم الآخر تتميز بخلوها من عناصر الخوارق والمعجزات التى تحفل بها روايات الإسراء والمعراج عادة ، فباستثناء الفكرة الأساسية للرحلة

---

(١) أنظر : T.S. Eliot. "What is a Clasic" Trad. Barcelnona 1965. p. 17.

ـ التى تقع فى نطاق المعجزات ـ تمضى الحوادث بعد ذلك على نسق أقرب مايكون إلى منطق الحياة المألوف ، فالمسافر عند أبى العلاء ليس نبيا ولا وليا ولا من كبار الأبطال ، ولكنه مجرد إنسان عادى يقترف الذنوب ويسعى فى الأرض ، مثله فى ذلك مثل دانتى بطل الكوميديا الإلهية ، كما أن الشخصيات التى تقوم بالأدوار الثانوية الأخرى ليست فى معظمها من الأنبياء ولا الأولياء والقديسين ، وإنما هم أناس عاديون منهم المؤمن والكافر مثل الذين نجدهم أيضاً عند الشاعر الإيطالى. وعلى هذا فان الخاصية الإنسانية الواقعية الأرضية فى الكوميديا الإلهية تجد سابقتها الأدبية الكبرى عند شاعر المعرة العربى .

ولكى يحقق أبو العلاء الهدف المزدوج من رحلته ذات الصبغة الأدبية والمغزى الدينى معا يبتدع حيلة فنية مؤداها أن يلتقى البطل المسافر «ابن القارح» فى الجنة أو فى الجحيم بعدد هائل من الشخصيات المختلفة فى أعمارها وظروفها وجنسها وعقيدتها ، وإن كان معظمهم ينتمى مهنيا إلى مجال محدد هو الاشتغال بالعلم والأدب . وهذا معناه أن مؤلف الرحلة قد ملأ حجرات الفردوس وكهوف الجحيم بعدد ضخم من الرجال والنساء المسلمين والمسيحيين والجاهليين ، الشرفاء والوضعاء ، الأغنياء والفقراء ، والشباب والشيوخ ، لكنهم جميعاً تقريباً أدباء وشعراء وعلماء ، لأن هدفه الرئيسى من رحلته كان هو إجراء لون من النقد الأدبى واللغوى ، بالإضافة إلى هدف آخر ثانوى هو مقاومة الفكرة السائدة لدى علماء الكلام فى عصره عن تضييق حظيرة الدين بفكرة أخرى عن رحمة الله التى وسعت كل شئ ، فجميع شخصيات المعرى تقريبا واقعية تماماً ومن الثابت أنها كانت موجودة تاريخيا ومشهورة فى الأدب العربى بأكمله ، بل إن بعضها معاصر لأبى العلاء نفسه وشديد القرب منه ومن حياته .

على أن توزيعها مكانيا فى الجنة أو النار يتميز بخاصية بارزة ، إذ يلقاهم المسافر فى الجنة وهم جماعات صغيرة تلتقى فى حلقات تدور كل منها حول

جنس أدبي معين ، فهناك علماء اللغة وهناك الشعراء المغنون والهجاؤون وشعراء الرجز . أما فى الجحيم فهم على العكس من ذلك يبدون له أفرادا مشتتين أو معزولين عن غيرهم . وسواء كان المسافر فى الجنة أو فى الجحيم فهو الذى يبادر من يلقاه بالسؤال عن شخص يود أن يراه ، وقد يظهر له هذا الشخص فجأة دون أن يسأل عنه ، وعادة ما يشيرون له إلى مكانه فى الحالة الأولى ، أما فى الحالة الثانية فكثيراً ما لا يستطيع المسافر أن يتعرف على محدثه للوهلة الأولى لما انتاب ملامحه من التغيير ، مما يجعله مضطرا لسؤاله عن اسمه . فاذا تبادل أطراف الحديث مع أحد من أهل الجنة أو النار كان موضوع الحوار الرئيسى دائما حول مسألة غامضة أو مثيرة فى أعمالهم الأدبية والشعرية ؛ وليس من النادر أن نجد إشارة إلى واقعة فى حياتهم الخاصة تتصل بفضائلهم أو ذنوبهم أو فقرة من أشعارهم توضح المصير الذى انتهوا إليه فى العالم الآخر .

ويتميز المعيار الذى يعتمد عليه المؤلف لوضع شخصياته فى الجنة أو النار بالسعة والرحمة واللطف وتحرر النظرة ، مما كان يصطدم بلا شك بمنظور الفقهاء الذين يرون فى دخول أناس معروفين بكفرهم أو فسوقهم الجنة زندقة لاتغتفر . فالمعرى إذن كان يحتكم إلى ميوله وأهوائه الأدبية ليسلم بعض الأرواح إلى الجنة أو النار كما يتراءى له شامتا فيهم أو آسفاً عليهم ، معربا فى كل حالة عن رفقه بهم أو سخريته منهم أو غبطته لهم طبقا لظروف كل موقف ورأيه الشخصى فى أبطاله .

ونفس هذه الوسائل الفنية التى استخدمها المفكر الإسلامى هى التى تظهر مرة أخرى فى الكوميديا الإلهية ، حيث يستخدمها دانتى لأغراضه وخططه التى كانت أشد طموحاً وأبعد مدى مما رأيناه عند المعرى . فكأن الشاعر الإيطالى قد وسع من المجال الذى شقه من قبله الشاعر الاسلامى متجاوزاً الحدود الأدبية البحتة التى وقف عندها الأول ليضع فى نفس الإطار تقريباً أسطورة أعظم وأثرى فى تفاصيلها ودلالتها ، إذ تتضمن رؤية المؤلف للكون

والوجود ، ولا تقتصر على الأفكار اللغوية والأدبية ، بل تشمل جملة معارفه وعلوم عصره ، فالكوميديا الإلهية فى واقع الأمر تعد موسوعة هائلة بجميع علوم العصر الوسيط ، واستعاراتها التعليمية هى فى نفس الوقت مجاز خلقى وسياسى ودينى ، وبهذا فهى تعتبر رسالة جامعة تتعرض لتاريخ البشرية عموما ولما كانت عليه إيطاليا والإمبراطورية المسيحية فى القرن الثالث عشر على وجه الخصوص . أى أنه إذا كان المعرى قد انتهج لنفسه خطة الكشف عن معارفه الأدبية واللغوية وأحكامه النقدية على كبار الشعراء فإن دانتى ترك فى ملحمته ملخصاً لمعارفه العلمية والتاريخية وتجاربه الدينية والسياسية بشكل موسوعى يكاد يستغرق كل ما عرف به عصره .

ومن هنا نجد أن عددشخصيات دانتى أكبر بكثير من عدد شخصيات المعرى ، ويضاف إلى هذا التفوق العددى تنوع الشخصيات عند الشاعر الإيطالى ، لأن الطبقات الأدبية التى يعتمد عليها المعرى قد أصبحت عند دانتى طبقات اجتماعية ، فشخصياته التاريخية والأسطورية تنتمى إلى جميع المستويات وقد صورت كلها بطريقة واقعية حية . وتبدو الأرواح لدانتى فى الفردوس وهى متجمعة فى طوائف ، بعكس ما نجدها فى الجحيم منعزلة متفرقة ، كما نجد أن حلقات الأجناس الأدبية التى وجدناها عند المعرى تقابل عند دانتى الحلقات التى تتكون فى كل سماء من رجال الدين تارة والفرسان المحاربين أو القضاة أو أهل الصوامع تارة أخرى ؛

وكما رأينا فى رحلة أبى العلاء نجد أن الحوار عند دانتى يسير على نفس النسق ؛ فإما أن يسأل المسافر محدثه عن المكان الذى يمكن أن يلتقى فيه بروح فلان ، وإما أن تظهر له الروح فجأة على غير موعد دون أن يسأل عنها ؛ وفى كلتا الحالتين فان محدثيه يشيرون له إلى بغيته ، أو يصبح من العسير عليه أن يتعرف على شخصيته لتبدل ملامحه فيسأله عن اسمه ،

وإذا كان اختلاف التصميم والهدف فى كل من الأثرين يجعل الحوار الذى يعقده دانتى أكثر تنوعا فى موضوعاته وثراء فى تفاصيله من الأثر

العربى الذى يكاد يقتصر على القضايا الأدبية واللغوية ، فان كلا منهما يحتوى على إشارات محددة للحياة الدنيا ووقائعها ، كما أننا لانعدم فى محاورات دانتى — خاصة فى الجحيم والمطهر — ما يتصل بالحياة الأدبية والفنية المحدثيه من شعراء وموسيقيين ؛ مما يقدم لنا وجوه شبه عديدة وموحية بما رأيناه عند المعرى من قبل ؛ ويكفى أن نستعرض — مع أسين بالاثيوس — بعض الأمثلة على ذلك :

١ — يتعرف دانتى على المايسترو « برونيتى لاتينى » الذى تنهمر عليه أمطار النـــار ويحدثه عن وقائع من حياتهما ، ويزوده « لاتينى » ببعض أسماء رفاقه ؛ ويوصيه بعمله الموسوعى الكبير « الكنز » (١).

٢ — يلتقى دانتى فى المطهر بالموسيقار الفلورنسى « كاسيلا » ويطلب منه أن يترنم بالأغنية التى ألفها دنتى نفسه ووضع « كاسيلا » موسيقاها (٢).

٣ — يتعرف الشاعر « سورديلو » على فرجيل ويشيد بأشعاره (٣) .

٤ — يتحدث الرسام « أوديزيس » مع دانتى عن تاريخ الفن الإيطالى ويشيد ببعض شعرائه (٤) .

كل هذه الأمثلة — وكثير غيرها مما لاسبيل إلى حصره — يؤكد أن الطابع الأدبى الذى تميزت به رسالة الغفران ، والذى أضفى على التراث الدينى للمعراج سمة أدبية وفنية هو نفس الطابع المميز للكوميديا الإلهية كملحمة فنية قبل أن تكون موسوعة دينية أو أخلاقية مجازية .

كما يتفق دانتى مع أبى العلاء فى معانى التسامح وسعة الأفق فى معاملة الأرواح ؛ إذ يتصور دانتى نجاة أبطاله من عذاب الجحيم ومنهم الشعراء

---

(١) انظر الجحيم — النشيد الخامس عشر

(٢) انظر : المطهر — النشيد الثانى .

(٣) انظر نفس المصدر النشيدان السادس والثامن

(٤) انظر : نفس المصدر النشيد الحادى عشر .

والوثنيون والمسلمون وغيرهم ،فيضع فى المطهر قيصر وسقراط وأفلاطون وأرسطو وفرجيل وشيشرون وسينيكا إلى جوار ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبى ، ثم يرقى بعض هؤلاء إلى الجنة ويبقى الآخرين فى المطهر ، كما نجد أن ميوله وأهواءه السياسية تحدد أيضاً إدانته لبعض رجال الكنيسة من عصره وإدخالهم نار السعير ومنهم بابوات وأمراء مسيحيون ساء مصيرهم عند دانتى لا لعقيدتهم الدينية وإنما لممارستهم للأعمال العامة على غير هواه ؛ كما أن مشاهد الجنة والعذاب تثير عند الشاعر الإيطالى نفس المشاعر التى أثارتها من قبل عند أبى العلاء المعرى من رقة وإعجاب أو سخرية و غضب طبقا لكل حالة من الحالات ،

التشابه في حوادث خاصة :

وإلى جانب هذه الملامح العامة التى يلتقى فيها دانتى مع المعرى هناك بعض الحوادث الخاصة التى يصل فيها التشابه إلى درجة التطابق ، بالإضافة إلى بعض الملامح المحددة الأخرى . فمن قبيل النوع الأول ما نجده فى رسالة الغفران من لقاء ابن القارح بحوريتين من الحور العين ، يبهره جمالهما ، فيقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها ، ويتمثل فى حسنها بأبيات لامرئ القيس ، فيستغربان فى الضحك ؛ وتقول إحداهما : أتدرى من أنا ياعلى بن منصور ؟ فيقول : أنت من حور الجنان اللواتى خلقهن الله جزاء للمتقين . فتقول . أنا كذلك بإنعام الله العظيم ، على أنى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن فى باب العراق بحلب ، وأبى صاحب رحىً ، وتزوجنى رجل يبيع السقط ؛ فطلقنى لرائحة كرهها من فى ، وكنت من أقبح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا الغرارة وتوفرت على العبادة فصيرنى ذلك إلى ما ترى .

وتقول الأخرى : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ؛ وكنت أخرج الكتب إلى النساخ ؛ فيقول : لا إله إلا الله . لقد كنت سوداء فعدت أنصع من الكافور(١) .

فلو تغاضينا عن أسلوب المعرى الساحر فى هذه الواقعة لوجدنا شبها بعيداً بينها وبين بعض الوقائع عند دانتى ، مثل لقائه مع « بياسينا » فى المطهر ؛ ومع « بيكاردا دوناتى » الفلورنسية فى سماء القمر ، ومع « كوينزا دى بادوا » فى سماء الزهرة ؛ حيث تنعى أولاهن — مثل حمدونه — حظها التعيس وشقاءها فى حياتها الزوجية ؛ وما تبدو عليه « بيكاردا » من جمال رائع وحسن فتان يدهش دانتى لأنها لم تكن كذلك

---

(١) انظر : رسالة الغفران لأبى العلاء ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ص ٢٨٤ .

أبدا فى الحياة الدنيا مثل توفيق السوداء . وكلهن يتقدمن إلى دانتى ويذكرن له أسماءهن فى الدنيا وموطنهن كى يشبعن فضوله ويثرن عجبه بنفس طريقة الغفران .

ومن قبيل هذا النوع من التشابه كذلك لقاء ابن القارح بآدم عليه السلام فى الجنة ؛ حيث نرى أن موضوع الحديث الرئيسى بينهما هو اللغة الفطرية الأولى التى كان يتحدث بها أبو البشر ؛ فيقول آدم : إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا فى الجنة ؛ فلما هبطت إلى الأرض نقل لسانى إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت . فلما ردنى الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية (١) .

كذلك يلتقى دانتى فى السماء الثامنة بآدم ؛ حيث يكون موضوع الحوار الرئيسى بينهما هو أيضاً اللغة التى كان يتحدث بها أبو البشر خلال إقامته فى جنة الأرض(٢) . هذا مع اختلاف اللغات التى يعزوها دانتى إلى آدم عن تلك التى ذكرها المعرى بطبيعة الحال .

وعندما يعود ابن القارح من الجحيم تلقاه الحورية المكلفة بخدمته فتلومه برقة على تأخره ، وتصحبه فى نزهته بين حدائق الجنان وأها ضيب الفردوس ، وهذا نفس ما تفعله الحسناء « ما تيلدى » مع دانتى حيث تلقاه باسمة عاتبة عند دخوله غابة الفردوس الأرضى ، وتجيب على أسئلته بلطف ومهارة ، ويمضى فى نزهته معها حتى تقع عينه على كوكبة من الحسان اللاتى يحطن بحبيبته « بياتريشس » وهى تهبط من السماء للقائه ، كما وقعت عين ابن القارح من قبله على كوكبة مماثلة من الحوريات وهن يحطن بحبيبة امرئ القيس التى خلد ذكرها فى أشعاره (٣) .

---

(١) انظر : نفس المصدر ص ٣٦١ .

(٢) انظر : الفردوس ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد السادس والعشرون ، أبيات ٧٩ — ٩١ .

(٣) انظر : رسالة الغفران ص ٣٧٣ .

وتمضى الرحلة التى يقوم بها ابن القارح إلى الجحيم على نفس الوتيرة التى تسير بها رحلة دانتى بالرغم من إتجاهها العكسى ؛فدانتى يزور الجحيم قبل الفردوس ، أما ابن القارح فينتقل من الجنـــة إلى الجحيم ، وعندما يشرع دانتى فى السير يجد الطريق أمامه مسدوداً بثلاثة وحوش : نمر أرقط وأسد وذئب ، وعندما ينجح فى اختراق هذه المخاطر يلتقى بفرجيل رائد الشعراء الكلاسيكيين وأمير الملاحم(١). أما المسافر المسلم فى رسالة الغفران فإنه يلتقى أولا قبل أن تعترضه العقبات « بخيتعور » ملك الجان الذى ينشده طرفا من أشعاره الملحمية ، وعلى مدخل الروضة التى تسكنها أرواح الجان تلقى ابن القارح بالعقبات التى تسد أمامه الطريق ، وتتمثل فى أسد يفترس بقار الجنة وإبلها ، دون أن تأذى الفريسة بظفر ولاناب ؛ بل تجد من اللذة مثلما يجد . وذئب يقتنص ظباء الجنة فتعود بالقدرة لما كانت عليه(٢). وقد جهد شراح دانتى ومفسروه فى تأويل المعنى المجازى لهذه العقبات وما ترمز إليه تلك الوحوش من دلالات خلقية أو سياسية ، ولكنهم لم يفطنوا— قبل أسين بالاثيوس — إلى أن السابقة الأدبية الكبرى التى تتمثل فى رسالة الغفران تعرض اثنين من هذه الوحوش وتضفى عليهما دلالة ميثولوجية تتصل بالسيرة النبوية وترتبط بنوع من الحيوانات المتوحشة المضادة التى تقف على طرف النقيض مع الحيوانات الأخرى الموالية التى حدثت الرسول واعترفت بمعجزاته . وكأن دانتى قد أفاد من هذه الوقائع فى رسالة الغفران وأدب المعراج والسيرة النبوية، وأضاف إليها النمر الأرقط ليصل بالوحوش المجازية إلى رقم خاص ثلاثى .

أما النوع الثانى من المشابه المحددة التى لا تصل إلى درجة التطابق بين الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران فنوجز من أمثلته التى ذكرها أسين بالاثيوس ما يلى :

---

(١) انظر : الجحيم لدانتى ، الأناشيد ١ — ٤ .

(٢) انظر : رسالة الغفران . ص ٣٠٦ .

١ ـ يعبر المسافر المسلم الصراط الذى يفضى إلى الجنة على ظهر جارية من جوارى السيدة فاطمة الزهراء فتحمله وتجوز به كالبرق الخاطف ، بعد أن كان لايستمسك ويتساقط عن يمين وشمال(١). مثلما يعبر دانتى وفرجيل الممر الذى يصل بين الحلقتين السابعة والثامنة على متن « جيريون » (٢). وكان ابن القارح قد عرج إلى السماء متعلقا بركاب فاطمة الزهراء التى تطير فى الهواء مثلما استعان دانتى فى صعوده بحبيبته وهاديته بياتريش التى قادته إلى عالم الملكوت الأعلى .

٢ ـ يرفض الشاعر العربى « بشار بن برد » الإجابة عن أسـئلة ابن القارح ويصيح به عندما يلح عليه : يا هذا دعنى من أبا طيلك فإنى لمشغول عنك(٣) . ومثل هـذا الموقف يمر به دانتى مع « بوكادلجى أماتى » الذى يرفض الإجابة عن أسئلته ويودعه أيضاً بمثل تلك العبارات الساخطة(٤) .

٣ ـ يطلع بطل الغفران فى الجحيم فيرى إبليس وهو يضطرب فى السلاسل والأغلال ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية فيدور بينهما حوار طريف يسأله إبليس خلاله عن اسمه وصنعته ، وعندما يعرف أنها الأدب يقول له : « بئس الصناعة ، إنها تهب غفة من العيش لايتسع بها العيال ، وإنها لمزلة بالقدم وكم أهلكت مثلك »(٥) . ثم لا يتورع وهو فى تلك الحال عن محاولة إغوائه وتشكيكه فى دينه بسؤاله عن أهـل الجنة وصنيعهم مع الولدان المخلدين .

وشبيه بهذا ـ بصفة عامة ـ ما نجده عند دانتى فى وصفه للعملاق النارى « إفلياتى » الذى يلقاه عند انتقاله من الحلقة الثامنة إلى التاسعة من

(١) انظر : رسالة الغفران ، ص ٢٦٠/٢٦١ .

(٢) انظر : الجحيم النشيد السابع عشر .

(٣) انظر : الغفران ص ٣١٣ .

(٤) انظر : الجحيم النشيد ٣٢ .

(٥) انظر : الغفران ص ٣٠٩ .

حلقات الجحيم وما يدور بينهما من حوار وإن كان لا يصل إلى سخرية المعرى اللاذعة (١)

ومهما كانت المشابه الجزئية محدودة فإن المهم فى سياقنا هذا هو أن أبا العلاء المعرى قد استثمر أدب المعراج وتراثه الفنى لكتابة أثر فنى خالد يفيد من إطاره العام فحسب ويصب فيه خلاصة لمعارفه اللغوية وهمومه النقدية ، تاركا لخياله المبدع أن يقيم عوالم شائقة للفن والعلم والسمر فى الحياة الأخرى ، فقدم بهذا أكبر سابقة أدبية فى العصور الوسطى للكوميديا الإلهية التى التقطت بدورها أدب المعراج وصاغت منه ملحمة دينية مستوعبة لجميع العناصر التى غذتها بها الثقافات العالمية .

ولقد أثيرت فى الفترة الأخيرة مشكلة المصادر اليونانية المحتملة لرسالة الغفران(٢) وتحول الحوار إلى ما يشبه الصراع بين دعاة التأصيل القومى من جانب وأنصار النزعة العالمية من جانب آخر ، ويبدو أن نقطة الضعف الجوهرية فى نظرية ارتباط الغفران بالتراث اليونانى هى القول — دون استقصاء علمى كاف — بخلو المصادر الإسلامية من كثير من صور المعرى فى رسالته ، والقفز منها إلى الميثولوجيا اليونانية وآدابها مباشرة اعتمادا على الظن فحسب ، مع أن تحليل هذه العناصر يؤدى إلى إرجاعها لمكونات الثقافة الإسلامية بسهولة ويسر(٣) ، وتظل الخطوة التالية التى لابد منها هى الدراسة المنهجية للعلاقة التاريخية القديمة بين الحياة العربية والثقافات المتاخمة لها ، وتحليل مدى أصالة العناصر الميثولوجية التى دخلت فى نسيج التراث الشعبى للأمة الإسلامية بمناهج علم الفولكلور الحديثة .

---

(١) انظر : الجحيم — النشيد ٣١ .

(٢) انظر : على هامش الغفران للدكتور لويس عوض دار الهلال بالقاهرة ١٩٦٦ . أباطيل وأسمار للاستاذ محمود شاكر ، القاهرة ١٩٦٥ .

(٣) مثل الشباب فى الجنة ، والتحولات المعروفة فى التراث الإسلامى بسوق الصور ، النساء والحور من شجر وبجع الواردة فى كتب الرقائق الإسلامية ، وأشجار الصفصاف وغناء الحور العين .

على أن قضايا التأثير والتأثر فى الأدب المقارن ينبغى أن تعالج بروح علمى يقيم الفرض ويدرس بموضوعية ما يؤيده أو ينفيه ، فإذا ما انتهى إلى نتيجة لا تتعسف ولا تلوى النصوص ولا تجد الدليل فى غير مظانه تقبلها بطيب خاطر وسعة صدر .

ولئن كانت البحوث المقارنة لم تثبت حتى الآن صلة تاريخية مباشرة بين المعرى ودانتى فإن وجود التراث الإسلامى المتصل بالإسراء والمعراج كمصدر مشترك واحتمال اطلاع دانتى على ترجمة أو ملخص لرسالة الغفران وتوافق بعض المشاهد والمواقف كل هذا يصلح للنهوض بهذا الفرض وطرحه كسؤال لايزال يلتمس الأدلة اليقينية فى البحوث المقارنة فى المستقبل .

تحليل بعض العناصر الصوفية :

استنبت الخيال الشعبي لدى المسلمين كثيراً من الصور الأدبية والفنية حول الإسراء والمعراج ، متزيدا على النصوص الدينية الثابتة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة بقصص نثرية وقصائد شعرية تنسب فيها أحاديث مطولة للرسول عليه الصلاة والسلام ولجبريل وحوارهما مع سكان السماء والملكوت الأعلى ، بل وينطق فيها من لاحياة له من المخلوقات مثل العرش الإلهى وبعض معالم السماء والجنة ، حتى تكون ما يمكن أن يسمى بأدب المعراج وظهرت بعض الدراسات التحليلية له .

وقد أخصب الصوفية هذه القصص بدلالات روحية عميقة وأصبح من تقاليدهم وضع قصص معراج خاصة بهم ، خاصة الأدب الفارسى الذى تقوم عراقته وأصالته على أساس التصوف الإسلامى حيث يجمع بين فنون الدين والفلسفة ويفيض بآداب رفيعة من مثل « سير العباد إلى المعاد » لسنائى الذى شرح فيه رجوع النفس من عالمها المظلم الذى سقطت فيه إلى أصلها الإلهى ومقرها الأخير كما سندرس فيما بعد .
والذى يهمنا الآن هو التنويه بتأثير المعراج فى هؤلاء المتصوفة الذين « حلقوا بهذه القصة فى العوالم ، وطافوا بخيالهم فى الآفاق . واستلهموا من روحها فيضا وحكمة ، نذكر منهم أبايزيد البسطامى — الذى عاش فى القرن الثالث للهجرة أو التاسع الميلادى -- ومعراجه الذى نسج فيه على منوال المعراج النبوى وجعله أنموذجا لحاله ومقامه وقصده إلى الله فى رؤيا منامية بديعة »(١)

ولكن النموذج الأوفى لهؤلاء المتصوفة نجده عند محى الدين بن عربى الذى توفى عام ٦٣٨ هـ أى فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد وضع عدة كتب ومؤلفات ذات صلة وثيقة بالإسراء والمعراج مثل « كتاب الإسراء إلى المقام الأسمى » وكتاب « مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار

(١) نظر مقدمة كتاب المعراج للقشيرى للدكتور على حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٣ .

الإلهية » وكتابه « تنزلات الأملاك فى حركات الأفلاك » وكلها تستقى من الفيض الصوفى ، وتقدم روئية خاصة للمعراج ترتكز على الحقائق الروحية كدلالة أخيرة للظواهر الحسية ، ويهمنا أن نسوق نموذجا شعريا موجزا لهذه الروئية الرمزية ورد فى كتاب ابن عربى المسمى « الإسرا إلى المقام الأسمى » أو « الإسرا إلى مقام الأسرى » على اختلاف المخطوطات ، قبل أن نعرض للقصة النثرية ، وفيه يقول : —

لله در عصابة سارت بهم ... نجب الفناء لحضرة الرحمن
قطعوا زمانهم بذكر حبيبهم ... وتخلقوا بسرائر القـــرآن
ورثوا النبى الهاشمى المصطفى ... من أشرف الأعراب من عدنان
ركبوا براق الحب فى طلب المنى ... وسروا لقدس النور والبرهان
وقفوا على حجر الصفا فأتاهم ... لبن الهدى من منزل الفرقان
قرعوا سماء جسومهم فتفتحت ... أبوابها فبدت لهم عينان
عين تبسم ثغرها لما رأت ... أبناءها فى جنة الرضوان
وشمالها عين تحدر دمعها ... لما رأتهم فى لظى النيران
كملت صفاتهم العلية فارتقوا ... عن سدرة الإيمان والإحسان
للذات كان مصيرهم فحباهم ... بشهودهم عينا بلا أكوان
وصلوا إليه وعاينوا ما أضمروا ... من غيب سر السر كالأعلان
سبحانه وتقدست أسماؤه ... وعن الزيادة جل والنقصان

فالشاعر الصوفى يتمثل تجربة المعراج الروحى للحضرة الإلهية كمنهج يستقى منه صوره الفنية بطريقة تربط بين الواقع المادى من ناحية والوسائل الخلقية التى تقود إلى معاينة الأسرار من ناحية أخرى ؛ فهم يقطعون المسافات المكانية والزمانية بالذكر . ويركبون براق الحب ، ويقفون على حجر الصفا حتى يصلوا إلى الصورة المركزية المكثفة حيث يقرعون سماء الجسوم بالمعاناة والتطهر حتى تفتح لهم الأبواب ، وتنطلق أرواحهم منعتقة من براثن المادة وقيود الطبيعة فتصل عن طريق الكمال والإيمان إلى درجة الإحسان والشهود ، فإذا قارنا هذه المراحل بالمستويات المجازية للكوميديا الإلهية

كما صرح بها دانتى نفسه — وجدنا تشابها واضحا بين الحالتين : إذ أن الشاعر الإيطالى قد رصد وراء أبياته ثلاثة مستويات دلالية . أولها مجاز شخصى وثانيها مجاز خلقى معنوى ، وثالثها روحى صوفى بالإضافة إلى المعنى الحرفى الأول ، فيقول فى رسالته الشهيرة إلى «كان جراندى دى لاسكالا» . :

إن المعنى المقصود بهذا المؤلف — أى الكوميديا — ليس معنى واحدا فحسب ، بل إنه يمكن أن يعد مؤلفا متعدد المعانى ؛ فالمعنى الأول هو المعنى الحرفى الذى يدل عليه اللفظ ، ثم يليه المعنى الذى يمكن أن يحتمله اللفظ ، سواء كان رمزيا أو خلقيا أو روحيا »(١) . ويطبق دانتى هذه التفسيرات على ما جاء فى التوراة بشأن المزمور الذى يتناول خروج بنى إسرائيل من مصر ففى المعنى اللفظى يعنى هذا خروج بنى إسرائيل من مصر فى زمن موسى ، وفى المعنى الرمزى قد يقصد بذلك خلاص البشرية كلها على يد المسيح — كما عند المسيحيين — وفى المعنى الخلقى قد يدل هذا على تحول الروح من بؤس الخطيئة وأحزانها إلى حالة النعمة ، وفى المعنى الروحانى يمكن أن يدل ذلك على انتقال الروح المباركة من قيد الفساد فى هذا العالم إلى رحاب الحرية والمجد السرمدى (٢) وهذه المعانى الصوفية الثلاثة يمكن أن تعد كلها معانى رمزية إذ أنها تختلف عن المعنى اللفظى الأول .

أى أن الكوميديا الإلهية — طبقاً لهذا الفهم — تعبير مجازى عن حياة دانتى الشخصية وعن خلاص البشرية ، فدانتى نموذج للانسان الذى أضله الجهل وأعمته الشهوات ، لكنه يستطيع أن يتحرر من عبودية الشر بهداية من عقله وفضل من الله تعـالى ، وذلك عن طريق التطهر والتوبة من الذنوب ، هذا التطهر الذى يرمز إليه بالرحلة إلى الجحيم والمطهر . وعندما

(١) انظر: مقدمة ترجمة الفردوس للدكتور حسن عثمان . دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩ . ص ١٧/١٨

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٨ .

يظفر بهذا الكمال الخلقى يصعد – عن طريق التأمل وبنعمة من الله – إلى السعادة الخالدة التى تتمثل فى لذة الاستمتاع برؤية الذات العلية .

فدانتى إذن – مثل المتصوفة المسلمين عامة وابن عربى بصفة خاصة – يستخدم معراج الإنسان إلى السماوات ليرمز به إلى الدراما الصوفية للتجدد الأخلاقى للأرواح بالإيمان والكمال والصلاح (١) .

وقد كان دانتى يتصور الذات الإلهية على أنها نور الأنوار ، وأن الأشعة المنبعثة منها تختلف شدة وضعفاً تبعاً للقرب من المصدر الإلهى ، وأن الخلق ليس إلا انبثاقاً لهذا النور ، وهذا هو التصور الاشراقى الذى نادت به الفلسفة الأفلوطينية المحدثة والذى لم يعرف فى الغرب إلا عن طريق الفلاسفة والمتصوفين العرب ، إبتداء من ابن مسرة الأندلسى إلى أن وصل إلى ذروته عند ابن عربى . وقد وصل تأثيره إلى كبار أتباع القديس أوغسطين فى العالم المسيحى حتى عمر دانتى نفسه .

ويرى « أسين بالاثيوس » أن هناك تشابهاً بين بعض أعمال دانتى الأخرى مثل « مجموعة الأغانى Cancionero » وديوان ابن عربى الهام « ترجمان الأشواق » وأن هذا القرب هو الذى يشرح أصل تيار الشعر الغنائى الإيطالى المسمى بالأسلوب الحلو الجديد Dolce Stil nuevo إلى جانب بعض المؤثرات العربية الأخرى التى انتقلت عن طريق شعراء التروبادور مما أدى إلى فتح جديد فى الغزل الأوربى ينظر فيه إلى المرأة – لا باعتبارها غرضاً للمتعة الجنسية – وإنما بنظرة روحية نبيلة مما ينم عن تأثير الشعر العذرى والصوفى الإسلامى اللذين قدما من المشرق أو صيغا فى الأندلس .

ويرجح بعض الباحثين المحدثين اليوم أنه إذا لم يثبت حتى الآن اطلاع

---

(١) انظر : Asin Palacios, Miguel. "La escatologia Musulmana en la Divina Comedia" Madrid 1961. P.79.

دانتى على بعض مؤلفات ابن عربى بصفة مباشرة فان كثيراً من «مجموعات المخطوطات» التى كانت شائعة فى عصره ، والتى كانت تقدم ترجمات من العربية إلى اللاتينية لفلذات هامة من التراث الإسلامى كانت تحتوى على فقرات مطولة لبعض فلاسفة الإشراق المسلمين المتأثرين بنظريات ابن عربى ، وأن المرجح اطلاع دانتى عليها وتأثره بها ، الأمر الذى تؤكده المقارنات الموضوعية التى أجريت على أعماله (١) .

(١) انظر : Sanchez – Albornoz, Claudio. "EL Islam de Espana y el Occidente". Madrid 1974. P.218.

كيمياء السعادة لابن عربي :

على أن أهم نص صوفي أثر عن ابن عربي و لوحظت وجوه الشبه القوية العديدة بينه وبين الكوميديا الإلهية هو الفصل الذى ورد فى « الفتوحات المكية » تحت عنوان « كيمياء السعادة » (١) ويهمنا أن نعرض ملخصا موجزا له لنشير إلى مناط المقارنة منه .

يرى ابن عربي أن الأرواح عندما يجمعها خالقها بالأجسام تنحو إلى معرفة جوهر بدايتها وهو الحق فتبحث عن الطريق الذى يقودها إلى ذلك الهدف . وهنا تأتيها رسل الله الذين اختارهم من زمرة البشر فيتقدمون لهدايتها كى تصل إلى معرفة الخالق وتحصل بذلك على سعادتها . فتتقبل بعض الأرواح برضى وحبور هداية الرسول ، وترفض أرواح أخرى عونه بحجة أنها لاترى له فضلا عليها ولا سموا فى درجات المعرفة عنها، وبالتالى فان الأرواح الأولى تتبع هداية السماء ، بينما تكتفى الأخرى بأنوار العقل الطبيعى ،

وهنا تبدأ الحكاية المجازية الصوفية ، وبطلاها مسافران ينتميان إلى هذين النوعين من البشر : أحدهما عالم بالشريعة والآخر فيلسوف عقلى ، وهما يشقان طريقهما فى وقت واحد إلى الله تعالى . وترمز المراحل الأولى للرحلة — قبل الصعود إلى المعارج السماوية — إلى كمال الأرواح وسعادتها الطبيعية بالتربية وكبح جماح العواطف وقهر شهوات الجسد ، وفى تلك المراحل الأولى تكاد تلتقى الفلسفة مع الشريعة التقاء تاماً فى التعاليم ، وهكذا يتمكن كل من المسافرين ، أحدهما بهداية العقل والآخر بنور الإيمان من التحرر من تأثير العواطف الضارة ونبذ الروابط التى توثقهما إلى الأرض .

وعند هذه النقطة يبدأ المعراج السماوى باجتياز نفس المراحل التى مر

---

(١) انظر : الفتوحات المكية لمحى الدين بن عربي . طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ المجلد الثانى . ص ٢٧٠ .

بها الرسول صلى الله عليه وسلم فى معراجه ، وهى سبع مراحل تتمثل فى السماوات السبع الفلكية . سماء القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل . ويصل الراحلان الرمزيان إليها بنفس السرعة : أحدهما وهو الفيلسوف على مركبه الخاص أو براقه الذى يرمز للعقل ، والثانى وهو المؤمن على جناح النور والنعمة الإلهية . لكنهما وإن وصلا معاً إلى أبواب السماوات يختلفان فيما عدا ذلك.فلا يستويان فى الحفاوة التى يلقيانها ولا فى الفائدة التى يجنيانها ، فتابع الشريعة يحتفى به الملائكة المعتمدون فى السماوات التى يزورها ، بينما يضطر الفيلسوف إلى البقاء بعيدا عن رفيقه، وبدلا من تبادل الحديث مع رسل الله عليه أن يكتفى بالتعامل مع العقول التى تحرك الأفلاك السماوية — طبقا لنظريات الأفلوطينية المحدثة — وتقوم هى نفسها على خدمة الأنبياء . هـذا الفرق فى المعاملة بين المسافرين يملأ تابع الشريعة بالجذل والغبطه ويفعم الفيلسوف بالحزن والألم ؛ إذ يرى على بعد مظاهر تكريم صاحبه ولا يستطيع التعرف على الأسرار العليا التى يكشفها الأنبياء لرفيقه . وبالرغم من أن الفيلسوف لايظل ضائعاً تماما فى السموات السبع ، إذ تتولى العقول التى تقطن كل سماء تعليمه وإطلاعه على المشاكل الطبيعية أو الفلكية التى تتوقف على تأثير كوكبها الطبيعى فى الظواهر التى تطرأ على العالم الأرضى ، إلا أن سعادته تتضاءل عندما يرى أن تابع الشرع يجد حلولا لجميع هذهالمشاكل الفلسفية فى تعاليم الأنبياء بطريقة أسمى وأوضح وأبسط مما يتيحه العلم الطبيعى ، هذه الحيلة القصصية الذكية تسمح لابن عربى أن يدخل فى سياقه المجازى قسطا وافرا من مبادئه الشخصيه كعالم دينى ذى طابع موسوعى فى فلسفته الكلامية وعلوم الباطن التى يتبحر فيها ويصوغها فى شكل خطب أو رسائل يلقيها الأنبياء . وقد تبدو هذه الخطب أحيانا مجملة مركزة ، وأحيانا أخرى مسهبة مطولة على حسب ما يقتضيه الموقف .

ففى سماء القمر يقوم آدم عليه السلام بتعليم تابع الشرع التأثير الخلاق للأسماء الحسنى ، الذى يتمثل عند ابن عربى فى نماذج المخلوقات ويقابل

العلل الغائية فى الفلسفة . ويشرح له الظواهر الطبيعية فى محيط القمر وتغير العناصر المادية وأجزائها ، ونمو وغذاء المخلوقات الحية وتناسل السلالة البشرية . فإذا رأى الفيلسوف الذى يستقى تعاليمه من العقل المقيم فى القمر أن هذه الظواهر من تأثيرات السماء الفلكية الأولى وجد تابع الدين تفسيرا مقنعا لها فيما يلقنه له آدم عليه السلام من بركات أسماء الله الحسنى باعتبارها نماذج الخلق ومبادئ ذات قوى حقيقية عند ابن عربى .

وفى السماء الثانية بينما يستقبل الكاتب – أى عقل عطارد – الفيلسوف يجد عالم الدين فى استقباله أنبياء الله ابنى الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام فيشرحان له أسرار إعجاز القرآن كدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويورد ابن عربى هنا تفسيراً فى غاية البراعة ونفاذ البصيرة لاختلاف القرآن عن الشعر ، إذ أن مناط الرسالة هو البيان والتفصيل والشعر محله الشعور والتركيز والإجمال ، ثم يتحدث على لسان النبيين الكريمين عن المعجزات بصفة عامة وعن الخواص التى تتميز بها بعض الكلمات فتصبح ذات قيمة تنبؤية خاصة ؛ وعن سر كلمة كن الخلاق ؛ وعن النفس الإلهى الذى تنتج عنه المخلوقات من العدم ، وعن التوالد الطبيعى بعد ذلك . كما يشرح عيسى – وهو روح الله وكلمة منه – لتلميذه الطريقة السحرية للمعجزات التى قام بها من شفاء المرضى إلى إحياء الموتى بإذن الله . فكل هذه الظواهر التى تشمل التوالد الطبيعى والبرء والبعث تأتى من السماء الثانية وتتحقق فى بعض درجاتها بأمور طبيعية ، لكنها كمعجزات للسيد المسيح تخضع لكيمائيته الخارقة ، أما إذا حدثت بصفة عادية فانها ترتبط حينئذ بالعلة الغائية الكامنة فى عقل عطارد . ولا يستطيع الفيلسوف أن يتعلم خلال إقامته فى هذه السماء سوى تلك الفكرة الأخيرة المتصلة بالعلوم الطبيعية فحسب .

ويسير الأمر على هذا النسق فى بقية السماوات ، حيث نجد هذا الفرق دائما ماثلا فى طبيعة وقيمة كل من المعرفتين ، واختلاف الفائدة التى يجنيها كل من المسافرين . ففى سماء الزهرة يشرح النبى يوسف عليه السلام نظام

العالم وجماله و فن الشعر و تأويل الأحلام، وفى سماء الشمس يشرح إدريس سبب تعاقب الليل والنهار والنتائج الصوفية العديدة المترتبة على هـذه الظاهرة . وفى سماء المريخ يلقى نبى الله هارون خطاباً مطولا عن حكم الشعوب وأسسه موصياً تابع الدين أن يجنح إلى الرفق والرحمة فى تطبيق الشريعة السماوية ، تحقيقاً للمعيار السياسى الربانى الذى يعتمد على الرحمة دون النقمة . وفى سماء المشترى يشرح موسى فى محاضرة مطولة فكرة وحدة الوجود الصوفية منطلقا من موضوع معجزة العصا التى تتحول إلى حية تسعى وتلقف ما يأتيه السحرة أمام فرعون ، وشارحا كيف أن الأشكال والأعراض هى وحدها التى تتغير فى الكون ، أما الجوهر والقوام فإنه دائماً نفس الشىء الثابت . وفى النهاية – فى سماء زحل – نجد إبراهيم متكئا على حائط البيت المعمور يشرح لتابع الشرع الذى يجلس أمامه مشكلة اليوم الآخر . بينما نجد الفيلسوف حزينا مكتئباً مستوحشا داخل حجرته المظلمة ينتظر انتهاء هذا الشرح حتى يحاول الاقتراب من ابراهيم أبى الأنبياء ليظهر ندمه على سلوكه ورغبته الخارقة فى اعتناق الإسلام والتمتع بنور الإيمان المعجز ، لكن ابراهيم ينحيه جانبا ويدخل مع المتدين إلى البيت المعمور .

وهنا يبدأ الجزء الثانى من المعراج حيث يخرج تابع الدين ويستأنف رحلته وحيدا إلى الملكوت الأعلى بدون رفيقه الذى يؤمر بأن يظل فى مكانه لايبرحه . ومراحل هذا الجزء التى لايرقى إليها الفيلسوف ذات طبيعة روحية صوفية محضة ، فهو يصعد أولا الى سدرة المنتهى ، وهى شجرة ترمز ثمارها الى أعمال المؤمنين الصالحة وتجرى من تحتها أربعة أنهار صوفية ترمز إلى التوراة والإنجيل والزبور ، ورابعها وهو أعظمها ومنبعها يرمز إلى القرآن الكريم . ومن هنا يصعد إلى سماء الكواكب الثابتة التى لاتقبل الفساد حيث يراها آهلة بآلاف الأرواح الملائكية والأولياء ، فيطوف على مساكنهم حيث يشهد ما أعد الله لهم من النعيم المقيم . وعندما يدخل آخر

السماوات الفلكية — وهى السماء ذات البروج — تنكشف للمؤمن أسرار جميع ظواهر الفردوس السماوى . ثم لا يلبث أن يصل إلى الكرسى ويعرف سر الرحمة والعدل الإلهيين وأسرار الخلود فى الدار الآخرة . ثم يغمره الضوء المنبثق من العرش الإلهى ببهائه ،وتحرك الموسيقى المنبعثة من السماوات شغاف قلبه حتى يستغرق فى ذهول عميق ، فاذا أفاق ارتقى إلى سدة العرش الذى يعد رمزا لجلال الله وعظمته ، ويحيط به خمسة ملائكة وثلاثة أنبياء هم آدم وإبراهيم ومحمد . فيتعلم منهم المؤمن خلاصة سر الكون وحقائق العالم المادى المرقومة على اللوح المحفوظ .

ومنذ ذلك الحين فإن المراحل الباقية تصبح كلها روحية مثالية ، فيصعد المسافر فى خطفة أخيرة إلى رحاب عالم الهيمان ، وهو العالم المخلوق من العماء فى مرتبة المقادير عند الهيولى التى تعد رمزاً للمادة الأولى وأصلا لوحدة الوجود . وفى رحاب ضبابها يستغرق المسافر فى ذهول لايلبث أن يقوده إلى أن يتأمل بالتدريج جميع الأسرار المعجزة للذات الإلهية وصفات كمالها، مما يتوج فى نهاية الأمر بالرؤية العظمى .

ثم يأخذ التابع فى الهبوط بحثا عن رفيقه الفيلسوف فيعودان إلى العالم الأرضى ، ويسارع الفيلسوف إلى اعتناق الدين الإسلامى حتى ينعم بالتأملات الروحية والمشاهد الصوفية التى حرم منها خلال معراجه ، وحتى يرقى إلى رؤية مالم يتسن له رؤيته .

ملامح الاتفاق مع دانتي :

وهناك جوانب متعددة تتشابه فيها هذه القصة الصوفية الرمزية مع ملحمة دانتي الشعرية، خاصة على ضوء ما ذكرناه من تعدد معاني الكوميديا الإلهية ، فكل من المفكرين يعتبر الرحلة رمزاً للحياة المعنوية للأرواح البشرية ° هذا العالم ، حيث ابتلاهم الخالق سبحانه وتعالى كي يستحقوا السعادة الأخيرة التي تتمثل في الرؤية الإلهية . على أن أحدا لا يستطيع عندهما أن يصل إلى هذه السعادة إلا بمعونة خارقة هي علوم الدين ، لأن الفلسفة البحتة وإن كانت صالحة لهداية الإنسان في المراحل الأولى لرحلته الروحية — أي خلال ممارسته للفضائل الخلقية والعقلية — إلا أنها لا تستطيع أن ترقى به إلى سماء الفردوس ، رمز الفضائل الدينية التي لا يمكن الوصول إليها بدون النعمة النورانية العليا .

ولكن الفرق الواضح بين كل من المجازين هو أن ابن عربي يفترض مسافرين مختلفين : الفيلسوف وتابع الشرع ، كي يبرز بشكل قوي واضح القضية الأساسية التي تهدف إليها قصته المجازية ، بينما يفترض دانتي أن هناك مسافراً واحداً يتبع مرشدين على التوالي . فرجيل ثم بياتريش اللذان يرمزان بدورهما إلى الفلسفة وعلوم الدين .

وهناك فرق آخر وهو أن فرجيل رمز الفلسفة لا يهدي دانتي في صعوده إلى السماوات الفلكية التي يرقى إليها الفيلسوف في القصة الإسلامية ، ولعل هذا يرجع إلى التصور الكوني لابن عربي الذي يرى أن الكواكب تنتمي إلى العالم الطبيعي المادي وتدخل في نطاق المجال الطبيعي للتأمل الفلسفي . وهذا التصور — ° نظر الباحثين الغربيين أنفسهم — أكثر تماسكاً وأشد خضوعاً للمنطق من تصور الشاعر الإيطالي الذي شغله تمجيد بياتريش كشخص حقيقي عن دقة دورها في الرمز الأدبي (١) .

---

(١) انظر : كتاب «أسين بالاثيوس» المشار إليه من قبل . ص ٨٥-٨٦ .

لكن هذه الفروق لاتلبث أن تتضاءل عندما نلاحظ أن دانتى وقد تدرب على يد فرجيل فى أول مراحله أصبح بوسعه عند عروجه بقيادة بياتريش أن يمثل فى شخصه الاتجاهين معاً : اتجاه الفيلسوف بما اكتسبه من خبرة فى رحلته وما تلقاه على يد فرجيل من تعاليم ، واتجـاه تابع الدين بما يستلهمه من قيادة بياتريش الحالية ، ومن هنا يلاحظ أن دانتى فى بعض المراحل يتأمل بعقله كفيلسوف مسائل كونية وفلكية مفكراً بنفسه بطريقـة مستقلة عن بياتر يش وعن الملائكة الطوباويين الذين يلقاهم فيشرحون له دائماً مسائل ما فوق الطبيعة من وجهة نظر دينية صوفية.

وهذ هو نفس ما رأيناه عند الفيلسوف والمؤمن فى معراج ابن عربى عبر السماوات الفلكية ، فالأول يستطيع أن يعرف فى كل سماء الظواهر الكونية المنبثقة من خصائصها الطبيعية ، بينما يتلقى المؤمن تعاليم الأنبياء التى تشمل جميع الخصائص الطبيعية وتتوج بالمعرفة النورية الخارقة التى تنبعث من التعاليم الدينية الروحية والصوفية .

وإذا كان البحث حتى الآن قد لمس العلاقة الوطيدة بين قصة ابن عربى المجازية وملحمة دانتى فى الخطوط العامة والروح التى تكمن خلف الكلمات ، فإن هذه العلاقة لاتلبث أن تتعزز ببعض الملامح التفصيلية الجزئية . من ذلك مانراه فى جحيم دانتى من أن المذنبين يمكثون فى مأواهم أو مقرهم من النار لايبرحونه إلى الأبد ، بينما نرى الصالحين فى الفردوس وأهل الجنة يهبطون من غرفاتهم العليا حيث يتم تقديمهم إلى دانتى وهم موزعون على طبقات السماء الدنيا لاستقبال القادم وإعطائه صورة حية مجسمة لمراتب الجنة ودرجات النعيم المتعددة . وعندما يصعد دانتى إلى ملكوت أعلى يفترض أن الصالحين قد عادوا كل إلى مقره فى الجنة ، لكنه لايلبث أن يلتقى بهم مرة أخرى مجتمعين فى سماء النجوم الثابتة . ونفس هذه الحيلة استخدمها من قبله ابن عربى فى قصته المجازية عن المعراج ، فالأنبياء يتقدمون لاستقبال المؤمن موزعين على مدارج السماء لتحيته وتكريمه

والحفاوة به ، ولكنه عندما يصل إلى السماء الثابتة يراهم عندئذ مجتمعين كما يرى قرب العرش الإلهى ثلاثة أنبياء ، منهم آدم الذى سبق أن لقيه فى السماء الأولى ، وإبراهيم الذى كان معه فى السماء السابعة .

والمعيار الذى يحتكم إليه دانتى فى توزيع الأرواح على السماوات المختلفة هو معيار فلكى أخلاقى ، ففى كل سماء تسكن الأرواح التى تأثرت فى سلوكها خلال الحياة الدنيا بالكوكب الذى تنتمى هذه السماء إليه ، وبالتالى فانها تستحق درجة النعيم والتمجيد التى تعادل مستوى سمو هذه السماء . ونفس هذا المعيار هو الذى نراه فى قصة ابن عربى المجازية ، فالأنبياء لايقطنون السماوات العليا بالترتيب الزمنى لرسالاتهم ، فإذا كان آدم فى السماء الأولى فإن ابراهيم فى السماء السابعة ، موسى وهارون — وهما أخوان — يقطن كل منهما فى سماء ، وعيسى فى سماء ثانية . وعلى ذلك فإن الأنبياء يقيمون طبقاً لدرجتهم فى سلم التشريف الإسلامى.

بالإضافة إلى ذلك فان كل سماء لاتأخذ رقماً عددياً كما يحدث فى جملة قصص المعراج ؛ بل تسمى باسم الكوكب الذى يقطنها ؛ وبهذا تقوم علاقة وثيقة بين السماوات الفلكية والأنبياء المقيمين بها كما يحدث فى فردوس دانتى تماماً ؛ وإن كان معنى هذه العلاقة غير محدد بدقة فى جميع الأحوال؛ إلا أنه يعنى شيئاً ما بصفة دائمة ، مثلانرى يوسف— وهو المشهور بجماله وعفته — يقيم فى كوكب « فينوس » أو الزهرة ، وموسى — وهو مشرع بنى إسرائيل وقاهر فرعون — يقيم فى سماء المشترى أو « جوبيتير » قاهر الطغاة ، وعيسى — وهو كلمة الله وروح منه — يقيم فى سماء عطارد رسول الآلهة ورب الفصاحة .

وحتى مايؤخذ أحياناً على دانتى من جنوحه فى الكوميديا الإلهية إلى استعراض معلوماته مما يتنافى مع الروح الفنى ويكاد يحيلها إلى رسالة علمية مطولة مستخدماً وسيلة أدبية مباشرة هى خطب بياتريش المستفيضة أو أحاديث من تلقاهم فى السماء عن الفلسفة والتصوف والفلك وغيرها من علوم

العصور الوسطى ، كل هذا نجد سوابقه عند ابن عربى فى قصته المجازية التى تمتلىء بالخطب الطويلة عن المشاكل الفلكية والصوفية والفلسفية .

فاذا أضفنا إلى التوافق فى الموضوع والحدث والهدف المجازى والشخصيات الأساسية والثانوية والهيكل المعمارى للسماوات الفلكية ، والطريقة التربوية والحيل الأدبية التى تستخدم لوضع معارف شعوب بأكملها فى أعمال أدبية ، إذا أضيف إلى كل ذلك التوافق فى الأسلوب المركز المكثف ، الصعب إلى درجة الإلغاز فى بعض الأحيان ، الذى يتميز به كل من العملين اللذين يعدان من أشد الأعمال الفنية احتواء على روح النبوءة المستسر واحتفالا بحالات الكشف والاستبصار ، أمكننا أن ندرك جيدا لماذا يعتبر النقاد المقارنون رحلة ابن عربى فى القرن الثالث عشر النموذج الإسلامى الذى اقتبس من دلالات المعراج الرمزية وتمثل العلوم السائدة فى الحقل الفلسفى ليقدم رؤية متكاملة لعالم ما وراء للطبيعة وموقف الإنسان منه ؛ ويقوم هذا التوافق بين ابن عربى ودانتى دليلا موضوعياً على وصول أهم فلذات التراث الإسلامى للشاعر الإيطالى وعمق استجابته لها ونفاذه إلى دقائقها الفنية والفلسفية . مما سيتأكد تباعا فى التحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الإلهية بالتفصيل ، وحضور عناصر عديدة أخرى من تصورات وصور ابن عربى فيها باعتباره أكبر مؤلف صوفى فى المغرب العربى الإسلامى — وربما فى المشرق أيضا — كان بوجوده فى الأندلس مركز إشعاع تنتشر منه وبه كثير من العناصر المضيئة فى هذا التراث .

بين سنائى ودانتى :

وهناك تجربة صوفية أخرى تنتمى للأدب الفارسى قورنت بالكوميديا الإلهية ، وهى منظومة « سير العباد إلى المعاد » للشاعر الفارسى الكبير سنائى(١) ولم تكن هذه أول مرة تنسب فيها تأثيرات شرقية فى دانتى إلى الأدب الفارسى ، بل إن المستشرق الفرنسى « بلوشيه » قد كتب فى مطلع هذا القرن مقالا (٢) قارن فيه ما نقل فى رسالة بهلوية عن رحلة قام بها زاهد زرادشتى يدعى « أرتاك فيراز » إلى العالم الآخر حيث رأى مشاهد الثواب والعقاب بما ورد فى كتاب دانتى ، ولكنه لم يستطع أن يبرهن على هذا التأثير بالدليل العلمى حتى جاء « أسين بالاثيوس » بنظريته ، إلا أن فضل « بلوشيه » يتمثل فى الانتباه للآداب المشرقية كمصادر لدانتى فى رحلته ، ومجمل قصة القديس « فيراز » أنه أجلس على سرير مخصص لأصحاب الرؤى والكشف ، محوطا برجال الدين ، ثم أعطى كأساً من شراب مسكر ،سقط بعدها فى نوم عميق ، وحينئذ أخذت روحه تتجول فى العالم الآخر ، لتشاهد عمليات الثواب والعقاب التى تجرى للموتى ،ويقود الزاهد فى رحلته الروحية المنامية مرشدان هما الملاك « سروش » الموكل بحفظ جماعة المؤمنين بالليل ، والملاك «آتور » الموكل بالنار المقدسة ، إذ يشرحان له ما فعل هذا أو ذاك من المذنبين أثناء مقامه فى الدنيا ولماذا يعذب بهـــذه الطريقة ، ومع أن هذه الرحلة تذكر القارئ بالفكرة العامة للكوميديا فانها لاتتقارن بها من ناحية الشكل الشعرى ولا الإطار الملحمى ، فضلا عن عدم قيام أية صلة تاريخية بينهما ، إلا أنها تعد فحسب مصدرا

---

(١) ولد فى غزنة فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى وتوفى عام ٥٢٦ هـ — ١١٣١م. ويعتبر أول الشعراء المتصوفين الثلاثة العظام ممن كتبوا المثنويات فى إيران وثانيهم فريد الدين العطار وثالثهم جلال الدين الرومى — انظر : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ، تأليف براون وترجمة الدكتور ابراهيم الشواربى ، القاهرة ١٩٥٤.

(٢) كان عنوان مقاله «Les Sources orientales de la Divine Comédie» ونشر فى باريس عام ١٩٠١ ضمن كتاب «الأدب الشعبى لكل الأمم» . أنظر «التصوف الإسلامى العربى» لعبد اللطيف الطيباوى ، القاهرة ١٩٢٨ ص ١١١ و«أسين بالاثيوس» ص ٤٤٧ .

أوليا لعدد من الآثار الأدبية الفارسية التى أفادت منها ومن موضوع المعراج ومزجته بالروايات الإسلامية مثل ما فعل سنائى والعطار والكرمانى(١) .

أما منظومة « سير العباد إلى المعاد » فهى ذات أسلوب صوفى رمزى، يصور فيها سنائى الفكرة الفلسفية التى تقول بأن الكائنات تمضى فى حركة دائبة نحو اتجاهين : فهى تجىء من الله وفيضه على العقل الكلى ثم الأنفس الجزئية ثم تعود من جديد إليه متحررة من الكثرة صاعدة نحو الوحدة .

والبناء العام للمنظومة التى تقع فى ثمانمائة بيت يقوم على أن النفس تحكى قصة نزولها إلى الأرض بناء على الأمر الإلهى « اهبطوا منها » فتلقتها مربية عجوز قديمة قدم الفلك وصنعت لها أكسية مختلفة الألوان ، وهذه إشارة إلى الأرض وتطور الخلق فيها فى التحول من النفس النباتية إلى الحيوانية وفى التحول من دم إلى نطفة إلى علقة حتى كسيت لحما . وبعد ذلك وضعته هذه المربية فى حجرة لها ست جهات وأربعة أقسام وخمسة أبواب يملؤها شيطان ذو سبعة رؤوس ، وهى رمز للجسم الذى يتكون من العناصر الأربعة وتسيطر عليه القوى الحيوانية وهو مزود بالحواس الخمس ، وتمضى النفس قائلة إن المربية عرضتها أثناء ذلك على الأفلاك التسعة لمدة تسعة أشهر ثم أرسلتها آخر الأمر إلى مدينة أبيها ، وعملية الإرسال هذه هى الميلاد ، أما المدينة فهى العالم الذى يوصف بطريقة رمزية تجسد تغيره . ودور هذه النفس فى مرحلتها الحيوانية مزدوج ، فهى تتلقى من العالم العلوى أنواره وتدبر العالم السفلى ، ومن التضاد القائم بين هذين الدورين تنشأ مشكلتها ، فهى إما أن تسمو إلى أعلى كما تدعوها الفطرة وإما أن تنحط إلى أسفل كما تجذبها قوى الطبيعة(٢) .

وتظل حائرة بينهما حتى يلوح لها وسط الظلمة كائن نورانى على

---

(١) انظر : «رحلة الروح بين ابن سينا وسنائى ودانتى» للدكتور رجاء جبر ، القاهرة — بدون تاريخ ص ٩ وما يليها .

(٢) انظر لهذا العرض كله كتاب الدكتور رجاء جبر السابق الذكر من صفحة ١٨ إلى ٣٩ وحبذا لو كان قد ترجم المنظومة بأكملها لتثرى الأدب العربى

صورة شيخ حكيم يجمع إلى الطبيعة الروحانية الشكل الإنسانى البهى الوقور ، فهو « متقدم السن ولكن أكثر طراوة من الحياة ، هرم ولكنه أشد نضارة من الربيع الجديد » وهو رمز للنفس العاقلة ، جاء إلى العالم بأمر من أبيه ، أى العقل الكلى ، ومن ثم كان عليه أن يبقى مكرها مغتربا فى هذه التربة ذات الهواء الفاسد ، إلا أنه يحن إلى منبته . ولهذا يجب عليه أن يعمل على فراق هذه الحياة الدنيا بسرعة ، فيقترح رحلة يصحب فيها النفس أو الإنسان إلى عالم أجمل وأكمل ، حيث لاقبح ولا تغير ولا فناء . وينبه رفيقه على وعورة الطريق وصعوبة الرحلة ، ويعرض عليه أن يكونا معاً أثناء الرحلة كلا متكاملا : الإنسان أو الرجل يمثل القوة التى تحمل ، والشيخ يمثل العين التى ترى . ويقبل الرجل ما عرضه عليه الشيخ فيشرعان فى الرحلة « جاعلا للشيخ من رأسه هودجا ومن روحه مسكنا » .

ويمران بجملة مراحل ، فتبدأ رحلتهما بالعناصر الأربعة التى يتركب منها الإنسان فى الفلسفة القديمة وهى التراب والماء والهواء والنار . وفى عالم العناصر يمر الرجل بصنوف الرذائل التى تنتمى إلى كل عنصر مجسدة على شكل هوام وحيوانات وبشر ، ومرور الإنسان بها بمثابة التخلى عنها والتطهر منها ، أى إن رحلة العناصر نوع من المطهر والجحيم معا ، فهى بالنسبة للرجل مطهر يصبح بعده جديرا بالارتقاء إلى مرحلة الفلك ، وبالنسبة للكائنات التى تجسم الرذائل جحيم مقيم . وعند مرورهما بعنصر التراب يريان قطعان الذئاب والكلاب والخنازير التى تمثل الشره ، ومجموعة من البشر منحنية إلى الأمام ومشيتها إلى الوراء كأنها السرطان تمثل البخل ، وأفعى ذات أفواه ووجوه متعددة تزدرد ما أمامها تمثل الحسد ، وكلما فزع الرجل واضطرب سارع الشيخ إلى تهدئته وإدخال الطمأنينة إلى قلبه ، فهو ينظر مثلا بعينين كالزمرد الى الأفعى فتعشيها وتنسحب تجر وراءها ذيلها كأنما تكنس به الطريق. ثم يشاهد مجموعة من الشياطين عيونها فى أقفيتها ووجوهها كحوافر الحصان وتلوبها مثل حلوق التماسيح مليئة بالأسنان تجسم البغض ، ثم مجموعة من البشر كأنهم الغربان والقرود التى ركبت لها رءوس القطط وأذناب الكلاب يرمزون لرذيلة الطمع بطريقة فنية تشكيلية .

ثم يصل الرجل ومرشده إلى شاطئ بحر يمثل بطبيعة الحال عنصر الماء ، فيفزع الرجل من اتساعه ولكن شيخه يشجعه على عبوره ، شارحا له أن أول ما ينبغى أن يفعله كى ينجح فى اجتيازه هو أن يترك على الشاطئ كل ما يمت الى عالم التراب بسبب ، أى أن عليه أن يتخلص من رذائل كل عنصر يمر به كشرط لمواصلة السير . ولما كانت رذيلة الكسل فى رأى القدماء تنتهى إلى عنصر الماء فان أول ما رآه المسافران فى البحر جماعة « صغار السن غافلون عما يحوطهم غفلة الغصن عن الريح التى تحركه ، فاقدو العقل ولـــكن بلا وجد ، ويخيل إلى الرائى أنهم يقظون بينما هم مستغرقون فى الذهول كالأرنب البرى الذى ينام مفتوح العينين » ، وكذلك يرى الرجل داخل الماء تماسيح ضخمة كالجبال تقتل الحاكم الذى يمثل العقل الإنسانى وتأسر محدثه وهو اللسان وهى رمز للغفلة .

ويخرجان من الماء فيفزع الرجل من اتساع الفضاء أمامه ويطلب الى المرشد أن يصرف النظر عن محاولة عبور الهواء – العنصر الثالث – ولكنه يشجعه ويقول له إن الخيال يستطيع أن يقوم بدور الجناح وأن بوسعه أن يرد كل شىء من عناصره إلى أصله حتى يندفع بخفة ويسر إلى هدفه ، ويشرح له أن حاكم إقليم الماء هو القمر ، كما كان حاكم التراب هوكوكب زحل الذى ينظم الحياة على الأرض ، ويتوزع حكم إقليم النار بين عطارد والشمس ، وعندما يصلان إلى هذا الإقليم الأخير يشاهدان مجموعة من السحرة الذين يرسمون صوراً شيطانية وهم ثملون بالقطران المغلى ، ويرمزون للقوى الغضبية الشريرة فى الإنسان .

ويصل السائحان إلى حدود عالم الأفلاك بعد اجتياز عالم العناصر ؛ فيبصران أشعة الفجر تتراءى من وراء التلال ، يرى الرجل نفسه وقد ارتد بصيراً بعد أن كان لا يرى فى الظلمات سوى الأشباح ؛ وتميز عيناه على البعد برجاً شامخاً وبوابة عظيمة من « الميناء اللازوردية » حيث ينتهى حد الزمان ويبدأ عالم الأبدية عند الأفلاك التى تعد وسيطاً بين عالم الكون والفساد وعالم الملكوت . ويتحدث الرجل بعد أن حلت عقدة لسانه عن مشاهداته

فى الكواكب فيرى فى كل منها نموذجاً من البشر ؛ ففى القمر يرى الزنادقة، وفى عطارد يرى المقلدين ، وفى الزهرة يرى الدهريين ، وفى الشمس يرى المنجمين وعبدة الكواكب ، وفى المريخ يرى أرباب الظن والفلاسفة، وفى المشترى وزحل يشاهد المرائين والمعجبين بأنفسهم .

وعندما ينتهى عالم الأفلاك يبدأ عالم الملكوت الروحى وهو يمثل المرحلة الثالثة والأخيرة من الرحلة ، والنماذج التى يقابلها فيه صوفية تتفاوت فيما بينها بدرجة القرب من الله، فكلما تقدم الرجل وشيخه أبصرا مجموعات أنقى وأكثر استغراقاً فى التأمل والمشاهدة للذات الإلهية . ففى فلك البروج يريان طائفة من مقلدى الصوفيـــة ، وفى فلك الأفلاك الروحانيون وهم فى صحبه النفس الكلية ، يليهم الكروبيون والسالكون ثم أهل التوحيد، وهؤلاء الثلاثة فى صحبة العقل الكلى على تفاوت فى درجاتهم ومراتبهم طبقاً لقربهم منه . ثم تبدأ فى هذه الدائرة الحجب والأستار الثلاث القريبة من الحضرة الإلهية ، وعندئذ ينتاب الرجل تحول هام إذ يكف عن الرغبة فى التوقف ويصر على مواصلة السير نتيجة لما بلغه من نضج روحى حتى يصبح هو الشيخ نفسه، ويودع طفولته بعد أن تخلص من أصله ومادته ، ويتخذ طريقه وحده يطوف أحقاباً طويلة حول الأستار العالية حتى يصل إلى درجة الفناء ويبقى حائراً بلا عين ولا قلب حتى يبرق من أمامه فى هذا العلو نور بهى ينعكس على « خرق » الصوفية ، ولا يستطيع التقدم نحو الحضرة أكثر من ذلك فيعود أدراجه من حيث أتى لأنه لم يتحرر من التكليف وما زال أسير عالم الصورة .

وقد قام الباحثون المحدثون بتحليل أهم عناصر هذه المنظومة وقارنوها فى أصلها بقصة حى بن يقظان لابن سينا الذى تأثر به سنائى فأخذ عنه فكرة تصوير العقل على هيئة شيخ تبدو عليه نضارة الشباب، وفكرة التعريف بأبيه الذى هو العقل الكلى ، وفكرة الاستجابة والقبول لنصيحته، ومع أن نص سنائى أغنى من قصة ابن سينا من حيث قوة الخيال وجرأته وتعدد الصور والرموز إلا أن ابن سينا هو صاحب التشبيهات التى تجسم مختلف

القوى فى حيوانات ضارية وصاحب الأفكار الفلسفية الرئيسية التى لم يقتصر تأثيرها على سنائى بل تعداه إلى عامة المتصوفة (١) .

أما علاقة سنائى بدانتى فهى فرض طرحه عام ١٩٤٣ م المستشرق الإنجليزى « نيكلسون » فى بحث بعنوان « رائد فارسى لدانتى » (٢) وعقدفيه صلة موضوعية بين منظومة « سير العباد إلى المعاد » والكوميديا الإلهية ، وتلقف باحث مصرى حاد هذه الإشارة وتمكن بتعمقه فى أدب سنائى الصوفى أن يقيم موازنات تفصيلية بين الأثرين ، مع اقتناعه بأن هذه المشابهة فى الجزئيات تعود إلى وجود المصدر المشترك بينهما بمعناه الواسع ، ويتمثل هذه المرة فى التراث الأرسطى الإسلامى بوجه عام ، مبتدئاً بالإغريق ، ومارآ بابن سينا وابن رشد وتوماس الإكوينى ، مستفيداً من الأفلاطونية المحدثة ومن قصص المعراج معا ، ويمكن إجمال أهم نتائج هذه المقارنة الموضوعية فيما يلى :

— الاتفاق فى الخطة العامة للرحلة ، فهى تبدأ فى سير العباد بعالم العناصر الذى يشبه الجحيم فى الكوميديا من حيث كونه أصلا للرذائل ، كما أن جحيم سير العباد هو فى الوقت ذاته بمثـابة المطهر لبطل الرحلة ، وعالم الأفلاك فى سير العباد يمثل الأعراف فى التصور الإسلامى حيث يصف فيه الشاعر نماذج من البشر الخاطئين ، ويمثل مرحلة وسيطة بين عالم الكون والفساد من ناحية وعالم الملكوت الذى يقابل فردوس دانتى ويقتصر مثله على النعيم الروحى بما يحفل به من أنوار وجلال من ناحية أخرى .

— فكرة التطهر — وهى موضوع الرحلة الثانية فى ملحمة دانتى — تلتقى

---

(١) انظر : المصدر السابق للدكتور رجاء جبر ص ٥٥ ومايليها .

(٢) انظر : Nicholson. R.A. "A Persian Forerunner of Dante" Journal of The Bombay branch of the royal Asiatic Society. سنة ١٩٤٣ مجلد ١٩ .

إذن مع ما رأيناه فى سير العباد ، فحارس المطهر يرسم على جبهة دانتى سبع خاءات رمزاً للخطايا السبع ؛ وتمحى بصعود جبل المطهر بالتدريج ، وهذه بعينها فكرة الانتقال عبر العناصر عند سنائى حيث كان يتطهر الرجل تدريجياً بانتقاله من عنصر إلى آخر مع اختلاف طرق التعبير بطبيعة الحال . ولئن كان دانتى فى الجحيم يتأمل الشخصيات التى عايشها ويستمد صورها من التاريخ القديم والمعاصر له فإنه فى المطهر والفردوس يعيش تجربة التطهر ذاتها كبطل سير العباد ، فإذا تحول فى بداية الفردوس من مقام البشر إلى مقام إلهى عجز عن التعبير عنه فإن نظير هذا إما حدث عند سنائى حينما تحول بطل رحلته فى بداية مرحلة الأفلاك من الزمان إلى الأبدية وأصبح ممتنعاً عن الموت والفناء ، ثم لم يلبث قرب نهاية الرحلة أن صار هو الشيخ نفسه واستغنى عن المرشد والدليل .

– ولقاء دانتى بفرجيل يشبه لقاء الرجل بالشيخ المرشد عند سنائى ، ففى كل من الموقفين توجد الظلمة والحيرة والخوف من الطريق والوحوش وعبارات التشجيع المتكررة التى ترد على لسان فرجيل إذ يحث دانتى على مواصلة السير ويدخل الطمأنينة إلى قلبه لاتختلف عن مثيلتها فى سير العباد .

– وصور المعذبين من السحرة والعرافين الذين التوت رؤوسهم بينما أخذوا يسيرون إلى الوراء عند دانتى تشبه صورة البخلاء عند سنائى كما تشبه نظائرها المشتركة فى المعراج كما سيأتى ، والكسالى عند سنائى يحدقون فى الماء ببلاهة وبلا وعى وهم فى جحيم دانتى يتنهدون تحت الماء ويملأونه بالفقاقيع عند السطح ، وعند سنائى فى إقليم النار هناك «سحرة ثملة من الجحيم والقطران وبأيديهم حراب وسيوف نارية» وعند دانتى توجد شياطين مسودة الوجه تتسلح بخطاطيف تمنع بها الآثمين من الطفو فوق سطح القطران المغلى كما سنشير فيما بعد .

وبالرغم من هذه الملامح المشتركة بين سير العباد المكتوب فى بداية القرن الثانى عشر والكوميديا الإلهية المكتوبة فى بداية القرن الرابع عشر فإن الدارسين يردون تفسيرها الوافى إلى وجود المصدر المشترك بين الأثرين وهو التراث الفلسفى والدينى الإسلامى بالإضافة إلى تشابه الروح الشعرى وتلاقى الفكر بين الأديبين العظيمين وتجلى قدرتهما فى الاستخدام الرمزى للصور والأخيلة ،

التحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الالهية

النار الإسلامية فى جحيم دانتى

– تصور الأعراف ،
– البناء الهندسى للجحيم ،
– على باب النار ،
– من مشاهد العذاب ،
– إبليس وعذاب الزمهرير ،

تصور الأعراف :

كان أول مكان يزوره دانتى فى العالم الآخر هو الذى يطلق عليه « الليمبو » أى الأعراف ، وهى منطقة تقع فوق الجحيم مباشرة ، أى أنها البهو الذى يفضى إليه . وهى تنقسم إلى شطرين : أولهما ما يلى الجحيم ، وتسكنه أرواح الأطفال ومن ماتوا دون أن يعملوا خيرا أو شرا ، أى الذين عاشوا — على حد تعبير دانتى نفسه — دون خزى أو ثناء . وهم مختلطون بتلك الزمرة الطالحة من الملائكة الذين لم يكونوا ثائرين ولا مخلصين لله عند عصيان إبليس (١) .

أما الشطر الثانى فهو يتكون من سهل عميق تحف به الأشجار كأنه غابة محاطة سبع مرات بأسوار عالية ومحمية من حولها بجدول جميل ؛ بها سبعة أبواب تفتح على مرعى ذى خضرة نضرة ، وفيها تسكن أرواح من ماتوا على الفطرة قبل الأديان . وأرواح الحكماء والفلاسفة والأبطال ممن لم يعتنقوا المسيحية عند دانتى بالرغم من نبلهم وحكمتهم . وذلك مثل فلاسفة وأبطال اليونان والرومان وبعض عظماء الإسلام مثل ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين ، ولايعانى جميع هؤلاء من العذاب سوى الحرمان من الجنة ، دون أن يمسهم شىء من الجحيم ، فألمهم الأكبر هو أنهم يعيشون معلقين فى شوق لايحدوه أمل .

ولما كان الفكر المسيحى وتقاليده يخلوان تماما من مرتبة الأعراف هذه ، حتى إن اسمها نفسه لم يوجد إلا فى عصر دانتى ، ويخلوان من أية إشارة محددة لموقعهاوشكلها ، فإن مصدر دانتى الوحيد فى تصورها يصبح هو الثقافة الإسلامية التى أفاضت فى الحديث عن الأعراف ابتداء من

---

(١) انظر : الجحيم لدانتى ؛ ترجمة الدكتور حسن عثمان ، دار المعارف ، النشيد الثالث ، الأبيات ٣٤ — ٣٧ .

القرآن الكريم . وطبقاً للتحليل اللغوى نجد أن الأعراف قبل الإسلام كان معناها الحجاب أو حافة الشىء أو عرف الديك، وخصصها القرآن الكريم لهذا المكان المتميز من الدار الآخرة . كذلك نجد أن كلمة « لمبوس Limbus » فى الاستخدام الكلاسيكى تعنى الحافة أو الشاطئ ، ولم تستخدم للدلالة على هذه المرتبة فى الدار الآخرة إلا فى القرن الثالث عشر ، خاصة عند دانتى فى الكوميديا الإلهية (١) . وقد تفننت كتب الثقافة الإسلامية فى رسم صورة شائقة للأعراف ، فهو حينا سور له باب بين الجنة والنار ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . أو واد عميق خلف جبل مرتفع تجرى فيه الأنهار وتنبت منه الأشجار الباسقة ، له عرف كعرف الديك . كما أن له سبعة أبواب فى روايات أخرى تفصله عن الجنة ، أما أصحاب الأعراف فى الإسلام فهم قوم استوت حسناتهم بسيئاتهم بحيث تجاوزت بهم الأولى عن النار وقصرت بهم الأخرى عن الجنة ، أو هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، أو هم قوم صالحون فقهاء علماء لكن فيهم عجب وكبرياء قعدا بهم عن إدراك مراتب الصالحين . كما أن منهم الأطفال ومؤمنو الجن وبعض الملائكة من الذين لاثواب لهم ولا عقاب عليهم ، والعذاب الوحيد الذى يعانيه سكان الأعراف هو شوقهم إلى الجنة وحرمانهم منها ، إذ لم يدخلوها وهم يطمعون (٢) . وكل هذه العناصر تتطابق مع ما رأيناه عند دانتى ، مما لا يفسره إلا احتمال واحد هو استقاء الشاعر الإيطالى من معين الثقافة الإسلامية .

---

(١) انظر : Asin Palacios, Miguel. "La Escatologia Musul-mana en la Divina Comedia,, Madrid 1951. P. 126.

(٢) انظر : مختصر تذكرة الإمام القرطبى للامام عبد الوهاب الشعرانى. طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٦٨ . ص ٩٢ وما بعدها .

البناء الهندسى للجحيم :

يجمع الباحثون على أن كل أوصاف الجحيم الواردة في العهد القديم والأدب الكلاسيكى وفى العصور الوسطى الأولى- أى السابقة على دانتى- كانت أوصافا بسيطة مبهمة لا لون لها ، ولا تشبه بحال تلك الصور الغنية المجسمة التشكيلية الواضحة التى رسمها دانتى للجحيم ، حتى إن بعض هؤلاء الدارسين قد أخذ على عاتقه مهمة استقصاء مظاهر فقر هذا التراث الغربى فى فترة أطلقوا عليها – خاصة « فوسلير Vossler» « ما قبل تاريخ الكوميديا الإلهية » . وذلك لشرح أصالة دانتى فى ابتكاره لصور الجحيم . بيد أنه عندما اكتشف تأثير الثقافة الإسلامية فيه أدرك الباحثون أنها هى المصدر الحقيقى الذى نهل منه دانتى كثيرا من أوصافه، دون أن يطعن ذلك بالطبع فى مدى أصالته أو يقلل بأى شكل من قيمته .

ولنبدأ بالتصميم المعمارى للجحيم ، فإذا كان القرآن الكريم لم يحدد موقع وشكل الجحيم فإن عناصر السنة والتراث قد تكفلت بذلك ، فهى تضع الجحيم – مثل دانتى – تحت القشرة الأرضية ، وهو عبارة عن هوة سوداء مظلمة فى باطن الأرض تصل من العمق فى بعض الروايات إلى درجة أنك لو ألقيت فيها بحجر لم يصل إلى القاع إلا بعد سبعين عاما . ومدخل الجحيم فى الروايات الإسلامية التى تتعرض لتحديده يقع فى القدس ، مثله فى ذلك مثل ما نجد فى الكوميديا الإلهية ، بل هو على وجه الدقة خلف الجدار الشرقى لمعبد سليمان . كما يقوم خط عمودى من القدس يفضى إلى أعلى حيث الجنة ، فى لون من وحدة التصور المعمارى للعالم الآخر فى كل من الروايات الإسلامية والكوميديا الإلهية، ثم تنحدر طبقات الجحيم فى أعماق الأرض وهى التى يعبر عنها فى النصوص الإسلامية بأبواب الجحيم ، والمقصود بها – كما جاء شرح ذلك فى بعض الروايات – أنها أدرك ودرجات بعضها فوق بعض، فقد روى عن الإمام على بن أبى طالب

أنه سأل أصحابه : كيف أبواب جهنم ؟ فقالوا : هى مثل أبوابنا هذه يا أمير المؤمنين ، فقال لا . هى هكذا بعضها فوق بعض (١) .

ولعل أكبر مؤلف إسلامى حاول أن يرسم بدقة التخطيط التفصيلى للجحيم طبقا للتصور الصوفى هو ابن عربى ، حيث يقدم لنا هذا التصور على أساس أنه هوة سحيقة مكونة من سبع درجات دائرية هى : سجين والحطمة واللظى وسقر والسعير والجحيم وجهنم . ولكل درجة نوع خاص من المذنبين تبعاً للجرم الذى اقترفوه وللعضو البدنى الذى استخدم فى ارتكابه، وهى على الترتيب البصر والسمع واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان . ومعنى هذا أن تقسيم النار إلى درجات يقوم على معيار خلقى يشبه نظيره عند دانتى فى الكوميديا الإلهية ولا يعتمد على أساس عقائدى صرف .بل نجد ابن عربى يمزج المعيار الخلقى بالعقائدى عندما يقسم كل درجة إلى دركات ومنازل وخوخات طبقات لعقائد المذنبين . وعلى هذا فإن كل درجة تنقسم إلى شطرين : الأول خاص بمقتر فى الذنوب الحسية التى تمارس بعضو بدنى معين ، والثانى خاص بمرتكبى الذنوب الباطنية وهى الشرك والكفر والكذب والنفاق . وقد بلغ هذا التقسيم من الوضوح والدقة عند ابن عربى إلى الحد الذى حوله فيه إلى رسم هناسى فى مجموعة من الدوائر المتداخلة (٢) .

وعندما أخذ شراح دانتى فى مطالع هـــذا القرن فى توضيح مراتب الجحيم عنده برسوم هندسية كانت المفاجأة كبيرة عندما تبين التطابق الشديد بينه وبين ابن عربى ، مع فارق واحد وهو أن درجات الجحيم عند الشاعر الإيطالى عشرة، بينما هى سبع درجات فى التراث الإسلامى ، إلا أنها دوائر

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق . ص ١١٢ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية لمحى الدين بن عربى . طبع دار صادر ببيروت — المجلد الثالث . ص ٤٢٦ .

متداخلة بنفس الطريقة التى تضيق بها كل دائرة عما تسبقها وتعمق عنها ، كما أن نظام « الإسكان » فى هذه الدوائر يشبه إلى حد كبير ما وجدناه عند ابن عربى من قبل .

فالقدر المشترك إذن بين دانتى والتراث الإسلامى فى التصور المعمارى للجحيم هو أنه تحت سطح الأرض توجد هاوية ضخمة على شكل قمع حافتاه إلى أعلى ، وهو عبارة عن طبقات أو درجات مستديرة كل منها خاص بعقوبة ذنب أو مهيأة لرتبة من مراتب المعذبين ، وكلما هبطنا إلى أسفل وجدنا من ثقلت ذنوبهم واشتدت عقوبتهم ، وتنقسم هــذه الطوابق الى أقسام فرعية طبقا لمراتب الذنوب الأخلاقية . وقد كان بوسع دانتى أن يعدد من الطوابق ما شاء دون أن يحصرها فى رقم صغير تتفرع منه أقسام ثانوية ، لكنه فضل متابعة النموذج الإسلامى الذى يقسم الجحيم إلى طبقات عامة تحتوى على تقسيمات أخرى فرعية تخدم الهدف الأخلاقى ،وهذاماسماه شراح دانتى بالبناء الأخلاقى للجحيم ، وهو مستقى كما نرى من الروايات الإسلامية .

وقد قامت فى سبيل القطع الجازم بالتأثير الإسلامى فى دانتى فى هذا الصدد عند بداية القول بذلك عقبة صغيرة ، وهى أن بعض قصص المعراج الشائعة تضع الجحيم فى السماء الثالثة بينما تضعه الكوميديا الإلهية تحت الأرض ، لكن إذا أخذنا فى الاعتبار أن بعض قصص المعراج الأخرى تضع الجحيم تحت الأرض مثل قوله : « فانطلق بى حتى أتى إلى مالك خازن النار ، فقال : يا مالك ، ربك يأمرك أن ترى محمداً صلى الله عليه وسلم ما أعد لأعدائه . قال انتظر يا محمد قلت نعم ، ففتح الباب فاذا أنا أنظر إلى واد تحت بيت المقدس يقال له وادى جهنم وإذا فيه من العذاب الشديد ما يذهب العقول .. الخ » ، (١) وإذا أضفنا إلى ذلك أن قصة « معراج محمد»

---

(١) انظر : مخطوطة مجهولة المؤلف لقصة الإسراء والمعراج بدار الكتب المصرية فى مجموعة تحت رقم ١٩٩٣ . ١٤٤ .

المترجمة ، وهى منبع التأثير المباشر - تضع الجحيم فى نفس موقع جحيم دانتى (١) أدركنا أن الصعوبة وهمية لا قيمة لها ، فعندما يصف الأرضين السبع - وكلها عند الجحيم - يقول إنه تحت الأرض الأولى توجد أرض أخرى كلها من نار وسكانها وبحارها وأسماكها من نار كذلك . وعندما تأخذ هذه القصة أيضاً فى الوصف التفصيلى للجحيم فى الفصل الواحد والسبعين فإنها تضعه فى قلب الأرض أو الأرضين السبعة وكلها تقع تحت أرضنا البشرية ، وسابع أرض هى مقام إبليس . وهكذا ينطبق التخطيط الطوبوغرافى للجحيم عند دانتى على نظيره وأقرب ما يرتبط به من التراث الإسلامى ، لا فى أسسه العامة فحسب ، وإنما فى تقسيماته المفصلة التى تجعل لكل نوع من الذنوب درجة من العذاب . وحتى فى أسماء طبقات الجحيم أو أبوابه نجد تطابقاً شديداً بين ماورد فى قصة « معراج محمد » مع نموذج دانتى ، إذ تقوم هناك سلسلة من العناصر الطبيعية من جبال وأنهار وآبار وبحور ووديان وقلاع مما كان يعبره دانتى فى مسيرته عبر درجات جهنم . ولم يسبق لأى ثقافة معروفة أن قدمت نموذجاً مكتملا غنياً له مثلما قدمت الثقافة الإسلامية . فدانتى يطلق أسماء محددة على قلاع الجحيم مثل مدينة « ديتى » ومنطقة « ما ليبولجى » ذات الحفر العشرة الحزينة ومنطقة «قابيل» وكل منها يتميز إما بجب سحيق أو واد أليم أو غابة مليئة بشجر الزقوم بنفس الطريقة التى وصفت بها جهنم فى التراث الإسلامى إذ أخذت أسماء محددة مثل حطمة وسعير وسقر وسجين والهاوية وامتلأت كل واحدة منها بأنواع خاصة من المذنبين وأهل النار ، مما يؤكد العلاقة الداخلية بين هذه التصورات بطريقة موضوعية لا تدع مجالا لنسبتها إلى مجرد التوافق والصدفة .

---

(١) انظر : عرض قصة معراج محمد فى آخر الكتاب ؛ الفصلين ٥٤ و ٦١ .

على باب النار :

جاء فى بعض روايات التراث الإسلامى للمعراج أن عفريتا من الجن اعترض طريق الرسول عليه السلام بينما كان فى طريقه إلى زيارة النار ، وكان العفريت ممسكا بعصا غليظة مشتعلة ، وسد السبيل أمام الرسول محاولا الهجوم عليه ومطاردته ، ولكن جبريل يطمئن الرسول ويعلمه صلاة إذا تلاها أطفأت نار العصا وأحبطت خطر العفريت ، فتقال الدعوات ويختفى العفريت بعد أن تطفأ شعلته ويخر لفيه (١) وكذلك بينما كان دانتى يمضى إلى الوادى الخامس من الجحيم مع فرجيل اعترض طريقهما شيطان أسود وحشى الحركات ، وتقدم نحو دانتى يسعى سعياً حثيثاً وعلى كاهله خطاطيف مدببة وبصحبته مجموعة أخرى من الشياطين لمطاردة الشاعرين ، ولكن فرجيل يطمئن دانتى ويلتفت نحو رئيس الشياطين تالياً بعض الكلمات الآمرة التى سرعان ما تكسر غلواء الشيطان ، إذ يفهمه أنه قد أتى بإرادة السماء ليقود دانتى فى هذه الرحلة « وعندئذ كفكف من غلوائه وترك الخطاطيف تسقط إلى قدميه »(٢) .

ومن ناحية أخرى إذا قارنا لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بخازن النار وحارسها بالمشاهد النظيرة عند دانتى وجدنا الشبه واضحاً بينهما : فالرسول يلقى « ملكاً عظيم الخلقة قد خلق من نار جالساً على كرسى من نار وهو يقطع حبالا من نار . . فقلت . يا جبريل . من هذا ، قال . مالك خازن النار أدن منه وسلم عليه ، فدنوت منه وسلمت عليه فلم أر فى الملائكة أعظم منه خلقة كالح الوجه شديد البطش ظاهر الغضب لو أشرف على أهل الدنيا لماتوا . . فجزعت منه لقلة تبسمه ، قال جبريل : لا خوف عليك ، هذا الملك خلق من غضب الجبار منذ خلقه الله تعالى ما ضحك وما تبسم ،

---

(١) انظر : قصة الإسراء والمعراج للعلامة نجم الدين الغيظى ، مكتبة الجندى بالقاهرة عام ١٩٧٠ . ص ٣٣ .

(٢) انظر : الجحيم ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد الحادى والعشرين ، أبيات ١٠٥/٢٣/٢٢

يزداد غضبه فى كل يوم على من ليس فى قلبه رحمة ، ينتقم من العصاة والجبارين وأهل الكبائر . فقلت يامالك : اكشف عن أطباق جهنم لأنظر إليها ، فقال : لاتستطيع النظر إليها ؛ وإذا النداء : يا مالك لا تخالف له أمراً ، فعند ذلك فتح له باب جهنم مقدار خرم الإبرة فخرج منها وهج ودخان لو دام ساعة لأظلمت السماوات والأرض ..» (١) وكذلك نرى فى الكوميديا الإلهية أن الحارس « مينوس » المكفهر ينكر على دانتى رغبته فى ولوج النار وزيارة وديان الجحيم ، وتتطابق أوصافه مع مالك فى هذه الرواية العربية ، فهو متقد مثل الجمرة ، ورفضه جاف وغاضب على من يريد رؤية زبانيته ، والأمــر الحاسم الذى يصدر إليه من أعلى فيحطم مقاومته العنيدة هو الذى ينهى الموقف . والنموذج الآخر لمالك عند دانتى هو الملاح « كارون » الذى يقف فوق المستنقع المكفهر وحول عينيه حلقات من لهب ويقول له ولفرجيل ،لن أقود كما إلى الضفة الأخرى فى الظلمات الأبدية عند النيران والجليد ، ولن تعبرا إلى الجحيم ، فيرد عليه فرجيل بحسم ناقلا إليه الأمر الإلهى : « لا تغضبن يا كارون ، هكذا أريد هنالك حيث يجب أن يفعل ما يراد ، ولا تسلنى على ذلك مزيداً ، فينطفئ غضبه ولا يملك إلا أن يمتثل(٢) .

ويتكرر هذا المشهد المزدوج عند دانتى فى أماكن عديدة ، وكأنه مفتون بالنموذج الإسلامى فلا يفتأ يكرره فى زياراته الأخرى لطبقات الجحيم فمثلا عند دخوله الحلقة الرابعة نجد أن « بلوتون » الحارس هو المكلف بأداء نفس الدور الذى قام به كل من مينوس وكارون من قبل ، فهو يزجر دانتى بصوته الأجش ، ولكن فرجيل يهدىء روعه ويقول له :

---

(١) انظر : حديث الإسراء والمعراج ،لابن عباس . نشر مكتبة الجمهورية بالأزهر . ص ١٦ .

(٢) انظر : الجحيم ، الترجمة المشار إليها ، النشيد الثالث ، الأبيات من ٨٢ — ١٠٠ .

لا يؤذينك خوفك ، فمهما يكن له من قوة فلن يمنعك من هبوط هذه الصخرة .

ثم يتجه إلى ذلك الوجه المنتفخ ويقول له :

لك الويل مما يكنه صدرك من غضب .

إن ذهابنا إلى الأعماق ليس دون سبب ، هكذا أريد فى العلياء(١) وفى الدائرة الخامسة نجد « فيلجياس » أولا ثم الزبانية الذين يحمون أبواب مدينة « ديتى » ثانيا يكررون نفس المشهد ويخضعون لنفس الأمر . وفى مشهد آخر نجد أن ملاكا من السماء هو الذى ينقل الأمر الإلهى ويتولى تنفيذه بأن يفتح الباب بضربة من صولجانه .

وعندما يضع دانتى قدميه فى الدائرة الأولى من الجحيم يهتز السهل المظلم بركان عنيف وتبعث النار ريحا عاتية تبرق بضوء قرمزى اللون يذكرنا على التو مما ينبعث من ثقب الإبرة من وهج ودخان فى رواية ابن عباس التى ذكرنا طرفا منها آنفا ، لكننا لا نكاد نمضى إلى الطبقة الأولى من الجحيم ، طبقا لرواية « معراج محمد » حتى نجد طبقة أهل الكبائر ، حيث نرى سبعين بحرا من نار ، وعلى شاطىء كل بحر مدينة من نار ، فى كل مدينة سبعون ألف بيت من نار فى كل بيت سبعون ألف صندوق من نار ، وقد حبس الرجال والنساء فى تلك الصناديق مع الحيات التى تنهشهم والعقارب التى تلدغهم وهم فيها يستصرخون . ولا نتوقع بطبيعة الحال أن نرى نفس الصورة فى جحيم دانتى . ولكننا نلاحظ أنه عندما يصل إلى شواطىء بحيرة «استيجيا» يرى فرجيل أسوار المدينة الجهنمية التى يحكمها « بلوتون » والتى ترتفع شاهقة ، فيميز دانتى بوضوح أبراجها التى تبدو كأنها مآذن وهى تشرئب من أعماق الوادى ، لونها أشقر داكن شديد التوهج كأنها خارجة لتوها من

(١) نفس المصدر السابق ، النشيد السابع ، الأبيات من ١-١٠ .

النار . فالنار الأبدية التى تستعر بداخلها تصبغ المدينة بلونها الأحمر ، فهى إذن مدينة من نار مثل التى رأيناها فى الرواية العربية . وداخل جدرانها يلاحظ كل من فرجيل ودانتى أن المدينة كلها كما لو كانت مقبرة رهيبة آهله بآلاف التوابيت التى تشبه الصناديق ، وأغطيتها مرفوعة وتنبعث منها ألسنة اللهب والصرخات القاسية ممن يتعذبون فيها(١) .

وهناك تفصيل صغير عن خطوات سكان الجحيم وكيف أنها تمضى دائما نحو الشمال . وقد جهد شراح دانتى فى إضفاء المعانى المجازية والرمزية على هذه الجزئية ، وفاتهم أن التراث الإسلامى هو الذى أوحى لدانتى بها ؛ فأهل النار هم أهل الميسرة والمشأمة فى النصوص الإسلامية ، وكان ابن عربى يقول بأن أهل النار ليس لهم يمين ، كما أن أهل الجنة ليس لهم يسار ، ويعتمد الصوفى المسلم فى ذلك على نص قرآنى هو قوله تعالى: « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » لأن السعى مشى ، وإنما قال « بأيمانهم » على حد تفسير ابن عربى لأن المؤمن فى الآخرة لا شمال له، كما أن أهل النار لا يمين لهم(٢).

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق ، النشيد التاسع ، الأبيات ١١٥ — ١٣٠ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية لابن عربى ، الجزء الأول ، صفحة ٤١٢ وكتاب «أسين بالاثيوس» صفحة ١٤٩ . والآية رقم ٨ من سورة التحريم .

من مشاهد العذاب :

يلتقي دانتي في الدائرة الأولى من الجحيم بمرتكبي خطايا الجسد وهم يتعرضون للعاصفة الجهنمية التي لاتهدأ أبداً ، والتي لاتكف عن الدوران بهوائها الأسود ، ونفس هذه العاصفة السوداء هي التي نجدها في التراث الإسلامي ، وهي امتداد للريح المشئوم الذي أهلك الله به قوم عاد عندما كذبوا نبيهم هود.وإذا قارنا بعض التفصيلات الدقيقة في المصادر الإسلامية عن هذه الريح استطعنا أن نلمس وجوه الشبه القوية بينها وبين ما ورد عند دانتي ، من ذلك ما جاء في قصص الأنبياء وقارنه الباحثون بعبارات من دانتي على الوجه التالي :

من قصص الأنبياء	من الجحيم لدانتي
١ ــ فساق الله السحابة السوداء التي اختارها	فهبت العاصفة الجهنمية بهوائها الأسود
٢ ــ رأيت ريحا فيها كشهب النار	وريح متقدة بالنار
٣ ــ ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء	ريح مضنية أليمة
٤ ــ الريح العقيم	هواء خبيث
٥ ــ فتحملهم وتدفعهم حتى هلكوا	ترهقهم وهي تدور بهم
٦ ــ وتطير بهم الريح بين السماء والأرض	تقودهم في الفضاء بعنف لايهدأ
٧ ـ فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم فتحمله ثم ترمى	تقودهم هنا وهناك إلى أسفل وإلى أعلا لايحدوهم الأمل في

به فيندق عنقه (١)   الراحة (٢)

لكننا إذا اكتفينا بما ورد فى قصة « معراج محمد » المترجمة وجدنا فى الفصلين الرابع والخمسين والثالث والستين وصفاً تفصيليا للريح العقيم القاسى العنيف وتشبيهه بالمرأة التى لاتلد ،وهو ينطلق تحت الأرض البشرية يعذب به الله المذنبين فى الجحيم ، أى فى نفس المكان الذى يقابل الدائرة الأولى عند دانتى ،مما يكفى فى حقيقة الأمر لشرح مصادر دانتى الإسلامية فى هذا المشهد ، ويغنى عن اللجوء إلى القصص القديم ومقارنة الصور الجزئية التى كان يقوم بها « أسين بالاثيوس » لربط دانتى بالتراث الإسلامى قبل اكتشاف المخطوطة المترجمة .

وفى الدائرة الثالثة من الجحيم يرى دانتى صنوف العذاب التى يسامها المتكبرون واللوطيون،وهى تشبه إلى حد بعيد نظيرها فى التراث الإسلامى فهم يسيرون بلا توقف بطريقة دائرية بينما تهطل عليهم أمطار النار فى ندف كبيرة وتساقط بطىء كما يتساقط الثلج على المرتفعات دون رياح(٣) . وهكذا يسقط عليهم الوهج الأبدى الذى أشعل الرمل وهم عراة يرفعون أيديهم البائسة كى تبعد النار عن جسومهم دون جدوى ، ويكتشف دانتى متعجبا أن أحد هؤلاء المعذبين هو صديقه وأستاذه « برونيتى لاتينى » وقد أنضجت وجهه النار ،فيأخذ فى الحديث إليه وهو يمشى معه فى مسيرته الدائرية ، ويتذكر دانتى ما لأستاذه عليه من جميل النصح والتوجيه بينما

---

(١) انظر : كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس لابن إسحق الثعلبى ، طبع مكتبة ابن شقرون بالقاهرة ، بدون تاريخ . ص ٣٨ .

(٢) انظر : الجحيم ، النشيد الخامس ، أبيات متفرقة ، وكتاب «أسين بالاثيوس» ص ١٥١ .

(٣) انظر : الجحيم لدانتى ، الترجمة المذكورة من قبل ، نشيد ١٤ ، أبيات ٢٨-٢٩ وما بعدها .

يراه مع ثلة من القساوسة والأدباء وذوى الشهرة يلهثون فى سعيهم تحت وابل الجحيم جزاء ما اقترفوه من إثم .

وإذا عدنا إلى التراث الإسلامى وجدنا نظير هذا العذاب ، خاصة فى أقوال المفسرين عند شرحهم للآية الكريمة « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »(١) ومناقشاتهم لهذه النار الماطرة هل تكون بدخان أم لا ، ثم فيما ورد من أحاديث عن عذاب العلماء الذين لا يعملون بعلمهم وكيف أنهم يدورون فى النار ما لهم راحة ولا فترة ، فإذا لقيهم أحد ممن تتلمذ عليهم وسألهم كيف يعانون من هذا العذاب وقد نجوا هم بفضل تعليمهم ردوا عليهم بأنهم كانوا لا يعملون بعلمهم ، أو كما ورد فى البخارى من حديث « يجاء بالرجل يوم القيامة فيطرح فى النار فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون : أى فلان ، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول كنت امر بالمعروف ولاآتيه وأنهى عن المنكر وآتية(٢) » ثم يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، بنفس الطريقة التى وجدناها عند دانتى فى هذه الدائرة . وإذا راجعنا قصة « معراج محمد » المترجمة وجدنا أن عذاب اللوطيين فيها يتمثل أيضا فى انهمار أمطار من نار على جسومهم تحيلها إلى تراب ثم يعاد خلقها من جديد لتصلى دائماً سوء العذاب ، أو يتمثل فى حجارة كبريتية ضخمة يلقيها عليهم طير أسود يشبه الطير الأبابيل الذى قذف قوم لوط بحجارة من سجيل ، فتلتقى فى عذابهم صور شديدة القرب من التى رأيناها عند دانتى فى هذه الدائرة الثالثة .

وهكذا كلما تابعنا مشاهد العذاب فى الجحيم وجدنا تطابقا واضحا فى الأوصاف التفصيلية وتعرفنا على مزيد من وجوه استفادة الشاعر الإيطالى

---

(١) سورة الرحمن، آية رقم ٣٥ .

(٢) انظر : مختصر تذكرة القرطبى للامام الشعرانى ، ص ١٢٣ .

بالتراث الإسلامى ، فنقرأ مثلا من قصة المعراج هذا المشهد : « ثم نظرت فرأيت أقواما مشافرهم كمشافر الكلاب والإبل ، والزبانية تقمعهم بمقامع من حديد متوهج ، وتدخل الحيات من أفواههم فتقطع أحشاءهم وتخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء ؟ ، قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ، ثم نظرت وإذا بقوم بطونهم كأمثال الجبال تضطرم بالحيات والعقارب ، كلما هم أحدهم أن يقوم سقط على وجهه من عظم بطنه ، قلت : من هؤلاء ؟ : قال : هم أكلة الربا فى الدنيا » .

تلك الصور وغيرها نراها فى جحيم دانتى عندما يصف عذاب الجشعين واللصوص فى طبقات متعددة من الجحيم ، مثل قوله :

يطلق المطر عواءهم كما لكلاب ذوى المشافر المتوحشة ، وقد احمرت عيونهم وتدلت بطونهم الكبيرة .

ورأيت هناك حشداً من الأفاعى العجيبة الأنواع حتى ليهرب دمى لذكراها . وعلى الكتفين وخلف الرأس من هذا اللص استلقى تنين مفتوح الجناحين يحرق كل من يلاقيه . ثم انهالت عليه هراوة هرقل بمئات الضربات (١)

ثم نقرأ أيضا فى الروايات الإسلامية هذا الوصف : « ثم نظرت فرأيت أقواما يستغيثون من العطش فتأتيهم الزبانية بأقداح من نار ، فإذا تناولها سقط لحم وجوههم من حرها ؛ فإذا شربوها قطعت أمعاءهم وخرجت من أدبارهم » (٢) .

فنجد أن هذا يعادل عذاب المزورين فى الجب العاشر من الحلقة الثامنة عند دانتى حيث يقول :

---

(١) انظر : الجحيم ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، الأناشيد ٦ و٢٤ و٢٥ فى مواضع متفرقة .

(٢) : رواية ابن عباس للاسراء والمعراج ، الطبعة المشار إليها ص ١٦ .

« ورأيت واحدا كان يبدى صورة الطنبور من الاستسقاء الثقيل الذى جعله يبقى شفتيه مفتوحتين كما يفعل المحموم عندما يدير إحداهما إلى الذقن والأخرى إلى أعلى بفعل العطش .. وليكن عذابك فى عطش يشقق لسانك وماء كريه يجعل بطنك هكذا حجابا أمام عينيك . . فإذا قلت وا أسفاه أشتهى قطرة ماء فإن القنوات الباردة تجعلك تشعر بجفاف يفوق السقام الذى ينزع من وجهك اللحم (١) » .

ونمضى كذلك فى قراءة الرواية الإسلامية فنجد هـذه الصورة :
« ورأيت رجالا ونساء معلقين بألسنتهم بكلاليب من نار ولهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم ، قلت : من هؤلاء؟ قال : الذين يشهدون الزور ويمشون بالنميمة ويقعون فى أعراض الناس » فنتذكر تلك الصورة التى بدا عليها بعض المعذبين فى النشيد التاسع والعشرين من جحيم دانتى وقد ترقش جسدهم بالقشور من الرأس إلى القدم ، وانهالوا على جلودهم بالأظافر ينزعون قشورها وجربها كما تفعل السكين بزعانف الأسماك .

كذلك نرى من مشاهد العذاب فى الرواية الإسلامية هذه الصورة :
« ثم رأيت رجالا ونساء يعذبون فى النار ، قد قام عليهم زبانية بمقامع من حديد ، كلما استغاثوا يطعنونهم برماح من نار فى بطونهم ويضربونهم بسياط من لهب ، فلم أر أحدا من أهل الكبائر أشدعذابا منهم ، فقلت : من هؤلاء؟ قال : الذين عقوا والديهم . ثم رأيت أقواما تذبحهم الزبانية بسكاكين من نار ، كلما ماتوا عادوا كما كانوا ، قلت : من هؤلاء؟ قال : الذين يقتلون النفس التى حرم الله ظلماً وعدوانا » فإذا ما تصفحنا وجوه العذاب فى جحيم دانتى قابلنا نظير هذه الصور ، خاصة فى الجب الخامس من الحلقة الثامنة حيث رأى الغارقين فى بركة من القطران المغلى ، كلما طفا المعذبون فيها إلى السطح ضربتهم الشياطين بمئات الخطاطيف الحديدية كى يغمسوا وجوههم وجسومهم وسط القطران الملتهب، وفى الجب التاسع حيث رأى مبتورى الأعضاء بالسكاكين القاطعة ومجدوعى الأنف

(١) أنظر : الجحيم ، نفس المصدر ، النشيد ٣٠ ، أبيات متفرقة .

حتى أسفل الحاجبين ، ومن لم تكن له سوى أذن واحدة ، ومن فقئت عينه ، ومن قطع لسانه فى حلقه ومن بترت يداه وهو يرفع ساعديه فى الهواء المظلم حتى لوث الدم وجهه ، وأخيراً رأى جذعاً من غير رأس ، فأمسك الرأس المقطوع من الشعر فكلمته ، إذ بعثت فيها الحياة مرة أخرى لتذوق مزيداً من العذاب (١)

كما يبدو أن عذاب المنافقين عند دانتى فى الوادى السادس من « ماليبولجى » شديد الشبه بنظيره فى التراث الإسلامى ، فهم قوم يعلوهم الطلاء ويدورون كثيراً بخطى بطيئة وهم يبكون ، ويبدو على سيماهم الإعياء والوهن ، ويرتدون عباءات مذهبة من الخارج حتى لتخطف الأبصار ، لكن باطنها كله من رصاص شديد الثقل . ونفس هذه الصورة نجدها فى التراث الإسلامى فى مجال الحديث عن عذاب البخلاء وكيف أنهم يمضون يوم القيامة خافضى الرءوس تحت ثقل كنوزهم التى ادخروها فى الحياة .

وكذلك عند الحديث عن الكفار عموماً وكيف أنهم سيلبسون سرابيل من قطران وتغشى وجوههم النار ، وفى قصة « معراج محمد » المترجمة نرى هذا اللون من العذاب على وجه التحديد فى الفصلين الثامن والخمسين والسابع والسبعين حيث توصف الأحجار الكبريتية التى تربط فى رقبة المذنب ويلقى معها فى نار جهنم فتتقد به فى شعلة واحدة تخطف بلهيبها الأبصار ويلبس أحد عقارب جهنم المذنبين بسبعين جلد يبلغ سمك كل جلد سبعين ذراعاً وحشو ما بين كل جلد وآخر آلاف الحيات الصغيرة التى تعضه وتنهشه ، وهذا هو نفس العذاب الذى يصفه دانتى فى الوادى السابع من « الماليبولجى » حيث تطارد اللصوص أعداد رهيبة من الزواحف المتوحشة تنهشهم وتبث السم فى أجسادهم حتى تتحلل ثم تتماسك مرة أخرى ليذوقوا سوء العذاب . ومع أن أسين بالاثيوس قد ذهب يلتمس

---

(١) انظر : الجحيم ، الترجمة المشار إليها ، الأنشودة ٢٨ أبيات من ٢٢ — ٨٣ .

نظير هذا العذاب فى أشتات متفرقة من عناصر التراث الإسلامى إلا أننا نجده مجتمعاً فى نص قصة « معراج محمد » المترجمة .

وعندما وصل دانتى إلى بعض وديان الجحيم وجد أقواماً يمضون باكين صامتين قد التوت اعناقهم بين الذقن وأول الصدر ؟ إذ استدار وجههم للخلف وكان عليهم ان يسيروا إلى الوراء بعد أن امتنع عليهم النظر إلى الأمام وانقلبت أوضاعهم حتى بلل بكاء الأعين منهم قناة الردفين وأصبح كتفهم هوصدرهم فهم ينظرون إلى الوراء ويسيرون إلى الخلف(١) . وقد أدهش هذا اللون من العذاب شراح دانتى فأشادوا بأصالته المطلقة وعدم وجود أى نظير له من قبل ، دون أن يفطنوا إلى أنه تكرار لصورة قرآنية إسلامية فى قوله تعالى « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » (٢) إذ أنها كما ورد فى تفسير الطبرى : أى نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين فى قفاه فيمشون على أعقابهاوقد تحولت وجوههم إلى ظهورهم .

تقدم دانتى مع فرجيل قاصدين منطقة الحلقة أو الدائرة التاسعة ، فظن دانتى أنه رأى أبراجاً عالية ولكن رفيقه أوضح له أن ما رآه ليس أبراجاً بل هم جماعة من المردة حول شاطئ البئر أو الجب ، وتبين دانتى أجسامهم عند اقترابه منهم ، فرأى أحدهم – وكان ذا حجم ضخم – من الرأس إلى سرة البطن ، وهو نمرود ملك بابل الذى ورد ذكره فى العهد القديم ، ثم رأى « إفيالتس »المارد الذى ثار على«جوبيتير » فى الميثولوجيا اليونانية و« أنتيوس » الذى لم يثر على الآلهة ولذلك طلب منه فرجيل أن يحملهما إلى الدائرة التاسعة ، فحملهما المارد بيديه كأنه برج

---

(١) انظر الجيم، الترجمة المشار إليها ، النشيد العشرون ، الأبيات من ٧ – ٢٤

(٢) سورة النساء الآية ٧ .

كبير وهما حزمة صغيرة ، ثم وضعهما برفق فى دائرة يهوذا وارتفع كسارية فى سفينة(١) وقد تفنن دانتى فى وصف هؤلاء المرده ، فبدا له وجه أولهم وهو نمرود ضخماطويلا كقبة كنيسة القديس بطرس فى روما ، وتتناسب معه سائر عظامه حتى يبلغ الجزء الظاهر منه ثلاثين شبراً كبيراً ، ومعنى هذا أن قامة ذلك المارد تبلغ ٤٣ ذراعاً على الأقل طبقاً لتقدير الشراح (٢).

وبالرغم من أن شخصيات المردة هذه لها سوابقها فى الثقافة الإغريقية والمسيحية لكنها لا تضعها فى الجحيم ، ويظل التراث الإسلامى هو المصدر الوحيد الذى يضع هؤلاء المردة بأحجامهم الضخمة ورءوسهم التى تشبه القباب العظيمة وطولهم الذى يبلغ فى بعض الروايات إثنين وأربعين ذراعاً أيضاً فى الدرك الأسفل من النار ، وهو يصفهم بهذه الضخامة كما جاء فى تذكرة القرطبى مثلا من «باب تعظيم جسم الكافر فى النار وكبر أعضائه بحسب أنواع كفره» أى لكى يتيح الفرصة كى يقع عليهم أكبر قدر من العذاب . ويخص منهم نمرود كنموذج للكبرياء الممقوتة والتسلط والجبروت ولذا يقرنه دائماً بإبليس ويجعلهما أشد الناس عذاباً فى الآخرة(٣) .

---

(١) انظر : الجحيم من الترجمة المذكورة ، النشيد ٣١ ، أبيات متفرقة .

(٢) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه من قبل ص ١٦٣ .

(٣) انظر : نفس المصدر السابق ص ١٦٣ .

إبليس وعذاب الزمهرير :

صنف واحد من العذاب هو الذى سلط على سكان الدائرة التاسعة من الجحيم وهو العذاب بالبرد الشديد ، حيث رأى دانتى بحيرة كان لها من التجمد صورة الزجاج لا الماء ، وقد انغمس فى ثلجها المعذبون حتى ازرقت الوانهم وتجمد الدمع على خدودهم من قسوة الزمهرير وتشوهت وجوههم من أثره فتساقطت آذان بعضهم وأصبح الآخرون فى شكل الكلاب .

ومعروف أن العذاب بالبرد لا نظير له فى التراث المسيحى مما حير شراح دانتى ، لكن عند تأمل التراث الإسلامى نجد أن القرآن الكريم يصف أولا الجنة بأنها « لا يرون فيها شمسا ولا زمهريراً » (١) وبناء على ذلك فإن المفسرين قد ملأوا الجحيم بالنوعين من الحرور والزمهرير . ويرى الجاحظ فى كتاب « الحيوان » أن الفرس نظراً لتقديسهم النار لم يتصوروا عذاب الآخرة إلا من البرد الشديد احتراماً للنار من ناحية واستجابة لطبيعتهم كسكان مناطق جبلية أشد ما يخيفها هو العواصف الثلجية من ناحية أخرى ، وأيا ماكان الأمر فسرعان ما وضعت الأحاديث التى توضح كيفية العذاب بالبرد مثلما ورد فى التذكرة أن « بعض الصحابة سأل : وما زمهرير جهنم يا رسول الله ، قال : جب يلقى فيه الكافر فيتمزق من شدة برده بعضه من بعض » . ولم يكن دانتى بحاجة إلى أن يطلع على هذه المصادر الإسلامية كى ينقل فكرة العذاب بالزمهرير ، فقد سيقت إليه مكتملة فى قصة معراج محمد ، فى الفصل الستين عند الحديث عن الزمهرير الذى يعصف بمنزل إبليس فى الجحيم .

وكم كانت غريبة هيئة إبليس فى الكوميديا الإلهية وقد استقر فى الدرك الأسفل من النار باعتباره امبراطور العالم الأليم ؛ وقد لقيه دانتى وقد خرج بنصف صدره من الثلج ونبتت فى رأسه ثلاثة وجوه ومن تحت كل منها خرج جناحان كبيران ليست بذات أرياش ، بل فى صورة جناحى الخفاش ،

(١) سورة الإنسان ؛ الآية رقم ١٣

وأخذ يحركهما حتى خفقت عنه ثلاثة أرياح ، وبكى بست أعين فتقاطر على أذقانه الثلاث الدمع والرغوة الدامية ، وفى كل فم من أفواهه الثلاث أخذ يمضغ بأسنانه أحد الخونة الآثمين وهم « يهوذا وبروتس وكاسيوس » . ولكن أعجب ما فى أمر إبليس هو أنه على ضخامته الهائلة لم يكن منتصب القامة بل كان مزروعاً رأساً على عقب بعد أن ألقى من من السماء مطرودا من رحمة الله.واستطاع دانتى أن ينزلق من فوق شعيرات فخذه الغليظة كدرجات السلم حتى وصل مع هاديه إلى ثغرة من صخرة عبر كهف طبيعى ذى أرض وعرة يعوزها الضياء ، ومنها نفذا إلى مركز الأرض حتى وصلا إلى النصف الثانى للكرة الأرضية حيث الضياء والسماء والنجوم (١) وبالرغم من اعتماد هـذا الوصف على كثير من العناصر الكلاسيكية والمسيحية إلا أنه مفعم بالتفصيلات التى لم يجد الشراح لها مصدراً سوى عبقرية دانتى الشخصية .

ولا ينقص من هذه العبقرية فى شئ أن يلتمس الباحثون فى التراث الثقافى الإسلامى مصدراً لكثير منها . فعذاب إبليس بالثلج والزمهرير كما قلنا شائع فى هذا التراث ، فهو أولا أشد الخلق عذاباً لأنه هو الذى سن الشرك ومعصية الله ، ثم إن الزمهر يرهو الذى يقابل النار ، ولما كانت نشأة إبليس من النار فان عذابه يصبح بالزمهرير الذى يناقض ما هو الغالب عليه فى أصل خلقه على حد تعبير ابن عربى فى فتوحاته . وصورة هبوط إبليس بهذا الشكل الغريب لها سوابقها أيضاً فى هذا التراث أيضا حيث ورد فى بعض كتبـه : « ثم بعث الله من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب باسطين قابضين على قرار الأرضين حتى ضبطها ولم يكن لقدميه فى الهواء موضع قرار »(٢) أى أنه مقلوب أيضاً رأساً على عقب .

---

(١) انظر الجحيم — ترجمة الدكتور حسن عثمان — الأناشيد ٣٢-٣٣ — ٣٤

(٢) انظر : قصص الأنبياء المسمى بالعرائس الثعالبى . ص ٢١

فاذا رجعنا إلى قصة « معراج محمد » التي يرجح اطلاع دانتي عليها وجدنا أن مقام إبليس فى الأرض السابعة ، وهو هناك موثق فى أغلاله منذ عصيانه لله تعالى ، حيث ألقته الملائكة بعد أن صفدوه بالسلاسل الحديدية وربطوا يديه إحداهما من أمام والأخرى من الخلف ، وحجمه أيضا هائل مريع ، فله رأس تصل حتى أرضنا هذه فتنفذ منها قرونه ، أما وجوهه العديدة فهى موصوفة بدقة بالغة وتفاصيل مترفة تربو بكثير على ما وجدناه عند دانتي. وقد أرسل الله تعالى واحداً من الملائكة الثمانية من حملة العرش ليرفع على كتفيه الأرضين السبع . هذا الملاك له أيضاً جسد هائل وأربعة وجوه وأربعة صور وأشكال منها الإنسان والنسر والثور والأسد . وله ستة أجنحة ، وجسمه كله ملىء بالعيون . ويبدو أن دانتي قرن هذين الوصفين واستفاد بهما معا فى تشكيله لصورة إبليس ، كما يلاحظ أن مقام إبليس فى قصة المعراج محوط ببرد الزمهرير من ناحية وبنار جهنم من ناحية أخرى حتى لا يحرم من كلا النوعين من العذاب لفداحة جرمه وعظم ذنبه .

وبهذا يتضح لنا أن كثيراً من المواد الأولية التى صاغ منها دانتي صوره وتصوراته عن الجحيم مستقاة من التراث الإسلامى ، وإذا كانت القدرة الشعرية تعتمد أولا على عبقرية الصياغة والسياق الفلسفى والفكرى الجديد فإن هذا التأثير لا يقلل بحال من قيمة الشاعر الإيطالى بل يوضح طبيعة إبداعه ومدى أصالته .

رحلة المطهر

وصف عام

الاغتسال الرمزى

صور من عذاب المطهر

الفردوس الأرضى

لقاء العروس

وصف عام :

يخرج دانتي ودليله عبر سرداب مظلم طويل ممتد من باطن الأرض حيث الجحيم إلى السطح فيشرفان على شواطىء المطهر ؛ الذى يتمثل فى خيال الشاعر الإيطالى على هيئة جبـــل هرمى سامق ، يقوم وسط محيط لا نهائى تغطى مياهه كل البسيطة . وتحيط بهذا الجبل سبعة أفاريز دائرية تحيله إلى سبعة مدارك يسكن كلا منها فئة خاصة من أهل الخطايا السبع ، وهم بالترتيب من أسفل إلى أعلى : —

المتغطرسون والحاسدون والغاضبون والكسالى الذين لا يبالون والبخلاء والجشعون وأصحاب الشهوات الحسية .

وهناك فى مقدمة المطهر تتجمع فى درجتين فئة أخرى ممن ماتوا محرومين من عفو الكنيسة أو أهملوا الدين أو الدنيا أو لقوا بالعنف حتفهم فى انتظار أن يقضى لأرواحهم بسكنى إحدى هذه المنازل .

وفوق الإفريز الأعلى من هذا الجبل يمتد سهل منبسط يقوم عليه الفردوس الأرضى تحيط به طبقة الأثير اللانهائية .

ومن هنا فإن جبل المطهر يمكن أن يعتبر ذا سبع درجات أو تسع أو عشر ، تتصل فيما بينها بطرق شاقة وعرة ، صاعدة ومنحدرة ، أما الأرواح التى تسكنها فإنها ترقى بالتوالى من مقام إلى آخر ، وهى جميعاً بريئة من الكبائر التى لا تغفر ، إذ أن ذنوبها مما تسعه رحمة الله ، سواء كانت قد كفرت عنها فى الأرض أم ما زالت تدفع ثمنها وتتطهر منها بالصلاة والدعوات والابتهالات حتى تصعد إلى السماء . وحراس المطهر ليسوا شياطين ولا زبانية مثل حراس الجحيم ، بل هم ملائكة ترعى الأرواح المتطهرة وتقودها إلى الصعود التدريجى .

ويخضع دانتى رمزياً لعملية التطهير هذه أثناء رحلته ؛ إذ يكتب الحارس على جبينه أول حرف من كلمة ذنب باللاتينية «P» سبع مرات ، وعندما يعبر كل إفريز إلى ما يليه يمحى منه أحد هذه الحروف ، حتى إذا صعد إلى الفردوس الأرضى كان قد برئ بدوره من جميع الذنوب ومحيت منه كل الحروف وانغمس فى ماء نهرين مطهرين تغتسل فيهما روحه وتتأهب لدخول الفردوس (١) .

ويعتبر هذا التحديد التفصيلى الدقيق لوضع المطهر وأفاريزه ووظيفته جديداً فى إطار أدب الآخرة المسيحى ، إذ أنه حتى أوائل القرن الخامس عشر – أى بعد نشر الكوميديا الإلهية بأكثر من مائة عام – لم يكن وجود المطهر نفسه قد أصبح من العقائد الدينية المسيحية المعترف بها ، كما لم يحدد أى مجمع كنسى وصفاً طوبوغرافيا له حتى ذلك التاريخ . بل كانت الكنيسة تنحو إلى عدم اعتماد أى وصف مكانى يحدد مواقع العالم الآخر خاصة المطهر ، وكل ما كانت تتقبله بإجمال هو وجود المطهر دون تحديد لمكانه أو شكله أو مراتبه أو درجات التطهير فيه . كما لم يقدم التراث الأدبى الغربى السابق على دانتى مادة كافية له تشرح تفاصيله الثرية ، مما حدا بدارسيه إلى أن يؤكدوا أن تصورات دانتى للمطهر قد ابتدعت أشكالا ومواقع تخرج على التصورات المسيحية الشائعة فى عصره . (٢)

ولم يستطع الدارسون تفسير هذه الظواهر إلا عندما اتجهوا للتراث الإسلامى يمحصون العناصر التى استقاها دانتى منه ، خاصة تلك التى تتصل بعذاب القبر ونعيمه وهل يجرى على الروح والجسد أم على الروح فقط ،

---

(١) راجع لهذا الملخص شرح الرسم التوضيحى لجبل المطهر كما ورد فى ترجمة المطهر للدكتور حسن عثمان . ص ٤٣٦ .

(٢) انظر : Landino, Prologo del Purgaturio. P. 194. Segun A. Palacios. op. cit. P. 177,

وهل يبدأ بعد الموت مباشرة أم عند البعث مما تحفل به كتب الرقائق الإسلامية ويقدم مادة تصويرية غنية كفيلة بشرح كثير من تصورات دانتي .

ولا يروعنا أن التراث الإسلامي المتصل بأدب الدار الآخرة لم يرد فيه ذكر المطهر بهذا الإسم ؛ إذ أنه قد أطلق عليه أسماء أخرى معينة ، وحدد موقعه غالباً كمكان مجاور للجحيم ولكنه منفصل عنه ، فإذا كان الجحيم يقع فى باطن الأرض فإن هذا « المطهر » يقوم على سطحها ، كما أن الأرواح ــ وهذا هو المهم فى فكرة المطهر ــ تمضى فيه فترة محددة تتطهر خلالها حتى تقترب من درجات الفردوس مارة بالفردوس الأرضى .

وبحسبنا أن نورد بعض روايات التراث الإسلامى التى تتضح منها هذه الفكرة ، ومنها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق نارين : إحداهما تسمى النار الجوانية والأخرى تسمى النار البرانية . أما الأولى فلا يخرج منها أحد ، لكن البرانية هى المكان الذى يلقى فيه المؤمنون جزاءهم على ما فرط منهم فى جنب الله ما شاء من الوقت ، ثم يأذن الله لملائكته ورسله وأوليائه أن يشفعوا لهم فيخرجون من النار وقد صاروا سودا مثل الفحم ، فيأتون إلى شاطىء نهر فى الجنة يسمى نهر الحياة ، فإذ مستهم مياهه عادت أجسامهم إلى طبيعتها وقيل لهم ادخلوا النهر فينزلون إليه ويشربون منه ثم يخرجون معافين ويقال لهم « ادخلوا الجنة » وهناك يسمون بأهل النار ، فيضرعون إلى الله أن يمحو عنهم هذه الصفة فيأمر الله أن تمحى من جباههم ويكتب مكانها « عتقاء الله » .

وفى خبر آخر عن عبد الله بن الحارث «أصحاب الأعراف ينتهى بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة فيغتسلون منه اغتسالة فيبدو فى نحورهم شامة ، ثم يعودون فيغتسلون ، فكلما اغتسلوا ازدادت بياضاً ، فيقال لهم تمنوا ، فيتمنون ما شاء الله تعالى ، فيقال لهم : لكم ما تمنيتم وسبعون ضعفاً ، فيعرفون بمساكين أهل الجنة ، فإذا دخلوا الجنة وفى نحورهم تلك الشامة البيضاء عرفوا

بها من بين الناس (١)

وقد رأينا أن دانتي في المشهد الأخير من المطهر قد محيت من على جبينه الحروف الرامزة إلى الذنب وانغمس في مياه نهري « ليثي » و « إينوي » حتى أحس أنه قد ولد من جديد ، وصار طاهراً متأهباً للصعود إلى السماء . وسنرى أن هذا المشهد التطهيري كثير الدوران في التراث الإسلامي الخاص بأدب المعراج من ناحية والمتصل بأخبار الدار الآخرة من ناحية أخرى . إلا أن ما يعنينا الآن إنما هو التحديد الدقيق لموقع المطهر بعد النار وقبل الجنة ، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » . . وروى ابن عساكر عن الفضيل بن عياض قال : بلغنا أن الصراط مسيرة خمس عشرة ألف سنة : خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط ، وخمسة آلاف مستوى » (٢) ومعنى هذا أن الصراط لم يعد مجرد ممر دقيق مثل الشعرة وإنما أصبح هضبة عالية ، أو كما ورد في بعض الأخبار الأخرى « إن من وراء الصراط صحراء فيها أشجار طيبة » وأهم من ذلك أن الوظيفة التي يقوم بها هذا المكان تحدد في التراث الإسلامي على أنها التطهير والتنقية والتهذيب والإعداد للصعود لمراتب الجنة ، وهي نفس الوظيفة التي رأيناها في مطهر دانتي .

ويحل الرواة المسلمون إشكال هذا الصراط الخاص على أساس أن في الآخرة صراطين ، أحدهما مجاز لأهل الحشر كلهم إلا من دخل الجنة بغير

---

(١) انظر : مختصر تذكرة الإمام القرطبي للشعراني ، طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٦٨ صفحة ٩٢ وكنز العمال في ثبوت سنن الأقوال والأفعال للهندي طبع القاهرة عام ١٣١٢هـ .

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدي الجزء العاشر ص ٤٨١ .

حساب أو يلتقطه عنق من النار فإذا خلص من خلص من الصراط الأكبر حبسوا على صراط آخر لهم ولا يرجع إلى النار أحد من هؤلاء إن شاء الله تعالى لأنهم قد عبروا الصراط الأول على متن جهنم .

وحتى هذا الصراط الأول المضروب على ظهرى جهنم يحتوى على كثير من العناصر التى دخلت فى تصور دانتى ، فبالرغم من أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف إلا أن له جسوراً تغيب فى جهنم مقدار أربعين ألف عام ، ولهيب جهنم بجانبها يلتهب ، وعليها حسك وكلاليب وخطاطيف ، وهى سبعة جسور ، يحشر العباد كلهم عليها ، وعلى كل جسر منها عقبة مسيرة ثلاثة آلاف عام : ألف عام صعود وألف عام استواء وألف عام هبوط . ويتفنن ابن عربى فى توصيف هذه الجسور وتجسيم الحساب عليها قائلا : وذلك قول الله عز وجل « إن ربك لبالمرصاد » يعنى على تلك الجسور ، وملائكته يرصدون الخلق عليها ، لتسأل العبد عن الإيمان بالله ، فإن جاء به مؤمناً لا شك فيه ولا زيغ جاز إلى الجسر الثانى فيسأل فى الجسر الثانى عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الرابع فيسأل عن الصيام فإن جاء به تاما جاز إلى الجسر الخامس فيسأل عن حجة الإسلام فإن جاء بهـا تامة جاز إلى الجسر السادس فيسأل عن الطهر فإن جاء به تاماً جاز إلى الجسر السابع فيسأل عن المظالم ، فإن كان لم يظلم أحداً جاز إلى الجنة وإن كان قصر فى واحدة منهن حبس على كل جسر منها ألف سنة حتى يقضى الله فيه بما يشاء » (١)

فجسور الصراط هنا مثل أفاريز المطهر سبعة ، ويسكنها فئات من تاركى الفرائض على اختلاف فى التصور بين دانتى وابن عربى ، لكنهم ليسوا من أهل الكبائر ، وهى أيضاً على شكل سلسلة من العقبات التى يستغرق صعود كل

(١) انظر الفتوحات المكية لابن عربى — السفر الرابع من الطبعة التى حققها الدكتور عثمان يحيى القاهرة ١٩٧٥ . ص ٤٤٦/٤٤٧ .

منها ألف عام ، وهى فى نهاية الأمر ارتقاء وتنقية وتطهر واستعداد للدخول فى رحاب الفردوس .

وقد ظل الباحثون فى شك من إمكانية وصول مثل هذه الأوصاف الإسلامية إلى دانتى حتى اكتشفت مخطوطة المعراج ، وإذا بها حافلة بالعناصر الوصفية الثرية لهذا الصراط فى ثلاثة فصول مطولة هى ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ وشذرات من فصول أخرى تقدم كلها مادة يمتزج فيها الروح الصوفى بالخيال الشعبى ، وتجسم بطريقة حسية الأشكال التصويرية للعالم الآخر . فالصراط فيها يتكون أيضاً من سبعة جسور معلقة فوق الجحيم ، وكلها أدق من الشعرة وأحد من السيف وعلى جانبيها الكلاليب والخطاطيف ، وطولها آلاف السنين ، وكل منها يتلو ما قبله ويفوقه فى الطول والدقة ، ويجوز عليها المذنبون إلى الجنة بعد أن يتطهروا من ذنوبهم على كل معبر ، ويسألون عند كل جسر عن عمل محدد من أعمال البر وأداء الفرائض ، ابتداء من الإيمان وإقامة الصلاة والصيام والحج وحفظ القرآن إلى التطهر وبر الوالدين .

على أن بجوار هذا الصراط — طبقاً لرواية المخطوطة المترجمة — عدة مروج ورياض يمرح فيها المتطهرون بعد ابتلائهم ، مما يجعل صورتها شديدة القرب من تصور دانتى للمطهر بجباله وأفاريزه مما لا نظير له فى الأدب المسيحى السابق عليه .

الاغتسال الرمزى :

من المعالم المميزة لمطهر دانتى أنه تطهر ثلاث مرات مختلفة قبل أن يرقى إلى السماوات : المرة الأولى عندما خرج من الجحيم فأخذ فرجيليو طبقاً لنصيحة كاتون يغسل وجه دانتى بيديه كى يمسح عنه الأقذار التى علقت به من زيارة الجحيم ، ونتيجة لهذا التطهر الأول عاد لونه الطبيعى إلى خديه المخضلتين بالدموع .

أما المرتان الثانية والثالثة فقد حدثتا قبيل خروجه من المطهر عندما غمست كل من ما تيلدى وستاشيو دانتى فى مياه الجدول ونهر إينوى لمسح الذنوب من ذاكرته . وتجديد روحه وطاقته حتى يقول :

وعدت من أعظم الأمواج قدسية مولوداً جديداً .
كالأشجار الجديدة التى تتجدد ببزوغ أوراقها الوليدة .
وصرت طاهراً ومؤهلا للصعود إلى النجوم (١)

ولسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى أن عملية التطهير نفسها من معالم المعراج الإسلامية المميزة كذلك ، إذ لايخلو منها أى حديث من أحاديث المعراج ، كما أنها أصبحت من العناصر الشائعة فى أدب الدار الآخرة نتيجة للآية الكريمة « ونزعنا مافى صدورهم من غل » ، وعلينا الآن أن نتتبع الصور التى تقرب من دانتى ، منها ما ورد فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى من قوله مرفوعاً . . « ولكن ناس أصابتهم النار بخطاياهم فأماتهم الله حتى إذا كانوا فحما أذن لهم فى الشفاعة فجئ بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فقيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل » (٢) .

وفى حديث على « حتى إذا انتهوا إلى باب من أبواب الجنة وجدوا

---

(١) انظر : المطهر ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٣ أبيات ١٤٢ — ١٤٥ وكتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ص ٦٥ .

(٢) انظر مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ٩٨ .

عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما فى بطونهم من أذى أو قذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم بنضرة النعيم فلن تتغير أبشارهم بعدها أبداً ولن تشعث أشعارهم كأنما دهنوا بالدهان » (١) إلا أن أقرب الروايات لما رأيناه عند دانتى ما ورد فى تراث الإسراء والمعراج فى وصف جنة إبراهيم الخليل إذ يتم التطهير على ثلاث مراحل أيضاً تنغمس فيها أرواح المذنبين وأجسامهم حتى تصفو على درجات ماديا ومعنويا على النحو التالى :

« وعنده — أى إبراهيم — قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم فى ألوانهم شيء ، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا : وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم فجاءوا وجلسوا إلى أصحابهم فقال ياجبريل من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء وما هذه الأنهار التى دخلوا فاغتسلوا فيها ؟ » ففسر له جبريل حالات القوم ودلالات الأنهار الرمزية من أنها رحمة الله ونعمته وشراب طهور (٢)

فصورة البزوغ الجديد كالشجرة ذات الأوراق الوليدة وردت فى الأثر الإسلامى الأول « ينبتون نبات الحبة فى حميل السيل » وقد أعجبت بعض حضور الرواية من التابعين ، ولفتت انتباهه خبرة الرسول بظواهر الطبيعة إذ جاء بعدها : « فقال رجل من القوم . كان رسول الله قد كان يرعى بالبادية » ، وفى الحديث الثانى شرح لعملية التطهير المادية والمعنوية وفى الثالث تفصيل لمراحل التطهير ودلالاته .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب الجزء الرابع ص ٩٢٤ بروايات مختلفة .

(٢) انظر لهذا الحديث تفسير الطبرى — الجزء الخامس عشر ص ٩ . وقصة الإسراء والمعراج للغيطى ص ٩٩ .

ونأتى إلى قصة المعراج المترجمة لنجد نفس هاتين العينين النضاحتين على باب الجنة - فى الفصل الثامن والثلاثين - تنبعان عند ساق شجرة عظيمة ويشرب من أحدهما الداخل فيذهب ما فى بطنه من أذى أو قذى، ثم يستحم فى العين الأخرى فتصفو روحه ويضيء وجهه وتحل عليه نعمة الله .

وبهذا العنصر الأخير نجد الدليل الحاسم على تمثل دانتى للمأثورات الإسلامية بالصورة التى جاءت عليها فى قصة المعراج، إذ كان من الممكن أن تتعدد وتتكاثر عمليات التطهير الرمزية ثم تخلو منها القصة المترجمة فيصعب إلمام دانتى بها ، كما كان من المتوقع أن تأتى هذه العملية فى بداية المعراج - مثل بقية الروايات والأحاديث - وعندئذ كان علينا أن نتوقع أيضاً أن يكون مكانها عند دانتى فى بداية رحلته ، أما وقد وضعتها القصة المترجمة عند مدخل الفردوس أو نهاية الجحيم فإن دانتى يدرك مغزاها بهذا الشكل ويحتفظ به فى كثير من صوره وأشكاله ودلالته الرمزية ،

صور من عذاب المطهر :

كان من الصعب على دانتى نفسه أن يتخيل جديداً فى أصناف العذاب بعد ما ذكره فى الجحيم ليملأ به أفاريز المطهر ، ومع ذلك فإن كثيراً من الصور التى أوردها لا تخلو من مشابه محددة لمشاهد نظيرة لها فى التراث الإسلامى على الوجه التالى :

– يتمثل عقاب الذين تأخروا فى توبتهم من الآثام حتى إذا حضرهم الموت فى الانتظار والمكث زمناً طويلا حتى يأذن الله لهم فى الصعود إلى جبل المطهر ، وهم لذلك يرقدون عند سفح الجبل ملتصقين بالصخور الوعرة ومنتظرين من أقربائهم الأحياء أن يترحموا عليهم ويغمروهم بصلاتهم ودعواتهم حتى تقصر مدة انتظارهم ويتعرف دانتى فيهم على « مانفريد » الذى يتقدم إليه ويطلب منه أن يذكره بالصدق لدى ابنته عساها تصلى لروحه وتدعو له بقبول التوبة المتأخرة . (١)

كما يرى دانتى رجلا جالساً محتضناً ركبتيه خافضاً بينهما رأسه فيتعرف عليه فإذا هو « بلاكوا » الفلورنسى صانع الآلات الموسيقية الذى يقول له : لا جدوى من محاولة الصعود قبل الأوان إلا أن الصلوات الطيبة فى الأرض تقصر من مدة الانتظار .

والتراث الإسلامى ملىء بمثل هذه المشاهد فى موضعين : –

أحدهما عند الحديث عن عذاب القبر – وهو أحد مقابلات المطهر فى التصور الإسلامى – إذ وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها · « الميت فى قبره كالغريق المتعوب ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو من صديق

---

(١) انظر : المطهر ترجمة الدكتور حسن عثمان : النشيد الثالث : الأبيات ١١٢ – ١٢٤ ص ٨١/٨٢ .

له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها » (١) ، كما وردت رواية عن أبى دلف العجلى القائد الحربى فى عهد الخليفة المأمون الذى يأتى فى المنام لابنه دلف ويقص عليه ما يراه فى عذاب القبر حيث يجلس « واضعاً رأسه بين ركبتيه » فى إنتظار رحمة الله ويطلب منه أن يخبر بقية أهله بحاجته إلى صلاتهم ودعائهم . (٢)

وثانيهما عند الحديث عن هول يوم القيامة وعذاب الانتظار فى المحشر حتى يقضى بين الناس ، وكيف أنه يتفاوت طولا وقصراً تبعاً لأعمال العبد من ناحية ولسرعة غوثه بشفاعة الرسول والأولياء من ناحية أخرى .

ـ ويحكى دانتى فى الأنشودة العاشرة أنه رأى المتكبرين فى المطهر يسيرون وقد ناءت ظهورهم بالأحجار الثقيلة وقطع الصخر الضخمة فانحنوا تحت وطأتها جزاء غطرستهم مما يذكرنا بكثير من الأحاديث النبوية عمن يجيئون يوم القيامة وقد حملوا على ظهورهم ما فرحوا به من متاع الحياة الدنيا وعمن اغتصب من غيره شبر أرض فيحمله يوم القيامة حتى يهوى به إلى قاع الأرض وعن البخلاء الذين يأتون يوم القيامة وقد حملوا كنوزهم على ظهورهم .

ـ وعلى الإفريز الثانى من المطهر يرى دانتى الحاسدين فى هيئة عميان خيطت أجفانهم بسلك من حديد جزاء لهم على عدم صيانتهم لما يرونه وحسدهم له . والعمى كثير الورود فى التراث الإسلامى بمعنييه المادى والمعنوى ، ففى الآية الكريمة « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » (٣) « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم

---

(١) انظر مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى . ص ٣٧ .

(٢) انظر : شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطى ، مطبعة الحلبى بالقاهرة عام ١٩٥١ .

(٣) سورة الاسراء ٧٢

القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » (١) . على أن فى اعتبار العمى عند دانتى جزاء للحسد قدراً كبيراً من التوافق مع أسلوب الجزاء فى الإسلام الذى يوقع العقوبة على نفس الجارحة التى ارتكب بها الذنب كما رأينا فى الحديث عن الجحيم .

– عندما ينتهى الشاعر الإيطالى من زيارة الحلقة الرابعة من المطهر يرى فيما يرى النائم « امرأة عاطلة من مفاتن النساء ، متلعثمة اللسان ، حولاء العينين ، ملتوية القدمين ، مبتورة اليدين ، شاحبة الوجه ، لكنها مع ذلك كما تبعث الشمس الدفء فى الأطراف الباردة التى يثقل عليها الليل ..

انتصبت قامتها برهة واكتسى وجهها الشاحب
باللون الذى يتطلبه المحبة .
وشرعت تغنى حتى كان من العسير على أن أحول انتباهى عنها » (٢)

بيد أن فرجيل يدعو دانتى لمواصلة السير بعد أن عراها من ملابسها وكشف له عما فى بطنها من كريه الروائح ، فإذا لاحظ عمق تأثير الرؤية السابقة فى نفس دانتى شرح له دلالتها قائلا :

لقد شهدت تلك الساحرة القديمة التى تحمل وحدها
المتطهرين على البكاء فوقنا الآن
ورأيت كيف يتخلص المرء منها .

ومشهورة هى قصة المرأة الداعية فى أحاديث الإسراء والمعراج التى تتكفل بشرح دلالتها الرمزية ، لكن بعض الروايات – مثلما جاء فى الطبرى – تورد بعض الأوصاف القريبة مما نراه عند دانتى ، ، فهى امرأة عجوز

---

(١) سورة طه : ١٢٤ – ١٢٥ – ١٢٦ .

(٢) راجع المطهر – ترجمة الدكتور حسن عثمان – النشيد ١٩ أبيات ٥٨ – ٦٠ وما يليها .

قبيحة خالية من كل مظاهر الإغراء الطبيعية ، وإن كانت تخفى معالم قبحها بما تصطنعه من زينة ، وتحاول اجتذاب الرسول إليها بمعسول الكلام وفاضح الحركات ، فيسأل الرسول جبريل عمن تكون هذه المرأة ، لكن الملاك الهادى يتفادى الإجابة عن سؤال الرسول حينئذ ويحثه على مواصلة السير ، ثم يفسر له بعد ذلك ما رآه . فالمرأة العجوز هى الدنيا وقد تحلت بغالى الثياب كى تستر قبحها وتفتنه ، وأنه لو كان قد توقف عن سيره وعن طريقه من أجلها لكانت أمة الأسلام قد فضلت السعادة الدنيوية العاجلة على الآخرة (١). ومن هنا يتضح لنا تطابق الروئيتين ، بالرغم من أن دانتى قد أدخل فى سياقه بمهارة إشارة كلاسيكية إلى قصة عوليس ونداء عرائس البحر له ، وقد انتهى شراحه إلى تفسير روئياه بأن المرأة رمز لسعادة العالم الزائفة ومتعه الزائلة ، وهو نفس التفسير الذى نصت عليه الروايات الإسلامية .

ـ وعندما يصعد دانتى إلى إفريز الغاضبين فى المطهر يرى المكان وقد غشيه دخان فى مثل سواد الليل حتى لا يستطيع روئية من يكلمه :

« ولم يكن لنا هناك من مأوى نهرب إليه
وقد حرمنا من الروئية ومن الهواء الخالص . .
وإذا منعنا الدخان من الروئية فسيحفظ السمع صلتنا بدلامنها » (٢)

وعقاب الدخان هذا من مشاهد القيامة فى القرآن الكريم حيث يقول « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم »(٣) وتأتى الأحاديث لتوضيح وتفصيل هذه الصورة بمثل : « تأتى السماء بدخان كثيف يغشى الناس كالظلمة فى أبصارهم ، فيظلم الهواء والجو ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه أربعين يوماً وليلة ،

(١) انظر جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى — الجزء الخامس عشر ص ٦ .
(٢) انظر المطهر النشيد ١٦ أبيات ١ — ٧ .
(٣) سور الدخان — الأيات ١٠ ــ ١٢ .

فيملأ الدخان ما بين المشرق والمغرب . . ويأخذ بأنفاس الكفار . . حتى ليحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان (١).

– ويتمثل عذاب البخل عند دانتى فى مطهره فى اطراح البخلاء واستلقائهم على الأرض « يذرفون الدموع ويقولون فى تنهد عميق : لصقت بالتراب نفسى ... »

« وقد قيدت أقدامنا وأيدينا وشات من حركاتنا
وسنظل ممددين دون حراك طالما يروق ذلك للسيد العادل»(٢).

ونجد نفس هذه الصورة فى التراث الإسلامى فى عذاب السكارى وشاربى الخمر بصفة خاصة إذ « يقوم أحدهم مغلولة يداه مقيدة رجلاه ثم يسحب فيها بالسلاسل على وجهه (٣) » وكذلك فى وصف عبور المذنبين للصراط إذ يكون منهم من يحبو على وجهه ومنهم من يزحف على بطنه كما ورد فى نص مخطوطة المعراج المترجمة فى الفصل الثامن والسبعين . « والمجموعة السابعة – تعبر الصراط – مثل طفل صغير يحبو ويبدأ فى المشى ، بعضهم يجر نفسه على صدره وآخرون يتشبثون بأيديهم بالجسر لكنهم يسحبونها عندما تلسع النار أصابعهم » .

– وفى عقاب خطيئة الجشع والنهم يرى دانتى المتطهرين وهم يتطلعون إلى الأشجار المثمرة كالأطفال الذين يطلبون الفاكهة دون جدوى ؛ فالحكمة الإلهية تعاقب الشرهين وتطهرهم بالجوع والعطش والحرمان من الثمار التى يرونها ، وهذا النوع من العقاب شائع فى التراث الإسلامى بكثرة ابتداء من الآية القرآنية « ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى

---

(١) انظر تفسير الخازن لسورة الدخان .

(٢) انظر المطهر – النشيد ١٩ أبيات ٧٣/١٢٤ – ١٢٦ .

(٣) انظر قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى . طبع صبيح بالقاهرة ص ٨ .

من جوع » (١) إلى الأوصاف الواردة فى كتب التفسير عن شجرة الزقوم، ولكن أقرب الصور الإسلامية إلى ما رأيناه عند دانتى ما ورد من أن « آخر من يدخل الجنة رجل يمشى على الصراط مرة ويكبو مرة وتسعفه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها ... فترفع له شجرة فيقول أى رب ادننى من هذه الشجرة لأستظل بظلها وآكل من ثمرها فيقول الله تعالى : يا ابن آدم فلعلك إن أعطيتكها تسأل غيرها فيقول لا يا رب » لكنه ينكث بعهده ويظل هكذا أمام ثلاث شجرات بنفس الطريقة (٢). ومع أنه ينتهى إلى الجنة وثمارها برحمة الله مما يجعله مختلفاً عن مذنبى دانتى الذين يظلون محرومين إلا أن الملامح العامة واحدة وإن اختلفت التفصيلات . ومهما كانت الفروق بين العناصر الإسلامية والدانتية فإن كل تلك المشابه على تناثرها تدل بتكاثرها وتكوينها لمجموعة متكاملة من الصور الجزئية على فعالية هذا التراث كمصدر هام لا ينكر للكوميديا الإلهية ، خاصة فى تلك المواضع التى لم يعثر الباحثون فيها على نظائر لصوره من التراث المسيحى .

---

(١) سورة الغاشية ، الآيات ٥/٦ .

(٢) انظر مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ١٢٩ .

الفردوس الأرضى :

لعل آخر مشهد كبير عند دانتى فى المطهر هو هذا البستان الشبيه بغابة الصنوبر الذى يقع على قمة جبل شاهق أرضه نضرة ، والمياه من حوله صافية ، حيث رأى فى وسطه سيدة جميلة تغنى وتقطف الأزهار التى زينت كل طريقها . فسمع دانتى شدوها العذب واستوضح منها ما غمض عليه من سر هذا المكان ، فقالت له إن الله منح هذا المكان لإقامة الإنسان ، ولكنه بالخطيئة حول سعادته إلى بكاء وعذاب ، أى أنهم فى جنة آدم التى أخرج منها . وقالت له « ماتيلدا » أيضاً — إن جبل المطهر يزداد علواً صوب السماء حتى يصبح غير خاضع لمؤثرات الأبخرة فى الدنيا ، ولكن دوران السماء يحدث مثل هذا الهواء فى أعلى المطهر ؛ وبذلك توزع فى أرجائه بذور النبات فتمتلىء بفاكهة لا نظير لها وتجرى فيه الأنهار التى تجعله ربيعاً دائم النضرة (٣).

على أن قمة هذه المرحلة من المطهر لقاء دانتى مع بياتريش التى تبدو له كأنها عروس السماء تعاتبه وتهدهد عواطفه وتتولى زمامه لتقوده إلى عوالم السماوات الطاهرة . أما التراث الإسلامى ففيه أيضاً بستان وارف الظلال يقع عند نهاية الصراط وقرب باب الجنة ، ويتم عنده الاغتسال الرمزى أو التطهر كما رأينا ، وتحف به مجموعة أنهار رائعة ، وقد يسمى بستان إبراهيم أو جنة آدم ، وهى الجنة الأرضية التى تقابل فردوس دانتى الأرضى عند نهاية المطهر .

فلنتعرف عن كثب على جنة آدم هذه طبقاً لبعض الروايات الإسلامية لنرى مدى قربها من تصورات دانتى . « قال منذر بن سعيد فى تفسيره وأما قوله تعالى لآدم (اسكن أنت وزوجك الجنة) فقالت طائفة : أسكن الله آدم جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة ، وقال آخرون

---

(٣) انظر ملخص الأناشيد ٢٨/٢٩ للدكتور حسن عثمان فى المطهر . ص ٣٦٢ ومايليها .

هى جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه إياها ليست جنة الخلد .. وقال أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الأصبهانى هذه الجنة فى الأرض ، وكانت بستانا جعلة الله له امتحاناً ولم تكن جنة المأوى . والقول بأنها جنة فى الأرض ليست جنة الخلد قول أبى حنيفة وأصحابه . وذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف بعد ذكره خلق الله لآدم وزوجه قال : ثم تركهما وقال أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض وتسلطوا على أنوان البحور وطير السماء والأنعام وعشب الأرض وشجرها وثمرها .. ونصب الفردوس فانقسم على أربعة أنهار : سيحون وجيحون ودجلة والفرات .. ثم أخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التى منها أخذ ، وكان مهبطه حين أهبط من جنة عدن فى شرقى أرض الهند .. يعنى أخرجه من الفردوس الذى نصب له فى عدن فى شرقى أرض الهند » (١) .

وقد تسمى هذه الجنة فى بعض الآثار الإسلامية الأخرى — خاصة الصوفية — جنة البرزخ ، يقول الشعرانى « ليست الجنة التى أخرج منها آدم هى الجنة الكبرى المدخرة فى علم الله تعالى ، فإن تلك لا يصح فيها معصية لآدم ولا إباية لإبليس لكونها حضرة الله تعالى الخاصة .. وإنما هى جنة البرزخ التى هى فوق جبل الياقوت .. وجنة البرزخ هى التى ترى فى الدار الدنيا ، .. وفى الآخرة تكون هى المرج عند نهاية الصراط خارج سور الجنة » (٢) .

ويبدو أن هذه الجنة البرزخية هى التى تقابل الجنة المادية فى التراث الصوفى ؛ إذ أن فيه جنتان : إحداهما مادية لعامة الناس والثانية روحية للمصطفين من عباد الله ، وعن هذا يحدثنا ابن عربى بقوله :

(١) انظر : حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح . لابن القيم الجوزية . طبع المدنى بالقاهرة . ص ٢٢/٢٤.

(٢) انظر : اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر للإمام عبد الوهاب الشعرانى وعلى هامشه كتاب الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر — طبع دار المعرفة ببيروت ﺟ ٢ ص ١٥٥ .

« اعلم — أيدنا الله وإياك — أن الجنة جنتان : جنة محسوسة وجنة معنوية ، والعقل يعقلهما معاً .. والنفس الناطقة المخاطبة المكلفة لها نعيم بما تحمله من العلوم والمعارف من طريق نظرها وفكرها وما وصلت إليه من ذلك بالأدلة العقلية ، ولها أيضاً نعيم بما تحمله من اللذات والشهوات مما تناله بالنفس الحيوانية من طريق قواها الحسية من أكل وشرب ونكاح ولباس وروائح ونغمات طيبة تتعلق بها الأسماع ، وجمال حسي في صورة حسنة معشوقة يعطيها البصر في نساء كاعبات ووجوه حسان وألوان متنوعة وأشجار وأنهار » (١).

ويشرح الشعراني هذه الفكرة بالتفصيل ، مصرحاً بتفاوت الجنان طبقاً لتفاوت مدارك الناس وعقولهم ودرجاتهم وملمحاً إلى بعض المقارنات الدينية الهامة : « فإن قلت قد بلغنا أن لنا جنة برزخية أخرى فما هي؟ فالجواب : قد أشار القرآن الكريم إلى هذه الجنة ولم يصرح بها وذلك نحو قوله « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » قال الشيخ محيي الدين : وإنما كانت هذه الجنة برزخية لأنها ما هي محسوسة كقوله تعالى (متكئين على سرر مصفوفة) ولا هي روحانية كقوله تعالى (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فوصف الله تعالى الجنان على حسب تفاوت عقول الناس . قال : وقد صرح المسيح عليه السلام بما أومأنا إليه من النعيم الروحاني ، فقال للحواريين حين أوصاهم بوصية وفرغ منها : فإذا فعلتم ما أمرتكم به كنتم غداً معي في ملكوت السماء عند ربي وربكم وترون الملائكة حول عرشه تعالى يسبحون بحمده ويقدسونه وأنتم هناك ملتذون بجميع اللذات من غير أكل ولا شرب . قال الشيخ : إنما صرح

---

(١) انظر : الفتوحات المكية لابن عربي ، طبعة عثمان يحيى المحققة . السفر الخامس . ص ٦٠ ، وهي الطبعة التي نستخدمها حتى آخر مصدر منها ثم نكمل من طبعة بيروت المصورة .

المسيح بالملك ولم يرمزه كما رمز كتابنا لأن خطابه كان مع قوم قد هذبهم التوراة ومطالعة كتب الأنبياء وكانوا متمتعين متهيئين لتصورها وقبولها بخلاف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه اتفق مبعثه فى قوم أميين أهل برارى وجبال غير مرتاضين بعلوم ولا مقرين ببعث ولا نشور ، بل ولا عارفين بنعيم ملوك الدنيا فضلا عن معرفتهم بنعيم ملوك الآخرة ، فلذلك جاء أكثر أوصاف الجنان فى كتابهم جثمانية تقريباً لفهم القوم وترغيباً لنفوسهم (١) .

ولا يروعنا هذا التحليل الإسلامى لطبيعة النعيم فى الجنة ، فمذهب الفلاسفة معروف فى ذلك باعتبار الصور الحسية مجازات ورموز ، على أننا نجد مفكراً مثل الغزالى — فى أكثر كتبه انتشاراً وهو الإحياء — يذكر التفصيلات المجازية لصور العذاب والثواب فى الآخرة ويرى أن نعيم الرؤية هو الجنة الحقيقية لأن ما عداه مما تشترك فيه البهائم ، ثم يوضح فى كتاب الأربعين أنه بذلك يخالف الجمهور ، إذ أنه « مسافر والجمهور مقيم »(٢) .

والذى يعنينا الآن هو أن نشير إلى أن هذا التراث الإسلامى فى تفصيل أنواع الجنان من مادية وروحية وطبيعة النعيم فيها كان معروفاً فى العصور الوسطى قبل دانتى لدى جماعة من أهم المفكرين المسيحيين — خاصة فى اسبانيا — منهم « رايموندو لوليو » و « رايموندو مارتين » وكلاهما يصرح فى كتاباته باطلاعه على آراء الفلاسفة المسلمين فى نعيم الجنة الروحى ، ويشير « مارتين » إلى معرفته كتاب مقاصد الفلاسفة للغزالى كما يشير لوليو إلى ابن عربى وابن رشد ، وهذا يعنى أنه فى نفس القرن الثالث عشر الذى كان يكتب فيه دانتى ملحمته كان هناك مفكرون مسيحيون يعرفون

---

(١) انظر المصدر السابق للشعرانى ، الجزء الثانى ص ١٧٥ .

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للمرتضى الزبيدى ، الجزء العاشر طبعة دار إحياء التراث العربى ببيروت ص ٤٠٨ — ٤١٢ .

الفردوس الإسلامى بمجاليه الروحية التى لا تتعارض مع التراث المسيحى وإن كانت تفتح له آفاقاً لم يعرفها ، إذ تصور عالماً من النور والألوان والاستغراق الروحى إلى حد النشوة فى الحب الإلهى . وإذا كان دانتى يعلن فى المطهر :

« قد حبانى الله بنعمته حتى صارت مشيئته أن أرى رحابه
على نحو لا يدانيه العرف المألوف أبدا » (١)

فإن معنى هذا أنه – مثل هؤلاء المفكرين المسيحيين – قد اطلع على فلذات من التراث الفلسفى والصوفى والثقافى الإسلامى الذى استمد منه نماذج للدار الآخرة وصوراً للعذاب والنعيم فيها تبعد عن المألوف فى الثقافة الغربية الأدبية والدينية المعاصرة له .

وقد استطاع الباحثون فى أدب دانتى أن يحللوا أساطير العصور الوسطى المتعلقة بالفردوس الأرضى – على ارتباط بعضها بالثقافة الإسلامية – ويبينوا كيف أنها تعد سوابق لدانتى فى تحديده لموقع هذا الفردوس فى نصف الكرة الجنوبى من الأرض على ذروة جبل سامق .

ولكنهم أكدوا أن أحداً لم يسبق دانتى فى وضعه للفردوس على قمة المطهر ، فخياله الخلاق عندهم هو الذى هداه إلى تصور الفردوس كهدف أو نهاية للطريق الوعر الذى تقطعه الأرواح كى تتطهر من آثامها ، أى تصوره مجاوراً للمطهر فى قمـــة جبل الكفارة على مشارف السماء كمرحلة أخيرة ينبغى للأرواح أن تقف عندها لتنفض عنها أدرانها وتصفو من خلال طهر مزدوج تعبر بعده عتبات الخلود .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن التراث الإسلامى حافل بهذه التصورات عند تفصيله لموضع الصراط من ناحية وذكره لجنة آدم من ناحية أخرى ، ويهمنا الآن أن نستكمل هذه الصورة بإضافة عنصر جديد هام يتمثل فى

---

(١) المطهر : ترجمة د. حسن عثمان . نشيد ١٦ – أبيات ٤٠ – ٤٣ .

رسائل إخوان الصفاء الشهيرة فى المشرق والمغرب ، إذ تعد موسوعة المعارف الثقافية لهذه الفترة . وقد جاء فيها عند الحديث عن أصل الخلق ما يلى :

« فأمر الله أولئك الملائكة أن يصعدوا بآدم عليه السلام فأدخلوه الجنة ، وهى بستان من المشرق على رأس جبل الياقوت الذى لا يقدر أحد من البشر أن يصعد هنالك . وهى طيبة التربة ، معتدلة الهواء شتاء وصيفاً ، ليلا ونهاراً ، كثيرة الأنهار ، مخضرة الأشجار ، مفتنة الثمار والفواكه والرياض والرياحين والأزهار ، كثيرة الحيوانات غير المؤذية والطيور الطيبة الأصوات ، اللذيذة الألحان والنغمات » (١)

وبعد أن يقص حكاية الخطيئة والأكل من الشجرة المحرمة وكيف بدت لهما عوراتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، يحكى العقاب الذى وقع عليهما بأنه :

أمر الله تعالى الملائكة أن اخرجوهما من هناك ، فرموهما إلى أسفل الجبل ، فوقعا فى برية قفراء لا نبت فيها ولا ثمر » .

فهذه الأرض إذن نظير ما نراه عند دانتى تقع على قمة جبل هو أعلى جبال الأرض وقد اختلفوا فى تحديد مكان هذا الجبل ، فتارة يضعونه فى سوريا وأخرى فى إيران وثالثة فى الهند وهذا أشهر الأقوال ، وقد أطلق عليه إخوان الصفاء كما رأينا اسم « جبل الياقوت » . وحدده علماء الجغرافيا العرب بأنه :–

« جبل عال يراه المبحرون من مسافة أيام .. ويقع فى وادى سرنديب بسيلان وذروته أقرب ذرى جبال الأرض إلى السماء .. إذ يربو ارتفاعه

---

(١) انظر : رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء . طبع دار صادر بيروت عام ١٩٥٧ . الجزء الثانى . ٢٢٩/٢٣٠ .

على ألفى متر فوق سطح البحر » ويقول عنه الرحالة الشهير ابن بطوطة الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى أى الرابع عشر الميلادى :

« جبل سرنديب ، وهو من أعلى جبال الدنيا .. رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع .. ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا .. وفى الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف بطريق « بابا » والآخر بطريق « ماما » يعنون آدم وحواء عليهما السلام .. وأثر القدم الكريمة ، قدم أبينا آدم عليه السلام فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً وطولها أحد عشر شبراً » (١).

فنحن إذن أمام جبل شاهق فى وسط جزيرة تقع فى المحيط الذى يغطى بمائه النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ، وهذا هو موقع الجنة الأرضية عند دانتى ، أما وظيفتها الآن فى التراث الإسلامى فنعثر على هذه الفقرة فى كتابات الصوفية التى تجعلها مطابقة تماماً للمطهر ، إذ يقول الشعرانى :

« وإن كل أبناء آدم من الصالحين تصعد أرواحهم بعد الموت إلى هذه الجنة » أى أنها مقر تنتظر فيه الأرواح وتتطهر حتى يوم القيـــامة ، ومهما كانت الاختلافات المتصلة بحجم الجزيرة وموقعها بالتحديد بين دانتى وهذه العناصر من الثقافة الإسلامية فإنها لا تمنع من الاعتداد بهذه الأخيرة على أنها المصدر المعروف الموثق لمطهر دانتى(٢).

---

(١) انظر رحلة ابن بطوطة ، طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٨م ص ٥٩٨/٦٩٩ .
(٢) انظر : أسين پالاثيوس ، الكتاب المشار إليه . ص ١٩٣ ومابعدها .

لقاء العروس :

يعد مشهد لقاء دانتى مع بياتريش من المشاهد الحساسة الدقيقة فى الكوميديا الإلهية ؛ إذ تتوقف عليه دلالة الملحمة وأهم أحداثها ، وليس له أى نظير فى التراث المسيحى ، بل يمثل خروجا على الأنماط التقليدية للفكر المسيحى فى عصره ، إذا أن أى لقاء حب يأتى فى إطار استشراف العوالم الغيبية مما ترفضه الكنيسة لجافاته لروحها فى التهوين من شـأن العلاقات العاطفية واتهامها بالمادية .

وكانت جرأة بالغة من دانتى أن يضع فى قمة رحلته لقاءه مع حبيبته التى ماتت قبله ، ولم يكن هذا حدثا عفويا بل بنيت على أساسه بقية أحداث الملحمة .

وبالرغم من محاولات الباحثين المتكررة للعثور على النواة الأولى لهذا الموقف فى أدب الفروسية وعند شعراء التروبادور فى العصور الوسطى ، خاصة من الإيطاليين أصحاب مذهب « الأسلوب الحلو الجديد » ونزعتهم إلى الإشادة بالحب الروحى الرومانسى الذى قد يصل إلى درجة تقديس المرأة مما تمتزج فيه النزعات الصوفية بالحسية ، إلا أن كل هذا قد يشرح التطور الداخلى لدى دانتى مما حفزه على تقبل هذا النموذج واحتضانه ، وتظل السابقة الأدبية والثقافية ماثلة فى أحاديث المعراج وأوصاف الدار الآخرة التى أبرزت صورة عروس السماء الإسلامية ولفتت إليها الشاعر الإيطالى

على أن هذا الحب الفردوسى المثالى الذى غذى خيال دانتى مدين بدوره للتصور العربى الإسلامى للحب العذرى كما تبلور لدى الشعراء والمفكرين العرب فى المشرق والمغرب وانتقل عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية إلى أوربا

ويبقى بعد ذلك شىء واضح ، وهو أن نموذج عروس السماء ذا

الأهمية القصوى فى الكوميديا الإلهية ، المجافى للروح المسيحية والذى يخلو التراث الأوربى من نظائره يتطابق مع أوصاف الحـــور العين فى الآثار الإسلامية فى جملته وكثير من تفاصيله .

وتمهد الروايات الإسلامية لهذا اللقاء بوصف عام للإطار الطبيعى الذى يتم فيه بطريقة تشبه ما نجده عند دانتى ، فعندما يتجاوز العابد الصراط ويجعل جهنم خلف ظهره ويفضى إلى طريق الجنة، يمضى مع ملائكة الرحمة تهديه وتحدثه بالتمجيد والثناء على ربه وتبشره بقرب فوزه برضوانه، فإذا شارف الجنة وصل إليه من نسيمها وبرد نعيمها وعطرها وطيب ثمرها وتغريد أطيارها وترنمها ما لم ير العالم مثله ، وهنا نستحضر بعض صور دانتى المثيلة فى المطهر إذ يقول : —

« وسرت فى المرج وئيدا . .
على الأرض التى بعثت شذاها فى كل جانب
هواء عليل لا تتبدل طبيعته أخذ يلمس جبينى
وصغار الطيور لا تكف عن تغريدها وترنمها
والأرض المباركة مليئة بالثمار والفاكهة »(١)

ثم نقرأ فى بعض الروايات الإسلامية هذا الوصف للأنهار التى تنبع عند باب الجنة « عين من ماء عذب بارد فى مثل صفاء القوارير
أصفى من البلور وأبرد من الثلج وأشد بياضا من اللبن »

فتتراءى من خلفها صور دانتى التى يقول فيها :
« وإن كل ما فى هذا الجانب من المياه الصافية الرائقة
لتبدو عكرة بجانب تلك التى لا تخفى بين طياتها أى رواسب
وإنه مذاقها ليفوق كل مذاق
فهى رحيق يجرى ذكره على لسان الجميع »(١) .

---

(١) انظر : المطهر ترجمة د. حسن عثمان — النشيد ٢٨ أبيات متفرقة منه .

أما لحظة اللقاء فنجتزئ منها أولا بعض المشاهد لنضعها بإزاء ما يوازيها عند دانتي ثم نرى صورة كلية شائقة في بعض عناصر التراث الإسلامي المتقدمة تنبىء عن الطابع الفني لهذا التصوير الإسلامي ، فقد ورد في رواية ابن مخلوف عن شاكر بن مسلم(١) هذه الأوصاف التي لا تنفرد بها وإنما هي كثيرة الدوران في باب « وصف نساء وحور الجنة » .

الرواية الإسلامية	دانتي في المظهر
فنظرت فإذا حوراء يقصر جمال كل الحور دون جمالها، ويقل كل كمال دون كمالها . عليها حلة من ألوان شتى .. يكاد يخطف الأبصار نور وجهها ويذهب الألباب بهجة بهائها بما كساها الله من الحسن والجمال والبهاء والكمال . ينظر إلى وجهه في خدها أصفى من المرآة ويغلب ضوؤها ضوء الشمس والقمر ولولا ما رزق الله وليه المؤمن من قوة الإبصار وثبات الجنان لذهب بصره ووهمه بنور ما يرى منها وبهاء ما يبدو عنها ، فلو أن طاقة من شعرها بدت لملأت ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحها .	هكذا بدت لي سيدة تكللت بغصن الزيتون فوق نقابها الأبيض . وارتدت تحت العباءة الخضراء ثوبا قانيا أحمر . وقد بدت لي أنها قد فاقت جمالها القديم أكثر من تفوقها على سائر النساء هنا . فنظرت إلى النور البهيج في مقلتيها . ورأيت كيف يتبين إشراق جمالها . أيها الجلال المتألق للنور الأبدي الساطع ظلت عيناي محدقتين مثبتين عليها حتى غابت سائر حواسي عن الوعي ولقد حرمتني من النظر برهة الحال التي يؤول إليها البصر حينما تصيب أشعة الشمس العينين .. ولكن بعد أن ألف بصري ما هو أقل منها تألقا.(٢)

أما الوصف التفصيلي الباذخ لعروس الجنة فنجده في الرواية الأدبية التالية : —

(١) انظر مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ١٤٩ .

(٢) راجع المطهر : الأناشيد ٣٠/٣١/٣٢ وكتاب أسين بالاثيوس السابق الذكر ص ٢٠١/٢٠٢ .

« وأنت وزوجك بأكمل الهيئة وأتم النعمة ، وقد حار فيها طرفك ، تنظر إليها متعجبا من جمالها وكمالها ، وطرب قلبك بملاحتها وحسنها . . وأنست روحك لها وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها فسطع نور بنانها في الشراب وهي تمسك لك كاسات الدر وأكاويب قوارير الفضة ، فاجتمع نور الشراب ونور وجهها ونحرها وثغرها ، فيالك عروس وياتلك عروس طفلة أنيسة عربوبة كامل خلقها ، ويا جمال وجهها ويابياض نهودها وتثني جسمها ، يكسوها التأنيث ويلينها النعيم ، تنظر إليك بغنج الحور وتكلمك بملاحة المنطق وتداعبك بالدلائل وتلاعبك بالعشق والطرب . »(١)

على أن من لحظات اللقاء بين زائر الفردوس وعروسه العتاب المحبب الذي القاه به لما شغله عنها من الحب الدنيوي ، فبياتريش تقول لدانتي مثلا :

« ما كان ينبغي لعذراء صغيرة أو باطل آخر قصير المتعة
أن يخفض إلى الأرض رياشك . . . »

وعروس التراث الإسلامي تجهد في تخليص حبيبها من براثن علاقاته المادية كذلك وتقول لمن تحاول إغراءه في الدنيا : —

« ويحك ، دعيه من شرك ، إنما هو معك ليال قلائل »

وبياتريش ترى من سمائها أن دانتي في خطر ، فتأتي لإنقاذ روحه وخلاصه وتعاتبه مر العتاب على خضوعه لمغريات الدنيا ووقوعه في شرك جمال نساء غيرها ، وهذا ما نجد مثله عن عروس السماء في التراث الإسلامي التي « تستبطىء قدومه وتشتاق إليه كما تشتاق المرأة إلى زوجها الغائب ، فاذا جاء تلقته عند أبواب الجنة وقالت له : طال ما انتظرتك ، أنت حبي وأنا حبك ، ليس دونك تقصير ، ولا وراءك معدل »(٢) .

على أن ضمان وصول عناصر هذا التراث إلى دانتي إنما هو ما ورد في

---

(١) انظر كتاب المتوهم للحارث المحاسبي — طبع القاهرة — ص ٤٦ ومابعدها .

(٢) انظر : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ٢٣٧ .

قصة المعراج المترجمة متناثراً فى سبعة فصول(١) من وصف الحورية العيناء البارعة الحنان والجمال والتى تظهر لهفة بالغة للقاء عريسها الذى تنتظره ومن وصف مجموعات الحور بملابسهن الباذخة وطبيعتهن الفائقة وهن ينشدن « نحن الخالدات فلا نموت ، نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، طوبى لما كان لنا وكنا له » ثم صور هذه العرائس وقد ولدت فى خيام لم يصل إليها بشر « حور مقصورات فى الخيام » فتتفتح عنهن كما تتفتح الصدفة عن اللؤلؤة ، وتخصص كل واحدة لرجل يكتب اسمه على نحرها وتحرم رؤيتها على من سواه .

فعندما يقرأ دانتى هـــذه المشاهد من التراث الإسلامى تستحث خياله وتثير جرأته ليتصور أن عينى بياتريش — حبيبته التى حرم منها فى الحياة الدنيا — هى مرقاته إلى عالم السماوات ، وليتمثل — كما فعل الصوفية المسلمون من قبله — أن هـــذا الحب ليس إلا درجة تصفو بنفسه وتسمو بروحه كى تشارف آفاقا أضوأ وأخلد من الحب الأبدى الإلهى ، وطالمـــا تحولت المرأة فى التراث الإسلامى إلى رمز صوفى بالغ الشفافية والعمق ، هكذا أصبحت ليلى عند جامى وغيره من شعراء الفرس ، فلا غرو أن تقبس بياتريش من هذا المعين الذى لم يكن يجهله دانتى وأن تصبح أنور نموذج لعروس السماء كما تواترت بها الآثار الإسلامية ، وأن تتعانق عندها ثقافة الشرق والغرب على يد شاعر عبقرى .

(١) انظر وثيقة معراج محمد الملحقة بالكتاب ، الفصول ٣٥/٣٨/٤٤/٤٦/٤٧ .

بين جنة الإسلام وفردوس دانتى

موقع الفردوس وشكله :

يتكون الفردوس عند دانتى طوبوغرافيا من تسع سماوات فلكية ، يتوزع أهل الجنة على السبع الأولى منها طبقا لدرجاتهم وأقدارهم ، لكن مقامهم الحقيقى فى « الإمبريوم » فوق السماوات الفلكية وهو المستوى الثابت الذى لايتحرك أو الفردوس الإلهى بالفعل . ويتصورهم دانتى جالسين فى حلقات أو على درجات ومقاعد من نور على شكل دوائر كما لو كانوا يرسمون بصفوفهم وردة نورية صوفية هائلة يقع العرش الإلهى فى مركزها تحيط به طبقات الملائكة وتتأمله جموع الصالحين فى الفردوس .

ويقع هذا « الامبريوم » أو الفردوس الإلهى فى القدس السماوية التى تقوم فى الطرف الأعلى من خط عمودى يقع على القدس الأرضية ، فهى إذن امتدادها العمودى السماوى . وهناك تناسق دقيق بين عالمى الفردوس والجحيم ، ففى كل منهما عشر منازل للايحاء بوحدة المعيار الخلقى الذى تعتمد عليه أعدادهما عن طريق وحدة التصور المعمارى لأماكن الأبرار والأشرار ، إذ تتوقف درجة رفعتهم أو انخفاضهم على مدى سمو الفضائل التى يمثلونها ، كما أن مدى انحطاط الرذائل هو الذى يحدد فى الجحيم الدرك الذى يحتله من يتصفون بها ومدى عمقه ، وإن كانت كلها تحت أرض القدس .

فإذا تأملنا التراث الإسلامى وجدنا أن الجنة فيه تقع خلال السماوات الفلكية الآهلة بالملائكة والأنبياء والأولياء الذين يتوزعون عليها طبقاً لمقاماتهم ، — وربما اجتمعوا لتذكر ما كان بينهم فى الدار الدنيا — وهذا التصور لانظير له فى التراث المسيحى ، فلم يرد فى العهد القديم ولا فى الجديد أى ذكر للسماوات الفلكية على أنها مقام الصالحين فى الدار الآخرة(١). فتحديد موقعها

(١) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ص ٢٢١/٢٢٢ .

بأنه فى القدس السماوية التى تقوم على أقصى طرف من خط عمودى منتصب فوق القدس الأرضية عد ابتكارا أصيلا من دانتى مع أنه شائع منذ وقت مبكر فى التراث الإسلامى ابتداء من عصر البعثة إذ وردت بعض الأحاديث النبوية التى تشير لذلك . منها ما جاء عن كعب الأحبار من « أن الجنة فى السماء السابعة بإزاء بيت المقدس والصخرة لو وقع منها حجر لوقع على الصخرة » .

كما ورد عن نفس المحدث أن باب السماء الذى يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس ، وشاع هذا فى كتب المعراج الإسلامية حيث نقرأ منها : « ولأن صخرة بيت المقدس تقابل باب السماء يقال إنه أقرب موضع من الأرض إلى السماء ؛ وقيل لا ينزل ملك من السماء إلى الأرض إلا على الصخرة ، ولا يصعد إلى السماء إلا من الصخرة »(١) . وعلى أية حال فإن هذا التقابل الهندسى الدقيق لم يعد من ابتكار دانتى بعد أن عثر على أصله فى التراث الإسلامى المتداول .

أما النظام الكونى العام الذى يتحدد فى إطاره موقع الفردوس وشكله ودرجاته فإن أوضح تصور إسلامى له قد وجده الباحثون فى تراث ابن عربى الخصب ، وسنرى أنه لا يبعد كثيرا عما تقدمه مخطوطة المعراج المترجمة وإن كانت لا تتسم بالدقة الهندسية التى تتميز بها كتابات ابن عربى ، إذ يتمثل العالم : الفانى والباقى ، المادى والروحى ، على شكل دوائر هندسية ، سلسلة من الدوائر المحيطة التى تتسع تدريجيا وتندمج كل منها فيما تعلوها ، ومايعنينا منها الآن إنما هى الوحدات التى تقع بين الأرض والعرش الإلهى : وتشمل تصاعديا المستويات التالية :

الكرة الأرضية يحيط بها الماء ، ومن فوقه الهواء ، ومن فوقه الأثير حيث النار والظلمة ، ثم يبدأ بعد ذلك عالم الكواكب بنفس الترتيب التصاعدى

(١) انظر : كتاب المعراج للقشيرى ، تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر — القاهرة ١٩٦٤ ص ١٠٣ .

فبعد دائرتي الأثير تأتي سماء القمر وسماوات عطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم سماء النجوم الثابتة التي تلتف حولها السماء العليا بدون نجوم أو سماء المحرك الأول ، وتسمى لدى العرب سماء الفلك الأطلس وهي توازي الإمبريوم عند دانتي . وعندها ينتهي العالم الفلكي . وهناك بعد حدودها وفوق محيطها يقع العرش الإلهي محوطا بالملائكة حيث يشتد بهاؤه كمنبع ضوء أبدي .

ويجعل ابن عربي مقر الأرواح داخل هذا النظام الكوني في الفراغ الهائل الواقع بين سماء النجوم الثابتة وسماء المحرك الأول ، أي أن سقف الجنة هو قبة سماء المحرك الأول وأرضها سطح الفلك المكوكب .

وفي المحيط اللانهائي الذي يفصل بين هذين المجالين يتصور ابن عربي ثمانية جنان على شكل دوائر يحيط كل منها بما دونها ، أو على حد تعبير الإمام الشعراني « صورة مجاورة الجنان الثمانية لبعضها بعضاً صورة دوائر ثمالية جنة في قلب جنة (١) » ، وهذه الجنان هي : —

١ — الوسيلة ٢ — دار المقامة ٣ — دار السلام
٤ — جنة الخلد ٥ — جنة المأوى ٦ — جنة النعيم
٧ — جنة الفردوس ٨ — جنة عدن

ولنقرأ في فردوس دانتي الأبيات التالية لنرى مدى قربه من هذا التصور الإسلامي لأشكال الجنان :

« وإنه ليمتد بنفسه في صورة دائرية حتى ليصبح محيطها بالنسبة للشمس نطاقا ذا اتساع شامل » .

« ولتنظر كيف يتسع محيط دائرتنا »

« وإذا نظرت إلى الحلقة الثالثة »

« ولكن انظر إلى هذه الحلقات حتى أبعدها » .

« وفي الجانب الآخر حيث تقطع الفجوات أنصاف الدوائر » .

---

(١) أنظر ، اليواقيت للشعراني ، الجزء الثاني صفحة ١٧٠ .

« من حلقة لأخرى حتى هنا إلى أسفل(١) »

فإذا عدنا إلى الجنان الثمانية عند ابن عربي وجدناها في حقيقة الأمر سبعاً فحسب إذ أن أولاها – وهي جنة الوسيلة المحمدية – تنساب إليها جميعاً ، ووجدنا أن كل واحدة منها تنقسم إلى عدد كبير من الدرجات ، وكل درجة تنقسم بدورها إلى منازل وخوخات ، وبالرغم من أن العدد الشائع في الآثار الإسلامية أن درجات الجنة مائة إلا أننا نجد ابن عربي يجرؤ أحيانا على إحصائها مثل دانتي في عدد كبير فيقول :

« وتحتوي الجنة من الدرج التي فيها على خمسة آلاف درجة ومائة درجة وخمس درجات لا غير . . وقد تزيد على هذا العدد بلا شك . . والذي اختصت به هذه الأمة المحمدية على سائر الأمم من هذه الدرجات اثنتا عشرة درجة لا يشاركها فيها أحد من الأمم(٢) » إلا أن هذه الدرجات تتجمع في مائة تتركز بدورها في عدد محدود من الأجناس لا يزيد على اثنى عشر جنس .

ومن الغريب أن شراح دانتي عندما أخذوا في تحديد مراتب الفردوس عنده لم تخدعهم كثرتها الظاهرة في مثل قوله :

« ومنعكسين عليه في أكثر من ألف طبقة »

ومالوا إلى حصرها في اثنتى عشرة درجة كبيرة أيضاً(٣) .

أما مخطوطة المعراج المترجمة فهي تقدم تصوراً كونياً شديد الشبه بتصور ابن عربي ودانتي فتملأ الفراغ بينهما ؛ إذ يفهم منها أن الرسول عندما يرقى إلى معارج السماء من بيت المقدس يمر على عوالم أثيرية متعددة قبل أن يصل إلى السماء الأولى فيرى حامل اللوح المحفوظ ومالك خازن النار الذي يشرح له كيفية تكونها وألوانها ؛ أي أنه يمر بدوائر

(١) راجع الفردوس ، ترجمة د . حسن عثمان ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣١/٣٢ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية ، الطبعة المحققة ، السفر الخامس ، ص ٧٢ .

(٣) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ص ٢٣٢ .

الماء والهواء والنار والظلمة قبل أن يلج السماء الأولى تماماً كما يتصور ابن عربي ، وبعد أن يخترق السماوات الفلكية يصل إلى سماء العرش ويشاهد وحده أعظم الرؤى الكونية ؛ ثم لا يلبث أن يصحب جبريل مرة أخرى ليشاهد الجنان المتداخلة في دوائر ، أوسعها دائرة جنة عدن وبداخلها الجنان الأخرى ؛ جنة في قلب جنة ، مثلما تصورها ابن عربي ودانتي ، وإن اختلفت الأسماء قليلا ، وهي هنا سبع جنات ، فبعد جنة عدن تأتي على التوالي دار القرار ودار السلام وجنة المأوى وجنة الخلد وجنة الفردوس وجنة النعيم وهي أسماها وتقع في قلبها ، إذ هي قلعة الجنان وتشرف عليها جميعاً وفيها بيت الله المعمور ، وهي مقسمة أيضاً إلى مائة درجة وفيها شجرة طوبى وعندها سدرة المنتهى وتتم بعدها الرؤية الإلهية ، ثم يخترق الحجب ويعود أدراجه حتى يصل إلى السماوات الفلكية ، وعندما يهبط إلى الأرض يوضح أنها سبع أرضين موازية بما فيها من جحيم ذي طبقات منازل الجنة وطبقات السماء (١) ، حتى يتم التوازي بين العالمين بطريقة محكمة .

كما يستخدم دانتي في تصوره للفردوس صوراً نموذجية أخرى حيث يتمثله على شكل روضة مسورة تضم مملكة أو عرشاً ملكياً يشغل المسيح والعذراء فيها أسمى مكان ؛ إذ يقومان على هضبة يلتف حولها الأبرار ليتأملوا النور الإلهي ؛ ولهذا نظيره في وصف ابن عربي للجنة ، فهي ليست عنده في جملتها سوى بستان هائل مقسم إلى سبع درجات دائرية تفصلها عن بعضها الأسوار والجدران ، وهي دوائر نورية فيقول « وبين كل جنة سور يميزها عن صاحبتها » ويقول « يدور عليها ثمانية أسوار ، بين كل سورين جنة » (٢)، كما نجد في كتاب المعراج وصفاً تفصيلياً — في الفصل الثلاثين — لجدران الجنة وأسوارها مثلما نجد عند دانتي :—

« إذ أن هؤلاء هن الجدار

---

(١) راجع عرض وثيقة معراج محمد في الفصل التالي ، فصول ٥/٦/٧/١٠ إلى ٣٤ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية لابن عربي ، الطبعة المحققة — السفر الخامس — ص ٧١ .

الذى يقسم الدرجات المقدسة
إذ ستمتلىء هذه الحديقة ..
ألا فلتحلق بعينيك خلال هذه الروضة » (١)

وأعلاها عند ابن عربى جنة عدن ، « فهى قصبة الجنان .. بمنزلة دار الملك » و « جنة عدن هى قصبة الجنان وقلعتها وحضرة الملك » أما فى كتاب المعراج فجنة النعيم هى أسماها وقلعتها التى تشرف عليها جميعاً إذ فيها البيت المعمور مقر الحضرة الإلهية ، ويقول دانتى :—

« وإن هذه المملكة البهيجة الآمنة ..
ولكن انظر إلى هذه الحلقات حتى أبعدها
إلى أن تراها جالسة ؛ تلك المليكة التى يخضع
ويخشع لها كل هذا الملكوت .
« إن المليك الذى يستقر بفضله هذا الملكوت .. »(٢)

كما أن فيها عند ابن عربى « الكثيب الذى يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعــالى عن النظر .. وعند رؤية الحق فى الكثيب الأبيض » وتحدثنا المخطوطة عن الهضاب البيضاء النورانية حيث تتم الرؤية ، فيقول دانتى :—

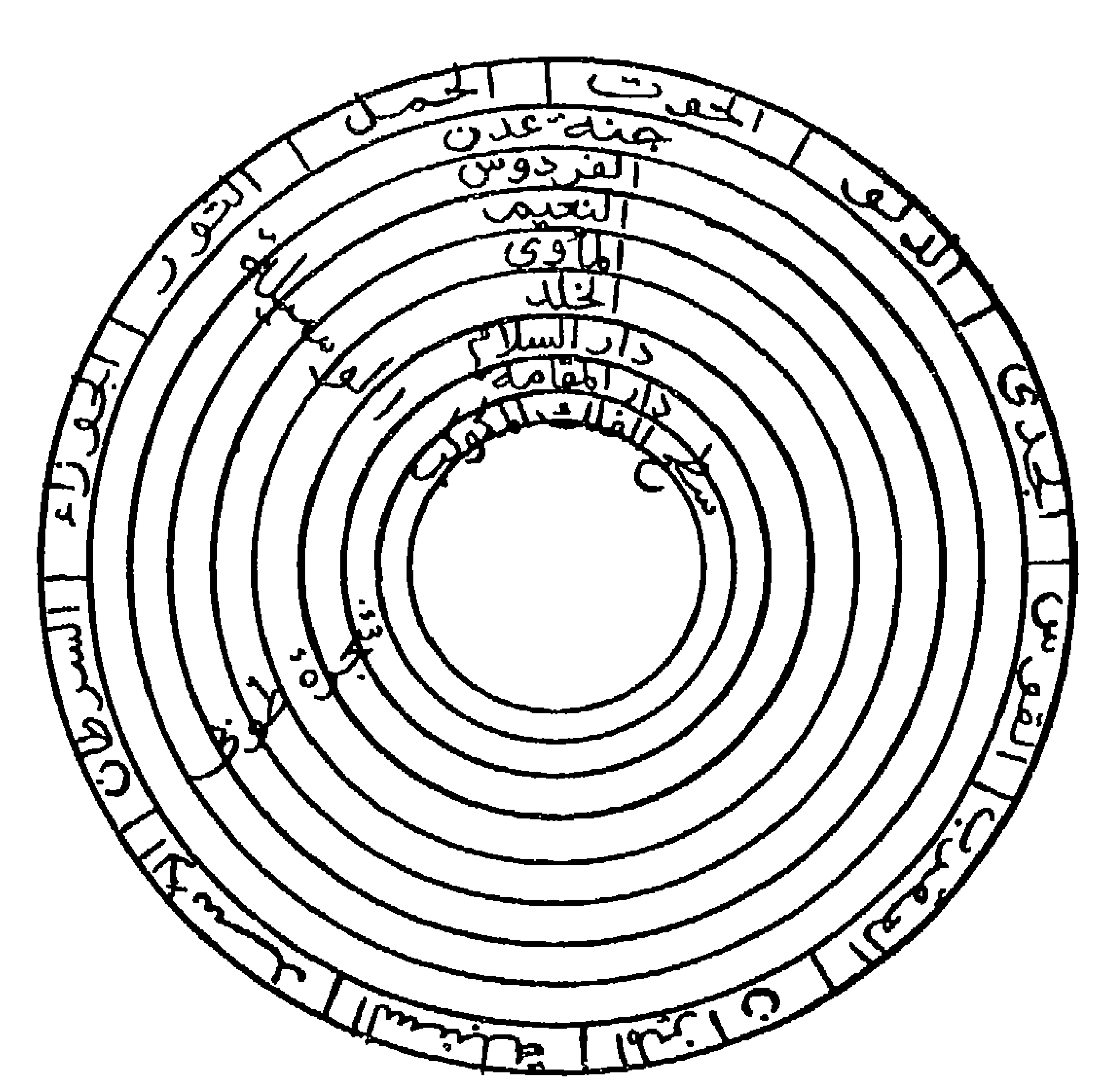
« وكما ينعكس التل عند سفحه . .
عندما تفيض جناته بالعشب والأزهار .
وكأنى أذهب بعينى من واد مضىء إلى جبل »(٢) .

فنجد فى كل ذلك تلاقيا فى الصور لاينتهى بنا إلى القول بأن دانتى كان ينسخ المأثورات الإسلامية ، فالشاعر العظيم لا يمكن أن يفعل ذلك ، وإنما لتأكيد موقف آخر هو أنه يطلع عليها وتروقه ثم تتسرب مثيلاتها إلى صياغته ذات البنية الفكرية واللغوية المختلفة ، وعندما تتراكم هذه الصور فهى دليل

(١) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٢/١٩ — ٢٠ .
(٢) أنظر المرجع المذكور .

قوى على حضور هذا العالم الذى صورته المأثورات الإسلامية فى خياله المبدع .

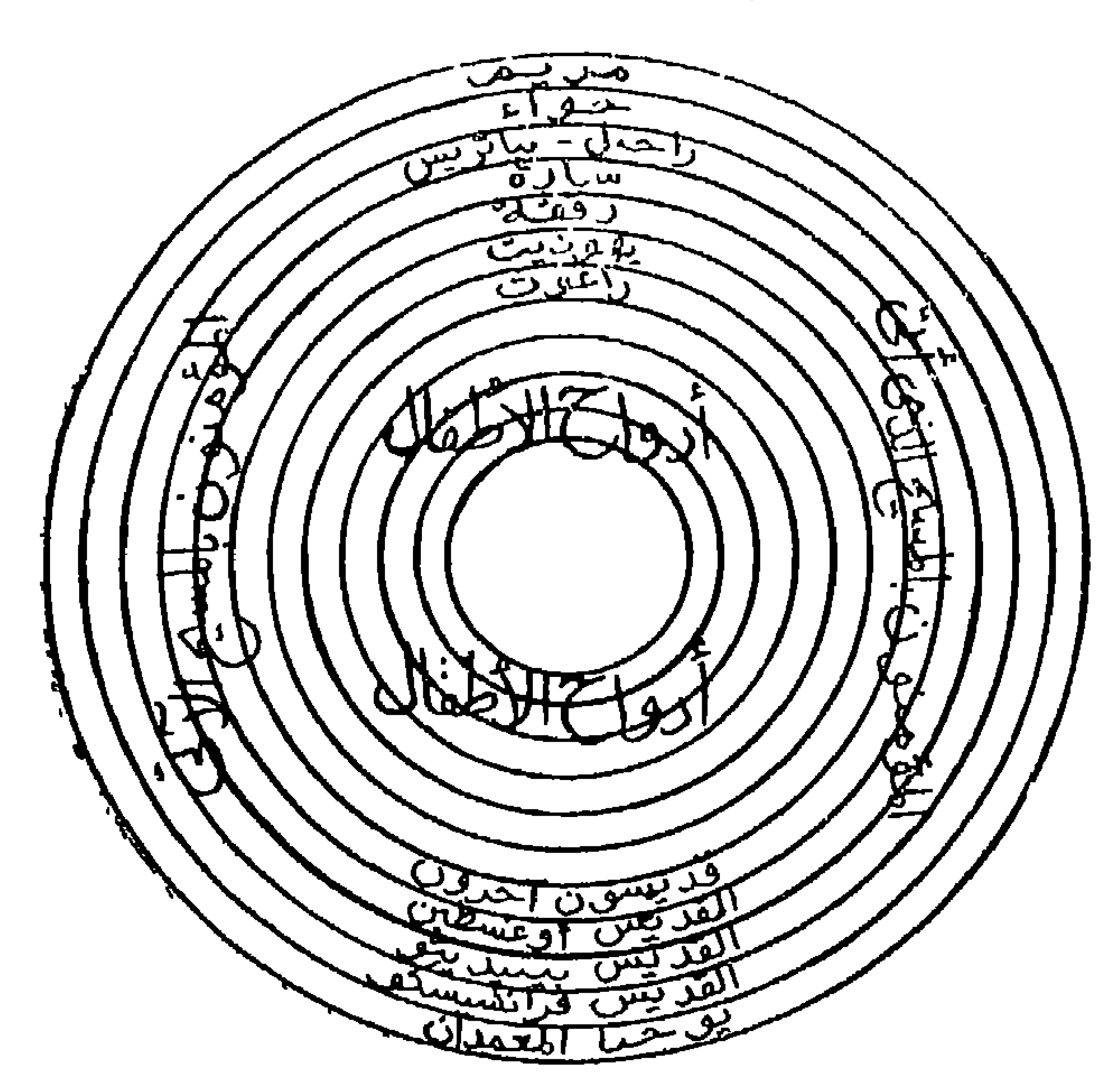
فإذا تركنا هذا المستوى الجزئى وانتقلنا إلى التصورات الكلية العامة وجدنا أن التصميم المعمارى للفردوس يتمثل عند ابن عربى فى نهاية الأمر فى سبعة محيطات تشكل سبع دوائر تتداخل بالتدريج ، وكل منها يتكون من مجموعة من الدرجات أو الصفوف والمقاعد التى تتجاوز عدة آلاف ، ولم يكن الأمر يحتاج لاجتهاد كبير من قبل الباحثين حتى يربطوا هذا التصور الإسلامى بنظيره عند دانتى ، خاصة فى شكل الوردة الطوباوية الشهيرة وهى تتناقص فى محيطها من أعلى إلى أسفل حتى تصل للقلب الذهبى ، كذلك يتناقص محيط الدوائر الإسلامية من أعلى إلى أسفل طبقاً لابن عربى الذى وإن لم يكن قد استخدم رمز الوردة على التحديد إلا أن رسمه لهذا الشكل يوحى بالتطابق الشديد بين التصورين على النحو التالى :



رسم ابن عربى للكرسى فى الجنة

كما جاء فى الفتوحات المكية ، الجزء الثالث ، ص ٤٢٣

ولنقارن هذا الرسم برسم آخر لم يضعه دانتى بنفسه وإنما رسم بعض شراحه لتمثيل وردة الطوباويين فى الفردوس كما صورها دانتى بأشعا



رسم « مانفريدى بورينا » لوردة الطوباويين فى فردوس دانتى

وسنرى عند تحليل عناصر هذه الوردة الطوباوية أنها قريبة من المأثورات الإسلامية فى تقسيماتها وصورها ، لكن لايفوتنا أن نشير إلى أن هذا التقارب بين عالم دانتى الثرى والفكر الإسلامى لاينبغى أن يحمل على وجه التقليد ، فهذا ما حرص الباحثون دائما على نفيه(١) ، وإنما على أساس التمثل الواعى من قبل الشاعر الإيطالى للعناصر الإسلامية وتحويلها وبناء هياكل جديدة أسرت بروعتها القارئ الأوربى طيلة عصور عديدة ، خاصة وأن فكرة المحاكاة التى قامت عليها الكلاسيكية الجديدة وأسهم فيها الشراح الإيطاليون بنصيب وافر كانت تعتد بالتراث القديم كمنطلق ضرورى لأعظم التكوينات الأدبية والفنية المستحدثة .

فإذا قارنا بعد ذلك ما أطلق عليه « أسين بالاثيوس » « البناء الأخلاقى

---

(١) أنظر فى هذا الفصل خاصة كتاب أسين بالاثيوس الحجة الرئيسية فى الموضوع .

للفردوس » عند دانتي ، ويقصد به الوظيفة التي تؤديها هذه التقسيمات الهندسية بنظيره عندابن عربي وجدنا اهتمامهما الشديد بالتفاصيل والتقسيمات الفرعية للمقامات والمراتب التي ينقسم إليها أهل الجنة طبقا لمعايير أخلاقية ، فابن عربي يقول :

« فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم ومكروه إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها . فيتنزل الناس على حسب أعمالهم . . فمن كان أفضل من غيره كان له من الجنة أكثر . . ويقع التفاصل فيها بين أصحابها بحسب ماتقتضى أحوالهم(١) » .

وهذا هو نفس معيار التفاضل عند دانتي إذ يقول :

« وبداخل هذا الملكوت الرحيب ، ما من مكان

يتأتى وجوده لأمر وليد الصدفة . .

إذ أن كل ماتراه بالقانون الأزلي مقرر

بحيث يتلاءم تماما كل شيء هاهنا . . »

ولهذا فإن هذه الجماعة التي بكرت في الذهاب إلى الحياة الحقة لم توجد هنا دون سبب يزيد أو يقل كما له فيما بينها هاهنا(٢) » .

والتفاضل عند ابن عربي على مراتب ، فقد يقع بالسن ، ولكن في الطاعة والإسلام فيفضل الكبير السن على صغيره إذا كانا في مرتبة واحدة من العمل ، ويفضل العمل بالزمان والمكان والأحوال . إلا أن المعيار الرئيسي للتفاضل عنده يقوم على حسب أعضاء التكليف ، ولهذا فإن أبواب الجنة ثمانية على عدد أعضاء التكليف التي تستخدمها النفس لممارسة الأفعال الفاضلة وهي : البصر والسمع واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان والقلب . ولعلنا نذكر أن هذا المعيار هو الذي استخدمه في تحديد أحقية الإنسان لمراتب النار سلباً ، إذ أن كلا من ابن عربي ودانتي حريصان على إقامة توافق متسق

(١) انظر : الفتوحات المكية ، الطبعة المحققة . السفر الخامس ص ٦٤-٦٥ .

(٢) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٢ أبيات ٥٢ – ٥٨ .

دقيق بين عالمى النعيم والجحيم فى الحياة الآخرة . فلأفعال كل من هـــذه الأعضاء إذن ثوابه فى إحدى الجنان .

فيرى ابن عربى مثلا أن الموقع الذى يحتله كل واحد من أهل الجنة فى درجاتها الثمانية يستحقه لأحد أسباب ثلاثة : —

١ — إما بفضل من الله ونعمة دون أن تكون أعماله مؤدية لذلك ، وهذا يحدث فيما يسميه بجنة الاختصاص الإلهى « وهى التى يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل وحدهم من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخا إلى انقضاء ستة أعوام ، ويعطى الله من يشاء من عباده من جنان الاختصاص ما شاء .. ومن أهلها أهل الفترات ومن لم يصل إليهم دعوة رسول(١) » .

ونلاحظ أن هذه المرتبة كثيرة الدوران فى الآثار الإسلامية وإن كان ابن عربى يضيف إليها تفصيلات أخرى .

ونرى تصور دانتى لها فى الأبيات التالية :

« . . . لا بجدارة من ذاته
بل بفضل آخر وببعض شروط . .
إذ أن هذه كلها أرواح محررة
من قبل أن يكون لها فى ذلك خيار صحيح
ويمكنك أن تتبين هذا جيداً على وجوههم
وكذلك فى أصوات طفولتهم(٢) »

وبذلك فقد وضع هؤلاء فى درجات مختلفة دون جدارة من أعمالهم ، وأفرد لهم طبقاً للرسم الذى رأيناه منازل خاصة تشبه جنة الاختصاص .

٢ — أما السبب الثانى فهو بالاستحقاق وجزاء لأعماله الصالحة وهى جنة الأعمال التى ينزل فيها الناس لقاء أعمالهم ، وهى شائعة تمثل المستوى المألوف فى فردوس دانتى .

(١) نفس المصدر لابن عربى — السفر الخامس ص ٦٣ .
(٢) نفس المصدر لدانتى نشيد ٣٢ أبيات ٤٢ — ٤٧ .

٣ ـ أما السبب الثالث ـ ولا يخلو من طرافة ـ فهو جنة الميراث عند ابن عربى وهى التى ينالها كل من دخل الجنة من المؤمنين وكانت أماكن مخصصة لأهل النار لو أنهم أطاعوا واستحوذوا عليها بأعمالهم ، وهذه درجة معروفة فى التراث الإسلامى بأنها هى التى يورثها الله لمن يشاء من عباده ، ويفرد لها القرطبى فى التراث الإسلامى مثلا باباً عنوانه « ما جاء ميراث أهل الجنة منازل أهل النار »(١) ويشير إليها دانتى فى قوله : -

« ولتنظر كيف يتسع محيط مدينتنا
ولتشهد كيف امتلأت عروشنا »

إذ أن فى هذا طبقاً لتفسير شراحه إشارة إلى الأماكن الشاغرة فى الفردوس لعصيان بعض الأرواح واحتلال الصالحين لها بالميراث .

على أن الخاصية المميزة للنوع الثانى هى أن أعمالهم مع ذلك لا توجب لهم بالضرورة هذا القدر من الثواب ، وإنما يظل دخول الجنة برحمة من الله لا بعمله فقط : فقد ورد فى الحديث « لايدخل أحداً منكم الجنة عمله » إذ أن ما فيها من النعيم والسعادة أسمى من أى عمل بشرى مهما كان ، ولذلك فلا بد للمؤمنين من الشفاعة المحمدية . ولنقرأ مقابل ذلك هذه الأبيات عند دانتى : -

« إن المليك الذى يستقر بفضله هذا الملكوت . .
يمثل هذه المحبة ، ويمثل هذه البهجة
بحيث لاتجترئ إرادة على أن تطلب المزيد
إذ أنه فى خلقه كل العقول على صورته البهيجة
يهبها النعمة بصور متفاوتة كما يروقه(٢) »

ونمضى فى تحليل مراتب الصالحين فى الجنة ـ طبقاً لابن عربى ـ فنجد أنهم يتوزعون فى حالة الشهود فى الكثيب الأبيض على أربع طوائف : -

(١) انظر : مختصرة تذكرة القرطبى للأمام الشعرانى ص ١٣٥ .

(٢) انظر : فردوس دانتى . نشيد ٣٢ أبيات ٦١ - ٦٤ وكتاب أسين بالاثيوس المشار إليه . ص ٢٢٧ .

١ — طائفة منهم أصحاب منابر وهى الطبقة العليا ، الرسل والأنبياء .

٢ — والطائفة الثانية هم الأولياء .. وهم على بينة من ربهم ، وهم أصحاب الأسرة والعرش .

٣ — والثالثة هم العلماء بالله ، وهم أصحاب الكراسى .

٤ — والرابعة وهم المؤمنون المقلدون فى توحيدهم .. ولهم مراتب يتفاوتون فيها أيضاً (١) .

وهذا قريب مما فعله دانتى فى توزيعه لمراتب الفردوس إلى حد كبير ، فهو يضع فى قمته الأنبياء والرسل من العهد القديم مثل آدم وموسى ، ثم يضع فيما يليهم أولياء الكنيسة وهم القديس بطرس والقديس يوحنا ومن بعدهم بقية القديسين ذوى الطرق الدينية مثل القديس فرانسيسكو والقديس بينيتو والقديس أوغسطين من علماء اللاهوت . ثم يضع فى نهاية الأمر بقية المؤمنين الذين اتبعوا هؤلاء .

ويتوافق دانتى مع ابن عربى حتى فى استخدامه لبعض المصطلحات مثل العروش والأسرة والكراسى والمراتب .

ويميز ابن عربى داخل هذه الطبقات الأربعة بطريقة مبهمة نسبياً بين أتباع الدين الإسلامى ومن تبعوا الأديان السماوية الأخرى فى عصورهم ، وإن كان لايصل فى ذلك إلى حد التمييز الواضح بينهم كما فعل دانتى فى الفردوس بين أتباع المسيح الذى أتى — أى المسيحيين الحاليين — واتباع المسيح الذى يأتى — وهم اليهود — على يمين وردة الطوباويين ويسارها بالتوالى وتتعدد الآثار الإسلامية التى تشير لبعض مظاهر من ذلك عند الحديث عن الأمم التى تدخل الجنة ومقاماتهم .

مثلما ورد عن على بن أبى طالب قال « فى الجنة لؤلؤتان الى جانب

---

(١) انظر الفتوحات المكية — الطبعة المحققة ؛ السفر الخامس ص ٧٦/٧٨ .

العرش ، إحداهما بيضاء والأخرى صفراء ، فى كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة ، فالبيضاء لمحمد وأهل بيته . . . والصفراء لإبراهيم وأهل بيته (١) » .

ولكن التشابه يصل إلى درجة كبيرة بين التصورين عندما نجد ابن عربى يضع الرسول صلى الله عليه وسلم فى أشرف مكان فى الجنة « وهو المقام المحمود وبهذا صحت له السيادة على جميع الخلائق . . وكان قد أقيم فيه آدم . . فإن ذلك المقام اقتضى له ذلك فى الدنيا وهو لمحمد فى الآخرة ، وإنما ظهر به أولا أبو البشر وهو الأب الأعظم فى الجسمية والمقرب عند الله » فآدم إذن أبو البشر حسيا ومحمد أبوهم روحياً ، وهما المذلك قريبان فى الجنة عند ابن عربى ، وبنفس الطريقة نرى دانتى يضع فى وردته الطوباوية فى الفردوس آدم أبا البشر والقديس بطرس الزعيم الروحى للدين المسيحى قائلا :

إن ذينك اللذين يجلسان فى أسعد حال هناك فى العلياء
لشديد قربهما إلى امبراطوريتنا . . هما بمثابة الأرومة من هذه الوردة .
وذلك الذى هو إلى اليسار قريب منها هو الأب الذى
يذوق الجنس البشرى شديد المرارة من تذوقه المتهور
وإلى اليمين ترى ذلك الأب العتيق للكنيسة المقدسة
الذى عهد إليه السيد المسيح بمفتاحى هذه الزهرة الجميلة(٢) .

وعندما حدد ابن عربى موقع البيت المعمور فى السماء قال : « وهو على سمت الكعبة كما ورد فى الخبر لو سقطت منه حصاة لوقعت على الكعبة »

---

(١) انظر : كتاب العلوم الفاخرة فى النظر فى أمور الآخرة لابن مخلوف ، طبع القاهرة عام ١٣١٧ هـ ص ٥٩ .

(٢) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد ٣٢ أبيات ٨ ــ ١٢٥

ثم رسم لوحة مربعة بين فى أعلاها درجات الجنة ومراتب أهلها طبقاً لثواب أعمالهم وفى أسفلها درجات الجحيم ومراتب أهلهـا أيضاً جزاء وفاقاً لأعمالهم ، فاتضح تطابق هذه الدرجات فى العدد والتوزيع ايجاباً فى الجنة وسلباً فى النار ، مما كشف عن التناسق الشديد فى رؤية ابن عربى للعالم الآخر طبقاً للموروثات الإسلامية وقدم تصوراً مخططا منظما هندسياً لايضاهيه إلا التصور الذى قدمه دانتى بعد ذلك والذى فتن الباحثين باتساقه ونظامه ودقته حتى وقعوا على الوثائق الدالة على اطلاع دانتى على عناصر هذا التراث وإفادته الذكية منه .

وبالرغم من التراكم الوصفى الشديد فى قصة « معراج محمد » المترجمة إلا أن المعيار الخلقى الذى يتوزع الصالحون طبقاً له على درجات الجنة يتسق مع ما رأيناه عند دانتى وابن عربى لأنه هو المعيار الإسلامى الثابت ، فأنواع النعيم التى يراها الرسول فى الجنات السبع تشرح فى فصول متعددة (١) تزخر بنفس الصور . فقاعد المؤمنين أيضاً من نور ، وصور الملائك هى نفسها كما سنشرح فيما بعد ، لكن يبقى فرق هام بين مثل هذا النوع من التراث والأعمال الأدبية والفلسفية الكبرى كما تتجلى عند ابن عربى ودانتى ، وهو أن البنية الفكرية الأساسية للقصص الفولكورية فقيرة شديدة المحافظة ، إذ أنها لا تفتأ تكرر المسلمات المعروفة ثم تفرقها فى أوصاف متتالية نمطية مكررة تعتمد على المبالغة والتهويل ، أما الأعمال الكبرى فإنها على العكس من ذلك شديدة الجرأة على السياق الفكرى المألوف ، تدخل فيه عناصر تكسر نمطيته وتثريه وتخرج على إطاره وتطل به على آفاق جديدة ، ثم توظف ماتستخدمه من إمكانيات تصويرية بطرق متعددة وخصبة .

---

(١) انظر الفصول رقم ١٧ / ١٨ / ٣٠ / ٣٦ / ٤١ من كتاب المعراج الملحق بهذا البحث .

ومن هنا فإن شرح مصادر هذه الأعمال الكبرى فى أية مقارنات تحليلية لايزيد عن تقديم إمكانية جديدة لفهم المواد الأولية التى تتكون منها هذه الأعمال دون أن يمس الأبنية الكلية المعقدة لها أو ينقص من قدر مؤلفيها ، ففهم وسائل العباقرة فى الإبداع لا يبطل سحرهم بل يدفعنا إلى مزيد من الإعجاب بهم .

وبهـــذا المنظور فحسب نتقدم خطوة أخرى فى التحليل المقارن للفردوس .

صور من الفردوس :

١ - المرقاة

من المشهور فى التراث الإسلامى أن الرسول قد عرج به إلى السماء من بيت المقدس على مرقاة أو معراج درجاته من ذهب وفضة وزمرد . وهو الذى تعرج عليه الأرواح إلى الجنة ، وقد أخذ الملائكة يفسحون الطريق للرسول عن يمينه وشماله حتى صعد إلى السماء . ومعروف أيضاً مشهد صعود دانتى الشبيه بما سبق إلى حد كبير طبقاً لما جاء فى النشيدين الواحد والعشرين والثانى والعشرين من الفردوس ، فعندماوصل دانتى مع بياتريش إلى سماء زحل أو السماء السابع كما يسميه ، رأى معراجاً يتجه إلى الأعالى هكذا :

« رأيت معراجاً يتجه إلى الأعالى ، بلون الذهب الذى يعكس
أشعة الشمس حتى لم تقو على متابعته عيناى
وكذلك رأيت على درجاته أنوارا كثيرة تهبط إلى أسفل
حتى ظننت أن قد انتثر عليه كل ما يتبدى فى السماء من الأنوار »(١)

ودعته بياتريش ليعرج عليه ، فرأى نفسه على قمة القمم ، أى صار فى رحاب أعالى السماء فى وقت أقل مما تضع فيه إصبعك فى النار وتسحبه.

ونفس هذه المرقاة هى التى نجد وصفها هكذا فى قصة المعراج المترجمة :

« أرانى جبريل سلماً يمتد من السماء الأولى إلى الأرض
أولى درجاته من ياقوت ، وثانيتها من زمرد ، وثالثتها من لؤلؤ
ناصع البياض ، وكل درجة أخرى من حجر نفيس .. كلها محوطة

---

(١) أنظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان - نشيد ٢١ أبيات ٨-٣٣

بالملائكة الذين يحفظونها ، . وكانت من البهاء والإشراق بحيث يعشى نورها البصر.. وأخذ جبريل بيدى إلى الدرجة الأولى وصعدنا إلى السماء فى لمح البصر »(١) .

ويأتى وصف هذا المعراج فى روايات إسلامية أخرى بأنه «لم تر الخلائق أحسن منه : له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب ، وهو من جنة الفردوس ، منضد باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة »(٢)

وبالإضافة إلى هذا الوصف المحدد لمرقاة المعراج يهمنا أن نشير هنا إلى أن فكرة العروج إلى السماء فى ذاتها بلغت من الذيوع والانتشار فى التراث الإسلامى إلى الحد الذى نرى معه مفكراً مثل الغزالى يقول بأن كل الأرواح السعيدة لها معراج إلى السماء تقرع فيه أبوابها وترى ما فيها من نعيم (٣) ثم لاتخلو أية قصة من قصص المعراج من وصف هذه المرقاة ودرجاتها الذهبية وأنوارها المتلألئة السماوية .

٢ ــ اللقاءات :

طبقاً لكثير من الروايات الشائعة عن الإسراء والمعراج ورد أن الرسول قد التقى فى السماوات التى صعد إليها لابعديد من الأنبياء فقط وإنما بجماعات من أتباعهم وبعض صحابته هو نفسه ، فقد ورد أنه رأى هارون فى السماء الخامسة يقص على جماعة من بنى إسرائيل بعض قصص التوراة ، وأصبح هذا فى قصة المعراج المترجمة مجالس سماع يحكى فيها الملائكة الأقاصيص تحت أشجار الجنة (٤) وعندما رأى موسى وإبراهيم لم يكتف بتحيتهم بل حاورهم وناقشهم فى مسائل دينية مثل الصلاة وغيرها ، وبالإضافة للأنبياء

---

(١) انظر : عرض كتاب معراج محمد ١ الوثيقة الملحقة ١١ الفصل الخامس .

(٢) انظر : قصة الإسراء والمعراج لنجم الدين الغيظى طبع القاهرة عام ١٩٧٠ ص ٧٢/٧٣

(٣) انظر . الدرة الفاخرة فى كشف علوم الاخرة للغزالى . طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٧١ ص ٧ وما يليها .

(٤) انظر . قصة المعراج المترجمة الملحقة كوثيقة فى النهاية ، الفصل الأربعين .

رأى شخصيات أخرى مثل مريم أم موسى ومريم أم عيسى فى السماء الرابعة ، كما رأى فى السماء السابعة جماعات من المسلمين فى ثياب بيضاء وآخرين فى ثياب قاتمة ، ورأى رجلا لا يعرفه قد غرق فى الضوء الذى يفيض من العرش الإلهى فسأل عنه جبريل فأخبره أنه مثال لما أعدالله من نور للصالحين من عباده ، ورأى بلال أول مؤذن فى الإسلام فعرفه وهنأه ، ورأى أبا بكر الصديق الذى يصحبه — طبقاً لبعض الروايات — ليؤنسه فى السماء بعد أن يتوقف جبريل ويتركه وحده .

كل هذه المشاهد فى جملة أحداثها وخطوطها العامة نجـــد نظائرها عنــد دانتى الذى تمتلىء ملحمته بالشخصيات الثانوية ، فكل طبقة من السماء آهلة بسكانها الذين يتجمعون طبقاً للمهن التى كانوا يزاولونها فى الدنيا أو وفقاً لدرجاتهم فى الجنة ، فبعضهم من رجال الدين وبعضهم محاربون شهداء أو قضاة زهاد وهم يتناقشون أيضاً فيما بينهم ويحاورون دانتى عندما يرونه فى موضوعات لاهوتية وفلسفية ، وإن كان معظمهم من المسيحيين إلا أن منهم أيضاً يهوداً وغيرهم ، ومنهم الذكور والإناث والكبار والصغار وبعض أقرباء دانتى وأصدقائه .

ولعل أهم لقاء متميز من هذه اللقاءات هو خروج الأنبياء جميعاً — كل من السماء التى يقيم عادة فيها — للترحيب مرة واحـــدة بالرسول والاحتفاء بمقدمه وعقد حوار حى معه ، تماماً مثلما نزلت كل الأرواح الطوباوية من منازلها للقاء دانتى والترحيب به والحديث معه ثم عادت إلى مقرها بعد ذلك ، وهذا اللقاء مشترك بين جميع الروايات الإسلامية عن المعراج ومفصل فى القصة المترجمة من الفصل الثانى عشر حتى التاسع عشر .

٣ ــ الهداة :

كانت المهمة التى يقوم بها جبريل فى كل مراحل المعراج هى مرافقة الرسول عليه السلام فى الصعود من سماء إلى سماء وإخباره عمن بها من خلق الله والعمل على راحته ونصحه ، وهى نفس المهمة التى قام بها دليلا دانتى وهما فرجيل وبياتريش ، ففكرة اتخاذ هاد أو دليل أصيلة فى المعراج الإسلامى ، ولكننا نجد التفاصيل الدقيقة لقيامه بوظائفه خلال السماوات فى التراث الإسلامى قريبة مما نراه عند دانتى ، فجبريل قد يذهب فى عون الرسول إلى حد الدعاء له فى مثل قوله . « فلما رأى جبريل ما بى قال اللهم ثبته برحمتك وأيده بقوتك وأتمم عليه نعمتك » وعندما يعتريه الخوف يثبته بهذه الكلمات « لم تفزع يا رسول الله ؟ أبشر فإن الله قد درأ عنك الروعات والمخاوف كلها ، واعلم علماً يقيناً أنك خيرته من خلقه وصفوته من البشر ، حباك بما لم يحبه أحداً من خلقه .. ولقد قربك الرحمن عز وجل إليه قريباً من عرشه مكاناً لم يصل إليه ولا قرب منه أحد من خلقه قط ؛ لا من أهل السماوات ولا من أهل الأرض ، فهناك الله بكرامته واجتباك به وأنزلك من المنزلة الأثيرة والكرامة الفائقة ، فجدد لربك بشكره فحمدت الله على ما اصطفانى به وأكرمنى » (١)

ونجد نفس المشهد عند دانتى فى النشيد العاشر من الفردوس عندما يصل إلى دائرة الشمس وتهتف به بياتريش :

« ألا فلتحمد ، ألا فلتحمد شمس الملائكة

التى سمت بك الى هذه الشمس المرئية بفضل من نعمتها

إلى مثل هذا الخشوع لم يتهيأ قط قلب بشر فان

---

(١) انظر . اللالئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للامام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ؛ نشر دار المعرفة ببيروت عام ١٩٧٥ : الجزء الأول ص ٧٦

ولم يساوع لكى يهب نفسه لله وهو مفعم بالمشكران(١) » .

كما تتناثر صلوات بياتريش وسان برنار دو ودعائهم لدانتى فى مواضع أخرى عديدة .

بيد أن النقطة الدقيقة فى التشابه بين التراث الإسلامى والكوميديا الإلهية فيما يتصل بمهمة الهداة هى أن بياتريش تصحب دانتى إلى أمد معلوم فى معراجه، ثم لاتلبث أن تتركه عندما يصلان إلى مرحلة محددة ليحل محلها سان برنار دو ، وهذا هو نفس ما حدث للرسول مع جبريل الذى لا يصحبه فى المرحلة الأخيرة عندما يصعد للعرش الإلهى ، وتمضى الرواية المذكورة فى وصف هـذا المشهد على النحو التالى : « فلما أسرى بى إلى العرش وحاذيته دلى لى رفرف أخضر لا أطيق صفته لكم فأهوى بى جبريل فأقعدنى عليه ثم قصر دونى ورد يديه على عينيه مخافة على بصره أن يذهب من تلالؤ نور العرش . . فرفعنى ذلك الرفرف النورانى بإذن الله ورحمته إياى وتمام نعمته على(٢) » .
وقريب من هذا الرفرف المضيء ما يصفه دانتى بعد ترك بياتريش له بقوله :

« هبطت من كبد السماء شعلة دائرية بهيئة إكليل
وأحاطت بها وأخذت فى الدوران من حولها(٣) .

وهى الشعلة الدائرية التى تحمل العذراء إلى سماء السماوات مثلما تحمل مثيلتها الرسول عليه السلام إلى مقام العرش الإلهى .

وكذلك نرى أن إجابات بياتريش الدائمة على المشاكل العقائدية أو الفلسفية التى يثيرها دانتى عن السماوات المختلفة نجد نظيراً واضحاً لها فى مشاهدات المعراج الإسلامى حيث يشرح جبريل أو ملك الموت أو خازنا النار

---

(١) انظر . الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد العاشر أبيات ٥٢–٥٨

(٢) انظر . اللآلىء للسيوطى ، الطبعة المشار إليها ص ٧٤

(٣) انظر . الفردوس ، النشيد ٢٣ أبيات ٩٣/٩١

والجنة للرسول مايريد أن يعرفه عن الحشر والنشر وأسرار الخلق وأخبار الدار الآخرة .

ولنستحضر على وجه التحديد المشهد الأخير من المعراج الإسلامي عندما يشرح جبريل للرسول فى السماء الأخيرة أنواع الملائكة ومراتبهم بقوله : —

« فالذين رأيت فى بحور عليين هم الصافون حول العرش إلى منتهى السماء السادسة ، وما دون ذلك هم المسبحون فى السماوات والروح رئيسهم الأعظم . . فقلت ياجبريل : فمن الصف الأعلى الذى فى البحر الأعلى فوق الصفوف كلها الذين أحاطوا بالعرش واستداروا حوله ، فقال جبريل يارسول الله : إن الكروبيين هم أشرف الملائكة وعظماؤهم ورؤساؤهم(١) » فإذا قارنا هذا بالشرح الطويل الذى يضعه دانتى على لسان بياتريش عند وصولهم للسماء التاسعة عن صفوف الملائكة ومراتبهم وطبيعتهم أدركنا التطابق بين التصورين فى مثل قوله : —

« من جوقة إلى جوقة سمعتهم يترنمون بالهوشعنا صوب النقطة الثابتة التى أبقتهم فى أماكنهم . .

وتلك التى أدركت ما يجول بخاطرى من هواجس الشك قالت : —

لقد أظهرت لك الدائرتان الأوليان الملائكة السرافيين والكروبيين(٢) .

ثم تمضى بياتريش لتوضح له أن هؤلاء الكروبيين هم أسمى الملائكة لأنهم يحتلون الصفوف الأولى المحيطة بالعرش متقدمين على من سواهم من الملائكة .

أما فى قصة المعراج المترجمة فإننا نجد هؤلاء الهداة يقومون بوظائفهم بشكل متسق متواز مع هداة دانتى فى الكوميديا بأسرها ، فإذا كان الذين قاموا بمهمة إطلاع دانتى على أسرار الجحيم والمطهر والفردوس هم فرجيل

---

(١) انظر . اللآلىء للسيوطى ، الطبعة المشار إليها . ص ٧٧

(٢) انظر الفردوس ، نشيد ٢٨ أبيات ٩٥ ، ٩٩ وانظر كتاب أسين بالاثيوس ص ٥٠ .

وماتيلدى وبياتريش وسان برنار دوفان هداة الرسول عليه السلام طبقاً لهذه الرواية هم ملك الموت وإسرافيل ورضوان ، ومن قبلهم ومعهم جبريل(١)، فالأول يشرح له كيف ينزع الأرواح من العباد ويحملها إما إلى الجنة أو النار والثانى يوضح له كيفية خلق النار ومن هم أهلها والثالث يريه بأمر الله الأرضين السبع وما فيها من عجائب أما جبريل فيصحبه فى كل السماوات ويطلعه على الجنان ويريه عجائب الملكوت الأعلى ، مما يقدم دليلا ملموساً على استفادة دانتى من عناصر التراث الإسلامى فى تصميمه لملحمته الخالدة ، مع اختلاف الأدوار والأغوار بين المجالين بطبيعة الحال ، لكن تظل صورة الهداة المتعددين ، وبعض مواقفهم وأقوالهم المحددة ، نقاطا يتضح فيها التحام الكوميديا الإلهية بالموروثات الإسلامية .

٤ — نقش على الباب :

تروى قصة المعراج المترجمة أن الرسول عليه السلام عندما دخل الجنة وجد مكتوبا على بابها من الداخل هذه الكلمات « أنا الله لا إله إلا أنا ، وكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم نفسه من النار ولن يدخلها جزاء ما ارتكب من الخطايا (٢) » . فنتساءل عند قراءتها ألم يكن من الأجدر بها أى توضع على باب النار ؟ إذ أنها لا تشير إلى شىء فى الجنة ونعيمها ، بل الى الدرع الواقى من الجحيم وهو الشهادة . وقبل أن يكتشف هذا النص قرأ الباحث الكبير « أسين بالاثيوس » الأبيات التالية لدانتى فى الجحيم : —

« هنا الطريق إلى مدينة العذاب . . هنا الطريق إلى القوم الهالكين
لقد حركت العدالة صانعى الأعلى وخلقتنى القدرة الإلهية
والحكمة العليا والحب الأول .
لم يخلق قبلى شىء سوى ما هو أبدى ، وانى باق الى الأبد »

(١) انظر : كتاب معراج محمد الوثيقة الملحقة ، فصول ٦/٧/٨/١٠/١١/٢٨/٢٩
(٢) انظر معراج محمد الوثيقة المترجمة الفصل ٣٣

هذه الكلمات رأيتها مكتوبة بلون داكن على باب (الجحيم) (١) » .

فرأى فيها ملمحاً قوياً يشير إلى بعض عناصر التراث الإسلامى مما كتب على جبين بعض أهل النار وكان من السهل على دانتى أن ينقله ليضعه على باب النار مجاراة لعادة أهل العصور الوسطى فى كتابة الشعارات على الأبواب.

ويصدق حدس « أسين بالاثيوس » فى هذا الموضع كما صدق فى غيره، إذ نعثر على النص السابق الإسلامى منقوشا على باب الجنة وهو أشبه مايكون مناسبة لأن يوضع على باب النار ، فكأن دانتى قرأ هذا النص فيما قرأ ، ونقله ليضعه فى مكانه الملائم ، وظل خاضعا فى تصوره للمعنى الإسلامى فى البيت الأخير الذى يصف فيه الله نفسه بأنه الأول والآخر ، وفى دلالة نص دانتى على رحمة الله وعدالته وحبه مايشير كذلك إلى أن النجاة من هذه النار ميسورة قريبة ، وهذا نفس مايؤكده النص الإسلامى الذى يكتفى من الإنسان بالاعتراف بالله ورسوله كى يعصم نفسه من أهوال الجحيم مهما ارتكب بعد ذلك من الخطايا والموبقات . فعملية النقش نفسها وفحوى النصين يؤكدان تلاقى الصورتين .

٥ — مهرجان الأضواء والأناشيد :

أبرز الدارسون لأدب دانتى الهوة الساحقة التى تفصل بين تصوره للفردوس ، وتصور سابقيه من الغربيين الذى كان يتسم بالفقر الشديد والخيال الصبيانى عن سماء مادية بشرية . ولكن دانتى قد استغل كل الظواهر المرهفة الشاردة فى الطبيعة لتصوير مهرجان من الظواهر تصبح به الحياة السماوية عيدا إلهيا من الصوت والضوء . فالفردوس عند دانتى هو مملكة الروح التى تسمو على الماديات الخشنة ، وليس هناك مثل النور والموسيقى فى رهافتهما ما يفتح عوالم هذه المملكة الروحية .

ونفس هذه العناصر التشكيلية هى التى تتكون منها صورة الجنة فى التراث

---

(١) انظر الجحيم النشيد الثالث أبيات ١ — ١٠ وكتاب أسين بالاثيوس ص ٧٢

الإسلامى ، وهى الغالبة على مشاهد الرسول فى معراجه خلال السماوات ، فكل مافيها يقدم رؤية ضوئية تتصاعد وتتكثف حتى تصل إلى ذروة البهاء فى المراحل الأخيرة ، وفى الجنة يتخلل النور كل شىء حتى تفقد الأجسام ماديتها ونستطيع اختراق الأسوار والقصور لنرى ما يدور فى أى مكان ، فالشفافية وشدة الضوء — بلا أذى — هما صفة الجنة ، إذ أنها كما ورد فى الأحاديث بيضاء ، « وأرضها مرمرة بيضاء من فضة كأنها مرآة . . قال ابن عباس ، قلت فما نورها ؟ قال : مارأيت الساعة التى تكون فيها قبل طلوع الشمس ، فذلك نورها إلا أنه ليس فيها شمس ولا زمهرير (١) » وفى حديث آخر عن الجنة : « هى ورب الكعبة نور يتلألأ . . وإن فيها لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فإذا كان ساكنها فيها لم يخف عليه ما خلفها » و« إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتى تليها على أضوأ كوكب درى فى السماء ، وعلى كل واحدة من الحور العين فيها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب » أما الأناشيد الموسيقية الرائعة فى الجنة فحسبنا أن نورد عنها بعض الآثار مثل : عن أبى هريرة قال . إن فى الجنة نهرا طول الجنة حافتاه العذارى قيام متقابلات ، يغنين بأصوات حتى يسمعها الخلائق ، ما يرون فى الجنة لذة مثلها . فقلنا يا أبا هريرة . وما ذاك الغناء ؟ قال : إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقديس(٢) » ولهم سماع أعلى من هذا ، حيث تغنى الملائكة وداود صاحب المزامير الشجية بصوته الرخيم العذب ، وحتى الريح تحرك أوتارا فى الجنة تحمل أعذب الألحان وأشهاها .

أما أنوار المعراج فإن تخطيط السماء نفسها يعتمد أساسا على الألوان والأضواء الباهرة ، والملائكة الذين يعمرونها — بالرغم من شكلهم البشرى أحيانا وأحجامهم العملاقة وأعضائهم المتعددة وأجنحتهم المتكاثرة — إلا أن الطابع الغالب على صورهم هو الضوء الذى يشع منهم والذى كثيراً ما يعشى

---

(١) انظر : هادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٥٠ فصل سماع الجنة وغناء الحور ومافيه من الطرب .

أبصار مشاهديه . فكل مخلوقات السماء نورية وسكانها غارقون فى بحار الضوء والبهاء .

أما الأصوات المنبعثة منهم فهى تراتيل وأناشيد تسبح دائما بحمد الله وتثنى عليه فى جلال مهيب وموسيقى علوية رائعة يهتز لها الملكوت الأعلى .

وإذا كانت هذه هى الخطوط العامة لسيطرة الضوء والصوت على صور الجنة الإسلامية وفردوس دانتى فإن هناك بعض الظواهر الخاصة المتصلة بهذا المجال تؤكد التقاء دانتى مع الموروثات الإسلامية واستيعابه لها ، منها صورة اشتداد الضوء حتى يعشى البصر ، ولنقرأ فى رواية إسلامية واحدة تكرار هذه الصورة على النحو التالى : —

« إن الله أعطانى عند ذلك من الأبصار مثل قوة أهل الأرض وزادنى من عنده ما هو أعلم به ومن على بالثبات وحدد بصرى لرؤية نورهم ولولا ذلك ما استطعت النظر » « رأيت من الملائكة ما تحار أبصار الناظرين دونهم ، فنبت عيناى عنهم لما نظرت من شدة تلألؤ نورهم » .

« فلما نظرت إليه صار بصرى دونه حتى ظننت أن بصرى قد ذهب من شدة نور ذلك البحر حتى رددت يدى على عينى » « فلما نظرت إليه أسود بصرى وغشى على » « فلولا أن الله أيدنى بقوته لتخطف نورهم بصرى . . ولكن درأعنى وهج نورهم وحدد بصرى لرؤيتهم » .

« فلما نظرت إليه كاد شعاعه يخطف بصرى حتى جعلت لا أبصر شيئاً كأنى إنما أنظر إلى ظلمة لا إلى نور » « ورد جبريل يديه على عينيه مخافة على بصره أن يذهب من تلالؤ نور العرش » « فحار بصرى دونه حتى خفت العمى فغمضت عينى فرد الله بصرى فى قلبى(١) » .

ويتكرر نفس هذا المشهد فى فردوس دانتى أكثر من عشر مرات — كما

---

(١) انظر : لالىء السيوطى — ج ٢ ص ٦٧ وما بعدها وكتاب أسين بالاثيوس الذى يتتبع هذه الصور باستقصاء علمى شديد ص ٤٦/٤٧

يحصيها أسين بالاثيوس – وبنفس الكلمات تقريبا ، ونوردها هنا لتتضح قرب العالم الذى يصفه دانتى من الأفق الإسلامى إذ يقول فى مواضع متفرقة : –

– واتجهت عيناى بكلتيهما إلى بياتريش ، ولكن أنوارها سطعت أمام باصرتى ، حتى لم تقويا لأول وهلة على النظر إليها .

– إيه أيها السناء الحق للروح القدس ، كيف تألق بغتة أمام عينى ، حتى لم تقويا وهما مبهورتان على شهوده .

– ثم استردت عيناى بفضلها القدرة على أن تنظر إلى العلياء .

– وكمن يشخص ببصره ، ويجهد نفسه لكى يرى الشمس وهى تنكشف قليلا ، وفى سعيه لكى يرى يصبح غير قادر على الرؤية .

هكذا أصبحت أمام هذا القبس الأخير .

– ومن خلال النور المتألق شع الجوهر المنير متلألئا فى عينى ، حتى لم أقو على احتمال بهائه .

– رأيت نقطة يشع منها نور شديد التألق ، حتى لينبغى إغلاق العينين اللتين يسطع عليهما ، بما واتاها من الحدة الفائقة .

– وكبرق خاطف يزيغ من قوى الإبصار . حتى ليحرم العينين من قدرتهما على رؤية أكثر الأجسام ضياء

هكذا أحاط بى نور ساطع وتركنى مغشى فى نقاب من ضيائه ؛ حتى لم أعد أستبين بنفسى شيئاً .

– إذ أن بصرى حينما أضحى صافيا ، أخذ يتغلغل رويدا رويدا فى شعاع النور الأسمى ، الذى هو النور الحق فى ذاته

ومنذ تلك اللحظة فصاعدا صارت مشاهدتى أعظم من كلامنا الذى يعجز أمام هذه الرؤية ..

ــ وأعتقد أن بصرى كان سيتولاه الزيغ من حدة ذلك الشعاع الباهر الذى احتملته ، لولا أن عينى حادتا عنه .

وأذكر أنى بهذا قد أصبحت على احتماله أعظم قدرة ، حتى إنى وصلت بين رؤيتى والخير اللانهائى (وهذه هى الرؤية القلبية)

ــ أيتها النعمة الفياضة التى اجترأت بفضلها على أن أسدد عينى الى النور الأبدى حتى استنفذت هناك كل إبصارى(١) » .

٦ ــ ما لا يوصف :

من العبارات المألوفة المتكررة فى قصة المعراج الإسلامية مايتردد كثيرا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه رأى مالا يمكن وصفه ، أو مالم يؤذن له فى وصفه ؛ وهذا طبيعى فى وصف عالم الغيب الذى لا تتصل معطياته بالتجربة الحسية التاريخية المولدة للغة ، فلا مناص عندئذ من أن تقصر الوسائل التعبيرية المألوفة فى الحياة اليومية عن الإحاطة بكل جوانبه وأن يجد الراوى نفسه مضطراً من حين لآخر الى التنبيه على هذا القصور بمثل تلك العبارات ، خاصة وأن قدرا كبيرا من هذه الأوصاف يرد فى روايات موضوعة لم يملك أصحابها الاقتدار اللغوى الكافى لابتكار وسائل جديدة فيلجأون الى هــذه الحيلة كطريقة للمبالغة وفتح المجال أمام الخيال لتصور شىء غير معهود أو الإغراق فيما هو معهود ، أما الحيلة الأخرى عما لم يؤذن به فهى جزء من اشاعة جو الأسرار الغامضة فى المناخ العام للرواية حتى تؤتى التأثير المطلوب .

فإذا تتبعنا بعض نماذج لهذه الوسيلة التصويرية فى روايات المعراج الإسلامية وجدنا منها مايلى :

« وأمره فوق وصف الواصفين وما تلهج به ألسنة الناطقين »

---

(١) أنظر الفردوس : أناشيد ٣/١٤/٢٣/٢٥/٢٨/٣٩/٣٣ على التوالى وانظر كتاب أسين بالأثيوس المشار إليه من قبل

« وهم أعظم شأنا من أن أطيق صفتهم لكم » « أمر عظيم لا يناله الألسن ولا تبلغه الأوهام » « فرأيت منه ما أعجز عن صفته لكم » « فرأيت من شعاع تلألوه أمرا عظيما لوجهدت أن أصفه لكم ما استطعت ذلك » .

« وما يوصفون بشىء إلا وهم أعجب ، وأمرهم أعظم من أن تحيط به الصفة (١) » .

ونجد نفس هذه الوسيلة التصويرية عند دانتى ، مرة فى مقدمة الفردوس إذ يقول :

« وشهدت أشياء لا يقوى على وصفها ولا يعيها من يهبط من العلياء » وخمس مرات أخرى فى أناشيد مختلفة . فيقول عند دخوله دائرة الشمس :—

« ومهما استنجدت بالعبقرية والفن والتجربة فما كنت
لأعبر عنه بما يمكن تصوره أبدا »

وعندما ينظر إلى بياتريش فيجدها فائقة الجمال ويعترف بعجزه عن وصفها ، ويتوقف عن ذلك توقف الفنان عند منتهى قدرته :

« ولا يتجاوز الجمال الذى شاهدته إدراكنا فحسب . .
بل إنى فى هذا الموضع معترف بهزيمتى . . »

وكذلك حين رأى العذراء ماريا تشع بنورها الذى غلب سائر الأنوار أعلن عن عجزه عن وصف ماشهده من الجمال الرائع بقوله :

« ولو كان لى فى الكلام ثروة كما فى الخيال ، لما جرؤت
على أن أحاول التعبير عن أدنى قدر من مباهجها (٢) »

أما العبارة الأخرى التى تغلف المشاهد بضباب الأسرار وتلفها فى إطار الإبهام فتجد منها فى الروايات الإسلامية مثلا : «لم يؤذن لى أن أحدثكم عنهم»

---

(١) انظر : اللآلىء المصنوعة للسيوطى ، الجزء الأول ص ٧٢ ومايليها . وكذلك كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه من قبل ص ٤٤ .

(٢) انظر : الفردوس . ترجمة الدكتور حسن عثمان . أناشيد ١٠ ، ٣٠ ، ٣١ .

« فجعلت أنظر بقلبي نحو ما كنت أنظر بعيني نورا نهيت أن أصف لكم ما رأيت من جلاله » « ثم أفضى إلىّ من بعد هذا بأمور لم يؤذن لى أن أحدثكم بها(١) » .

ولا نتوقع من دانتى أن يصرح بأنه لم يؤذن له ، وإنما يشير إلى ذلك اشارة فى مثل قوله : —

« وهنا أعوز خيالى الرفيع قدوره ، ولكن رغبتى وإرادتى
كانتا قد سارتا معا ، كعجلة تدور بحركة واحدة »

« وحتى فيما يمكننى أن أذكره منه ، سيكون قولى الآن
أعجز من لفظ طفل يبلل لساته من الثدى(٢) » .

فهناك إذن مالا يمكنه أن يذكره ، لا بسبب عجزه عن البيان ، فهذا العجز قائم على أية حال ، وإنمـــا لسبب آخر لا بد وأن يتصل بما يباح وما لا يباح له أن يخوض فيه .

وقد يقال إن هذه الصيغ من الوسائل التعبيرية المألوفة التى لا تحتاج إلى تأثير من مجال ثقافى آخر ، ولا تنهض دليلا على ارتواء دانتى من النبع الإسلامى ، ولو كانت بمفردها لصح هذا الاعتراض ، ولكنها تدخل فى سياق ثبت أنه مرتبط بالمأثورات الإسلامية فتكسب دلالة ليست لها فى ذاتها وتصبح إشارة أخرى إلى قوة ترسب هذه المادة وشدة تمثل دانتى لها حتى لتعزز فى اللغة الجديدة نفس اللوازم التى أفرزتها فى الأصل الإسلامى ، خاصة وأن دانتى كان ينتقل بالإيطالية من لهجة عامية إلى مرتبة اللغة المستقلة ، وهى مرحلة تشتد فيها الحساسية اللغوية لتقبل الأنماط والصيغ التى لم تكن مألوفة فيها نتيجة للتلقيح الفكرى المخصب من مجالات ثقافية أخرى .

---

(١) انظر : لآلىء السيوطى ، نفس الموضع السابق .

(٢) انظر : الفردوس . نشيد ٣٣ أبيات ١٠٦ ، ١٠٧ .

٧ ـ صورة النسر والديك :

إن صورة النسر الهائل الذى تتكون منه آلاف الملائكة المتجمعين وقد عرضت أمام عينى دانتى الداهل فى سماء جوبيتر أو المشترى قد اجعلت جميع شراحه يبهتون أمام جمالها الغنى بما فيه من أصالة ورمزية لم يسبقه إليها أحد ممن عالج فى الأدب المسيحى مثل تلك الرؤى السماوية ، وكان الحدس بأصل هذه الصورة الإسلامى مما أثار الباحثين الأوربيين على المستشرق الأسبانى «أسين بالاثيوس» صاحب نظرية التأثير الإسلامى ، وجاءت وثيقة المعراج لتقول الكلمة الحاسمة فى صدق هذا التأثير . ولنقرأ أولا نموذج هذا النسر العجيب عند دانتى قبل أن نرى نظيره الإسلامى . يقول : ـ

«وكما تتطاير شرارات لاعداد لها ، بالضرب على الأخشاب المحترقة..
بدا لى عندئذ أنه قد نهض أكثر من ألف نور . . وصعد بعضها
فوق بعض ، كما قدرت لها الشمس أن تشعلها
وحينما سكن كل منها فى موضعه رأيت رأس نسر ورقبته
تتمثلان فى تلك الأنوار المتلألئة » .

بجناحين ممدودين بدت أمامى الصورة الجميلة
التى صنعتها الأرواح المتآلفة المغتبطة بنعيمها العذب . .
وتبدت كل منها كأنها ياقوتة صغيرة ، واشتد فيها
توهج أشعة الشمس حتى أصبحت منعكسة فى عينى . .
وكالبازى الذى يتخلص من غمائه فيحرك رأسه ويعمد
إلى خفق جناحيه ، مبديا تحفزه ومجملا نفسه
هكذا فعلت الصورة المباركة التى خفقت جناحيها
وهى مسوقة بالكثير من رغائبها . . »
وكالقبرة التى تحلق فى الهواء ، مفردة لأول وهلة ، ثم

تبسمت راضية نشوى بختام شدوها العذب
هكذا مضت أرواح مباركة في طيرانها وهي تشدو
بداخل هذه الأنوار . .
وكان قول « أحبوا العدالة » أول فعل واسم في اللوحة كلها
وكان قول « يامن تحكمون الأرض آخر كلماتها »
إذ رأيت النسر كما سمعته يتكلم ، ويترنم صوته بكلمة
« أنا » و « ملكي » بينما أراد بهما « نحن وملكنا »(١)

فها نحن نرى أن نسر دانتي يتكون من وجوه وأجنحة كثيرة ، يشع منها نور باهر ، ويترنم بأغان حلوة قد أخذت كلماتها من الكتاب المقدس ، وهو يدعو الناس إلى حب العدالة ، وقد اجتمعت في تكوينه أرواح الطوباويين إذ أن وحدته الشخصية ليست سوى نتيجة لتجميع كائنات أخرى في نسق فني بديع ، ثم هو يخفق بجناحيه عندما يترنم ويشدو ، ثم لايلبث أن يسكن ويهدأ بعد ذلك .

وقد قارن « أسين بالاثيوس » هــذه الصورة بعنصرين من التراث الإسلامي . أحدهما : « الديك » الذي ورد في روايات المعراج هكذا : رأيت في السماء ديكا له زغب أخضر وريش أبيض كأشد خضرة وبياض رأيتهما قط ، وإذا رجلاه في تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه تحت عرش الرحمن له جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب ، فإذا أخفق بهما وصرخ بالتسبيح لله يقول : سبحان الملك القدوس . . فإذا فعل ذلك سبحت ديكة الأرض كلها وخفقت بأجنحتها ، فإذا سكن ذلك الديك في السماء سكنت الديكة في الأرض(٢) » .

---

(١) الفردوس : أناشيد ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .
(٢) انظر : لآلئ السيوطي الجزء الأول من الطبعة المشار إليها ، ص ٦٣ .

وثانيهما . ذو طبيعة روحية تتصل بعالم الملائكة ، إذ تقول الرواية :—

« فنظرت أمامى وإذا أنا بملك على صورة الديك ، اسمه ميكائيل ، عنقه تحت العرش ، ورجلاه فى تخوم الأرض ، ورأسه أفرق أبيض أشد مايكون البياض نورا ، عرفه أخضر وأصفر ، وهو ساجد يقول فى سجوده : سبحان الله العظيم . فإذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الأرض وإذا اسكت سكتوا . . فلم أزل منذ سمعته مشتاقا إليه(١) » .

وتجىء مخطوطة المعراج التى يرجح اطلاع دانتى عليها لتؤكد هـذه الصورة فى عدة مواضع ، وبأشكال شديدة القرب مما رأينا عند دانتى ، مما يقطع السبيل إلى أى شك ، ففى الفصلين التاسع والتاسع والعشرين يأتى وصف هذا الديك العظيم الذى يفوق أى نسر ، إذ يبلغ جناحاه أقطار السماوات والأرض ، وقد تلألأ بالألوان والأضواء ، وأخذ ينشد بالتسبيح فى أجواز السماء فتتجاوب معه ديكة الأرض صياحا وسكوتا ، ثم يوصف بعدذلك بأنه من ملائكة الله ، وتتوزع أناشيده العذبة الرائعة على ساعات الليل وأوقات الفجر والسحر ، وتشدو على إيقاعها ديوك الأرض وطيورها ، ثم يختلط فى فصول أخرى بالطبيعة الملائكية ذات الصور العديدة والأشكال المتنوعة مما أغرى فنانا مثل دانتى أن يمزج بينها ويخرج منها صورة النسر الرائعة التى فتنت وما زالت تفتن قراءه ، خاصة وأن شكل النسر لم يغب عن هذه الصور الإسلامية ، ففى الفصل الخامس عشر من مخطوطة المعراج نرى الرسول يشهد فى السماء الرابعة : « سبعين ألف ملك لهم وجوه النسور ، ولكل واحد سبعون ألف جناح ، وبكل جناح سبعون ألف ريشة » بديعة الألوان والأضواء ، أما الأناشيد السماوية التى تنبعث من أفواه هذه الملائكة فهى عنصر مشترك بينها جميعاً .

---

(١) أنظر : مخطوطة مجهولة المؤلف لقصة الإسراء والمعراج بدار الكتب المصرية فى مجموعة ، رقم ١٩٩٣ . صفحة ١١٨ و ١١٩ .

٨ – صورة الثلج والنار :–

بدت أرواح الطوباويين لدانتي في الفردوس هكذا : –

« كانت وجوههم جميعاً مصوغة من شعلات ساطعة

وأجنحتهم من ذهب ، وكان سائرهم ذا بياض

لا يبلغ الثلج حده أبدا(١) » .

وفي معظم روايات الإسراء والمعراج نجد بعد صورة الديك مباشرة هذا الوصف :

« ثم تقدمت أمامي ، وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار . . يسبح ويقول : يامؤلف مابين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك ، والملائكة يقولون آمين ، فلا الثلج يطفيء النار ولا النار تذيب الثلج(٢) » . ويرد ذكر هذا الملك في مخطوطة المعراج المترجمة مرتين كذلك عقب ذكر الديك في الفصلين التاسع والتاسع والعشرين .

وإذا كانت هذه الصورة عند دانتي مجرد تشبيه للأرواح بأن بياضها أنصع من الثلج بالرغم من اشتعالها فإنها تتميز في النصوص الإسلامية بقوام تشكيلي بديع أكثر فتنة وشاعرية وأحفل بالمعنى إذ تستغل هذه الصورة لتجسيد التلاقي بين الأضداد مما يكشف عن قدرة الله في العباد ويدل على عظمته التي تتجلى في شكل مخلوقاته ومعناهم أيضاً .

٩ – رؤية الكون مصغرا :

من المشاهد المتميزة في الفردوس أن دانتي عندما وصل بصحبة بياتريش إلى قمة سماوات الأفلاك ، إلى منازل الكواكب الثابتة ، دعته هاديته أن يتأمل المشهد قبل أن يواصل رحلته ، كي يجرب نظرته النافذة ، ويرجع

---

(١) انظر : الفردوس : النشيد ٣١ أبيات ١٣ –١٦ من الطبعة المشار إليها .

(٢) انظر : مخطوطة الإسراء والمعراج المشار إليها بدار الكتب المصرية رقم ١٩٩٣ .

البصر إلى أسفل ، ويحاول رؤية العوالم التى تركها من خلفه . ويصف دانتى ذلك عند وصوله إلى السماء الثامنة قائلا :

قالت بياتريش ، ينبغى أن تكون ثاقب العينين صافيهما .
ولذلك قبل أن تمضى إلى الداخل مزيدا ، فلتنظر إلى أسفل ..
ولتر أية دنيا شاسعة صارت الآن تحت قدميك .
فعدت بناظرى إلى الأفلاك السبعة كلها جميعاً ، فرأيت هذه الكرة
على حال جعلتنى أضحك من ضئيل مرآها .
وأظهرت لى الأفلاك السبعة كلها ، كم هى شاسعة
وكم هى سريعة ، وكم تتباعد منازلها ..

وبينما كنت أدور مع التوأمين الأزليين ، بدا لى البيدر الصغير الذى يحيلنا وحوشاً ، بدا لى مكتملا من مرتفعاته إلى مصبات أنهاره (١) .

ولنقارن هذا بما نجده فى قصة المعراج عندما وصل الرسول بصحبه جبريل إلى السماء الأخيرة ، وأخذ يتأمل عظمة العرش الإلهى التى لا حد لها ، مقارناً إياها بعوالم الأفلاك والسماوات التى عدها فى معراجه قائلا :

« فإذا ما رأيته من الخلق كله قد تصاغر ذكره وتهاون أمره واتضع خطره عند العرش ، وإذا السماوات السبع والأرضون السبع ، وأطباق جهنم ودرجات الجنة وستور الحجب والنار والبحار والجبال التى فى عليين وجميع الخلق والخليقة إلى عرش الرحمن كحلقة صغيرة من حلق الدرع فى أرض فلاة واسعة تيهاء لا تعرف أطرافها » (٢).

ثم يقول أيضاً :

« فإذا إلهى قد ثبت بصرى لرؤية نور العرش وما تحت ذلك

(١) أنظر : الفردوس ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد ٢٢ أبيات ١٢٤–١٥٣

(٢) أنظر : اللآلىء المصنوعة للسيوطى ، الطبعة المشار إليها ، الجزء الأول ص ٧٣/٧٤.

من عجائب خلق ربى إلى منتهى الأرض ؛ أرى ذلك كله بعضه من تحت بعض » .

فهذه الرؤية الشاملة للكون وقد تضاءلت عظمته وهان شأنه بجوار ما رأى من نور ربه هى نفسها التى وجدناها من قبل عند دانتى ، وهى نفسها التى نعثر عليها فى قصة المعراج المترجمة فى موضعين ؛ أحدهما فى الفصل الثامن والعشرين إذ يقول « ولما عدت من هناك — أى من سماء العرش — حملنى روح الله عبر السماوات كلها وهو يرينى فى لحظة ما لا يرى إلا بعد تمهل طويل ؛ فرأيت السماوات والأرضين السبع والملائكة دفعة واحدة » وفى مشهد آخر ، فى الفصل الثامن والستين يقول « ولما سألت جبريل عما إذا كانت كل تلك السماوات والأرض التى ذكرت متصلة فيما بينها أو منفصلة قال لى إنه ينبغى أن أرجع النظر لأرى مرة أخرى كل ما رأيته حتى أدركه على وجه الإحاطة » (١)

١٠ — الوردة الطوباوية وشجرة طوبى :

«إذا أخذنا فى تحليل العناصر الوصفية لمقر الأرواح الفعلى فى الجنة وجدنا أنها تتركز فى الأناشيد الأخيرة من الفردوس ؛ حيث ينبع نهر النور الإلهى ويتسع فى صورة دائرية « يصبح محيطاً بالنسبة للشمس نطاقاً ذا اتساع شاسع » وتنتظم الأرواح فوق هذا النور وحواليه منعكسة فى أكثر من ألف طبقة « وإذا كانت أدنى المراتب من هذه الوردة تضم هذا النور العظيم فكيف يكون اتساعها عند أوراقها العليا ؟ » مما يشكل وردة أبدية تمتد وتتدرج اتساعاً فى الأطراف وضيقاً فى القلب .

على أن كل دائرة من تلك الدوائر تتكون من مقاعد ودرجات وعروش نورانية ، كما تقع على نفس المستوى وتوازيها دوائر أخرى أصغر منها

---

(١) أنظر الوثيقة المترجمة الملحقة فى هذا الكتاب ، الفصول ٢٨ — ٦٨

محيطاً كلما اقتربت من وسط الدورة ، وكل ورقة منها مقعد فى الجنة (١).
وكل مجموعة من المقاعد النورانية دائرة سماوية طوباوية .

وإلى جانب هذا الرمز الأساسي يقارن دانتى أيضاً هذا المقام بمملكة يلتف حولها المختارون ، أو بستان أو هضبة علوية رفيعة ، ليتأملوا البهجة الأبدية للنور الإلهى ، ولكن أمثال تلك التشبيهات عارضة فى وصفه الذى يتكئ أساساً على الوردة الصوفية المشكلة من الصورة الواقعية للدوائر السماوية الطوباوية .

والبنية الأخيرة الناجمة عن توزيع أرواح الطوباويين على مختلف الدوائر ترتكز على أساس صلب من الوجهة المعنوية يوازى نظامها الهندسى كما سبق أن ذكرنا عند الحديث عن شكل الفردوس ؛ فدرجة ارتفاع المقاعد ووضعها على اليمين أو الشمال داخل كل دائرة يخضع لقانون ثابت ؛ فلا شئ هناك يتم بالصدفة أو اعتباطاً ، بل إن طبيعة الإيمان ودرجة الولاية يحددان مقام كل من الطوباويين .

ويقيم دانتى تفرقة أساسية عمودية تخترق كل الدوائر وتقسمها إلى مجموعة اليمين ومجموعة اليسار حيث يقطن أتباع العهدين الجديد والقديم على التوالى ، وتنقسم كل مجموعة إلى مراتب دقيقة طبقاً لاعتبارات تتصل بالعمر والجنس ودرجة الولاية كما سبق أن شرحنا عند الحديث عن التماثل بين الشكل الهندسى للجنة فى التراث الإسلامى — خاصة عند ابن عربى — ووردة الطوباويين عند دانتى .

بيد أن العنصر الجديد الذى نضيفه الآن ، والذى يعزز هذه العلاقة ويجسدها ، هو تحليل ما ورد فى الآثار الإسلامية عن شجرة خاصة قريبة

---

(١) أنظر : الرسم التوضيحى لوردة الطوباويين فى الجنة ، الفردوس . ص ٥٢٩ .

الشبه بهذه الوردة وتلتقي معها في الوصف وهي شجرة طوبى التي يأتي ذكرهـا في بعض الأحاديث على النحو التالي :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن طوبى شجرة في الجنة ، أصلها داري وأغصانها مظلة على قصور الجنة ، فليس في الجنة قصر ولا دار إلا وعليها غصن من أغصانها ، يحمل كل غصن منها كل ثمرة كانت في الدنيا ، وكل زهر كان في الدنيا ينبت في ذلك الغصن إلا أنه أكثر وأفخر من ثمر الدنيا وزهرهـا .. ولكل مؤمن في الجنة غصن من أغصانها كتب اسمه عليه » (١).

وقد تختلط هذه الشجرة في الآثار الإسلامية بشجرة العرش التي روى فيها عن كعب الأحبار « أن الله تعالى خلق شجرة تحت العرش عليها أوراق بعدد كل مخلوق ، وإذا قضى أجل العبد وبقي له من عمره أربعون يوماً سقطت ورقته على حجر عزرائيل فيعلم بذلك أنه أمر بقبض روح صاحبها » (٢).

ويتصور ابن عربي هذه الشجرة الطوباوية وقد أظلت بأوراقها وأزهارها كل بيوت الجنة ، وجذورها ممتدة إلى سماء المحرك الأول — لأن أصلها داري كما ورد في الحديث السابق وداره ليست أسفل الجنـة بطبيعة الحال — أي إلى سقف الجنة .

وهي لذلك شجرة مقلوبة تمتد أوراقها لكل الجنان السبعة الدائرية ، ومعنى هذا أننا لو أردنا رسم هذه الشجرة طبقاً لدوائر الجنة عند ابن عربي لوجدنا أن كل غصن منها لا بد له أن يملأ واحداً من مقاعد المنازل

(١) أنظر : قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبي الليث السمرقندي . طبع صبيح بالقاهرة . ص ٣٧ .

(٢) أنظر : دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار للقاضي ، طبع الحلبي بالقاهرة ص ٧.

السبعة الهائلة ، وأن أوراقها لا حصر لها وأن هيكلها الذى ينجم عن التوافق مع الدوائر السبع المكونة من صفوف من الأوراق لا بد وأن يكون فى نهاية الأمر مثل هيكل الوردة عندما نتأملها مواجهة .

ويبدو أن شجرة طوبى هذه بوضعها المقلوب لم تكن مجهولة لدى دانتى ولا بعيدة عن تصوره ، فهو يصف النجوم الفلكية والمنازل الفردوسية بطريقة مشابهة لشجرة هائلة مقلوبة يحتل كل واحد من أغصانها سماء فلكية ويستمد غذاءه — لا من تحت مثل الأشجار الأرضية — وإنما من أعلى ، أى من سماء الامبريوم . وعندما يصل دانتى إلى سماء المشترى يشير إلى هـــذا التصور للفردوس الماثل فى خياله كشجرة مقلوبة بقوله :

« وبدأ فى هذه الطبقة الخامسة من الشجرة
والتى تستمد الحياة من ذروتها وتثمر الفاكهة دوماً
ولا تفقد أوراقها أبدا » (١).

كما تتصل شجرة طوبى هذه فى التراث الإسلامى أيضاً بسدرة المنتهى وبشجرة الخلد ، ومن أوصافهما « أن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ، وما فى الجنة نهر إلا ويخرج من أصل هذه الشجرة » وفى رواية أخرى أن الرسول قال « لما رفعت إلى شجرة المنتهى فى السماء السابعة رأيت نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان »(٢) .

وتصب كل هذه الروايات فى قصة المعراج المترجمة التى كانت فى متناول دانتى على شكل وصف مركز لما يسمى هناك بشجرة الفردوس التى تقوم بين سماء العرش والسماء السابعة حيث ينهض جبل قاف ، ويتفرع

---

(١) أنظر : الفردوس ، الترجمة المشار إليها ، نشيد ١٨ ، أبيات ٣١/٢٨

(٢) أنظر : مختصر تذكرة القرطبى للامام الشعرانى ، ص ١٤٠ .

منها سبعة عشر فرعاً تمتد نحو السماوات السفلى حيث تعتمد عليها وينفذ أعلاها إلى السماء الثامنة دون أن يمسها ؛ وبهذا يتبين أن هـــذه الصورة الإسلامية لم تفقد تأثيرها على خيال الشاعر الإيطالى الكبير .

هذا فيما يتصل بشكل الوردة ، أما من ناحية التسمية فهى ليست غريبة على التراث الإسلامى ، فالآية القرآنية الكريمة المتصلة بالحياة الآخرة تقول « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » قد أثارت كثيراً من التأويلات لشرح مدلول هذه الوردة ، وانتقل هذا الشرح إلى المجالات الصوفية الرمزية ، وحفلت به كتب الرقائق فى العصور الوسطى بما لا نظير له فى التراث الكلاسيكى الأوربى قبل انتشار الآثار الإسلامية ، وفى مقابل هذه الوردة الطوباوية برزت فى القصص التالية وردة أخرى حمراء رمز فينوس الجسدية أو الحب الشهوانى المتصل بالجحيم ، ويرى بعض الباحثين أن هذه الوردة الثانية مدينة هى الأخرى لبعض عناصر الأدب العربى مثل قول المعرى فى « سقط الزند » .

فإذا الأرض وهى غبراء صارت من دم الطعن وردة كالدهان(١)

ونعود إلى وردة دانتى لنراها تتراءى فوق نهر النور الذى يقول عنه :

« وفى صورة نهر رأيت نوراً يتلألأ فيه الضياء ، بين ضفتين
مزدانتين بربيع عجيب رائع
ومن ذلك النهر خرجت شرارات ساطعة وانتظمت
بين الأزهار فى كلا الجانبين ، وكأنها اليواقيت فى حلقات
من ذهب ثم ألقت بأنفسها فى تلك الأمواج الرائعة كأن قد
أسكرها الشذا » (٢)

---

(١) أنظر : على هامش الغفران للدكتور لويس عوض . القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧٤ .
ورد الأستاذ محمود شاكر عليه فى (أباطيل وأسمار) ص ٩٩ – ١٠٣ .

(٢) أنظر : الفردوس ، الترجمة المذكورة ، نشيد ٣٠ أبيات ٦١/٦٩ .

ولا نجد مثيلا لنهر النور هذا إلا فى التراث الإسلامى حيث يرد ذكره فى أشكال مختلفة فى قصة المعراج ، نكتفى منها بهذه الرواية :—

« ثم جاوزناهم بإذن الله متصعدين إلى عليين حتى ارتفعنا فوق ذلك فانتهينا إلى بحر من نور يتلألأ لا يرى له طرف ولا منتهى فلما نظرت إليه حار بصرى دونه حتى ظننت أن كل شئ من خلق ربى قد امتلأ نوراً والتهب نارا » (١)

مما يؤكد لنا أن الإطار العام لصورة دانتى الرئيسية فى الفردوس والتفصيلات الدقيقة لكثير من ملامحها التشكيلية لا يمكن فهمها بعمق دون تحليل العناصر المناظرة لها فى التراث الإسلامى الذى أخصب خيال الشاعر الإيطالى العظيم وألهمه أجمل رؤاه وصوره .

---

(١) أنظر : اللآلىء للسيوطى ، الجزء الأول من الطبعة المشار إليها ص ٦٩

نعيم الرؤيه الألهيه

لباب الفردوس .

يتمتع موضوع الرؤية الإلهية بأهمية بالغة فى التراث الإسلامى ، إذ لايكاد يخلو كتاب من ذكر مشاهده بالتفصيل ، ويعتبرها العلماء لباب الفردوس ونعيمه الحقيقى ، إذ ماعداه من سائر نعيم الجنة — على حد تعبير الغزالى — « فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى(١) » . ومن هنا فإن كتب التوحيد والعقائد تتعرض لموضوع الرؤية دائما بالإثبات والرد على المنكرين ، ولا تعنينا المسألة هنا من الوجهة العقائدية لأن لها مباحثها و قضاياها ، وإنما تعنينا من الوجهة التصويرية الفنية التى تقدم مادة صالحة للتأثير الأدبى فى تاريخ الثقافة الإنسانية .

ويمكن تقسيم أهم المصادر الإسلامية التى اعتمدها الباحثون فى هذا الصدد فى مجموعتين : —

الأولى : مجموعة أحاديث المعراج النبوى ومانسج حولها فى كتب الرقائق من روايات مفصلة ، وأهم هذه الكتب كتاب متقدم هو «التوهم» للمحاسبى (المتوفى سنة ٢٤٣هـ) وكتاب متأخر هو «حادى الأرواح » لابن القيم الجوزية (٧٥١هـ) .

الثانية : الكتب الصوفية التى تعرضت لمعراج الأرواح وحالاته و مشاهده ورموزه مثل الفتوحات المكية لابن عربى والمعراج للقشيرى .

فإذا أخذنا فى تأمل وتحليل هذه العناصر الإسلامية لتحديد مجالات التقاء دانتى بها فى مشاهد الذروة فى الفردوس المتصلة بالاستغراق فى رؤية النور الإلهى وجدنا أن كلا من هاتين المجموعتين قد مارس تأثيره الواضح على خيال

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى على هامش كتاب « إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » للزبيدى المرتضى ، الجزء العاشر ص ٥٥٥ .

الشاعر الكبير ، ولنبدأ أولا بتعيين هذه المشاهد من دانتى قبل أن نشير إلى نظائرها ومصادرها الإسلامية . فدانتى يرى بؤرة مشعة للذات الإلهية تحوطها دوائر من الأرواح الملائكية التى تتألق بالنور وهى تدور بلا توقف حول مركزها وتنشد أغانيها ، وكل دائرة تتكون مما لاحصر له من الملائكة : —

« رأيت نقطة يشع منها نور شديد التألق ، حتى لينبغى إغلاق العينين اللتين يسطع عليهما ، بما واتاها من الحدة الفائقة (١) » .

« على البعد ذاته دارت من النار دائرة ، من حولها تلك النقطة بسرعة فائقة ، حتى لتفوق تلك السماء التى تطوق العالم بأقصى سرعة . وأحيطت هذه بدائرة أخرى ، وتلك بثالثة ... ورابعة ... » .

« لم يتوهج حديد يغلى على غير ماتوهجت به هذه الدوائر المشتعلة وصاحبت كل الأنوار دائرتها المحترقة ، وكانت من الكثرة بحيث بلغت ملايين البلايين » .

« إن نورا هناك فى العلياء يكشف لتلك الكائنات عن خالقها وهى التى لاسلام لها إلا فى رؤياه » .

« وإنه ليمتد بنفسه فى صورة دائرية حتى ليصبح محيطها بالنسبة للشمس نطاقا ذا اتساع شاسع (٢) » .

والصنفان الأولان من الملائكة هم السرافيون والكروبيون ، ويحاول دانتى أن يحدق بنظره فى بؤرة النور الخالد ولكن بصره يعشى ، بيد أنه لايلبث أن يظفر بحدة البصر ويستطيع أن ينفذ تدريجيا بنظره حتى ينتهى بتثبيته فى البؤرة ، كما أشرنا من قبل ، ثم يعلن أنه عاجز عن وصف مايرى لأن

---

(١) انظر : الفردوس ؛ الترجمة المذكورة ، نشيد ٢٨ أبيات ١٦ — ١٨

(٢) انظر الفردوس ، الترجمة المذكورة ، أناشيد ٢٨ و ٣٠ وكتاب أسين بالاثيوس ص ٥٦ .

الذهول قد مسح من عقله كل ذكرى . وحتى لوتذكر فإن ما رأى يفوق كل قدرة على الوصف تتمتع بها لغة البشر .

وإذا تركنا جانبا الرموز التى أشار إليها دانتى للعقائد المسيحية وجدنا أن كل مايصفه من الرؤية ينحصر فى هذه الظواهر التى يتذكرها بذهول : تأمل فكرى واضح ينكشف له رويدا رويدا ، سبات وتراخ فى القوى ، ذهول من الروعة ، ثم متعة روحية عارمة وعذبة معا .

« ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ، صارت مشاهدتى أعظم من كلامنا
الذى يعجز أمام هذه الرؤية ، كما تعجز ذاكرتنا أمام عظمة مثلها .
وكذلك الذى يرى فى حلمه شيئاً ، وتبقى من بعد حلمه
أثارة مما أحس به ، ولاتستعيد ذاكرته سائر ما رآه .
هكذا أصبحت إذ كادت تخوننى رؤيتى تماما ، وإن كانت
لاتزال تقطر فى قلبى تلك البهجة التى نبعت منها . .
وأشعر بحديثى عنها أن بهجتى تشتد بها وتذكو . .
هكذا كان عقلى وهو معلق تماما ، يتأمل ثابتا منتبها دون حركة
وظل مشوقا إلى مزيد من التأمل(١) » .

وقد فشلت كل المحاولات الماهرة الصبورة التى بذلها الباحثون فى مصادر دانتى الأوروبية للعثور على سوابق لهذه النماذج والتصورات الفنية ، ولم تجد مايقرب من هذا الجمال الرائع فى التقاليد الدينية المسيحية التى تخلو من أى نظير لهذه الدوائر الهندسية التى يشكلها الملائكة وهم يدورون حول النور الإلهى . بينما تقدم الروايات الإسلامية النموذج الأصيل لهذا التخطيط ، مما يكسب قضية التأثير قوة برها نية حاسمة . فصفوف الأرواح الملائكية التى تحيط بالعرش الإلهى تتألف بدورها مما لايحصى من الملائكة ، ويمثل كل

---

(١) نفس المصدر السابق ، نشيد ٣٣ أبيات ٥٥ – ٦٣ و ٩٣ – ٩٩

صف طبقة أو درجة منهم ، ويعتبر الكروبيون أشدهم قربا لله ، وكلهم يترنمون بأناشيد قدسية يسبحون فيها بحمده ، وتنبعث منهم جداول النور ، على أن عدد هذه الصفوف تسعة أيضاً ، يحيط كل صف بما يليه على شكل دائرى فتمثل جميعها تسعة صفوف دائرية متداخلة ، وكلهم يدورون فى نهاية الأمر فى حركة لا تهدأ حول العرش الذى يتمثل أيضاً فى نور متلألئ لا يوصف بهاؤه (١) .

ويقدم لنا الرسول عليه السلام رؤيته فى مرحلتين إحداهما عند ما كان لا يزال فى صحبة جبريل حيث تعشى بصره فى هذه الآفاق العليا الأنوار الإلهية فى أوجها وهى لا تزال بعيدة منه ، مثلما تعشى دانتى للمرة الأولى وهو لا يزال فى السماء التاسعة بصحبة بياتريش ، والأخرى عندما يتركه الدليل الملائكى ويرتفع به الرفرف النورى فيوفق إلى إغماض عينيه وينتقل النور إلى قلبه ويتأمل مبهوتا نور الذات الإلهية مثل دانتى فى الأنشودة الأخيرة من الفردوس .

على أن تحليل الظواهر النفسية التى تتمثل فى ذهول الرسول ومراحل وطبيعة إفاقته يعطينا نتائج مشابهة لما نجده بعد ذلك عند دانتى ، فهو يشعر أولا أن النور يعشى بصره حتى يخشى من العمى ، ثم يلاحظ فجأة أن نظره قد أخذ يقوى ويحتد وأنه قد أصبح بوسعه أن يثبت بصره فى النور الإلهى ، فقد حظى بنعمة الله عليه لاستمرار رؤيته ، ثم يعلن أنه عاجز عن وصف ما رأى ولا يتذكر إلا أن تأمله قد بعث فيه لونا من الاسترخاء والذهول الذى تعقبه متعة عارمة ، يقول :

« فوجدت عند ذلك حلاوته وطيب ريحه وبرد لذاذته وكرامة رؤيته فاضمحل كل هول كنت لقيت وتجلت عنى روعاتى واطمأن قلبى وامتلأت فرحا وقرت عيناى ووقع الاستبشار والطرب على حتى جعلت

---

(١) انظر لآلىء السيوطى ، الجزء الأول ص ٧٣ ومابعدها .

أميل وأتكفأ يمينا وشمالا ويأخذنى مثل السبات .. وظننت أن من فى الأرض والسماوات ماتوا كلهم لأنى لا أسمع شيئاً من أصوات الملائكة.. ثم رد إلى ذهنى فكأنى كنت مستوسنا وأفقت فثاب إلىّ عقلى(١)

وعندما تتوافق مراحل الرؤية مع تفاصيل الحالة النفسية فإن هذا لا يمكن أن يفسر بمحض الصدفة ، خاصة وأن الوثيقة الأساسية وهى « معراج محمد» المترجمة تقدم خلاصة هذه العناصر كما سنشير فيما بعد

وهناك ملاحظة أخرى طريفة تتصل بالتوافق الغريب بين توقيت المعراج عند دانتى ونظيره فى التراث الإسلامى ؛ فدانتى قد قام برحلته إلى العالم الآخر « فى منتصف طريق حياتنا » كما يقول ؛ أى فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أو من الثانية والثلاثين إلى الثالثة والثلاثين كما يقول شراحه . وهذا يتفق تماماً مع ما ورد فى التراث الإسلامى عن عمر أهل الجنة من أنهم « مرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين سنة » أو كما جاء فى رواية أخرى « على ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة » ويبدأ دانتى رحلته ليلة الجمعة وبعد أن يفرغ من الجحيم والمطهر يبدأ رحلته إلى الفردوس ليلة الجمعة أيضاً ، وتكاد أحاديث الرؤية فى المأثورات الإسلامية تجمع على أنها تم أيضاً يوم الجمعة تكريماً لهذا اليوم الذى فضل به نبى الإسلام وأمته . ولا يوجد فى الفكر المسيحى ميزة خاصة تجعل دانتى يختار ليلة الجمعة للشهود السماوى ؛ بينما نجد التراث الإسلامى يختار هذا اليوم ليربط بينه وبين العيد الأسبوعى الدينى لصلاة الجمعة الجامعة(٢) فيتبعه دانتى هذا التوقيت الدقيق .

---

(١) أنظر : نفس المصدر السابق ص ٧٤-٧٥

(٢) أنظر : مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ١٥٩ .

رؤيه المتصوفة :

فإذا ما انتقلنا إلى المجال الصوفى وجدنا أن الرؤية الإلهية تعد عند متصوفة المسلمين عامة وابن عربى بصفة خاصة لباب حياة الفردوس وجماع ملذاتها الروحية الناجمة عن انبعاث النور من الذات الإلهية . فالله هو مصدر الضوء الباهر الذى ينتشر فى موجات شعاعية تصل إلى العبد فتؤهله لرؤية المصدر القدسى ، ويتجلى هذا الضوء خلال روح العبد وجسمه فيرفع من قدرته الطبيعية ويرهف من حواسه البصرية .

وهنا نرى تشابها واضحاً بين دانتى وابن عربى فى الأفكار والصور الفنية معاً ، فدانتى يقول :

« وبهرتنى قوة الضوء المشع
من الخالق للمخلوقات . .
وكل ما يبدو منه مصنوع من الشعاع المنعكس . .
منتظما فوق النور ومنعكسا عليه
رأيت من جاء إلى العلياء . .
وإذا كانت أدنى هذه المراتب تضم هذا النور العظيم . . »

« وأعتقد أن بصرى كان سيتولاه الزيغ
من حدة ذلك الشعاع الباهر الذى احتملته لو أن عيناى حادتا عنه
أيتها النعمة الفياضة التى اجترأت بفضلها على أن أسدد عينى
إلى النور الأبدى حتى استنفذت هناك كل إبصارى (١) »

فقارن هذا بكلمات ابن عربى فى فتوحاته إذ يقول :

« الله يتجلى لعباده فى النور العام . . إذا هم بنور قد بهرهم فيخرون

---

(١) انظر : الفردوس ، الطبعة المذكورة ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣٠ و ٣٣ .

سجدا فيسرى ذلك النور فى أبصارهم ظاهرا وفى بصائرهم باطنا وفى أجزاء أبدانهم كلها وفى لطائف نفوسهم فيرجع كل شخص منهم عينا كله . . فهذا يعطهم إياه ذلك النور فبه يطيقون المشاهدة والرؤية . . فيتجلى الحق تعالى فينفهق نور يسرى فى ذواتهم وقد أبهتهم جمال الرب(١) » .

ويلاحظ أن « سان برناردو » هو الذى يعلن لدانتى قرب تمتعه بالنور الإلهى ويدعوه إلى إعداد نفسه وتهيئتها لذلك إذ يقول :

« سنتجه بأعيننا إلى الحب الأول حتى تتغلغل بقدر استطاعتك
خلال أنواره حين توجه أنظارك إليه »
« حتى تخلصيه بصلواتك من كل مافى طبيعته الفانية من سحاب
لكى يكشف له عن البهجة السامية(٢) »

ويقول ابن عربى :—

« ثم يأتيهم رسول الله . . فيقول لهم تأهبوا لرؤية ربكم جل جلاله ، فها هو يتجلى لكم . . وبينه وبين خلقه ثلاث حجب . . فلا يستطيعون رؤيته بالنظر إلى تلك الحجب، فيقول الله تعالى لأعظم الحجبة عنده : ارفع الحجب بينى وبين عبادى حتى يرونى ، فترفع الحجب فيتجلى لهم الحق خلف حجاب واحد فى اسمه الجميل اللطيف إلى أبصارهم(٣) »

ويتتبع الباحثون مصادر دانتى فى هذا التصور للنور الإلهى فى الأدب المسيحى فى العصور الوسطى فيجدون أن القـــدر المتاح من ذلك يعود إلى القديس « توما الإكوينى » الذى يشرح فكرة مصدر النور الإلهى وإشعاعه على البشر لإكمال قدراتهم الطبيعية وبصرهم به حتى يرتفعوا إلى مرتبة تؤهلهم للرؤية الإلهية ، ولكن نفس هذا القديس يعود فيعترف بأنه قد استقى

(١) انظر : الفتوحات المكية ، طبعة دار صادر ببيروت — الجزء الأول ص ٤١٨ .
(٢) انظر . الفردوس ، أناشيد ٣٢ / ٣٣ .
(٣) انظر : المصدر السابق ص ٤١٨ .

فكرته تلك من الفلاسفة المسلمين ابتداء من الفارابى وابن سينا إلى ابن ماجه وابن رشد، وأنه قد تقبل على وجه التحديد تصور ابن رشد للروئية الإلهية(١) هذا فى حد ذاته شاهد على أن التراث الإسلامى هو الذى غذى دانتى مباشرة باطلاعه على فلذات منه فى قصص المعراج وبطريق غير مباشر بتأثره بالإكوينى الذى سبق له أن نهل من ينابيعه .

ويتردد عند دانتى فى مشاهد عديدة من الفردوس فكرة فحواها أن النور المكتسب الذى ينعكس إلى الخارج يتفاوت فى بريقه من طوباوى إلى آخر طبقاً لمقاماته فى منازل السماوات ولدرجة نعيمه فى الفردوس ، تقول مثلا :

« وإن تألقه بشعلتها مرتبط ، وشعلته لروئية الله تابعة
وهذه تكون بقدر مالها من النعمة التى تمنح بقدر جدارتها .
سيبلغ شخصنا باكمال وجوده أسمى مراقب الكمال
وبهذا سيعظم ما يسبغه علينا الخير الأسمى من النور حباً وكرامة
ذلك النور الذى يؤهلنا لروئيته(٢) »

وقد اجتهد شراح دانتى لرد هذه الفكرة أيضاً إلى تعاليم القديس «توما الإكوينى» التى تفيد بأنه من أهم خواص الأجسام السماوية النورانية أنها ناجمة عن اكتمال مجد الأرواح باتصالها بالأجساد ، لكن ابن عربى كان قد سبق له أن شرح ذلك على أساس أن « النور الإلهى يسرى فى أبصار الناس ظاهراً وفى بصائرهم باطناً وفى أجزاء أبدانهم كلها حتى ينصبغوا عن آخرهم بنور ذلك التجلى ويظهر كل واحد منهم بنور صورة ما شاهده » كما أنهم « يجدون منازلهم وأهليهم منصبغين بتلك الصورة ، فيرون جميع ملكهم قد اكتسى بهاء وجمالا ونورا من وجههم أفاضوه افاضة ذاتية على ملكهم » .

---

(١) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ، ص ٢٤٨ .
(٢) انظر : الفردوس نشيد ١٤ أبيات ٣٤ ٤٦ .

ويلاحظ أن هـــذه الفكرة الإشراقية ليست مقصورة على الفلاسفة والمتصوفة المتأخرين ، بل هي شائعة في المأثورات الإسلامية منذ عهد متقدم ، ففي كتاب « التوهم » للمحاسبي مثلا نجد أنه بعد أن يصف موكب الرؤية الإلهية الباذخ وعودة العبد منه إلى مقره في الجنة : —

« بادرت إليه أزواجه ، فلما نظرت زوجته الى جمال وجهه قد ضوعف في حسنه وإشراقه ونوره ازدادت له حباً وعشقاً ، وأشرقت قصوره وقبابه وخيامه وأزواجه من نور وجهه وجماله ، وازدادت أزواجه حسناً وجمالا ووجاهة وحشمة(١) » .

وقد انتثرت هذه المشاهد في كل الآثار الإسلامية المتعلقة بالجنة الغاصة بالأنوار ، فهاهو السمرقندي أيضاً يصور بعض هذه المظاهر الإشراقية بقوله :

« يرى المؤمن وجهه في نور وجه صاحبته وفي صدرها وترى وجهها في وجهه وصدره من كثرة الأنوار » وبعد الرؤية تقول المرأة لزوجها :

« ما أشد حسنك اليوم وما أكثر نورك ، فيقول لها اني قد نظرت الى وجه ربي فوقع نوره على وجهي ، وأنت أيضاً والله العظيم لقد عظم نور وجهك وحسنك ، فتقول له ، كيف لايشرق وجهي بالنور وقد وقع عليه نور ربه فتشرق وجوههم بالأنوار ويدوم نعيمهم في دار القرار(٢) » .

وتطرد الآثار لتأكيد تغلغل النور في هذا العالم الآخر كما سبق أن أشرنا ، فالحوريات أيضاً من طبيعة نورانية شفافة إذ تضيء الواحدة منهن ببسمتها السماوات كلها ، فهي أشد اشراقاً من الشمس والقمر ، و« يرى مخ ساقها تحت سبعين حلة » لما في جسمها من خواص بلورية شفافة مثل الكأس الذي يشف عما فيه . ويتفنن المحاسبي في وصف ذلك بقوله : —

« فتوهم . . وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها ، فسطع نور بنانها في الشراب مع نور وجهها ونحرها ونور الجنان ونور وجهك

---

(١) انظر : كتاب التوهم للحارث المحاسبي ص ٦٢ .

(٢) انظر قرة العيون ومفرح القلوب المحزون الأبي الليث السمرقندي . ص ٣٧–٤١

وأنت مقابلها ، فتجتمع كل هذه الأنوار تلمع بصفائها فى كفها وقد مدت بها إليك يدها(١) » .

وكل هذا مستقى من الأحاديث النبوية التى يذهب بعضها فى تصوير هذه الطبيعة النورانية للحوريات إلى حد قوله : « ثم يضع أحدكم يده بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت(٢) » . كما يذهب بعضها الآخر إلى تصوير الرسول عليه السلام بهذه الطبيعة النورانية خلال معراجه إذ «لا يرى لصورته ظل فى شمس ولا قمر ولا سراج» .

فإذا اطلع دانتى - كما هو راجح - على كثير من عناصر هذا التراث ثم تراءت فى صوره أشكال لهذا النور الذى لا يحول حائل دون مسراه فى مثل قوله :

« ولم يحل دون الرؤية أو البهاء توسط هذه الجماعة العظيمة
الطائرة بين الزهرة وبين ما كان فى العلياء
إذ يتغلغل النور الإلهى خلال العالم بما يتفق له من جدارة
بحيث لا يتأتى أن يحول دون مسراه حائل(٣) » .

« وكانت الثانية كأن لحمها وعظامها قد صنعت من الزمرد(٤) » .

أدركنا بيسر مصدره الإسلامى الذى تتواتر فيه صور النور من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فالقرآن يصف أهل الجنة بأنهم « يسعى نورهم بين أيديهم(٥) » لا ظلهم كما هو المألوف فى الحياة الدنيا ، والأحاديث والمأثورات تصور المظاهر المختلفة لهذا النور وكيف أنه جميعاً قبس من النور الإلهى الذى يشرق على الكائنات فيضفى عليها وجودها وبهاءها خاصة فى حالة الرؤية الإلهية .

(١) انظر : المصدر السابق للمحاسبى ص ٤٧ .
(٢) انظر : الترغيب والترهيب للمنذرى ، الجزء الرابع ص ٩٩٠ .
(٣) انظر : الفردوس : ٣١ / ١٩ .
(٤) انظر : المطهر : ١٢٤/٢٩ .
(٥) سورة الحديد آية رقم ١٢ .

اختلاف الدرجات

وبا لرغم من اتفاق مصدر النور خلال الرؤية إلا أن هـــذا لا يمنع من اختلاف الدرجات والمستويات، مما لا يمس صميم الرؤية الإلهية فى جوهرها، بل يتصل بأعراضها المتمثلة فى أشكالها المتنوعة وصورها المتعددة إذ تختلف الأحوال التى يتجلى بها النور الإلهى للعبد من درجة إلى أخرى فى الصفاء والبريق الذى ينعكس عليهم من الضوء ، وهذا مارأينا عبارة ابن عربى عنه بأنه : «واحد من حيث هو تجل وهو كثير من حيث اختلاف الصور» ويقترب من ذلك دانتى إذ يقول :

« وما للبعد أو القرب أن يضيفا شيئاً هناك

إذ ليس للقانون الطبيعى من أثر حيث تجرى بغير وسيط أحكام الله »

أى أن هناك وحدة فى التجلى الإلهى من حيث الرؤية بالرغم من اختلاف الدرجات فى التلقى الذى لا يعود إلى الذات المرئية وإنما إلى طريقة رؤيتها ، ولهذا يعود دانتى فيقول :

« وليس لأنه كان هناك أكثر من مظهر واحد

فحسب فى النور الساطع الذى تأملته .

إذ هو على الحال التى كان عليها من قبل أبداً

ولكن بإبصارى الذى اكتسب فى باطنى بالتأمل قوة

تغير من أمامى مظهر واحد فحسب ، بينما كنت أتبدل أنا نفسى (١) » .

وقد أثار المستشرق الأسبانى الـــكبير – صاحب نظرية التأثير – « أسين بالاثيوس » مشكلة تتصل بالمعيار الذى تنبنى عليه فوارق الدرجات فى الرؤية ، فبينما نرى أن ابن عربى يقيم اختلاف الصور والمراتب على أساس

---

(١) انظر : الفردوس أناشيد ٣٠ / ١٢١ و ٣٣ / ١٠٩ .

درجات المعرفة بالله يبدو أن دانتي يرتكز على معيار آخر هو الحب، فابن عربي يقول « فمن علمه فى كل معتقد فله نور كل معتقد ، ومن علمه فى اعتقاد خاص معين لم يكن له سوى نور ذلك المعتقد » كما يقول « إن الرؤية يوم الزيارة تابعة للاعتقادات فى الدنيا ، فمن اعتقد فى ربه ما أعطاه النظر وما أعطاه الكشف وما أعطاه تقليد رسوله فإنه يرى ربه فى صورة وجه كل اعتقاد ربط عليه(١) .

أما عند دانتي فيبدو أن التلقي يعتمد على محور آخر سوى المعرفة إذ يقول :

« تتجه بمحبتها وعينيها نحو هدف واحد »

« بمثل هذه المحبة ، وبمثل هذه البهجة

عندئذ اتجهنا إلى النور السرمدى(٢) »

فمثل هذه الأبيات قد توحى بأن موقف دانتي وجدانى يعتمد فى الرؤية على الحب ، بينما موقف ابن عربي السابق عقلى يعتمد على النظر . لكن هذا الفرق الظاهرى سرعان مايتلاشى عندما ندرك أن المعرفة عند ابن عربي ليست عقلية محضة ؛ فهى أولا معرفة بالله « فأخذوا منازلهم فيه على قدر علمهم بالله لا على قدر عملهم » والمعرفة بالله اقتباس من نوره وإيمان به ؛ وهو ما يقرب منه دانتي أيضاً فى مثل قوله : —

« حسبما يتجه إليه إيمان الأرواح

إذ ستمتلىء هذه الحديقة على حد سواء بكلا الوجهين من الإيمان » .

وهذا ما يعبر عنه ابن عربي بالعلم والمعرفة « فإن كانت معرفتهم عن كشف إلهى فإن لهؤلاء صفاً على حدة يتميزون به على سائر الخلق » وهو لا يغفل كلمة الحب ، إذ نجده فى نفس هذا المشهد يقول : « فإذا انصرفوا من الزيارة

---

(١) الفتوحات المكية ، طبعة دار صادر ، الجزء الثانى ص ٨٥ .

(٢) انظر الفردوس ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣١ و ٣٢

يتخيل كل صاحب اعتقاد أنه منهم (أى أهل الكشف) لأنه يرى صورة اعتقاده فيها كصورته ، فهو محبوب لجميع الطوائف من يكون بهذه الصفة(١) » فابن عربى مثله فى ذلك مثل جميع المتصوفة المسلمين يرى أن قيمة علم الباطن تنبع من الحب الإلهى الناجم عن معرفة الإنسان بالله . ولعل أبا حامد الغزالى قد حدد بوضوح تام المقياس الإسلامى لذلك فى قوله عند معالجته للرؤية الإلهية فى باب الحب من كتاب الإحياء « فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر عنها الشرع بالإيمان » . أما البهجة والجذل اللذان يتحدث عنهما دانتى فيعبر عنهما الغزالى بقوله « وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشىء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء(٢) » .

فإذا أخذنا فى الاعتبار هذا الموقف الإسلامى فى جملته من موضوع المعرفة وارتباطه بالإيمان من ناحية وبالحب الخالص من ناحية أخرى أدركنا أن دانتى لم يكد يزيد عليه شيئاً فى تصوراته للرؤية فى الفردوس .

---

(١) انظر المصدر السابق لابن عربى ص ٨٥ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين للغزالى على هامش إتحاف السادة المتقين — الجزء العاشر ص ٥٥٤ .

صور الدوائر :

تقدم المأثورات الإسلامية فى جملتها – سواء فى أحاديث المعراج أو فى تصوير رؤية الله فى الجنة – نموذجا متكرراً للحضرة الإلهية حيث يتجلى سبحانه وتعالى مثل شمس مضيئة تخطف أشعتها الأبصار وتحيط به صفوف الملائكة على هيئة دوائر من نور أيضاً . وقد زخرت كتب الرقائق وآداب الصوفية بتنويعات عديدة على هذا النموذج ، لعل أفعمها بالروح التشكيلى ما نراه عند ابن عربى فى فتوحاته عند تصويره لرؤية الله فى الدار الآخرة حيث تأتى ملائكة السماوات صافات ، ملائكة كل سماء على حدة متميزة عن غيرها فيكونون سبعة صفوف محيطة ، أهل كل سماء صف حول العرش الإلهى الذى يشغل مركز الدوائر السبع .

ولكن دانتى عند وصوله إلى قمة معراجه السماوى الروحى يطمح إلى أن يشرح سر عقيدته المسيحية فى التثليث مع وحدة الجوهر المتجلى فى ثلاث مظاهر فلا يجد صورة يستخدمها لأداء هذا الرمز سوى الدوائر الهندسية ، فهناك ثلاث دوائر بنفس الحجم مع اختلاف اللون : إثنتان منها تبدوان كما لو كان كل منهما انعكاسا للاخر مثل قوس قزح والثالثة كاللهب المنبعث منهما : –

« وفى الجوهر العميق الصافى من النور العظيم ، ظهرت لى
ثلاث حلقات مثلثة الألوان وذات محيط واحد

وبدت إحداهما من غيرها منعكسة انعكاس قوس قزح
من نفسه ، وظهرت الثالثة ناراً منبثقة من الأخريين(١) » .

واجتهد الشراح كالعادة – خاصة من علماء اللاهوت المسيحى هذه المرة – فى بيان عبقرية دانتى فى هذه الصورة التى تظل معلقة بالإبهام الشعرى

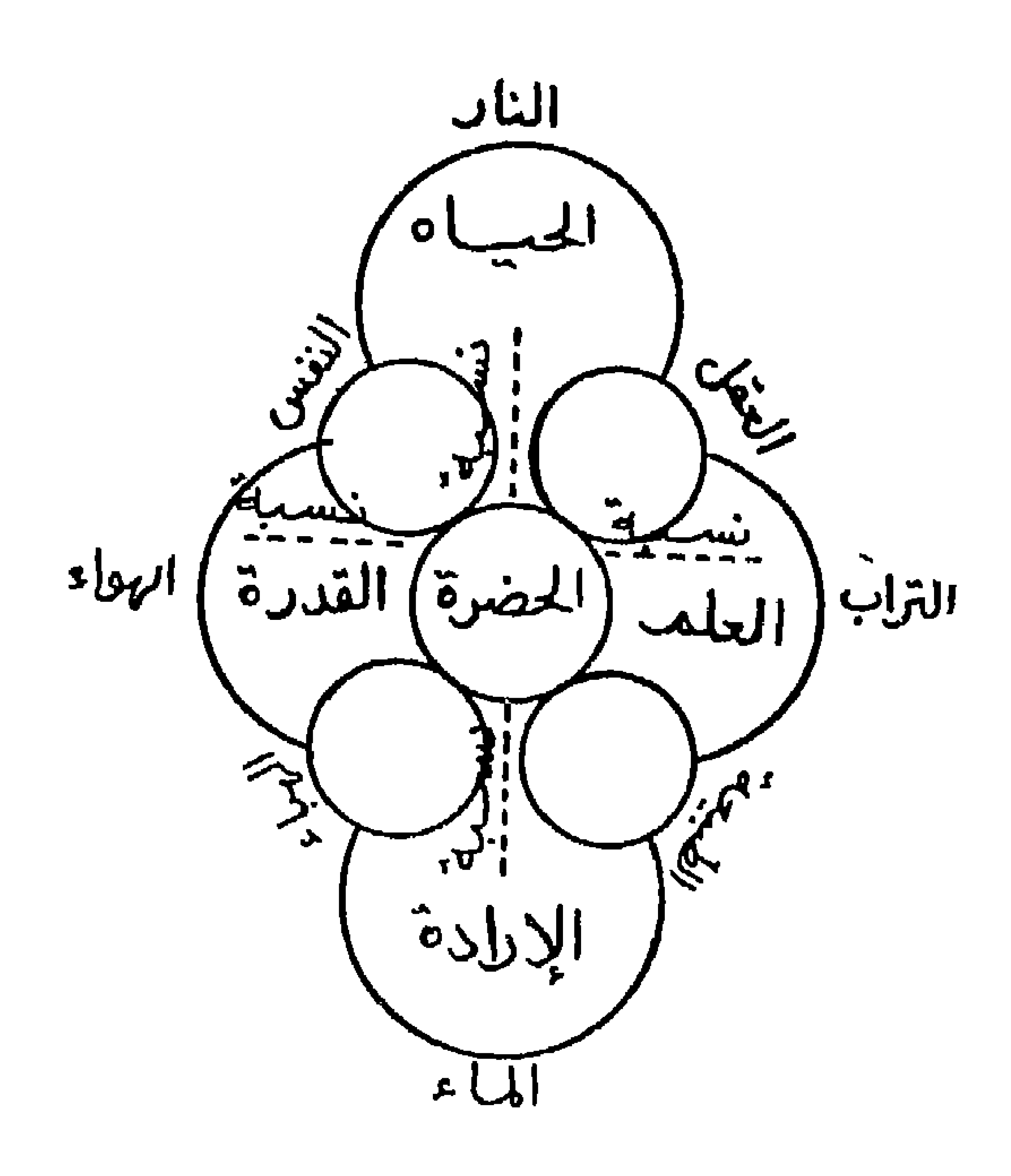
---

(١) انظر : الفردوس ، النشيد ٣٣ أبيات ١١٥ – ١٢١ .

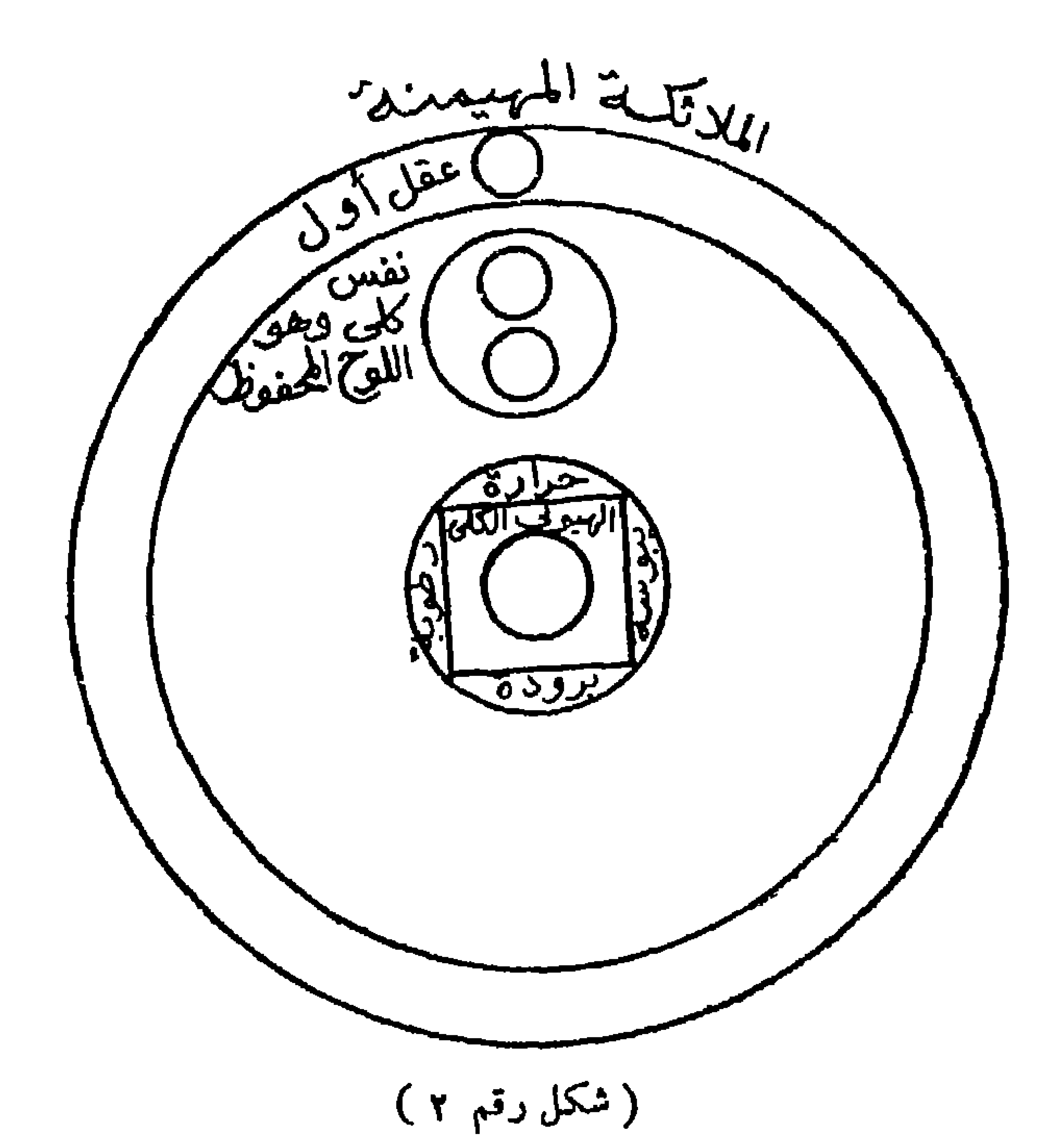
بالرغم من نزعتها التفسيرية . فالرمز الهندسى للدوائر الثلاث يقدم تصورا لله فى واحد متجليا — حسب العقيدة المسيحية — فى الأب والابن والروح القدس ، حيث يعكس الثانى الأول وينبعث لهب الثالث منهما بشكل دائرى أيضا .

وبالرغم من أن هــذا الرمز الهندسى له سوابقه البعيدة فى الفلسفة الأفلوطينية المحدثة التى تتصور الذات الإلهية كمصدر للضوء إلا أن الإشراقيين المسلمين هم الذين عمموا هذا التصور وجعلوه أساساً لأفكارهم الميتافيزيقية الإشراقية .

وكان ابن عربى أشد هؤلاء الفلاسفة احتفالا بصورة الدوائر المركزية والمتداخلة لتصوير الذات الإلهية فى وحدانيتها المجردة وصفاتها المتعددة وخصائصها الاشراقية مثل النماذج التالية : —



(شكل رقم ١)



(شكل رقم ٢)

فهو أحياناً يتمثل فى استغراقه الصوفى المرهف الذات الإلهية متجلية رمزيا فى دائرة من نور أبيض يشع بهاء خالدا فوق نور أحمر مشع أيضاً وتنبعث منهما مجموعتان من الأضواء الخارجية ويتحركان برفق دون أى مساس بالجوهر والصفات(١) .

وأحياناً أخرى يقول « وإن كان لابد من التخيل فالأقرب أن الشأن فى نفسه كالنقطة من المحيط وما بينهما ، فالنقطة الحق ، والفراغ الخارج عن المحيط العدم أو قل الظلمة ــ فالنقطة

الممكن هو الفراغ بين نقطة الحق والمحيط

المحيط العدم

(شكل رقم ٣)

هى مبعث الضوء ــ وإنما أعطينا النقطه لأنها أصل وجود محيط الدائرة . . » فالمحيط كله منبعث بهذه المثابة من النقطة « والخطوط الخارجة الممكنات

(١) انظر : الفتوحات المكية ، الجزء الثانى ص ٥٩١ .

فمن الله ابتداؤها وإلى الله انتهاؤها وإليه يرجع الأمر كله ، فإن الخط إنما ينتهى إلى نقطة ، فأولية الخط وآخريته همـــا من الخط ما هما من الخط كيف شئت ، قلت : وهذا هو الذى ينبغى أن يقال لاهى هو ولاهى غيره كالصفات عند الأشاعرة ، فمن عرف نفسه هكذا عرف ربه »(١).

وأحياناً أخرى يتخذ للتعبير عن أفكاره بطريقة رمزية شكل الدوائر الثلاث ، على أساس أن « الدائرة المحيطة هى العماء ، والنقط التى فى الدائرة مثل أعيان الأرواح المهيمنة ، والنقطة العظمى فى هذه النقط العقل ، والدائرة التى إلى جانب النقطة العظمى التى فى داخلها نقطتان هى النفس الكلية واللوح المحفوظ ، والدائرة التى فى جوف هذه الدائرة العظمى هى جوهر الهيولى وهو الهباء والشكل المربع فيه هو العرش والدائرة التى فى جوف هذا المربع إنما هى الكرسى »(٢)

أما دوائر الشكل الأول فيشرحها ابن عربى بأنها دوائر أجناس الممكنات ، وهى محصورة فى جوهر متحيز وجوهر غير متحيز وأكوان وألوان » . . « ولايتمكن أن يظهر عن الممكن الذى هو دائرة الأجناس دائرة كاملة . . فتكوين دائرة كاملة من الأجناس محال ، ليتبين نقص الممكن عن كمال الواجب الوجود لنفسه » وعلى ذلك فما يقدمه لنا إنما « هو صورة شكل الأجناس والأنواع من غير قصد للحصر »(٣)

ومهما اختلفت صور الدوائر عند ابن عربى فى توزيعاتها وتأويلاتها الدينية والفلسفية عما رأيناه فى فردوس دانتى فإن الاستعانة بها فى توضيح الأفكار الدينية المعقدة يرجع الفضل فيها إلى المفكر الأندلسى الذى لم يكن مجهولا لدى رجال اللاهوت وعلماء الدين المسيحى فى عصر دانتى ممايرجح وصول كثير من هذه العناصر إلى الشاعر الإيطالى الكبير .

---

(١) انظر : نفس المصدر السابق الجزء الثالث ص ٢٧٥ والشكل رقم ٣

(٢) أنظر : نفس المصدر السابق — الجزء الثالث ص ٢٤٠ والشكل رقم ٢

(٣) انظر : نفس المصدر — السفر الرابع من الطبعة المحققة ، ص ١٥٧/١٥٨

تدرج المتعة والرضا القنوع :

تتولد من الرؤية الإلهية لذة تتدرج فى عمقها تبعاً لحالاتها حتى تصل إلى مرحلة السكر والفناء ، هذه الفكرة نراها ماثلة عند دانتى فى مثل قوله :

« إنه نور روحانى مفعم بالمحبة ، بمحبة الخير الحق
المليء بالبهجة ، التى تسمو على كل عذوبة »(١)

وإذا أمكن رد الحديث عن هذه البهجة والمتعة إلى بعض عناصر التراث المسيحى خاصة عند القديس « توما الإكوينى » فإن مرحلتى السكر والفناء لا نظير لها فى هذا التراث ، إذ لا توجد أية إشارة إليهما كحالتين تعقبان الرؤية الإلهية ، فعندما يقول دانتى

« وعجزت ذاكرتى أمام عظمتها
مثل من يرى فى حلمه شيئاً وتبقى من بعد حلمه أثارة
مما أحس به لكنه لا يستعيد سائر ما رآه
هكذا أصبحت إذ كادت تخوننى رؤيتى تماماً
أيها النور الأسمى .. فلتعر عقلى ثانياً شيئاً من الصورة التى بدوت عليها
إن لحظة واحدة تمنحنى النسيان »..(٢)

يمكننا أن نقارنه بقول ابن عربى :

« لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ولما زادهم من الخير فيتلذذون بها فإنهم فى وقت المشاهدة كانوا فى حال فناء عنهم »..« فلم تقع لهم لذة فى زمان رؤيتهم ، بل اللذة عند أول التجلى حكم سلطانها عليهم فأفناهم عنها وعن أنفسهم فهم فى اللذة فى حال فناء لعظيم سلطانها ، وإذا أبصروا تلك الصورة فى منازلهم

(١) انظر : الفردوس ، نشيد ٣٠ أبيات ٤٠ — ٤٣
(٢) انظر : نفس المصدر السابق نشيد ٣٣ أبيات ٥٧ — ٦٠

وأهليهم استمرت لهم اللذة وتنعموا بتلك المشاهدة فيتنعمون فى هذا الموطن بغير ما أفناهم فى الكثيب »(١)

ومن كمال هذه المتعة أن الفوارق الناجمة عن اختلاف الدرجات فيها وفى لذتها ونعيمها لاتعقب لدى أهل الدرجات الدنيا حسداً أو حزناً أو غيظاً ممن ارتفعت درجاتهم وسمت منازلهم ، فكل واحد من أهل الفردوس قانع راض متمتع بما قدر له دون رغبة أو حتى تصور لما هو أكثر ، لأن كل احد منهم يعشق بالضرورة مرتبته ويجد السلام والمتعة فيها ، يقول ابن عربى فى هذا المعنى .

« وكل شخص يعرف مرتبته علما ضروريا يجرى إليها ولا ينزل إلا فيها كما يجرى الطفل إلى الثدى والحديد إلى المغناطيس ، لو رام أن ينزل فى غير مرتبته لما قدر ، ولو رام أن يتعشق بغير منزلته لمـــا استطاع . بل يرى فى منزلته أنه قد بلغ فيها منتهى أمله وقصده ، فهو يتعشق بما هو فيه من النعيم تعشقا طبيعيا ذاتيا لا يقوم بنفسه ما هو أحسن من حاله ، ولولا ذلك لكانت دار ألم وتنغيص ولم تكن جنة ولا دار نعيم »(٢)

وتنبع هذه الفكرة فى التراث الإسلامى من الآية الكريمة « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين »(٣)، ومن ثم فهى دائمة الدوران فى كتب المأثورات وأدب الجنة .

ونفس هذه الفكرة نجدها عند دانتى فى مواضع عديدة من فردوسه ، فهو يشرحها مثلا على لسان « بيكاردا » عندما يسألها الشاعر عن حالة الطوباويين فى الحلقة البطيئة أو الدنيا وشعورهم تجاه حرمانهم من سعادة أهل الدرجات العليا فتقول له . :

« وإن مشاعرنا التى لم تضطرم إلا بما يبهج الروح القدس
لتغتبط بالصورة التى ارتأى أن تكون عليها »

---

(١) انظر : الفتوحات المكية ـ الجزء الثالث ص٥٧٨ وانظر كتاب آسين بالاثيوس ص٢٥٧

(٢) انظر نفس المصدر السابق ص ٥٧٧

(٣) سورة الحجر ، الاية رقم ٤٧

ولكن دانتي يصر على توضيح تساؤله :

« ولكن خبروني أيها الطوباويون ها هنا .. أترغبون

في مكان أكثر علواً ، لكي تصبحوا أقدر على الرؤية

وتنالوا محبة أعظم ؟

فتجيبه الروح : «إن رغائبنا لترضى يا أخي بما في المحبة من الفضل

الذي يجعلنا نشتهي مالدينا فحسب ولايثير ظمأنا لشيء سواه

وإذا ما نحن رغبنا أن نزداد علواً ، فلن تأتلف رغائبنا

مع مشيئة من يجعل مقامنا في هذا المكان

فيعقب دانتي قائلا . عندئذ اتضح لي كيف أن كل مكان في السماء فردوس»(١)

(١) أنظر : الفردوس ، النشيد الثالث أبيات ٦٤ – ٧٥ وكتاب أسين بالاثيوس ص ٢٥٩.

الرؤية في وثيقة المعراج :

جاءت وثيقة معراج محمد لتؤكد أن هذه المأثورات الإسلامية قد عرفت يقيناً طريقها إلى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى قبل دانتى ، وقد عالجت الوثيقة موضوع رؤية الله على دقته الصوفية وحساسيته العقائدية بروح فنى تشكيلى باذخ فى الترف والإغراق فى التفصيلات .

وجاءت أولى لحظات هذه الرؤية فى السماء الثامنة حيث يقع العرش الإلهى ، وأهم ما وصفته الوثيقة فى هذا المشهد هو صفوف الملائكة الكروبيين الملتفين حول العرش ، فهم أولا يسبحون بحمد الله فى أناشيد مهيبة ، ويكونون دوائر هندسية سدلت عليها الحجب من كل الألوان والأضواء ، والعدد الغالب عليهم سبعون ألفاً فى معظم الأحيان ، وقد صيغت الحجب من اللؤلؤ والياقوت والزمرد والأحجار الكريمة ، وانبعث منها ومن الملائكة مهرجان سماوى هائل حافل بالأضواء اللامعة والموسيقى القدسية الجليلة . ويستمر هذا الوصف عدة فصول نرى خلاله نماذج غريبة من أصناف الملائكة وسكان الملأ الأعلى بآلاف الوجوه والألسن التى تنطق بالتسبيح بآلاف اللغات ، وهى دائماً على شكل دوائر متلاحمة متراصة كأنهم جسد واحد لا يريمون حراكاً فى حضرة الله خشوعاً وإجلالا (١).

ثم تأتى لحظة الذروة التى تصف رؤية الرسول للذات الإلهية عندما رفعت له كل الحجب حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ويحفل هذا المشهد بنفس المظاهر التى رأيناها عند دانتى وابن عربى من قبل ، وتتمثل فى غيبوبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحضرة الإلهية ، وما أصاب بصره من الغشاوة حتى انتقلت قوة إبصاره إلى قلبه ، ثم كيف صب فى قلبه العلم الإلهى بالكشف والإلهام ، كما تصف حالة الجذل والنشوة التى

---

(١) أنظر الفصول رقم ١٩، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ من الوثيقة المترجمة والملحقة فى نهاية الدراسة .

أعقبت الذهول والغيبوبة ، وكيف شعر الرسول ببرد قلبه وفرح فؤاده وطرب روحه العارم لتلك اللذة التى اسلمته للسكر من فرط روعتها ، ثم تدور مناجاة رقيقة بين الحبيبين يطلعه فيهــا الله على شئ من كنز أسراره (١).

وقد رأينا كيف أن حقيقة النعيم تتمثل فى الرضا الذى يملأ نفوس الطوباويين سلاما وحبورا ، وهذا ما يصوره مشهد آخر فى الوثيقة — فى الفصل الرابع والأربعين — إذ يأتى الله لزيارة أحبابه من أهل الجنة تحوطه الملائكة ويسألهم : هل وجدتم ماوعدربكم حقاً ؟ قالوا نعم ، فيسألهم مرة أخرى ; ماذا ترون فى نعمائه التى أضفيتها على عبادى ؛ هل أنتم راضون عنها أم لا ؟ فيجيبون :

« لو كنت يا ربنا راضياً عنا فنحن إذن من المفلحين » . هذا الشعور المطمئن بالرضا يغمرهم بعد أن ينالوا الحسنى وزيادة ؛ وما تلك الزيادة إلا نعيم رؤية الله تعالى وتجلى أنواره لهم .

على أن هذه الوثيقة — بكل عناصرها الثرية — لا تمثل إلا الحد الأدنى مما وصل للغرب من أدب المعراج ومأثورات الحشر والنشر والجنة والنعيم، إذ أن المصادر الثقافية الإسلامية المتمثلة فى التراث الدينى والأدب الصوفى والأقاصيص الشعبية كانت تمتزج كلها فى وجدان الأمة الإسلامية وتشع بجاذبيتها وقوة تأثيرها على مختلف المستويات الكتابية والشفاهية ، فإذا عثر الباحثون على وثيقة تؤكد بعض عناصر هذا الإشعاع فينبغى أن لا تقتصر دلالتها على ما ورد فيها فحسب ؛ بل أن تعد نموذجا لوثائق أخرى عديدة صاحبتها ولتيار غير مكتوب من التقاليد الأدبية والثقافية حملها إلى هذا الأفق الجديد ، فالباعث على وجودها يتجاوز دائما كينونتها الخاصة إذ تصبح مجرد نموذج دال يؤكد تحقق الإمكانية فإذا جاءت المقارنة الموضوعية المفصلة لتقيم التقابل الدقيق بين مأثورات هذا التراث ونظائرها

(١) أنظر نفس المصدر السابق فصول ٤٩، ٥٠

فى العمل الأدبى المدروس أصبحت برهانا لا يقل فى قوته عما ورد فى الوثيقة ذاتها .

وإذا كانت هذه الوثيقة قد أتمت دائرة قضية التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية ؛ تلك الدائرة التى وضع نقطتها « أسين بالاثوس » بعبقريته وصدق حدسه ، فإنها بالنسبة لنا فى العالم العربى والإسلامى تدعونا إلى طرح قضية أخرى تتولد عنها وينبغى لنا أن نجد فى البحث عن أسبابها وأنظارنا معلقة بالمستقبل بقدر ما ترمق الماضى ونطرحها فى شكل السؤال التالى :

لماذا أثمر هذا التراث الخصب من المأثورات الدينية والأدبية والصوفية والشعبية واحدة من أهم الملاحم الدينية فى الآداب الأوروبية ، وأثمر شيئا قريبا من ذلك فى الملاحم الفارسية من سنائى إلى إقبال ثم عقم الأدب العربى عن احتضان هذه الخمائر واستثمارها والافادة منها ؟ ثم ؛ ألا سبيل أمامنا للإفادة الرشيدة من هذا التراث العظيم بكل طاقاته الروحية وإمكاناته الشعرية وقدرته الهائلة على تجسيد الوجدان الشعبى فى أعمال فنية فذة ؟

الملاحق

عرض وثيقة معراج محمد

- نماذج من نظائرها في المأثورات

معراج محمد

الفصل الأول(١) :

بينما كان محمد فى بيته بمكة ، على فراشه مع زوجته أم هانئ ، يتأمل فى شريعة الله ، بين النائم واليقظان ، إذ جاءه جبريل على غرة ، بوجه ناصع البياض ، وشعر أشد حمرة من المرجان ، وحواجب مزججة ، وفم جميل ، وأسنان صافية ، وكان يرتدى حللا بيضاء نفيسة مرصعة باللآلئ والأحجار الكريمة ، وقد شد على خصره شريطين من الذهب يتعامدان عند مجمع صدره وخصره ، وكانت يداه حمراوين كاللهب ، وجناحاه وقدماه أشد خضرة من الزمرد .

اقترب منه وقال له « انهض يا محمد ، ضع نطاقك وائت فى إثرى ، فإن الله أراد أن يريك هذه الليلة أسرار قدرته وآياته » فينهض ويضع رداءه ، ويمضى إلى عتبة بيته حيث كان الملك فى انتظاره .

الفصل الثانى :

وعندما يسلم عليه يلاحظ الرسول أن جبريل ممسك بزمام البراق ، وهو دابة أكبر من الحمار وأصغر من البغل ، له وجه إنسان ، وعرفه من اللؤلؤ ، وجبينه من الزمرد ، وذيله من الياقوت ، عيناه أبهى من الشمس ، وأقدامه وحوافره مثل الجمل ، وجسمه كله يشع نوراً وبهاء ، أما سرجه ومقعده فهو من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكان محوطا بزمرة من الملائكة الحفظة ..

ويدعو جبريل الرسول كى يركب البراق ، لكنه عندما يقترب منه ينفر ويأبى ، فيأمره جبريل أن يذعن ويصبح ذلولا له ، إذ أنه أول إنسان يركبه ، فيسأله البراق عمن يكون ، فيجيبه الملك بأنه محمد ، عندئذ يهدأ البراق ويذعن له ، فيمتطيه محمد ، ويبدأ فى السير نحو المسجد الأقصى بالقدس بخطوات تبلغ من اتساعها درجة أنه يضع رجله على أبعد مدى تدركه طرفه .

(١) راجع لكل فصل نظيره فى النماذج الإسلامية فى الملحق الثانى .

الفصل الثالث :

وكان جبريل يمضى إلى جواره ، وهو يبشره بما ينتظره من مكرمات ، وفى الطريق يسمع محمد صوتا يناديه برفق مرة واحدة ، لكنه يمضى فى طريقه لا يلوى على شئ ، ثم لا يلبث مرة أخرى أن يسمعه وهو يناديه صائحا مرتين لكن محمداً لا يلتفت إليه ولا يأبه له . وبعد هنيهة طويلة يرى امرأة ، أجمل من وقع عليها نظره ، وهى ترتدى حللا مبرقشة بكل الألوان ، فتناديه بصوت عذب رخيم ثلاث مرات ترجوه أن ينتظرها ، فيتوقف ، لكنها عندما تقترب منه وتهم بأن تكلمه يصد عنها وينصرف إلى طريقه . ويشرح له جبريل بعد ذلك أن الصوت الأول كان شريعة اليهود ، ولو كان قد رد عليه لأصبحت أمته من اليهود ، وأن الصوت الثانى كان شريعة المسيح ، ولو أجابه لتمسحت أمته ، وأما المرأة الجميلة المزينة بكل الألوان والتى نادته ثلاث مرات فهى الدنيا المليئة بالمتاع ، ولو أجابها لنعم قومه بزينة الحياة الدنيا التى لا تحصى ، أما وقد صد عنها فإنه سيكون أطهر الأنبياء وأخلصهم من الذنوب والآثام .

ثم ما لبث جبريل أن انتهى بى إلى المسجد الأقصى ، وأنزلنى أمامه على الصخرة السوداء ، حيث كان ينزل الأنبياء ، ثم ربط زمام البراق فى الصخرة وأخذنى من يدى ودخل بى المسجد .

الفصل الرابع :

فوجدت بالداخل كل الأنبياء وقد اصطفوا واقفين فى دائرة المسجد ، فقد بعثهم الله من مراقدهم وجاء بهم تشريفاً لى ، وعندما رأونى قادماً تأهبوا للصلاة ، وعندئذ قال لى جبريل : « تقدم أنت لتؤمهم ، فأنت سيد جميع الأنبياء والمرسلين وخير خلق الله أجمعين » فتقدمت

للصلاة بهم ، وعندما أديت الصلاة سلموا جميعاً على معظمين ومعانقين لى بفرح عظيم ، وأخذوا يسألوننى عما أعتزم عمله متمنين لى مزيداً من توفيق الله ونعمته وشرفه .

الفصل الخامس :

قادنى جبريل بعد ذلك إلى خارج المسجد وأرانى سلماً يمتد من السماء الأولى إلى الأرض ، وكان مشهداً رائعاً ، فقد كان يرتكز على الصخرة السوداء ، أما درجاته فقد كانت أولاها من ياقوت ، وثانيتها من زبرجد ، وثالثتها من لؤلؤ ناصع البياض ، وبقيتها كل درجة من حجر نفيس مختلف ، وكانت كلها مغطاة ببساط أخضر ، ومحوطة بالملائكة الحفظة ، وكانت من البهاء والإشراق بحيث تعشى البصر .

وأخذ جبريل بيدى إلى الدرجة الأولى وأهاب بى أن أصعد ، فصعدت وهو برفقتى المرقاة ومعنا كل الحفظة من الملائكة .

الفصل السادس :

وفى عروجى رأيت ملكاً عظيما جالساً على كرسى وبيده لوح كبير يبلغ طوله ما بين المشرق والمغرب ، وعلى يمينه جموع من الملائكة تلمع وجوههم كالقمر ليلة البدر ، تغطيهم أردية أشد اخضرة من الزمرد ، وتفوح منهم رائحة المسك والعنبر ، وعلى يساره جموع أخرى أشد سواداً من الحبر ، عيونهم حمراء كاللهب ، وراثحتهم نتنة كريهة ، أصواتهم كالرعد ، وقد بلغوا من القبح مداه .

أمرنى جبريل أن أسلم على هذا الملك ؛ لأنه من الملائكة المقربين لله ، فسلمت عليه ، فرد على بإيماءة من رأسه فحسب . حدقت فيه النظر فرأيته ينظر مرة إلى اللوح وأخرى إلى العالم وعجبت من طاعته لله . لامه جبريل لأنه لم يرد على السلام مع أنه يعلم أنى محمد نبى الله ورسوله

وأنى قد بعثت ، فما لبث عندئذ أن حيانى وأخبرنى أننى أشرف رسل الله وسيد كل العالمين ، وبعد دعوة قصيرة قال إن أمتى ستكون أطول الأمم بقاء على الأرض ، لما خصها الله به من فضل وحب .

الفصل السابع :

وقال لى جبريل إن هذا ملك الموت ، فسألته حينئذ كيف ينزع أرواح الناس من أجسامهم عندما يحين أجلهم ، فأخبرنى أن الله منذ خلق آدم عليه السلام وقد كلفه بهذه المهمة إلى يوم القيامة ، وأنه لن يبقى عليها من أحد إلا الله وهو ، ثم يقبض الله روحه ويظل حياً إلى الأبد ، ثم أخبرنى أيضاً أن قبض أرواح الخلق فى نفس الوقت ليس فيه مشقة عليه عندما يموتون ؛ أحدهم فى المشرق والآخر فى المغرب ، لأن العالم كله ليس إلا مثل الحبة فى قبضة يده ، وعندما يموت خلق كثير فى المعارك الكبرى فإننى أقبض أرواحهم دفعة واحدة ، مناديا الأرواح بصوت عظيم فتأتى إلى يدى ، فإذا جاءت إلى حضرتى عرفت من وجب لها أن تذهب إلى الجنة ومن حق عليها أن تمضى إلى الجحيم ، فعندى فى هذا اللوح المحفوظ أسماء كل من خلق على وجه الأرض وما قدر لهم بعد الموت من خير أو شر .

الفصل الثامن :

ثم قال لى : أعلم أنه عندما يحين أجل من مصيره الجنة أرسل إليه ملكاً من على يمينى جميلا زكى الرائحة حتى يقبض روحه بكلمات طيبة وعزاء جميل ويحضرها إلى برفق ، فآخذها بدورى وأسلمها لأجلهم الذى يرفعها إلى الله عبر السماوات ، فيأمر الله ملكا من ملائكة النور أن يأخذها ويضعها فى حلق طائر أخضر يحملها إلى الجنة . أما عندما يموت أحد الأشرار فإنى أرسل له ملائكة من على يسارى قبحاً مرعبين ، ينزعون روحه بغلظة وكلمات قاسية مخيفة . ويحضرونها إلى ، فأعطيها لأشد الملائكة

فظاظة وبشاعة يحملها إلى السماء ، لكن عندما يصل إلى أبوابها تغلق من دونه ويرفض حسبما جاء فى القرآن الكريم .

الفصل التاسع :

مضينا إلى الأمام ، وفى الطريق رأينا ملكاً هائلا بلغ من ضخامته أن قرعت رأسه السماء وتدلت رجلاه فى الفضاء ، شعره طويل مسدل على أكتافه ، وكان جناحاه من كل الألوان الجميلة التى لم تقع عليها أبداً عين إنسان . وكانت خلقته على هيئة ديك ، وقد علمه الله أوقات الصلاة ، فعندما يحين أوانها ينبعث صوت من السماء يأمر الخلائق أن تسبح بحمد الله وحينئذ يهتف هذا الملك بصوت مرتفع : « تبارك الله القدوس ، مالك جميع النفوس » فتجيبه ديكة الأرض وتصيح كلها داعية الناس لحمد الله وتسبيحه .

ومضينا إلى الأمام ، فرأيت ملكاً آخر نصفه من نار ونصفه من ثلج ، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار ، وقد أخذ يضرع إلى الله ويدعوه أن يؤلف بين قلوب عباده مثلما جمع فيه بين النار والثلج . ورأيت أيضاً ملكاً آخر ، لا يبلغ الوصف مدى عظم خلقه ، فأردت أن أسلم عليه ، لكنه لم يرد علىّ لأنه كان مشغولا بالصلاة والتسبيح بحمد الله ، حتى أخبره جبريل بأننى محمد وأننى قد بعثت ، عندئذ التفت إلىّ وحيانى هو وبقية الملائكة .

الفصل العاشر :

ومضينا قدماً فرأينا ملكا آخر هائلا يجلس على كرسى ، وبيده عمود عظيم لو ضرب به السماء والأرض لفلقهما ، فلما رأى جبريل هذا العمود أخذ يبكى قائلا لى إن هذا الملك هو خازن النار ، فاقتربت منه لأسلم عليه ، لكنه لم يرد علىّ السلام حتى أخبره جبريل

عمن أكون فحياتى وقال لى إن كل من يذهب من أمتى إلى النار سيلاقى أخف العذاب .

الفصل الحادى عشر :

على وجه هذا الملك كانت تبدو أمارات الحزن الشديد ، وقال لى إن سبب حزنه وأسفه هم هؤلاء العصاة ، فسألته عن كيفية خلق الجحيم ومن فيها من ملائكة وكيف يعيشون ، فأجابنى بأنه عندما خلق الله الجحيم أوقد فيه النار سبعين ألف سنة حتى صار كله أحمر ، ثم أوقد فوقه ناراً أخرى لمثل تلك المدة حتى صار أبيض ، وبعد ذلك أوقد فيه ناراً أخرى لمدة سبعين ألف سنة حتى صار كله أشد سواداً من الليلة الحالكة . هذه النار تصطلى دائما من نفسها بشدة دون أن ينبعث منها أبداً لهب . أما ملائكة الجحيم فقد خلقوا من النار وهم يتغذون بها ، ولو خرجوا منها لحظة لماتوا مثل السمك إذ يخرج من الماء ، كما خلقوا صما بكماً كى لا يسمعوا أنين من يسومونهم سوء العذاب ، وجعلت فى قلوبهم قسوة وغلظة بحيث لا ترق ولا تتحرك بالرحمة للمذنبين وهم يضربونهم بهراوات حديدية غليظة .

ونترك هذا الملك مفعمين بالرعب ونستمر فى طريقنا حتى نطرق السماء الأولى التى تسمى بسماء القمر .

الفصل الثانى عشر :

كانت السماء الأولى من حديد ، عرضها بمقدار مسيرة خمسمائة عام ، وبينها وبين السماء الثانية نفس القدر ، ونادى جبريل على الباب ففتح لنا ملك يبلغ طوله وعرضه ألف عام من مسيرة البشر . ورأينا أبواب السماء ، بالغة الجمال ، وكثيراً من الملائكة الذين يحرسونها وهم يتقلبون فى أعطاف زينة والبهاء ، وأراد جبريل أن يلج أحد هذه الابواب ، فسأله ملك عما يريد ومن معه ، فأجابه بأنه محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ،

وأنه يريد الدخول ، عندئذ فتحت لنا فجأة كل الأبواب ، ومن الداخل سلم علينا جميع الملائكة وهم يشيرون لنا لنرى العجائب العظيمة . كان لكل منهم وجه إنسان وجسم بقر وجناح عقاب ، وكان عددهم سبعين ألفاً ، لكل منهم سبعون ألف رأس ، لكل رأس سبعون ألف قرن ، لكل قرن سبعون ألف جزء ، بين كل جزء وآخر مسافة أربعين سنة ، في كل رأس سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان ، كل لسان يعرف الكلام بسبعين ألف لغة ، ويسبح بحمد الله كل يوم سبعين ألف مرة .

وبينما كنا نتعجب من هذه الآيات البديعة رأينا وسط الملائكة رجلين بالغي الجمال جالسين على مقاعد من نور ، شعرهما ولحيتهما أبيض من الثلج ، وقد ارتديا حللا ناصعة البياض تكاد تعشي من ضوئها الأبصار ، وتحيط برأسيهما هالات من النور والبهاء ، وقال لي جبريل إن أحدهما هو يحيي بن زكريا والثاني هو عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، فاقتربت منهما وسلمت عليهما ، فلما عرفا أنني محمد ردا لي التحية والسلام .

الفصل الثالث عشر :

ومضينا إلى أعلى حتى وصلنا السماء الثانية وكانت كلها من البرونز ، وعرضها ومسافة ما بينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة سنة ، وفتح لنا الباب ملك هائل بلغت رأسه السماء السابعة وهوت قدماه إلى أعماق الأرض ، وقد أخذ هذا بيدي وأدخلني هذه السماء ؛ وهناك رأينا ملائكة أحجامها أضخم سبعين ألف مرة من ملائكة السماء الأولى ، فسلموا عليّ بعد أن عرفوا من أنا ، وبينما كانوا يحدثونني عن عجائب الله وآياته رأيت بينهم شاباً عظيم الجمال فائق الحسن والبهاء ، يجلس على كرسي من نور ، ويشع الضوء من شعره وملابسه ، فأخبرني جبريل أنه يوسف

ابن يعقوب ، فسلمت عليه ورد على بترحاب وابتهاج كبير ، ثم واصلنا الرحلة حتى السماء الثالثة .

الفصل الرابع عشر :

كانت كلها من الفضة الخالصة ، سمكها ومسافة ما بينها وبين السماء الرابعة مسيرة خمسمائة عام ، وعندما نادى جبريل فتح لنا الباب ملك هائل مكين يستطيع أن يضع فى كف يده كل العالم وما فيه دون أن يؤثر ذلك عليه أدنى تأثير . ورأينا فى الداخل ملائكة عجباً ؛ وجوههم مثل البقر وأيديهم مثل القمر ، لا يكفون عن حمد الله وتسبيحه بورع شديد. فسلمت عليهم وردوا لى التحية وبشرونى بالطيبات الصالحات ، ورأيتهم منتظمين فى مراتب ودرجات وقد احتشدوا فى مواكب صافات متلاصقات لا يمكن لأحد أن يدخل بينهم شعرة واحدة ، وكانت رؤوسهم منكسة إلى الأرض من خشية الله ، وكانوا مستغرقين فى التسبيح والطاعة حتى لو أن أحدهم ذهب من المشرق إلى المغرب لما تحرك الآخرون حتى عودته ولما اضطربت درجته أدنى اضطراب . وكانت جميع صفوفهم المتراصة تسير فى حركة دائرية وهى تسبح بحمد الله وتقدس اسمه .

ورأينا بينهم رجلين جالسين على مقعدين من نور ومتلفعين على رؤوسهما بردائين ناصعى البياض ، فتأملتهما برهة طويلة ، وقال لى جبريل إنهما إلياس وإدريس وقد أنزلهما الله مكاناً علياً ، حيث لا شغل لهما سوى تسبيح الله وحمده مع الملائكة الصافات دون أن يكفوا عن ذلك غمضة عين . فدنوت منهما وحدثهما عنى جبريل فسلما علىّ ، ثم تابعنا طريقنا حتى وصلنا إلى السماء الرابعة .

الفصل الخامس عشر :

كانت كلها من الذهب الخالص ، ومسافة ما بينها وبين السماء الخامسة

مثل سمكها مسيرة خمسمائة عام ، وفتح لنا الباب ملك بلغ من ضخامته أن كل المياه العذبة كانت على إبهام يده اليمنى وكل المياه المالحة كانت على إبهام يده اليسرى . وكان كله من الضوء ، ووجدنا بالداخل سبعين ألف ملك لهم وجوه النسور ، لكل واحـــد سبعون ألف جناح ، بكل جناح سبعون ألف ريشة ، طول كل ريشة سبعون ذراعاً .

وبينما كنت أتأمل هؤلاء الملائكة رأيت بينهم رجلا عظيم الحسن والوسامة ، يجلس على مقعد من نور ، ثيابه تتلألأ ، وعلى رأسه تاج يعشى بريقه الأبصار ، وأخبرنى جبريل أنه هارون ، وبعد أن سلم علينا واصلت مع جبريل طريقنا حتى بلغنا السماء الخامسة .

الفصل السادس عشر :

وكانت كلها لؤلؤة واحدة أبيض من الثلج ، لها نفس السمك ، وتفصل بينها وبين السماء السادسة نفس المسافة التى كانت لسابقتها ، وفتح لنا الباب فى الحال ملك كله من نار ، له سبعون ألف ذراع ، لكل ذراع سبعون ألف يد ، لكل يد سبعون ألف إصبع ، وكل إصبع يسبح بحمد الله سبعين ألف مرة فى اليوم . وفى الداخل وجدنا ملائكة ذات أجسام كريمة نبيلة ، لكن رؤوسهم مثل النسور ، وأجنحتهم تتألق من خالص النور ، لا يكفون عن تسبيح الله وحمده ، وبعد أن تبادلنا معهم التحية رأيت بينهم رجلا عظيم الجمال ، يجلس على كرسى من نور ، وقد لف حول رأسه غطاء من نور ، وفى يده عصا من نور ، فأخبرنى جبريل أنه موسى ، وعند ما عرف أننى محمد حيانى بمودة وترحاب ، وقال لى إن الله يريد أن يفرض على أمتى صلاة وصياماً كثيرين ويجب على أن أضرع إليه أن يخفف عنهم لأنهم لن يحتملوهما ، وقد لاقى هو عناء كثيراً مع بنى إسرائيل لنفس السبب ؛ إذ لم يكن الله قد خفف عنهم التكليف . فلو فعلت ذلك تبعتنى أمتى وآمنت بى ، وإن لم أفعل كرهتنى أمتى وكذبتنى . ثم افترقنا بعد إذنه ومضينا إلى السماء السادسة .

الفصل السابع عشر :

وكانت من الزمرد الشديد الخضرة ، سمكها ومسافة ما بينها وبين السماء السابعة مسيرة خمسمائة سنة ، واقترب من الباب فيها ملك أكبر من كل السابقين بمقدار سبعين ألف مرة ، من الضخامة بحيث يستطيع أن يبتلع السماء والأرض دون أن يتأثر . وفى الداخل رأينا ملائكة أعظم ممن رأيناهم من قبل سبعين ألف مرة ، وجوههم كالخيل، وكلهم مسلحون، لكل واحد منهم سبعون ألف جواد ، لكل جواد سبعون ألف سرج كلها من الزمرد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة ، وهناك أيضاً كان جواد جبريل ،وكانوا جميعاً منظمين على مراتب بأسلحة شديدة البريق واللمعان، وقال لى جبريل إنهم جند الله ، وأن عندهم هذه الخيل المسرجة بأمر الله كى يلهبوا عليها فى عون عباده عندما يحتاجون ، وأضاف قائلا إننى سأنزل بهم لأساعدك إذا احتجت ، هذه الخيل لا تأكل ولا تشرب ، وتسبح بحمد الله فحسب .

ورأيت بينهم رجلا يجلس على كرسى من نور تغطيه ثياب أشد إشراقاً من الشمس فى وسط الظهيرة وعلى رأسه تاج من نور ، تحيط به الملائكة ، وتسبح معه بحمد الله ، وقال لى جبريل إنه ابراهيم ، وعندما عرف أننى محمد قال لى إن الله حبانى بكثير من نعمته وحبه وفضله علىّ وعلى أمتى ، وطلب منى أن أوصى أمتى بتكرار هذه الكلمات فى الجنة « الحمد لله ، ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله » وكلما رددوها زاد نعيمهم فى الجنة . تلك الجنة التى أقيمت حولها الأسوار من الذهب الخالص ، ونصبت فيها الشرفات من فضة ، وملاطها المسك ، تلك الجنة التى وعد بها المتقون من أمتى وأعدت لمن آمنوا بى وبشريعتى ، وبعد ذلك انصرفنا ومضينا إلى السماء السابعة .

الفصل الثامن عشر :

كانت من ياقوت ، سمكها و مسافة ما بينها و بين السماء الثامنة خمسمائة عام ، ونادى جبريل البواب ، فدنا فى الحال ملك لا يمكن لأحد إلا الله أن يبلغ صفته ، ولما صرنا فى الداخل وجدنا ملائكة من الضخامة و الروعة بحيث لا يوصفون ، ولا أجرؤ على ذلك لأن الله حرمه علىّ . وكانت أنظارهم ثابتة عليه هو ، لا عمل لهم سوى التسبيح بحمده ، وعندما رأونى رفعوا أصواتهم وكان تسبيحهم من القوة و العظمة بحيث بدا لى أن كل الملائكة السابقين كانوا بالمقارنة بهم شبه نائمين ، وكانت تراتيلهم تسمع عبر السماوات والأرض ، فأخذت أنا وجبريل نبكى من خشية الله .

ثم نهض واحد من بين هؤلاء الملائكة — وهو مؤذن السماء — وأخذ ينادى للصلاة ويقول : الله أكبر ، ثم : لا إله إلا الله ، وبعدها : أشهد أن محمدا رسول الله ، ثم أضاف ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح. فطلب منى جبريل حينئذ أن أقيم للصلاة فسجدت لله ركعتين قصيرتين ، فإذا بكل الملائكة الذين رأيتهم فى السماء السبع يخرون على وجوههم ساجدين فى الصلاة معى وقائمين بعدى وهم يدعون الله أن يسبغ علىّ من فضله ونعمته أكثر مما أعد لى . ورأيت من بينهم رجلا جالساً على مقعد من نور ، ثيابه نور ، وعلى رأسه تاج من بهاء ووجهه يشع الضياء . وقال لى جبريل إنه أبونا آدم . وعندما أخبره جبريل أننى محمد رحب بى أحسن ترحيب وحب وتشريف ، وقال لى : إن الله يريد أن يشرفنى فوق كل الناس ، وأردف قائلا : اعلم أن الجنة مغلقة لا يدخلها نبى ولا إنسان آخر حتّى تدخلها أنت وأمتك ، ثم اقترب منى حينئذ وعانقنى وهو يضع يده على رأسى ، ودعا لى الله بإخلاص وتواضع عظيمين . ولما انتهينا من الصلاة انصرفنا بعد إذنه وبلغنا السماء الثامنة .

الفصل التاسع عشر :

وكانت كلها من زبرجدة واحدة آية أمام عيون الفانين ، وسمكها مسيرة خمسمائة عام ، ونادى جبريل على الباب فدنا منا ملك أعظم من الشمس بهاء سبعين ألف مرة ، له سبعون ألف رأس ، لكل رأس سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف عين ، لكل عين سبعون ألف حدقة ، كل حدقة ترتجف سبعين ألف مرة فى اليوم من خشية الله ، فتح لنا الباب ، وفى الداخل سرنا كثيراً فى هذه السماء حتى وصلنا إلى حجاب من الستائر قد وضع بين الله والملائكة ، كما كانت هناك أيضاً بعض الدوائر التى تفصل وتحجب ، وحول هذه الدوائر عدد هائل من الملائكة المقربين لا يعلم عددهم إلا الله ، لكننى أستطيع أن أقول إنهم كانوا أكثر من كل الملائكة السابقين سبعين ألف مرة ، يسبحون بحمد الله دون انقطاع ، وعندما اقتربنا منهم ارتفعت أصواتهم بالتسبيح ، ثم دخلنا فى الدوائر والحجب ، فرأينا أن حجب القسم الأول كانت سبعين ستارة كلها من السمط الأحمر الفاقع ، وبعد ذلك سبعون ستارة من المخمل الأخضر اللامع ، ثم سبعون أخرى ، وهكذا تتوالى الحجب والأستار سبعون فسبعون من كل الألوان ، وكلها زاهية لامعة . وبعد أن انتهت هذه الحجب وجدنا سبعين قسما آخر كلها من اللؤلؤ الناصع البياض ، وآخر مثله من الياقوت وآخر من الزبرجد وهكذا سبعين سبعين كلها من الأحجار النفيسة على جميع الأشكال المتصورة ، ثم وجدنا بعد ذلك سبعين قسماً آخر كلها من الماء ، ومثلها من الثلج والبرد والسحب والضباب والنار والنور من مجد الله وبكل الألوان المتخيلة ، وبين كل هذه الأقسام جموع لا تحصى من الملائكة ، تروح وتغدو بلا توقف وهى تسبح بحمد الله . وبينما كنت أتأمل هذه الآيات مضى جبريل وتركنى وحيداً .

الفصل العشرون .

لما رأيتني وحيداً نشطت وتحمست فى حب الله ، وسرت أخترق هذه الأقسام حتى وصلت إلى العتبات القدسية ، فلما دنوت منها سمعت صوتاً ينادينى « اقترب منى ياحبيبى يا محمد » فتقدمت إلى الأمام ، وتكرر فى مسمعى الصوت مرة أخرى فزدت تقدماً ، ثم تكرر الصوت مرة ثالثة وأضاف : « اعلم يا محمد أنك عندى أشرف الناس وأسمى المخلوقات من الإنس والجن والملائكة » عندئذ اقتربت أكثر ودنوت حتى لم يبق بينى وبين الله إلا قاب قوسين أو أدنى ، وبعد أن سلم علىّ وسألنى عن أمتى فرض علينا الصيام ستين يوماً فى السنة والصلاة خمسين مرة فى اليوم ، ثم عدت بعد ذلك حتى قابلت جبريل ثانية ، وفى الطريق رأيت كرسى العرش وقد اتصل بالسماء حتى بدا لى أنه خلق معها ، كان كله من نار ، وبه العناصر الأربعة ، النار والهواء والماء والتراب والعالمين والجنة والجحيم ؛ كلها خلقها الله فى نفس الوقت مع كرسيه الذى وسع كل شيء وأشع أعظم الضياء ، ومعها خلق الله اللوح المحفوظ ، طوله مسيرة ألف عام ، وكله من اللؤلؤ الأبيض وحوافه من الياقوت ووسطه من الزبرجد ، وكل ما خط عليه من كتابة فهو مسجل بالنور الخالص ، ينظر الله إلى هذا اللوح مائة مرة كل يوم ، وفى كل مرة يمحو الله ما يشاء ويثبت، يحيى ويميت ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وقد خلق الله مع اللوح قلما من نور ، طويل عريض ، يبلغ مسيرة خمسمائة سنة ؛ وأمره أن يكتب كل علمه وخلقه الذى كان منذ بدء العالم إلى منتهاه ، فامتثل لأمره ، وسجل بخطه الناعم الرقيق السريع كل شيء .

الفصل الواحد والعشرون .

الملائكة الذين يحملون عرش الله خلقوا مع العرش ، وتبلغ مسافة ما بين رءوسهم وأكتافهم حجم العرش الذى لايبلغ الوصف مداه ،

ولكل واحد أربعة وجوه ، وجه من الأمام والآخر من الخلف والثالث والرابع على اليمين والشمال ، ولهم أيضاً أربعة أشكال ، شكل إنسان وعقاب وأسد وثور ، وكل أجسامهم مغطاة بعيون ، ولكل واحد ستة أجنحة ، اثنان للطيران ، واثنان لتسبيح الله يخفقهما ، والآخران من لهب لتغطية وجوههم ، لايكفون عن حمد الله والثناء عليه وهم يرتلون « سبحان الله وسع كرسيه السماوات والأرض » وللكرسي أربعة قوائم ، كل قائم أطول سبعين ألف مرة من مسافة ما بين السماء والأرض ، وأما داخله فإن السماء والأرض والعالم كله تبدو كأنها حبة خردل فى كف اليد بالنسبة له، ولا يعرف الملائكة أنفسهم على أى بعد هم من الله ، ويفصل بين هؤلاء والملائكة الآخرين الذين يحملون السماء ثلاثة أقسام أو بيوت ، فى الأول سبعون ستارة كلها من السحاب ، وفى الثانى سبعون أخرى كلها من البرد ، وفى الثالث سبعون أخرى كلها من النور الخالص ، كل حجاب عرضه ومسافة ما بينه وبين الآخر مسيرة خمسمائة سنة ، ولو لم يخلق الله هذه الأقسام والحجب لاحترقت بنوره العظيم جميع الملائكة الموجودين بالداخل ، أما حملة العرش الأربعة فسوف يبدلهم الله يوم القيامة حيث ينصرفون للدعاء ، فالملاك الذى خلق على هيئة الإنسان يدعو الله من أجل الناس ، والذى على هيئة عقاب يدعو للطيور ؛ والذى على هيئة الأسد يدعو من أجل الحيوانات المتوحشة ، والذى على هيئة الثور يدعو الله من أجل الحيوانات المستأنسة .

الفصل الثانى والعشرون :

وفى نفس مكان الكرسى رأيت سبعين ألف فئة من الملائكة كلهم على مراتب ، يمضون فى حركة دائرية دائبة حول السماء وهم متقابلون يسبحون بحمد الله ويملأون السماء بأصواتهم ، ورأيت سبعين ألف فئة أخرى كلهم قائمون وقد عقدوا أيديهم خلف أعناقهم يرددون صدى

تراتيل السابقين مسبحين بحمد الله كذلك . ثم رأيت بعد هذا مائة ألف صف من الملائكة قائمين وقد عقدوا أيديهم على صدورهم مغطون بالشعر والريش ، وشعرهم وريشهم يسبح بحمد الله بطرق مختلفة ، ولكل منهم أجنحة ما بين الجناح والآخر مسيرة ثلاثمائة سنة ، ونفس المسافة ما بين الأذن والكتف ، وما بين المنكبين مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كعب القدم إلى الركبة مسيرة مائتى سنة ، والركبة نفسها مائة سنة ، ومن الركبة إلى العجز ثلاثمائة سنة ، وبين كل ضلع وآخر مسيرة مائتى سنة ، ومن الكف إلى المرفق ثلاثمائة سنة ، ومن المرفق إلى الكتف ثلاثمائة سنة كذلك ، وراحة أيديهم يمكن أن تتسع لكل جبال الأرض وسهولها دون أدنى مشقة . ثم رأيت عجائب أخرى ، فحملة العرش من الملائكة يبلغ طول كل واحد منهم مائتين وسبعة عشر ألف عام من مسيرة البشر ، وعرض أقدامهم سبعة آلاف سنة ، ولكل واحد منهم عدد لا يحصى من الوجوه والعيون ، وعندما يحملون السماء يقولون راكعين « لا إله إلا الله جلت قدرته على ما سواه » أما وهم قائمون فإن أقدامهم تنفذ من أقطار السماوات والأرض حتى تصل إلى الريح الذى يقع أسفل منها بخمسمائة عام ، وفى تسبيحهم لا يكفون عن تكرار ما سبق والدعوة بصفة خاصة لعباد الله من المؤمنين والمؤمنات .

الفصل الثالث والعشرون :

وبعد أن انتهينا من رؤية ذلك هبطنا إلى السماء السابعة حيث يوجد الملائكة المقربون من الكروبيين ، ورأيت أنهم لا يحصون عدداً ، وكانوا يسبحون بحمد الله بأصوات بلغ من ارتفاعها أن أهل الدنيا لو سمعوا صوتا واحداً منها فحسب لماتوا من الخوف ، وكلهم مختلفون فيما بينهم فى اللغة والصورة والأعضاء وحتى فى دعواتهم . وبلغوا من الاستغراق فى طاعة الله أنهم بعد أن خلقوا لم يلتفت أحد منهم برأسه أبداً إلى جاره

بل إن رؤوسهم منكسة دائماً إلى أسفل . ورأيت سبعين ألف صنف من الملائكة بلغت ضخامتهم إلى درجة تجاوزت فيها رؤوسهم السماء السابعة وأقدامهم مغروزة إلى أسفل فى الفضاء ، بين هؤلاء السبعين ألف كان هناك تسعة كل واحد منهم أكبر من الآخرين تسعين مرة . ولم يكن بين رؤوس هؤلاء الملائكة ومناكبهم أدنى مسافة ، وهم يشبه بعضهم بعضا إلى درجة أنه ليس ثمة أى فارق يميزهم ، على أن المسافة بين كل صف وآخر تبلغ مسيرة خمسمائة عام .

الفصل الرابع والعشرون :

هذه الصفوف التسعة من الملائكة كانوا يلتفون حول بعض فى حلقات متداخلة ، وبينهم يجرى نهر من الماء لا يعلم منبعه ولا مصبه إلا الله ، وماؤه من الصفاء والإشراق بحيث تحول دون النظر إليه خشية فقدان البصر ، وبعد هذا النهر يوجد نهر آخر عظيم جداً ، كله مكون من أشد السحب تراكماً وكثافة ، وبعده نهر آخر من نار ، دائماً عظيم الاشتعال بنفسه ، وبعد الأنهار هناك جبال من ثلج ناصعة البياض ، وبعدها بحر عظيم يخترق الأراضى السبع ، كله ملئ بالملائكة التى تسكنه ، وكلهم من ضخامة الحجم بحيث لا يبلغ ماء البحر أعجازهم ، وهم يوم القيامة يدعون الله من أجل سمك البحار والأنهار ، كما أنهم لا يعرفون ماذا تحت البحر ولا أين يضعون أقدامهم ، وتصل رؤوسهم إلى سماء العرش . لا يكفون أبداً عن حمد الله »

الفصل الخامس والعشرون :

وهناك بعد هذا البحر العظيم يوجد بحر آخر من ماء شديد الصفاء ، فيه جموع غفيرة من الملائكة الواقفين ، لا يكفون عن قول « لا إله إلا الله » حتى يوم القيامة ، وقد وقفوا صفوفاً متراصة متلاصقة مثل جدران مدينة أو قلعة متصافة ، ومن العجائب الأخرى أن هذه السماء كانت تحوطها

أربعة أنهار : أحدها عظيم الصفاء يفوق كل الأنوار ما عدا نور الله ، وآخر ماؤه أبيض من الثلج بلغ من الصفاء إلى درجة أن يرى الإنسان قاعه على عمقه الذى لا يصدق ، وكل رماله من الأحجار النفيسة ومنه تنبع أنهار الجنة ، وبعده يوجد نهر آخر من الثلج المتألق ، وآخر ماؤه خالص لذيذ الطعم ، ملىء بالملائكة يروحون ويغدون على أقدامهم وهم يسبحون بحمد الله ، على أن رؤية هؤلاء الملائكة وتلك الأنهار وما عداها لم تحل بينى وبين رؤية سماء العرش .

ومن الآيات الأخرى أن سماء العرش بها من الألسنة ما يزيد سبعين ألف مرة على ألسنة جميع المخلوقات فى كل السماوات الأخرى والأرض والعالمين ، كلها ألسنة لا تكف عن حمد الله وتسبيحه وتقديسه بجميع أنواع اللغات .

الفصل السادس والعشرون :

وعرفت بعد ذلك أن الله كان قد خلق ثمانية عشر ألف عالم ، وأن هذا العالم الذى نعيش فيه واحد منها فحسب ،وفى هذه العوالم ألف نوع من المخلوقات عدا الإنسان والشياطين والجن ويأجوج ومأجوج ، وهى مخلوقات بين الإنسان والشيطان ، كلها بأعداد لا تحصى ، من هذه الأنواع يوجد أربعمائة فى الأرض وستمائة فى البحر . وبالإضافة إلى ذلك فإن كل السماوات غاصة بالملائكة المزدحمين إلى درجة أنه لا يمكن لأحد أن يضع بينهم شعرة واحدة ، بعضهم واقفون وآخرون جالسون أو ساجدون بوجوههم على الأرض يسبحون بحمد الله ويخفقون بأجنحتهم من خشيته .

الفصل السابع والعشرون :

ثم ذهب بى جبريل بعد ذلك إلى أرض كلها بيضاء ، بياضها خارق للعادة ، مليئة بمخلوقات من صنع الله ، ومن أجناس لا تحصى ، لا يخرجون

أبدا عن طاعة الله ولا لغمضة عين، ولا يمكنني القول إن كانوا آدميين أم لا ، ولا إن كانوا من الشياطين أو يعرفون شيئاً عنها ، فقد حرم الله على ذلك .

الفصل الثامن والعشرو ن :

ولما عدت من هناك ؛ حملني روح الله عبر السماوات وهو يريني فى لحظة ما لا يرى إلا بعد تمهل طويل ، حتى وجدت جبريل ومعه إسرافيل الذى هبط بأمر الله كى يريني الأرضين السبع التى تحيط بالأرض البيضاء المذكورة ، ولما هبطت وجدت ملكاً اسمه القطروفين بيده قلم من نور طوله مسيرة خمسمائة عام ، ينبثق منه مداد من نور ، والقلم يعرف سبعين ألف لغة لا يفهمها إلا الملك الذى يعرفها ويعرف عدداً آخر مثلها من اللغات التى يجهلها القلم .

الفصل التاسع والعشرون :

وأرانى جبريل وإسرافيل ديكا قريباً من الله ؛ وعرفه ورأسه يصلان إلى سماء العرش ورجله فى أعماق الأرض السابعة ، هذا الديك من ملائكة الله ، وهو دائماً يسبح بحمده ، وجناحاه هائلان لو فتحهما لنفذ بهما إلى جميع أقطار السماوات والأرض من المشرق إلى المغرب ، وعندما ينتصف الليل يفتح جناحيه ويهزهما قائلا « لا إله إلا الله » فلا يكاد ينتهى من صياحه حتى تصيح ديوك الأرض وتهز أجنحتها ، فإذا سكت سكتت . وعندما يبزغ الفجر يكرر صيحة منتصف الليل وهى تجيبه ، وهكذا يحدث فى كل ساعات صياحه ، أما ريشه فغليظ أعلاه ناصع البياض ، صغير أسفله رائع الخضرة لا يشبع الإنسان من رؤيته أبدا .

ورأيت بعد ذلك ملكاً آخر أمام الله نصفه من ثلج ونصفه الآخر من نار ، فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ، وهو دائماً ماثل

فى حضرة الله يدعوه ويضرع إليه بلا كلل أن يجمع قلوب العباد على طاعته مثلما جمع فى خلقه بين الثلج والنار دون أن يمس أحدهما الآخر ، وحول هذا الملك رأيت ملائكة آخرين يسبحون بحمد الله بأصوات عالية ؛ عددهم لا يحصى ، ووجوههم وعيونهم شاخصة دائما إلى الله سبحانه وتعالى .

الفصل الثلاثون :

بعد أن رأينا كل هذا عدت مع جبريل إلى سور الجنة ، فلاحظت أن أحجاره الضخمة المربعة كانت شديدة الاختلاف فيما بينها ، فبعضها من ذهب ، وبعضها من فضة ، وآخر من ياقوت يتوسط بين الذهب والفضة ، وكان ينبعث من السور بريق هائل يخطف الأبصار ، أما الملاط الذى يمسك بهذه الحجارة فقد كان من المسك والعنبر المذاب فى ماء الورد ، له شذى لا يضاهى به شئ آخر ، وعرفت أنه لا يمكن لأى فان أن يقيس ارتفاع السور الذى لا يعلمه إلا الله . وقال لى جبريل إنه لم يعبر هذا السور من قبل أى مخلوق من الملائكة أو الإنس أو الشياطين أو الجن ، لأن الجنة مصونة عن أنظار جميع المخلوقات ؛ وأننى سأكون أول من يراها. وأن بالداخل جنة الخلد التى يوزع الله تعالى نعمها على صور كثيرة حسب ما يستحقه ثواب عباده وأنه سيعرفنى بها ؛ وقد صنعها الله بيديه نفسها ؛ وليس بينه وبينها سوى حجابين ، وهى أشرف وأنفس الجنات كلها ، فاقتربت مع جبريل من الباب ، وكان البواب يعرف اسمى ورسالتى ففتح لنا ودخلنا .

الفصل الواحد والثلاثون :

ولما صرنا بالداخل أخبرنى جبريل أن عرض الجنة مثل السماوات والأرض جميعاً لكن طولها لا يعلمه إلا الله ، وأنه عندما يبدل الله السماوات والأرض يوم القيامة فإن مكانها سيصبح هواء ، وسيجر بيده هذه الجنة وأخرى معها ، جنة عدن التى خلق الله فيها آدم ؛ فتجر بدورها باقى الجنان وتقرب حتى لا يكون بينها وبين العرش سوى سدرة المنتهى ونورها ،

ومنذ ذلك الحين فإنها تمتلئ جميعا بالنور وتعمرها الملائكة يوم الخلود .
وأخبرني جبريل بعد ذلك أن الله لما خلق جنة عدن ملأها بكل شئ ، وخلق بداخلها جنانا أخرى بين السماء والأرض أقصى من مشرق الشمس حتى رفعها إلى أعلى على مسافة سمائة وثلاثة وستين عاما .

الفصل الثاني والثلاثون :

سألت جبريل عن المسافة بين الأرض والسماء الدنيا فأخبرني أنها مسيرة سمائة وثلاث وستين سنة ، فسألته كذلك عن مسافة ما بين سماء العرش والأرض فقال لى إنها مسيرة خمسين ألف عام من أعوامنا وشهورنا وأيامنا . وقال لى إنه لا ليل هناك ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ، وهكذا أدركت أن مسافة ما بين كل سماء وأخرى مسيرة ألف عام ، وأننا إذا جمعنا مسافات كل السماوات والحجب وجدنا مسيرتها اثنتين وأربعين ألف سنة .

الفصل الثالث والثلاثون :

أما الجنة التي كان فيها آدم فقد وجدتها على النحو التالى : من ناحية المشرق كلها مغطاة بالأشجار الوارفة الظلال ، يتلوها نهر عظيم تنبع منه جميع أنهار الدنيا ، ويسير على تراب مصر ويسمى النيل ، فإذا كان في الجنة فهو من عسل ، أما إذا خرج منها فإنه يتحول إلى ماء ، ثم رأيت نهراً آخر عظيما يسمى الفرات ، يجرى لبنا فى الجنة ويتحول خارجها إلى ماء ، ونهراً آخر اسمه جيحان كله فى الداخل من خمر وفى الخارج ماء ، كما رأيت نهراً آخر مثلها فى العظمة اسمه سيحان من ماء صاف ومذاق لا توصف لذته . ومن هذه الأنهار الأربعة يجرى العسل ناحية المشرق واللبن ناحية المغرب والخمر ناحية الجنوب والماء ناحية الشمال .

رأيت بعد ذلك على باب الجنة مكتوبا « أنا الله لا إله إلا أنا ؛ وكل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم نفسه من النار على ذنوبه »

الفصل الرابع والثلاثون :

وبينما كنا نسير فى هذه الجنات ، رأيت أنها قد خلقت على أشكال وهيئات مختلفة بعضها عن بعض، لتشريف وتمجيد من يختارهم الله لنعمته، وأن لها أسماء مختلفة ، منها « جنة عدن » التى خلق الله فيها آدم و « دار القرار » و « دار السلام » و « جنة المأوى » و « جنة الخلد » و « جنة الفردوس » و « جنة النعيم » وهذه السابعة قلعة الجنان وقصبتها فهى تشرف عليها جميعاً ، ومنها يأتى الله عندما يزور عباده فى الجنة فهى داره الخاصة . عند هذه الجنة رأيت عمودين عظيمين ، أحدهما من الزبرجد والآخر من الياقوت ، طولهما وعرضهما لا يحيط به العقل ، ومسافة ما بينهما ما بين المشرق والمغرب ، وقد ملئت هذه المسافة نوراً خالصاً ، وهما يقومان على مدخل هذه الجنة . أما الجنات الأخرى فهى من نور كذلك ، وفيها كثير من المدن والقلاع النورانية ، وكثير من البيوت والأبهاء والأروقة والحجرات التى كلها من نور ، وهناك أشجار من كل صنف ونوع ، وثمراتها أبهى من الياقوت والزمرد ، وأوراقها لا توصف ، وتجرى تحت هذه الجنات أنهـــار من لبن لم يتغير طعمه وخمر لذة للشاربين ، وانتصبت على حواف الأنهار بيوت جميلة وحجرات رائعة لا يبلغ الوصف مداها .

الفصل الخامس والثلاثون :

ورأيت كذلك فى هذه البيوت والحجرات التى تقوم على شواطئ الأنهار أجمل وأنقى النساء اللاتى يمكن أن يحلم بهن إنسان ، عيونهن حوراء رائعة الحسن والعطف والحنان ، يحلين رؤوسهن بأحجار كريمة ، وكل ثيابهن من نور ، وقد عقدت كل واحدة منهن على خصرها شريطين من لؤلؤ مضمخ بالمسك والعنبر ، تفوح منها رائحة تشفى أكثر المرضى سقما واعتلالا ، كلهن جالسات بجوار بعضهن ، ينشدن ويغنين بأنغام

أصفى وأحلى من كل صوت أو موسيقى آدمية قائلات « نحن العذارى الخالدات بلا دنس ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، خلقنا لأزواج كرام ، فطوبى لمن كان لنا وكنا له » ، وبينما يغنين تبدو أسنانهن أبيض من البرد المنضد ، وأفواههن أدق وأشد حمرة من الياقوت ، ويبدو عليهن الوله والعشق لأزواجهن فى الجنـة ، حتى قبل أن يعرفنهم ، وهن مقصورات لا يجرؤ أحد أن يطلع عليهن ، ولوكان الشيطان نفسه ، فلا تبدو الحورية إلا لصاحبها الذى خصصت له ، وكلما جاءهن أزواجهن وجدنهن عذارى أبكاراً لم يمسسن من قبل مثل المرة الأولى ، وقد كتب على صدر كل واحدة منهن اسم صاحبها ، وعلى صدر كل واحد من الأزواج اسم صاحبته . وقـد بلغن من التنعم والرفاهية بحيث يرى مخ ساقهن من وراء الدم واللحم والعظم كما ينظر الواحد إلى السلك فى قصبة الياقوت ، وما يفكرن فيه يبدو دائماً لعيان أزواجهن ، وعلى كل واحدة منهن سبعون ألف حلة ، بعضها فوق بعض . ذات أكمام ضافية مثل أكمام القسيس الذين يؤدون الشعائر فى الكنائس ،وكلها من الذهب الخالص والألوان العديدة ، وهى خفيفة عليهن كأنها قميص شفاف رقيق .

الفصل السادس والثلاثون :

والآن سأقول لكم صفة الجنات ، أولاها جنة النعيم وهى بيت الله الخاص ، حديقة زاخرة بكل النعم التى لاتخطر على قلب بشر ، وجدرانها من الياقوت عالية كالأبراج التى تحمى البيوت فى الداخل ، وفرشها وأغطيتها من لؤلؤ ، وكذلك درجاتها وأوانيها وأبواب بيوتها ، وفى داخلها حوريات ملهات ، أكثر جمالا ومرحاً من السابقات ، وبها حجرات من الياقوت والزبرجد واللؤلؤ والأحجار النفيسة الأخرى مرصوصة كلها على حواف بعض العيون التى تنبع هناك من خمر وماء على كل لون ومذاق ، وحيث ذهبت تتردد الأنغام العذبة والموسيقى والأناشيد التى تتغنى بها الحوريات وهن متكئات على الأرائك تحت الأشجار الظليلة . أشجار

فروعها جواهر ، وثمارها أشهى وأحلى من كل شيء وتصحبهن فى الغناء والأناشيد أنغام آلات موسيقية لا يبلغ الوصف مدى حلاوتها وعذوبتها . وتحت هذه الحديقة تقوم حديقتان أخريان : إحداهما مرصعة من الخارج والداخل بالأحجار النفيسة ، والأخرى من الذهب الأشقر الخالص .

وقد بنيت جنة النعيم على شكل درجات وصفوف دائرية ، كل صف عرضه مسيرة مائتى سنة ، درجة من ذهب وأخرى من فضة وثالثة من ياقوت ورابعة من زبرجد وخامسة من لؤلؤ وهكذا ، أما الملاط الذى يمسكها فقد عجن بالعنبر والمسك ، وقد أعد الله هذه الجنة للمتقين من عباده ويقول لهم يوم القيامة : اعبروا الصراط المستقيم ، وانعموا بالجنة وما فيها ، واقتسموها كل على قدر فضله ، فقد خلقتها لكم » .

الفصل السابع والثلاثون :

وهناك المزيد ، فإن من سيكون فى أدنى درجات الجنة سيمنح متسعاً من أرضها مسيرة خمسمائة سنة ، وسينعم الله عليه بخمسمائة زوجة وأربعة آلاف من الحور العين الأبكار يختار منهن من يشاء وثمانية آلاف ثيب لخدمته ، فإذا أراد أن يعانق إحداهن هرعت إليه بفرح عظيم ورغبة جارفة واستمر العناق ما دام حبه لها دون أن يفتر أو يبعد عنها ، وستوضع أمامهما الموائد والمناضد المليئة من الطعام والشراب بما لذ وطاب ، وكل لقمة أو شربة سيكون لها لذة طعام العالم وشرابه أجمع ، ثم يأتى بعد ذلك ملك معه مائة ثوب من ذهب هدية لهم من الله ، ولو خطر لأحدهم أن يذهب إلى جنة الخلد وأراد التنعم بثمارها وفواكه أشجارها قام ملك فى الحال بتقريبها منهم . ولو طلبوا هذا من أول شجرة يجدونها لألقت إليهم سبعين ألف صحيفة بها جميع ما لذ وطاب من لحوم وطيور ، طيور بدون ريش أو عظام ، لم تطبخ أو تشوى على النار ، لذيذة كأن مذاقها مزيج من عسل وسمن ورائحتها مثل العنبر ، يأكلون مرتين فى اليوم حسبما يشتهون ،

وآخر لقمة لها نفس طعم اللقمة الأولى . كل هذا يبعثه الله لهم مع ملائكته ، وعطايا أخرى لايعلمها إلا هو .

الفصل الثامن والثلاثون :

هذا الأكل يتحول فى أحشائهم وبطونهم إلى بخار يخرج منهم بعدذلك فى شكل عرق زكى الرائحة ، ثم تفتح لهم الملائكة بابا يفضى إلى جنةأخرى رائعة ، على مدخلها شجرة عظيمة تجرى من تحتها عينان نضاختان صافيتان، ومن يدخلها يشرب من أحد هذين النبعين فيصبح نظيفاً صافياً من كل ما أكله دون أن تبقى فيه أية رواسب ، ويذهبون بعد ذلك إلى العين الأخرى ويستحمون فيها وتحل عليهم نعمة من الله وفضل . ثم يعودون إلى الجنة فيجدون فيها غلمانا كأنهم اللؤلؤ المكنون فى بياضه والورد الناضر فى حمرته ، هؤلاء الغلمان يلعبون فى الجنة ويعرفون من يدخلها باسمه ويرحبون به ويبشرونه بما ينتظرهمن الحوريات والقصور ونعم الله الأخرى التى أعدها له ، ثم يذهب الغلام منهم فى الحال إلى تلك الحسناء التى بشر صاحبها بها ويخبرها بقدومه فتمتلىء غبطة وحبورا وتذهب إلى الباب للقائه . أما من يدخل الجنة فإنه إذا ما رأى سور بيته من اللؤلؤ والأحجار النفيسة وما أعد له من نعيم مقيم فى الغرفات العليا فإنه يوشك أن يغشى عليه من الروعة والسرور ، فإذا ما نظر إلى أسفل ورأى العذارى الأبكار اللاتى سيكن زوجاته والستائر والفرش الذهبية الوثيرة توجه إلى الله بالشكر على نعمه الوفيرة وإلى رسوله بالحمد لأنه هو الذى أخبره بأنه سيرث كل هذا النعيم المقيم .

الفصل التاسع والثلاثون .

وفى الجنة شجرة تسمى شجرة طوبى ، وهى شجرة لذة ونعيم ، جذعها عرضه مسيرة رجل شديد السرعة أكثر من أى جواد يلف حوله مائة عام ، كله من الياقوت ، والأرض التى غرست فيها من المسك والعنبر

الأبيض من الثلج ؛ وفروعها وأغصانها من الزبرجـد ، وأوراقها من السميط ، وأزهارها قماش من ذهب ، وفواكهها مثل اللآلئ الكبيرة ، تكفى الثمرة الواحدة منها مائة رجل يأكلون منها سنة كاملة ، وطعمها مزيج من عسل و زنجبيل ، أما الحشائش التى حولها فكلها من الزعفران الأخضر الزكى الرائحة ، وتنبع تحتها عيون كثيرة ، كلها من خمر ، و هو الذى يجرى متدفقاً فى أنهار الجنة ، هذه الخمر بعضها أبيض صاف ، وبعضها أحمر مثل الياقوت ، وكلها رائعة شهية لذيذة ؛ وهناك نوعان آخران من الخمر : بعضها حامض مز فى لونه وطعمه ، وبعضها أصفر فاتح مثل الزبرجد . وكلها شديدة قوية فى مذاقها ، هـذه هى الينابيع الرئيسية الأربعة للجنة ، وبالإضافة إليها فهناك أنواع أخرى كثيرة من صنوف الخمر التى تعقب لذة الشاربين .

الفصل الأربعون :

رأيت شجرة أخرى من أفضل وأجمل ما فى الجنة ، يجلس تحتها كل من فى الجنة لسماع الحكايات والقصص التى يرويها لهم ملك خاص ، وبينما جلست أسمعها معهم إذا أنا بموكب من الملائكة قادمين على جمال عقدت فى أعناقها سلاسل من ذهب ، وجوهها مثل القناديل المتوهجة ، ووبرها كالحرير الأبيض المشرب بحمرة ، ذلولة وادعة طائعة ، جاءت محملة بالذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة ؛ فلما وصل الركب حيث كنا نزل الملائكة الراكبون وأنزلوا ما يحملون من كنوز ووزعوها على الجميع ، وأمروهم أن يركبوا المطايا كى يذهبوا لرؤية الله الذى كان يريد أن يشرفهم برؤيته والحديث إليه ، وهكـذا فعلوا ، وساروا صفوفاً متساوية متجاورة منتظمة ، لا تمد مطية رأسها ولا تقدم رجلها عن الأخرى ، ولو صادفوا شجرة فى الطريق هبطت ورقدت على الأرض حتى لا تخل بنظام السير .

الفصل الواحد والأربعون :

ولما وصلوا إلى حضرة الله سبحانه وتعالى كشف لهم عن وجهه الجميل العظيم ، فقالوا له : « أنت السلام وإليك وحدك يعود الشرف والسلام » فرحب بهم وأثنى عليهم لأنهم حفظوا دينه وأقاموا شريعته ، فضرعوا إليه أن يأذن لهم بالسجود ، لكنه أنكر ذلك عليهم وقال « لقد مضى زمان العمل والتكليف وجاء أوان الثواب ، فاطلبوا على قدر ما ترغبون » فطلبوا منه عوضاً عما لم يستمتعوا به في الأرض أن ينعم عليهم بنظير كل خير ونعمة وجدت فى العالم من بدايته إلى منتهاه ، فأجابهم الله ما أرادوا وزيادة ، فلما رفعوا أبصارهم رأوا قلاعاً وقصوراً شامخة ، كل جدرانها وأبهائها وحجراتها من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد وأحجار أخرى كريمة ، وكانت الأبهاء والسرادقات مغطاة بالحرير وموشاة بالذهب ولامعة الألوان ، فالأخضر فيها أشد خضرة من الزبرجد ، والأحمر أشد حمرة من الياقوت ، وكانت كلها غارقة فى فيض عظيم من النور والبهاء الذى يكاد يخطف الأبصار ويذهب بالنظر لولا أن الله يحول برحمته دون ذلك .

الفصل الثانى والأربعون :

بعد ذلك رأيت هؤلاء الولدان الذين ذكرتهم من قبل ، يجر كل واحد منهم أربعة خيول وديعة ، على كل منها سرير فاخر ، فوقه هوادج صغيرة من نور وأحجار كريمة ، بداخلها قبة من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد ، وتحت القبة يجلس ملك فى الصدارة ، ومن حوله ملائكة كثيرون ، ينتظرون القادمين إلى الجنة ليخرجوا فى استقبالهم والترحيب بهم ، فإذا ما اقتربوا من السرر طلب منهم الملائكة أن يصعدوا إليها ، فإذا ما استقروا بداخلها طاف بهم الولدان المخلدون فى رياض الجنة النضرة حتى يصلوا إلى قصورهم وبيوتهم الكبيرة ، فينزلون من السرر ؛ ويصحبهم الملائكة الذين يدخلونهم

فى هذه البيوت و يأخذون بأيديهم حتى يجلسوا ، ويبدأ الملائكة فى الضحك معهم و الأنس بهم والحديث إليهم حتى يسمع لذلك ضجيج من مسافة بعيدة ، ويقول لهم الملائكة إنهم لم يضحكوا أبداً من قبل ولم يلعبوا ولم تنفرج شفاههم بغير التسبيح لله ، وأنهم إنما يفعلون ذلك الآن تشد يفا لهم وإيناسا ، ثم ينصرفون بعد ذلك تاركين كل و احد بمفرده فى بيته .

الفصل الثالث و الأربعون :

لكل منزل باب صغير يفضى إلى نهر من أنهار الجنة : ففيها أنهار كثيرة غير أن هذا النهر الذى أقول لكم عنه الآن أجملها وأروقها وأصفاها ، فعلى ضفتيه تقوم جبال الفردوس وكلها من ياقوت أزرق تخرج من بطنها مناجم الذهب والفضة والأحجار الكريمة التى تنساب بعد ذلك وتجرى فى جداول إلى النهر الذى تصبح حصباؤه من هذه الأحجار الكريمة ، أما الياقوت الأزرق الذى قدت منه الجبال فهو بالغ الشفافية إلى درجة أنك تستطيع أن تخترقه بنظرك وترى ما بداخله . وفى هذه الجبال مسارب أخرى تفضى إلى الحدائق الغناء الواقعة خلفها ، كل طريق من هذه الطرق يفضى إلى حدائق الفردوس الأربع ، اثنتان منها عظيمتا الاتساع ينبع منهما عينان نضاختان جميلتان ، وبهذه الحدائق أشجار جميلة ، ذات ثمار وفيرة يبلغ عددها فى كل شجرة مائة صنف كلها شفاء ، أما الحديقتان الأخريان فهما أقل اتساعا ، إلا أن لكل منهما عين جارية صـــافية جميلة شفافة .

الفصل الرابع و الأربعون :

فى هذه الجنات نخيل شاهق الارتفاع ، وأشجار رمان سامقة جميلة ، فإذا ما أكل الإنسان من ثمارها تلذذ بمذاق كل فاكهة الأرض ، وقد نصبت تحت الأشجار سرادقات وخيام تقطنها الحوريات الأبكار ــ اللائى اختارهن الله وحفظهن ــ فلا يستطيع الاقتراب منهن حتى الشيطان نفسه ، جمالهن

لايبلغ مداه الوصف ، يجلسن على حشايا ومطارف وثيرة ، فإذا قدم عليهن من جعلن له من أهل الجنة خرجن للقائه وجذبنه ليجلس معهن . ثم يأتى الله حينئذ لزيارتهم تحوطه الملائكة ، ويسألهم إن كانوا راضين عن هذه النعم الكثيرة فيجيبونه بأنهم فى غاية الرضا والحبور ، فيبشرهم ربهم بأن هذه السعادة لن تزول عنهم أبدا .

الفصل الخامس والأربعون :

كل من يدخل الجنة يصبح فائق الحسن والجمال ، وقد رأيت بعد ذلك ملكا على كرسى من نور ، تحيط به ملائكة عديدة تقوم على خدمته ، وقال لى جبريل إنه خازن الجنة واسمه رضوان ، فتبادلنا السلام ، وأبديت له رغبتى فى رؤية كل الجنان ، فأمسك بيدى وطاف بى فيها جميعاً وهو يرينى الأنهار والأشجار والقلاع والقصور ، وجميعها تتلألأ بأنوار تعشى الأبصار ، أرانى بيوتا من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ومن كل أنواع الأحجار النفيسة ، وأرانى جبالا تحيط بالجنات وسهولا خضراء وغابات كثيرة جميلة؛ وبداخل هـذه الجبال حظائر مساحتها تزيد على خمسمائة عام ، فيها خيل وبغال من كل الألوان ، ولما اقتربنا منها لنراها بوضوح هرعت جريا من الذعر فأثارت بحوافرها غبارا أزكى من المسك والعنبر اللذين تمتلىء بهما كل الحظائر ، وأخذنى رضوان لحظيرة ملئت بالطير الأخضر والأصفر ومن كل الألوان ، كانت عظيمة الحجم زكية الرائحة ، فلما اقتربنا منها وشرعت فى الطيران وقعت تحت قدمى ، وكان بأجنحتها من المسك ما ملأ كل الحظيرة بالعطر الفواح ، وأرانى كذلك فيها بيوتا من ذهب وفضة وجواهر ، مقاعدها وسررها وفرشها لم تره عين من قبل ولم تسمعه أذن أبدا .

الفصل السادس والأربعون :

وسار بى إلى الأمام ، فأرانى نهرا يسمى « القطنوم » عرضه مسيرة خمسمائة عام ، أما طوله فلا يعلمه إلا الله ، وهو النهر الذى يحتضن جميع الجنات ، فعجبت لطوله وعرضه ، وعجبت أكثر لما قام على شاطئيه من

من مساكن ضخمة عظيمة كثيرة ، كلها من قماش ذهبي وسميط ، وهي من البهاء والنور بحيث تخترقها الأنظار . فى هذه المساكن أو الخيام تولد النساء الكرائم ، ذوات الكرامات ، وهن عظيمات الأجسام ، وأهدابهن كأنها قوس قزح ، وجمالهن يعشى الأبصار ، ويشع منهن بهاء ونور يفوق ضوء الشمس ، وهن مقصورات فى خيامهن لا يدخل عليهن أحد أبدا ، يولدن فيها مثلما ينبت الحشيش فى الأرض ؛ فاذا ولدت إحداهن وكبرت تغطت بشعرها المرسل الجميل ، وأخذت تنمو حتى تلامس رأسها سقف الخيمة ، عندئذ تبدأ تلك السقوف فى التحرك البطيء ، فيعرف الملائكة الحفظة عليهن حينئذ أنهن قد ولدن وكبرن حتى بلغن حجمهن المقدر لهن . فيفتح عندئذ كل ملك خيمته ، فيجد وتجد السيدة أمامها القماش المنسوج من الذهب واللؤلؤ وقد خلق ونسج على ما تشتهى وتود ، فإذا ما أخبرها الملك أنه سيحملها إلى الفردوس ترتدى هذه الثياب المطرزة بالذهب والمصنوعة من الحرير على مقاسها .

الفصل السابع والأربعون :

يمسك الملك بيدها ، ويذهب بها إلى القلعة التى يحرسها وهى تلمع ببهائها على مسافة خمسمائة عام ؛ وفى الطريق تتغنى الحورية منشدة :

« طوبى لمن يؤمن بالله ، ويحظى بنعمته وفضله مثلنا » ، ويصف لها الملك الرجل الذى جعلت له فى الجنة ، وهو يسوقها لتنتظره ، فهى تعرف اسمه وتعرف أنه قد قدر لها أن تكون فى المستقبل عروسه وزوجته . وهكذا فإن جميع سكان الجنة إذا أراد أحدهم أن يأكل أية فاكهة من أشجارها فإن أول شجرة يقابلها تمتد له ، فإذا ذاق ثمرتها وجدها طعم الفاكهة التى كان يشتهيها لأن الله قد أخبرها بما يريد ، وعندما يصل الإنسان إلى الجنة يخرج أهلها للقائه بفرح وسرور أعظم مما يشعر به أقرباؤنا عندما نعود بعد حج أو سفر طويل ؛ فهم يحبوننا أكثر من أهلنا وذوينا فى هذه الحياة الدنيا .

الفصل الثامن والأربعون :

بعد هذا ذهب بى جبريل ورضوان إلى مكان يسمى « سدرة المنتهى » وهو مكان فسيح جداً ، وأورنى شجرة عظيمة رائعة الجمال ، كانت كلها لؤلؤة واحدة ناصعة البياض بكل أوراقها وزهورها وثمارها ، وتحتها تنبع عين من ماء صاف تجل عن المدح ، وقال لى جبريل إن هذه عين النعمة الكاملة ، وأن الله قد خلقها من أجلى وحدى ، ولا يشترك فيها معى أحد .

وبعد أن قال لى ذلك ذهب وتركنى ، لأن الله كان يريد أن يكلمنى وحدى ، فبقى جبريل مع رضوان ، أما أنا فقد تقدمت إلى الأمام .

الفصل التاسع والأربعون :

فضيت فى الطريق الذى سلكته فى المرة الأولى حتى وصلت إلى الحجب القريبة من الله ، فأخذت فى الارتفاع ، فكلما مررت بحجاب رفع الآخر من تلقاء نفسه ، لم يكن هناك أحد يمسه بيده ، بل كانت قدرة الله تفعل كل شىء . وعبرت هذه الستائر والحجب ومضيت بعيدا حتى لم يصبح بينى وبين الله سوى حجابين أحدهما من ضباب والآخر من نور ، وفجأة سمعت من خلفها صوتا يتلو آيات من القرآن ويقول « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ،لا نفرق بين أحد من رسله » ثم قال الله : يامحمد تلق هذا الكتاب الذى أوحى إليك قرآنا تتلوه على الناس ، فهو أعظم كنوزى فى هذا العالم ، فتلقيت الكتاب من يده وشكرته على هذه العطية . وفى هذه اللحظة لم يكن بينى وبينه أحد ، لاملك ولا إنسان ، لم يكن هناك إلاهو وحده ، وأنا أمامه وجها لوجه ، فسألنى . يا محمد ، ماذا يعلم أهل الدنيا عن الملأ الأعلى ؟ فقلت يارب أنت أعلم بذلك منى ، فأمرنى أن أدنو منه أكثر ، فارتفعت الحجب التى كانت تفصل بينى وبينه ونزع الله بصرى من عينى وأودعه فى قلبى ، فكنت أرى بقلبى ولا أرى ببصرى ، وأمرنى أن أدنو أكثر ، فاقتربت حتى أصبحت قاب قوسين منه أو أدنى ، وعندئذ وضع يده على رأسى حتى وجدت

بردها فى قلبى ، وأفاض على كل علمه حتى صرت أعرف ما كان وماسيكون، ثم سألنى مرة أخرى هل يعلم الناس الدرجات والكفارات ، فقلت إن الكفارات هى المشى على الأقدام إلى الجماعات ، وأن الدرجات هى إفشاء السلام وإطعام الطعام والقيام بالليل والناس نيام ، فقال لى إنك قد وصلت وأدركت كل العلم والحقيقة .

الفصل الخمسون :

بعد ذلك ملأنى حكمة من فضله ، وقال لى إنه حبا لى ولأمتى وإكراما منه فإنه يأمرنى أن أخبرهم بأنه قد فرض عليهم خمسين صلاة فى اليوم وصوم ستين يوما فى السنة وسيكون جزاؤهم الجنة ، فلم أجرؤ على أن أطلب منه أن ينقص الصوم لكن طلبت منه التخفيف فى عدد الصلوات فجعلها إكراما لى خمس صلوات ، ثلاثة بالنهار واثنتان بالليل ، وأنه يجب إقامتها بكل شعائرها وقال « إننى سأجعل ثوابها لكم من الجنة كأنها خمسين صلاة ، وكل حسنة تفعلونها سأجريكم عنها بعشرة أمثالها ، وكل سيئة لايجزى إلا مثلها ، ولو استغفرتم الله عنها لمحوتها حتى من ذاكرتى » فلم أطلب منه أكثر من ذلك وانصرفت من حضرته .

الفصل الواحد والخمسون :

لما عدت من نفس الطريق ارتفعت لى الحجب واحدة إثر الأخرى كما حدث من قبل ، ووصلت فى نزولى إلى السماء التى كان بها موسى ، فلما أخبرته بلقائى مع الله وما أمرنى به من صوم وصلاة نصحنى وطلب منى أن أعود إلى حضرته وأطلب منه تخفيف الصيام لانه سيكون تكليفاً ومشقة على أمتى مثلما كان على بنى إسرائيل ، فعدت إلى الله ، وضرعت إليه بذلك ، فخفف عنى عشرة أيام ، ولما أخبرت موسى بذلك أعادنى فخفف عنى عشرة أيام أخرى وعشرة بعد ذلك حتى بقى ثلاثون وقد استحييت من ربى أن أطلب منه أكثر من ذلك طمعاً فى التخفيف .

الفصل الثانى والخمسون :

عدت إلى لقاء جبريل ورضوان ، فرأيت جبريل يمسك بيده أربعة أكواب من الأرض عظيمة الجمال ، وقال لى أن أشرب من أيها أريد ، وأعطانى واحدا منها فوجدت له رائحة المسك وطعم اللبن فشربته كله ، وأعطانى الثانى فوجدت له رائحة العنبر وطعم العسل فشربته كذلك ، وأعطانى الثالث فوجدت له طعم الماء ورائحة المسك فشربته كله كذلك : ثم أعطانى الأخير فوجدت رائحته وطعمه مثل الخمر فنفرت منه وتركته ، عندئذ ابتسم جبريل وسألنى إن كنت أكره هذا الشراب فقلت له أجل ، فأخبرنى أن الكوب الأول معناه : كما أن اللبن يغذى ويحكم الجسم البشرى أكثر من أى شراب آخر فان أمتى ستحكم الجميع حتى يوم القيامة ، أما العسل فكما أنه فيه شفاء للناس فان الله سيكون شفاء لأمتى إلى يوم القيامة ، وأما كوب الماء فكما أن الماء ينظف ويطهر كل دنس ونجاسة أكثر من أى شىء آخر فان أمتى ستكون هكذا أنظف من الآخرين إلى النهاية . أما الخمر فكما أنها تدعو الناس إلى الرجس والإثم والحمق فإنك لم تشرب منها لأن الله سيطهر أمتك من كل رجس وإثم وحمق وسيجعل الخمر محرمة عليهم دائما ما عدا تلك التى ستشربونها فى الجنة .

الفصل الثالث والخمسون :

أخذ جبريل بيدى ، وذهب بى بعد ذلك إلى أدنى الجنات حيث أرانى ماء أصفى وأعذب من العسل ، عليه سد كله من البلور وطوله سبعون ألف فرسخ أما عرضه فهو أقصى مدى يبلغه نظر الإنسان ، وعليه من أكواب الذهب والفضة مثل السحاب فى السماء عندما يشتد الغيم ، ورأيت أن الله قد أعد لى هذا النهر ، وأنه ما أعظم سعادة من يستطيع أن يشرب من مائه ، لأنه ألذ وأشهى ماء ، ولن يشرب منه إلا من يصدق بى ولا يتركنى ليتبع نبياً آخر ثم أخبرنى كذلك بأنه يريد أن يرينى بأمر الله أشكال جميع الخلائق وصور

الأحياء والأموات والجحيم وعذابه وأهواله حتى أنذر أمتى وتعرف كيف تحافظ على دينى وملتى .

الفصل الرابع والخمسون :

أخبرنى أنه تحت هذه الأرض التى يعيش عليها الناس هناك أرض أخرى كلها نار ، وسكانها من نار ، وبحارها وأسماكها من نار كذلك ، وعندها أرض أخرى من نار هى وسكانها وبحرها وسمكها كذلك . وهكذا حتى سبعة أرضين ، كل واحدة وراء الأخرى ، فى كل منها بحر من نار وكل مافيها نار ، وتحت هذه الأرضين حجر يمسكها وتعتمد عليه ؛ ويقوم هذا الحجر على حوت يلتقى رأسه وذنبه فى هيئة حلقة أو خاتم ، ولاشىء تحت الحوت سوى الظلام والضباب ، وبعده لايعرف ما وراء ذلك إلا الله . أما الأرض التى نعيش عليها فيحملها بأمر الله حجر أخضر وضعه ملك فى كف يده ، وقد وقف هذا الملك متكئا على ظهر حوت هائل قوى يمسك مابين الأرض والسماء . هذه الأرض معزولة عن غيرها من الأرضين ، وتحتها خلق الله الريح العقيم الذى أصبح من قسوته وشدته كالمرأة التى لا تلد . وقد جعل الله لهذا الريح ألف مساك من حديد كى لاتنطلق ، يقبض على كل مساك ألف ملك شديد ، بهذه الريح أهلك الله عادا وقوم هود الذين كذبوا برسله ، ولم يترك هذه الريح تخرج إلا من فرجة مثل إصبع طفل طيلة سبعة أيام وليال حسوما ، فأتت على كل شىء ولم تذر فيهم باقية . وبهذه الريح سوف يهلك الله قبل القيامة جميع الجبال والقلاع والبيوت والمبانى على وجه الأرض حتى يفنى كل من عليها كما جاء فى القرآن الكريم ، وبهذه الريح سوف يعذب الله العصاة فى الجحيم ؛ إذ ينزع عنهم جلودهم ويحرقها بلهيب الريح .

الفصل الخامس والخمسون :

وبعد أن وصف الأرض الأولى قال لى عن الثانية إنها تسمى « الجلادة » وقد جعل الله فيها عقارب الجحيم كبيرة كالبغال وأذنابها مثل الرماح الطويلة ،

فى كل ذنب ثلاثمائة وستون حلقة ، فى كل حلقة ثلاثمائة وستون قرنا ، فى كل قرن ثلاثمائة وستون كوبا من السم الناقع بلغ من شدته إلى درجة أنه لو وضع منه كوب واحد فقط فى وسط العالم لأفنى جميع مافيه من زرع وماء وإنسان وحيوان وكل كائن حى لما يخرج منه من نتن شديد ، وقد سلط الله هذه العقارب على العصاة فى النار ، فعندما يخلونهم ينزعون جلودهم ويشدونهم من شعورهم ويسلخونهم من رؤوسهم حتى أقدامهم ، فيظلون بعد ذلك مغشياً عليهم حتى لايعرف أحد إن كانوا أحياء أو أموات ، ثم يصبون عليهم بعد ذلك سم واحد من أكوابهم فيفصل فى الحال لحمهم من عظامهم وعروقهم ، وهكذا يقضون عليهم ؛ ولكن الله يبعثهم مرة أخرى ليذوقوا سوء العذاب .

الفصل السادس والخمسون :

وتسمى الأرض الثالثة « أرقى » ، وقد ملأها الله بحيوانات « طاطاس » وهى عظيمة مثل الجبال ، خلقت جميعها من نار وتراب ممتزجين ؛ رهيبة أشد سوادا من الليل الحالك ، يحيط بها الضباب من كل جانب ، وبكل حيوان سم أقوى وأشد اشتعالا من نار الجحيم ، فاذا أطلقه الله على العصاة والمذنبين انتزعهم وطرحهم على الأرض بشدة ، ثم فتح أفواههم وصب فيها السم الذى يذيبهم كما تذيب النار الشمع .

الفصل السابع والخمسون :

والرابعة تسمى « الحربة » وهى مليئة بحيات الجحيم ، وتبلغ من الضخامة والغلظة درجة يعجز الوصف عن الإحاطة بها ، وفى فم كل حية ثمانية عشر ألف ناب ، كل ناب فى طول النخلة ، تحت جذره سبعون ألف كوب من السم الناقع لو صب على نار جهنم لأحرقها ، ولو عضت حية من هذه بناب من أنيابها أكبر جبال الأرض لصار رمادا ، وهى سوداء اللون ؛ بشعة الهيئة ، فاذا لامست أحد العصاة غرست فى جسده نابا من أنيابها ونفثت فيه قليلا من سمها فيقضى عليه فى الحال ويفتت أعضاءه من الرأس إلى القدم .

ويبلغ من سوء هذا العذاب أن العصاة يتمنون لو أدركهم الموت ألف مرة كل يوم قبل أن يعانوا منه .

الفصل الثامن والخمسون :

أما الخامسة فاسمها « مالطة » ، وهي مليئة بالأحجار الكبريتية من الجحيم التي أعدها الله لتعذيب الكفار والمذنبين ، وهي تشبه الكبريت الأحمر ؛ وكل حجر منها يفوق سبعين ألف مرة أكبر جبال العالم ؛ ويشد زبانية الجحيم رقبة الكافر في إحدى هذه الصخور ويلقون به في نار جهنم ؛ وهناك يشتعل الكافر والصخرة في شعلة هائلة واحدة يرتفع لهيبها بطريقة لايبلغ الوصف مداها .

الفصل التاسع والخمسون :

أما السادسة فتسمى « السحيقة » وبها تحفظ كل كتب وسجلات العصاة المذنبين وما اقترفوا من آثام إلى يوم القيامة بكل تفاصيل الزمان والمكان والحال . وفي تلك الأرض بحار من ماء شديد المرارة ، أسوأ مذاقا من أي شراب خلقه الله ، حتى أن حيوانات الجحيم نفسها تنفر وتشمئز منه .

وقد بلغت هذه المياه من المرارة والحرارة إلى درجة أنه لو ألقى فيها بحجر أعظم من أكبر جبال العالم لأهلكته في الحال . في هذا الماء الحميم الغساق يغتسل العصاة بأمر الله ويشربون منه حتى تذوب أحشاؤهم .

الفصل الستون :

وفي الأرض السابعة المسماة « حاجب » مقر وسكن ومملكة الشيطان بجيشه وأهله ، وهناك صفد إبليس في القيود من بداية معصيته لله حيث ألقته الملائكة الأخيار وغلته بالسلاسل الحديدية ، وربطت يديه إحداها خلف ظهره والأخرى من أمام ، وفعلت مثل ذلك بقدميه . ويبلغ إبليس من ضخامة الجسم درجة أن رأسه تنفذ من أقطار الأرضين حتى تصل إلى أرضنا هذه

فتخترقها قرونه ، وسيجيء اليوم الذى يفك فيه وثاقه ويطلق سراحه إلى هذا العالم حيث يأتى ومعه رفاقه وبصحبتهم كل الشر وأرواح العصاة من أهل النار . وفى وسط تلك الأرض قام حاجز فاصل من ضباب قد جعل بحيث لايستطيع أحد أن يقترب من إبليس دون أن يخترقه ، ومن خلفه القلعة التى يسكنها . والخنادق المحيطة بها مترعة بالسم الناقع من كل الأنواع ، جدرانها وأبراجها وشرفاتها وبيوتها جميعاً من نار سوداء لا يهدأ لظاها ولا يخبو سعيرها ، وهناك فى جانب من القلعة باب يفضى إلى جهنم الكبرى وفى الجانب الآخر باب ثان يؤدى إلى الزمهرير ، وتحت كل هذا هواء وضباب ، أما ما وراء ذلك فلا يحيط بعلمه إلا الله تعالى .

الفصل الواحد والستون :

وقال لى جبريل إنه قبل يوم القيامة بقليل ، يأمر الله بفتح بئر قريب من جهنم ملىء بالنار اسمه « الفلق » يبلغ من الشدة درجة أن ناره تحرق جهنم نفسها كما تحرق نار الأرض القطن المندوف ، فاذا بلغت هذه النار البحر العظيم المحيط بالجحيم وما حوله من بحار جففتها بكل ما فيها حتى لا يبدو أنه كان هناك ماء .

هذا البحر العظيم هو الذى يفصل الجحيم عن الأرضين السبعة ؛ وعندما تصل تلك النار إليها تقضى عليها وتحيلها فى طرفة عين إلى جمرة متقدة .

أما كل العقارب والأحجار الكبريتية وحيوانات الطاطاس والريح العقيم وكل ما هنالك فانه يختنق كظما بنار الفلق هذه مثل السمكة إذا ألقيت على جمرة هائلة .

الفصل الثاني والستون :

وقال لى جبريل إن تلك الأرضين السبع بعد أن خلقها الله لم يضعها فى مكان ثابت ، بل ظلت مثل سفينة فى البحر تضرب فى كل اتجاه ، وهى تنكمش وتنبسط مثل قطعة قماش ضائقة بحركتها ، ولما رأى الملائكة ذلك ضرعوا إلى الله راكعين أن تنتهى شقوة تلك الأرضين وأن يجعل فيها سكانها ، فاستجاب الله لهم وأرسل واحداً من الملائكة الثمانية الذين يحملون عرشه إلى قاع تلك الأرضين السبع ليمسكها ، فنزل الملك وبسط ذراعيه ووضع الأرضين على كتفيه فهدأت واستقرت . ثم أعطى الله هذا الملك حجراً بالغ الجمال يقف عليه بقدميه . كان حجراً مربعا شديد الخضرة ، ثم أرسل الله ثوراً من الجنة يعتمد عليه الحجر فعلقه على منكبيه ، ثم بعث الله للثور بحوت عظيم يقف عليه متكئاً بقدميه ، أما حجمها فإن مسافة ما بين قرنى الثور مسيرة خمسمائة سنة ، ومثلها مسافة ما بين القرنين إلى منكبيه ، ومن المنكبين إلى منبت ذيله كذلك ، وطول ذيله خمسمائه عام ، ونفس المسافة هى التى تقع بين منتهى ذيله إلى حوافره . أما الحوت فاسمه « الوزان » وهو فوق البحر العظيم الذى يحمل جميع ذلك دون أن تكل قواه مطلقاً ، بل تزيد باستمرار ، وكل المياه التى تجرى فى بحار العالم وتهبط من السماء تدخل فى أنف الثور وتنزل إلى بطنه دون أن يمتلىء أبداً حتى يوم القيامة .

وسوف ينبعث من الملك والحجر والثور والحوت بخار هائل هو الزلزال الذى ستعقبه القيامة .

الفصل الثالث والستون :

وأضاف جبريل قائلا لى إن كل تلك الأشياء سيكون لها يوم القيامة قدر عظيم ، وقدرة هائلة ، وأن كل واحدة من هذه الأرضين السبع تحتوى فى نفسها على بحر عظيم ، وبهذا يكون عدد البحار أربعة عشر ،

وهناك كذلك بحر هائل على مدخل الجحيم يسمى بحر البحار ، وهو الذى يمنع نار جهنم أن تحرق الكون كله ، وهناك أسفل ذلك الجحيم ضباب وريح شديد فى مكان يسمى «زار» لايعرف ما دونه إلا الله وحده ، أما الأرض التى يعيش فوقها فهى ممتدة فوق ظهر حوت ومتصلة من كل جانب بجبل يسمى «قاف» هو الذى يغلقها ويحيطها ، وتبلغ مساحته مسيرة خمسمائة عام .

الفصل الرابع والستون :

أما بقية الأراضى السبع فإن طول كل واحدة منها وعرضها مسيرة ألف عام ، وسمكها مسيرة خمسمائة عام ، وبين تلك الأرضين السبع وأرضنا يقوم عالم الجن ، وسمكه مسيرة خمسمائة عام ، وبين عالم الجن والسماء الدنيا مسافة مائتين وعشرين عاما ، وفى هذا الهواء خلق الله طيوراً عظيمة الحجم ، رؤوسها وذوائبها سوداء ، مناقرها صفراء ، أما بطونها وصدورها فبيضاء ، وهى الطيور الأبابيل التى حملت الأحجار الكبريتية التى أحرق الله بها قوم لوط فى سدوم وعامورة ، وكان كل طائر يحمل ثلاثا منها بمنقاره .

الفصل الخامس والستون ،

وشرح لى جبريل بعد ذلك كيف خلق الله الأمانة وعرضها على السماوات والأرض والجبال والوديان ، قائلا إنها إن وعتها كما يجب فسيكون لها جزيل الثواب ، وإن لا فسيحق عليها العقاب ، ولكنها أبت أن تتلقاها وتحملها ؛ فأعطاها الله لآدم الذى قبلها ورضى أن يرعاها بنفسه وبخلفائه ، وإن أعظم أمانة هى معرفة النفس ، والمثول الدائم أمام الله ، حيث يكون حضرته وأمام عرشه مثل حبة خردل فى كف اليد أو مثل كوب صغير فوق مائدة عظيمة . من أجل هذه الأمانة فإن الرجال والنساء والطير

والوحوش وكل المخلوقات تسبح بحمد الله ، بل إن الضفادع تسبح بحمده مثلها جميعا عشر مرات ، لن تكف عن ذلك حتى يوم القيامة الذى تتحول فيه بأمر الله إلى تراب .

الفصل السادس والستون :

وقال لى جبريل إن يوم القيامة سيجتمع فيه كل الناس كى يسمعوا أو يتلقوا الحكم عليهم ، وسيأتون حفاة عراة كما ولدوا ، وتكون أعمارهم ثلاثين سنة ، ولا يخجلون من عريهم لما سيكونون فيه من شغل بأنفسهم وبذنوبهم وقرب الحساب الذى سيضعهم فى موقف عسير ، حيث يتصبب منهم العرق وهم محملون بالذنوب حتى يصل إلى أعجاز بعضهم ويصل من بعضهم الآخر إلى الركب أو إلى الأقدام . وعندما يرى الله ماهم فيه من شدة وكرب يأمر ملائكته بأن يحضروا العرش ويضعوه على أرض ناصعة البياض ، أبهى من أشد أنواع الفضة نقاء ، حيث لم يرتكب ذنب أبداً ؛ ولم ترق قطرة دم على الإطلاق ، ويتجلى الله سبحانه وتعالى لكل العالم حيث تراه عيون الناس لأول مرة .

الفصل السابع والستون :

يجلس الله على عرشه ؛ ويجمع أمامه كل الخلائق ، ينادى على كل واحد باسمه ، ويجعله يمثل فى حضرته حتى يراه ويسمعه جميع الناس ، ثم يأمر بأن يحضروا كل ما فعله فى حياته من خير أو شر لتقرأ صحيفته على الملأ ، ثم يشير بأن يتقدم كل من له شكوى ضده ، فيعوضهم الله من حسناته ، فاذا أصبحت السيئات أعظم من الحسنات حمل إلى الجحيم ، وفى هذا اليوم لن ينجى أحداً سوى حساب حسناته وسيئاته ، وسوف يكشف عن جميع الأسرار ، وحتى جوارح الإنسان فتشهد عليه وتفضحه وتشهر بأى ذنب ارتكبه وأخفاه . أما الذين قصرت حسناته عن تعويضهم فان الله يجزيهم بفضله ، كل هذا يتم فى لحظة واحدة لأن الله عنده علم كل شيء حاضر فى حكمه وعدله ، حتى لن يكون هناك ملك ولا نبى ولا شهيد ولا ولى من أوليائه لا يرتجف من دقة الحساب الإلهى الذى لا يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها .

الفصل الثامن والستون :

ولما سألت جبريل عما إذا كانت كل تلك السماوات والأرض متصلة فيما بينها أو منفصلة قال لى إنه من الضرورى مراجعة كل ما رأيت للإحاطة بفهمه ، وهكذا تذكرت أنه عندما خلق الله الأرضين السبعة أمر ملكاً يسمى عزرائيل أن يمسكها وهو يركب ثورا يسمى بهموت ، وأمر هذا الثور أن يعتمد على صخرة خضراء ، وعلى تلك الصخرة قام جـــزء من الجبل العظيم المسمى بجبل قاف ، أما إلى أسفل فهواء وضباب يمتدان حتى قاع الماء ، وبين هذا الماء والضباب يقوم الحوت الكبير الذى يمسك بجميع الأشياء أن تقع والذى يحوطه الريح العقيم . أما جبل « زار » المذكور من قبل فهو مقسم دائرياً إلى سبعة أقسام ، كل منها منفصل عن الآخر ، وتبعد كل أرض عن الأخرى بمقدار خمسمائة سنة ، وكل هذا إنما يدخل فى جبل قاف .

الفصل التاسع والستون :

سألت إن كان هناك ناس فيما وراء جبل قاف فقال لى إن الهواء كانت فيه بعض المخلوقات الحية على هيئة الإنسان لايعلم أمرهم إلا الله ، وأنه ما بين سماء العرش والسماء التى تقع أسفل منها يوجد ديك الله الذى تحدثنا عنه ، وأن تلك هى أرض قاف ، ومنها يتفرع سبعة عشر فرعاً مثل أغصان الشجر تمتد نحو السماوات ، وهى من الضخامة والعظم بحيث تنفذ حتى أقطار السماء الثامنة التى تعتمد عليها بقية السماوات دون أن تمس الأفرع . ومن وراء جبل قاف تمتد الأبحر السبعة التى تحيط بكل شىء . أما فوهة الجحيم فهى فى منتصف الجزء التالى للأرض السابعة مثل البئر العظيم . وكل هذا يقوم على أكتاف الملك المذكور . وإلى جوار فوهة جهنم هناك سبعة أبحر من نار تصب كلها فى بحر هائل يجعل الله أرواح العصاة تغتسل وتتطهر فيه ، ولكن أرواح المكذبين به تنغمس فيه حتى

تلقى حسابها يوم القيامة . وعندئذ يرفع الله الجحيم والجنة على السواء ، لكن الجنة فوق الجحيم ، وعلى الجحيم يقوم الصراط يوم القيامة ، وهو جسر طوله مسيرة خمسمائة عام . وبجواره روضة مختبئة طولها خمسمائة عام كذلك ، وهى تقع ما بين أرضنا والأرض الأولى من الأرضين السبع ، وإلى جانبها روضة أخرى تقع بين الأرض الأولى والثانية عرضها ثلاثون سنة ، وبين الثانية والثالثة روضة أخرى مسافتها ثلاثون سنة أيضاً ، وهكذا تقوم رياض بنفس القدر بين بقية الأرضين .

الفصل السبعون :

وشرح لى جبريل بعد ذلك كيف وزع الله رزقه بين مخلوقاته ، فعندما خلق السماوات والأرض قسم نعمته إلى عشرة أجزاء ، وأعطى تسعة منها لملائكة السماء الثامنة حيث يقوم عرشه ؛ ثم قسم الجزء العاشر إلى عشرة أجزاء ، وأعطى تسعة منها إلى ملائكة السماء السابعة ، وهكذا قسم ووزع بنفس الطريقة فى بقية السماوات حتى قسم العشر المتبقى من السماء الأولى إلى عشرة أجزاء كذلك ، وأعطى تسعة منها إلى أرواح النار ، ثم أعطى تسعة أعشار العشر الباقى إلى الأشباح والجن فى الهواء ، ومثله مما تبقى إلى الطير فى السماء ، ومثله مما تبقى إلى السمك فى الماء . وقد أعطى للإنسان نعمة عظيمة جعلته يعرف ويميز جميع الأشياء . وبعد ذلك خلق الشر على الأرض ، وقسمه على الناس بنفس الطريقة ، فأعطى تسعة من الأقسام العشرة الأولى إلى يأجوج ومأجوج ، ثم خلق الحسد من العشر الباقى وأعطى للعرب تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقى خلق الفجور وأعطى الهنود تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقى خلق الزيف وأعطى اليهود تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقى خلق الكبرياء وأعطى المسيحيين تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقى خلق البخل وأعطى الفرس تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقى خلق الجهل وأعطى أهل الحبشة تسعة أعشاره ، ومن العشر الباقى خلق الخيلاء وأعطى البربر تسعة أعشاره ، ثم وزع الباقى على العالم كله . ثم خلق بعد ذلك

الملذات وقسمها إلى عشرة أجزاء ، وأعطى تسعة منها للنساء والباقى وزعه على العالم كله ، ثم خلق الجنة وأعطى تسعة أعشارها لمن تبع دينى والباقى للعالم كله

الفصل الواحد والسبعون :

ولما انتهينا من ذلك أخذ جبريل ينفث الزفرات قائلا لى إنها من حزنه على ما يرى من عذاب المذنبين فى النار . ثم أمسك بيدى وذهب بى إلى مكان رأيت منه الجحيم وأبوابه السبعة بعضها فوق بعض ، وهى شديدة التوقد حتى أن أهونها لو كان فى المشرق وكان الإنسان فى المغرب لصهرت مخه حتى يخرج من أنفه من شدة الحرارة التى تنبعث منها . أما أسماء أبوابها فهى . جهنم ولهب والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية ، ويبعد كل باب عن الآخر بمقـــدار سبعين ألف سنة ، وأمام كل باب جموع غفيرة من الناس والشياطين يأتى بهم الله كل يوم كى يروا من هناك ما ضيعوه من نعيم الجنة فتذوب نفسهم حسرات وتتضاعف أحزانهم . وبخارج الأبواب على الشمال سبعون ألف جبل من نار ، ينبع منها سبعون ألف نبع من نار ، على حافة كل نبع سبعون ألف قلعة من نار ؛ بكل منها سبعون ألف بهو من نار ، وفى كل بهو سبعون ألف امرأة من نار كلهم غاية فى القبح والشناعة ، فإذا ما التقين بالعصاة والمذنبين أخذنهم بالأحضان الشديدة ، حتى يتراءى لهم أنهم قد فقدوا حياتهم حرقاً بأشد مما تحرق كل النيران الأخرى ، فيتمنون لو مات كل منهم سبعين ألف مرة فى اليوم قبل ذلك . كما تصب كل واحدة منهن عليهم سبعين ألف نوع من العذاب . وعلى شواطى هذه الأنهار النارية سبعون ألف شجرة من نار ، بكل شجرة سبعون ألف صنف من الثمار ، فى كل ثمرة سبعون ألف دودة ، أقل دودة بها من السم ما يكفى للقضاء على جميع أهل الدنيا وفصل لحمهم عن عظامهم . وتحت كل شجرة سبعون ألف تنين ومثلهم من العقارب . وجهنم كلها مليئة بالوحوش الضارية من جميع الأشكال ، وهى تصيب

الكفار والمذنبين بما يصل إلى سبعين ألف نوع من العذاب . فتجعلهم يتمنون لو ماتوا سبعين ألف مرة فى اليوم قبل أن يلاقوه .

الفصل الثانى والسبعون :

وشرح لى جبريل بعد ذلك عقاب جهنم المقسم طبقاً لأنواع الذنوب المقترفة ، فقد أمر الله أن يحشر من الباب الأول المسمى جهنم كل من يشرك به معتقداً فى أصنام من طين أو معدن ، أما الباب الثانى لهب فهو للمرتدين ، والثالث وهو الحطمة للبخلاء ويأجوج ومأجوج . والرابع وهو السعير للمقامرين والمجدفين ، والخامس وهو سقر للذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ، والسادس وهو الجحيم لمن يكذبون أنبياء الله ورسله والسابع وهو الهاوية لمن يطففون فى الكيل والميزان . وبقية النار مقسمة إلى سبعة أجزاء ، ستة منها لمن يدعون مع الله إلهاً آخر ويفعلون ما يشتهون دون أن يأتمروا بأمر الله . وكل هذه الأصناف من الناس ستمحى أسماؤهم من سجل الحياة .

الفصل الثالث والسبعون :

ويوم القيامة سوف يأمر الله بأن يحضر أمامه وحش عملاق قد خصص للأخذ بزمامه سبعين ألف زمرة من الملائكة ، هؤلاء الملائكة يعلون فى السماء أربعة أعمدة عظيمة طول كل منها مسيرة سبعين ألف سنة ، ثم يقيمونها فى أركان المحشر الأربعة ويربطون فيها ذلك الوحش ليعذب العصاة والمذنبين . هذا الوحش له ثلاثون ألف فم ، بكل فم ثلاثون ألف ناب أحد من السيف ثلاثين ألف مرة . وبكل مشفر من مشافره حلقة عظيمة من حديد وسلسلة كبيرة ، بكل سلسلة سبعون ألف خاتم من حديد ، وقد أمسك بكل خاتم ملك عظيم ، بلغ من الضخامة إلى درجة أنه يستطيع أن يزدرد الدنيا وما فيها دون أن ينال منه ذلك شيئاً . هذا الوحش العملاق شديد البشاعة مهول الشكل حتى لو أنه وضع فى أقصى طرف من الأرض

وفى الطرف الآخر إنسان لغشى عليه من الخوف والفزع . وعندما يجد هذا الوحش نفسه وقد جرته الملائكة وأحضرته أمام الله يرتجف بشـــدة ويرجوهم أن يخبروه عن سبب إحضاره أمام الله ، ولكنهم يجيبونه بأنهم لا يعرفون السبب ويفعلون ما يؤمرون . وعندما يركع أمام الله يخبره أنه خلقه كي يعذب به العصاة وينتقم به من آثامهم ، خاصة هؤلاء الذين يشركون به إلها اخر . عندئذ يقدم له الوحش أعظم الحمدو الثناء خضوعاً واستسلاماً لإرادته ، ويزفر بشدة لو سمع أهل الكون زفرة واحدة منها لماتوا من الخوف ، ثم لا يلبث أن يمضى فى الحال وهو ينفث من فمه لهباً لو امتد من فوق العالم كله هو والدخان الذى يخرج من أنفه لأظلمت به الأرض جميعاً ولما استطاع أحد أن يرى أحداً إلا بفضل من الله . ثم سارت الملائكة إلى جانبه وهى تقوده إلى الجحيم .

الفصل الرابع والسبعون :

وانتابنى لكل ذلك خوف وفزع شديدان فأخذ قلبي يدق فى صدرى ، وقد طلبت من جبريل أن لا يخفى علىّ من الأمر شيئاً فأخبرنى أن كل الناس يوم القيامة سيرون هذا الوحش وسيبلغ بهم لذلك الفزع مداه حتى ليخيل إليهم أن قلوبهم ستنزع من صدورهم وأن أعضاءهم ستقطع إرباً إرباً وسيغشى عليهم لمجرد رؤية الوحش وتذكر ذنوبهم . ويأمر الله بإحضار ميزان أمامه يبلغ حده ما بين المشرق والمغرب ، وكل واحد من كفاته يبلغ من الضخامة درجة أن يغطى الأرض جميعها ، إحداها من نور والأخرى من ظلام ، أما كفة النور فهى على اليمين وكفة الظلام على اليسار ، وتوضع الحسنات فى كفة النور كما توضع السيئات فى كفة اليسار والظلام ، ويحمل كل إنسان قفتين مثل الحوضين ، يبلغ طولهما مقدار ما يصل إليه بصر الإنسان على أبعد مسافة ، يضع حسناته فى إحداهما وسيئاته فى الأخرى ، وعندما يأتى إلى الميزان يفرغ حسناته فى كفة النور وسيئاته فى كفة الظلام ويظل هو فى الوسط ، حتى يذهب ناحية الظلام إن ثقلت سيئاته وفاقت

حسناته ، وناحية النور إن ثقلت حسناته و هبطت كفتها فى الميزان . ومن أجلك يا محمد فان الله سيجعل أى إنسان مهما كان جنسه أو ملته ومهما كانت الذنوب التى ارتكبها ، ما دامت معه ورقة كتب فيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويلقيها فى كفة النور فإنها سترجح وحدها كل ذنوبه فى الكفة الأخرى ثم تغفر له جميع تلك الذنوب وما عداها ويمحوها الله من كتابه .

الفصل الخامس و السبعون :

ثم قال جبريل إن يوم القيامة سيكون طوله خمسين ألف سنة ، ولكنه عند الله لن يزيد على طرفة عين ، وهذا لسببين : لأن الجوع سيكونون يوم الحشر واقفين على أقدامهم ، ولأن الصالحين سيكون عندهم شوق عظيم للذهاب إلى حيث ينعمون بثواب طيباتهم ، أما الآخرون فسوف يحروهم الحزن و الكرب والجوع والعطش والخوف المقيم .وهذا اليوم سيقال له يوم البعث والنشور واليوم الآخر لجميع الأيام ، وفيه ترتجف السماوات والأرض وينفخ فى الصور فتسمع صيحة كبرى هائلة فيقوم جميع الموتى ويبعثون أحياء ، وسيكون يوم الحساب والعقاب والعدل ، وفيه تتغير وجوه الناس فمنهم من تبيض وجوههم ومنهم من تسود ، ولا مجال فيه للكذب ولا للغش ، ولايغنى والد عن ولده شيئاً ، وتذهل فيه الحامل عمن فى أحشائها وترى الناس سكارى من الخوف ، فى هذا اليوم يبدل الله أرضاً غير الأرض وسماء غير السماء ويكون كل شىء أمام عظمة الله ضئيلا صغيراً كأنه سفينة صغيرة فى بحر عظيم . وعنده لن تكون هناك ذنوب أخرى لأن قلوب البشر سترى بكل وضوح صغارها وحماقتها ، وسيفقد الشر والكذب كل سلطانهما ، وسيكون يوم محنة خاصة وعذاب شديد لمن لم يؤمن بالله ومن لم يطع رسله فيما جاءوا به من عند الله .

الفصل السادس والسبعون :

وحدثني جبريل بعد ذلك عن الجسر المسمى بالصراط الذى خلقه الله ليبلو الصالحين والعاصين من عباده ، وهو معلق فوق الجحيم ، أرق من الشعرة وأحد من السيف ، محاط من جانبيه بكلاليب وخطاطيف حديدية أعظم وأسن من أكبر الرماح ، وهو مقسم إلى سبعة جسور ، بعضها فوق بعض ، أولها طوله مسيرة عشرة آلاف سنة ، وثانيها عشرين ألف سنة . وثالثها أربعين ألف سنة ، ورابعها ثمانين ألف سنة ،وخامسها مائة وستين ألف سنة ، وسادسها ثلاثمائة وعشرين ألف سنة ، وسابعها ستمائة وأربعين ألف سنة .

ثم قال لى : عندما يأمر الله أمتك بالذهاب إلى الجنة سيحاولون اجتياز الجسر الأول ، وسيختبرون حينئذ فى إيمانهم وكيفيــة اعتقادهم ، أما المؤمنون الصالحون فسيمرون ، وأما الطالحون فسوف تنهشهم الكلاليب وتمسك بهم الخطاطيف حتى يقعوا فى النار . ومن يمر إلى الجسر الثانى فسوف يسأل عما إذا كان قد أقام الصلاة المفروضة ، فإن كان قد أقامها مر وإن لا سقط فى النار مثل الأولين ، ومن يعبر إلى الجسر الثالث فسوف يمتحن فى حفظ القرآن أم لا ، فأما من حفظه فسيمر وإن لا وقع فى النار ،والذين يمرون إلى الرابع سوف يسألون عن الصيام، فمن أتم صيامه مر وإن لا سقط فى النار . ومن يذهبون إلى الخامس يسألون عن فريضة الحج إلى مكة فى الميقات المعهود ، فمن حج مر وإن لا سقط فى النار ، ومن يمرون إلى السادس يسألون عن الغسل والوضوء عند الصلاة وبعد الجنابة ، فمن كان قد فعل مر ومن لم يفعل سقط فى النار ، ومن يذهب إلى الجسر السابع يسأل عن بر الوالدين الذى أمر به الشرع ، فإن كان قد برهما مر ونجا وإن لا سقط على وجهه فى النار ليذوق العذاب الأبدى جزاء وفاقا على عقوقه وظلمه .

الفصل السابع والسبعون :

وأخبرنى جبريل أيضاً عن هذا الجسر أن طرفه فى وسطه ، وأن الجزء الذى به الكلاليب والخطاطيف يكاد يشبه أكبر الجبال وأعلاها فى الأرض ، إذ يشق الصعود عليه والهبوط منه إلى أقصى درجة ، فيبدو النزول منه كما لو كان انحدارا إلى هاوية ، وبه من هذه الجبال سبعون جبلا، يستغرق الصعود إليها والهبوط منها سبعين ألف سنة ، وبين كل جبل وآخر ظلام ممتد يبلغ مسافة ثلاثة آلاف سنة . أما اللهب الذى يخرج من النار فإنه يتجاوز رؤوس من يمرون على هذه الجسور المذكورة بمسافة مقدارها مسيرة سبعين ألف سنة ، ويتصاعد ذلك اللهب على جانبى الجسر حتى ليخيل للعابرين أنهم يسيرون فى طريق من نار ، ولا يرون فى كل اتجاه سوى اللهب والنار . فلذا نظروا إلى أسفل رأوا جهنم بأبوابها السبعة ، حيث ينبع بجوار كل باب سبعون ألف نهر من نار ، ويتفرع من كل نهر مائة ألف جدول من نار ، فى كل منها ألف تنين ، ومثلها من العقارب التى يبلغ أصغرها مسيرة عشرة آلاف سنة ، ولكل تنين وعقرب سبعون ألف ذنب ، بكل ذنب عشرة آلاف خاتم ، بكل خاتم عشرة آلاف قرن صغير ملىء بالسم الناقع ، فاذا ماوقع أحد المذنبين إلى النار فإنها تنهشه وتصب عليه من سمها مايقضى عليه ، لكنه يعود مرة أخرى إلى الحياة ليذوق سوء العذاب . كذلك يجعلونه يرتدى سبعين جلدا منها ، كل جلد يبلغ سمكه سبعين ذراعا ، ومسافة مابين كل جلد وآخر مليئة بالحيات والعقارب التى تلدغه وتسممه وتقطع جسده إربا إربا حتى يتمنى أن يأتيه الموت ألف مرة . وتحرقه نار الجحيم سبعين ألف مرة فى اليوم دون أن يستطيع موتا نهائياً بأمر الله كى يذوق العذاب ، أما أثناء النهار فانه يجمع الأخطاب التى يحرق بها فى الليل .

الفصل الثامن والسبعون :

وقد انهمرت دموعى غزيرة عند سماع أخبار هذه العقوبات ، وقال لى جبريل إن كثيرا من أمتى سيقع فى الجحيم رجالا ونساء ، وسيوزعهم

الله إلى سبع مجموعات ويقول لهم : من يظن منكم أن من حقه أن يعبر الجسر فليتقدم لعبوره : فيهرعون جميعاً لاجتيازه ، أما أنت يامحمدفستكون فى الجانب الآخر من الجسر عند الجنة ، يرتفع صوتك بالدعاء قائلا « اللهم نج أمتى » وعندما يسمعونك يهرعون إلى الجسر متكالبين كأنهم سحب من جراد منتشر وهو يتساقط على الأرض ، أما أنا - أى جبريل فسأكون مع أمتك داعياً « اللهم ارزقهم النجاة ، النجاة » . وعند عبورهم يرتجف الجسر كأنه نخلة تعصف بها الريح ، فاذا مرالمقدمون من أهل الزمرة الأولىمروا خفافا كأنهم البرق ، ومر أهل الزمرة الثانية كأنهم ريح إعصار ، والثالثة مثل الطير المحلق فى أجواء الفضاء ، والرابعة مثل جواد السباق ، والخامسة مثل الرجل العداء ، والسادسةمثل الإنسان النشط السريع ،والسابعة مثل طفل صغير يحبو ويتعلم المشى ، بعضهم يجر نفسه على صدره ، وآخر يتشبث بيده بالجسر ، فاذا مالسعته النار سحبها وتشبث باليد الأخرى ، فاذا ما لسعته رفعها وحاول التشبث بقدميه ، فاذا زلت إحداها اعتمد على الأخرى ، وهكذا يظلون على تلك الصورة حتى يعبروا جسر الصراط وقد اسودت أجسامهم فصارت مثل الفحم من الحروق . بعضهم يقاسى هــذا العذاب طيلة يوم وليلة ،وآخرون طيلة يومين ،وآخرون طيلة شهر أو شهرين أو ثلاثة ، وآخرون طيلة عام أو عامين أو أكثر ، وهكذا حتى يكون هناك من يستغرق خمساً وعشرين ألف سنة ، وهى نصف يوم القيامة الذى يطول بمقدار خمسين ألف سنة ، يعنى أن من سيكون مصيره الجنة أو النار عليه أن يكون فيها يوم القيامة قبل منتصف النهار .

الفصل التاسع والسبعون :

ولما فرغ جبريل من حديثه ، رأيت بعض العصاة والكفار وهم يقاسون أنواعا مختلفة من العذاب فى جهنم ، مما جعلنى أتصبب عرقا من الكرب والضيق ، رأيت بعضهم تنزع شفاههم برماح متقدة ، وقال لى جبريل هؤلاء الذين يزرعون دائماً الشقاق بكلماتهم ، وآخرين تنزع ألسنتهم

لما شهدوا به من شهادة الزور ، وآخرين معلقين من ذكورهم في خطاطيف من نار ، وهؤلاء هم الزناة ، ورأيت بعد ذلك أفواجاً من النساء معلقات في كتل من نار ربطت على فروجهن وعلقت تلك الكتل في سلاسل من نار وهن البغايا ، ورأيت أفواجا أخرى ممن كان يعجبك منظرهم وملبسهم في الحياة الدنيا فعرفت أنهم الموسرون من أمتي ،وقد جعلوا يحترقون بنار هائلة لأنهم على الرغم من صدقاتهم كانوا ظالمين ومتكبرين على الضعفاء من الناس. وهكذا أنظر إلى كل العصاة والمذنبين وهم يتعذبون طبقاً لما اقترفوا من سيئات ، فرجوت جبريل أن يبعد بي عن هذه المشاهد ، إذ لا أطيق ما أرى من هول وعذاب . فسألني جبريل عن رأيي في كل ما شاهدت من غرائب ، فقلت له إنني أدرك جيداً في الدرجة الأولى الشرف الذي خصني به الله سبحانه وتعالى عندما أطلعني على ما أعده لأوليائه الصالحين من نعيم وما أعده للأشرار من عذاب مقيم ؛ ثم أجبته كذلك بأنني سوف أحتفظ في ذاكرتي جيدا بكل ما رأيت ، فقال لي عليك أن تبلغ أمتك بما رأيت حتى تتبع الطريق المستقيم ، وتتجنب المعاصي والذنوب .

الفصل الثمانون :

ثم أردف جبريل قائلا : أما أنت يا محمد فسوف ترجع الآن ، وسأكون بصحبتك ، سنذهب إلى بيت المقدس ، وتركب البراق مرة أخرى وسيمضي بك إلى بيتك ، ثم أمسك بيدي ، وهبطنا إلى الصخرة السوداء التي ذكرتها من قبل ، حيث كان ينتظرني البراق بفرح عظيم ، وعانقني جبريل وباركني وأوصاني كثيراً أن أبلغ هذه الأشياء إلى أمتي ، فامتطيت البراق ، ورجعت إلى بيتي ، وكان الفجر قد بزغ ، فترجلت عن البراق الذي تطأطأ لي واختفى على الفور . دخلت بيتي فوجدت زوجتي أم هانئ ما زالت نائمة في الفراش ، فلما جلست على حافته استيقظت ، ورأتني وقد غمرني الحبور والفرح فسألتني عن السبب فرويت لها كل ما رأيت ، طلبت مني أن أرتاح

وأرقد حتى يطلع النهار ، لكنى آخبرتها أننى سأذهب من فورى إلى المسجد لأخبر قريشاً بكل شىء ، فاعترضت على وقالت إنهم سوف يعتبرونه افتراء ويسخرون منه .

الفصل الواحد والثمانون :

خرجت من منزلى ، وكان النهار قد أشرق ، فقابلت عند عتبته زوجتى الأخرى « حفصة » مع ابنتى فاطمة ، وكانتا قادمتين لرؤيتى ، وبعد أن أخبرتهما بكل ما حدث طلبتا إلى بإلحاح كذلك أن لا أذهب لأقص مثل تلك الأشياء على قبيلتى ، لكننى مضيت فى طريقى ، فقابلت ابن عمى « ابن عباس » ولما عرف بما أخبرته به حاول كذلك أن يثنينى عن هدفى ، لكنى ذهبت حتى دخلت المسجد ، فوجدت كل قبيلتى مجتمعة ، ومعهم أبوبكر الصديق ، فنهضوا جميعاً ، وقال أحدهم ، وكان قاضياً بينهم ، اسمه « الحكم » ، وتبعه ابن عم آخر لى كان يكرهنى ، أبوبكر (؟) قالوا للمجتمعين : هاكم محمد ، جاء ليقص علينا تلك الأكاذيب التى لم يسمع بها أحد قط من قبل .

الفصل الثانى والثمانون :

ولكنى مع ذلك ألقيت السلام عليهم جميعاً بنظرة ثابتة جذلة ، فأفسحوا لى مكاناً بينهم ، وأخذت أشرح لهم كيف أمرنى الله أن أبلغهم ما أرانيه فى الليلة السابقة من آيات قدرته ونعمته ، والشرف الذى خصنى به ، وكيف أنه لابد لهم من تصديقى وطاعتى فى كل ما جئت به من الله من قول أو عمل لأننى قد بعثت رسولا من الله للعالمين . فلما أخبرتهم بكل شىء صدقنى أبوبكر الصديق فى كل ما قلت ، أما الآخرون فقد لزموا الصمت وفى النهاية قاموا ثائرين ورمونى بالكذب والافتراء ، إذ أننى أطلب منهم أن يصدقوا أننى فى ليلة واحدة قد ذهبت إلى بيت المقدس ورأيت أطباق

الأرض والسماوات والجنة والنار ، وأن بين كل سماء وأخرى مسيرة خمسمائة عام ، بينما هم يعرفون أن ما بين مكة وبيت المقدس مسيرة شهر على الأقل . قالوا لى هذا وغيره من الكلمات المؤذية ، ولكن أبا بكر قال لهم إن كل هذا ممكن بقدرة الله .

الفصل الثالث والثمانون :

وتحملت أذاهم فى صبر حباً لله ولهم ، وقالوا لى فى نهاية الأمر : إن كنت حقا رسولا من الله كما تزعم ، فقل لنا أين تسير قافلتنا التى ذهبت إلى بيت المقدس وماذا تحمل ومتى تعود ؟ وكانوا قد بعثوا أربعين بعيرا لإحضار مؤونة ولابد أن تمر ببيت المقدس ، فلم أستطع أن أرد عليهم فى الحال بشىء ، لأن الله لم يكن قد أظهرنى عليها فى الليلة السابقة ، فنكست رأسى ، وغطيتها بالعمامة ، وبدأت أفكر وأصلى لله بخضوع حتى يهبنى القدرة على أن أقول الحق لقبيلتى حتى يؤمنوا بكلمتى ويصدقوا رسالتى . ولما فرغت من صلاتى أمر الله جبريل أن يحضر أمامى العالم كله حتى يمكننى رؤيته كما لو كان فى كفى ، وحدث هذا فى الحال ، فرأيت بيت المقدس والقافلة وما تضمه من جمال وما تحمله من أحمال ، رأيت كل شىء ثم رفعت رأسى ونظرت إلى جميع الحاضرين فقال لهم أبو بكر الصديق إننى صادق وقد عرفت كل الحقيقة .

الفصل الرابع والثمانون :

قلت لهم : لقد كذبتمونى فيما أخبرتكم به ، وأردتم مع ذلك أن تختبرونى بشأن قافلتكم ، فاعلموا الإذن أن الله قد جعل جبريل يطلعنى على كل شىء ، إنها أربعون دابة ، منها عشرة محملة بالبر وعشرة محملة بالتمر وعشره محملة بالتين وعشرة محملة بالزبيب ، وقد اقتربت من هنا حتى إنها لتصل اليوم نفسه ، فحثهم أبو بكر بعد ذلك على أن يتثبتوا مما قلت ،

فنهضوا من نومهم ، وانطلقوا إلى طريق القافلة ، فوجدوا أن كل شئ مطابق لما أخبرتهم به . ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا بى ، ولا بما أنزل على من قرآن فى ذلك ، فاعلموا إذن أن ما جاء فى القرآن عن الذين لايؤمنون بالحق فهو يشير إلى أهل مكة الذين لم يريدوا الإيمان إلا بحد السيف ، وأنه حيث يتحدث القرآن عن المؤمنين بالحق فهو يشير إلى أهل المدينة ، لأنهم هم الذين آمنوا وصدقوا بالحق لما جاءهم من كل قلوبهم .

الفصل الخامس والثمانون :

وبعد ذلك ، فإن الغالبية العظمى من قريش آمنوا بكلماتى ، وبما قلت لهم عن القافلة ، ورجونى أن آمر بأن تكتب كل تلك الأشياء لتكون شهادة وذكراً لمن يأتى من بعدى ، وطبقاً للاتفاق المشترك معهم فقد أمرت أبا بكر وابن عز (؟) أن يكتبوا ما حدث لى وما سيحدث من بعد ، وكان الاثنان صالحين ومؤمنين موثوق بهما عرفا بالسمعة الطيبة والذكر الحسن ، فاستجابا لرجائى بفرح عظيم وسرعة فائقة ، وكتبا فى هذا الكتاب المسمى بالمعراج ما حدث لى كلمة كلمة .

وقد كتب هذا الكتاب فى السنة الثامنة من بعد أن نزلت على روح الله وصرت نبيا . أما نحن أبا بكر وابن عز ، فنشهد بضمير مستقيم وقلب سليم أن كل الأشياء التى قالها محمد حق وصدق ، وأن على كل من يسمع روايتها أن يؤمن بصدقها وأنها حدثت بالفعل كما سجلت وستسجل فيما بعد.

(انتهى)

نماذج من نظائرها في المأثورات

١ ــ بداية الإسراء والمعراج وحوار الرسول مع جبريل

ــ كنت فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها واسمها فاختة ليلة الاثنين ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة .. وإذا بالباب قد طرقه طارق فخرجت فاطمة لترى من بالباب فرأت شخصاً عليه الحلى والحلل وله جناحان أخضران قد سد بهما المشرق والمغرب وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر مكتوب على جبهته لاإله إلا الله محمد رسول الله .. فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآه فإذا به جبريل عليه السلام .. فقال : يا أخى جبريل أوحى نزل أم وعــد حضر أم أمر حدث ؟ قال يا حبيبى قم والبس ثيابك وسكن قلبك فإنك فى هذه الليلة تناجى ربك (١) .

ــ أتانى جبريل عليه السلام وهو فى الصورة التى خلقه الله فيها لونه مثل بياض الثلج وله جناحان أخضران ورجله من اللؤلؤ الرطب واضح الجبين مشرق النور ومعه ميكائيل فنادانى أنت نائم أم يقظان يا محمد ، فانتبهت من نومى فزعاً مرعوباً ، فقلت حبيبى جبريل ، أمر حــدث أم وعد اقترب أم وحى تجدد ؟ قال : ليس من ذلك شيء ولكن فى هذه الليلة يكون قلبك معك تريد أن تكلم رب العالمين (٢) .

ــ عن أم هانئ قالت : بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فى بيتى ففقدته من الليل فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن جبريل أتانى فأخذ بيدى فإذا على الباب دابة .. (٣)

---

(١) ابن عباس ، الأسراء والمعراج ، مكتبة الجمهورية بالقاهرة ص ٢-٣

(٢) مخطوطه هذا معراج الرسول بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٣٨ تيمور ص ١ .

(٣) الخصائص الكبرى للسيوطى نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٧ جـ١ص ٣٣٩ .

٢ – وصف البراق وعملية الركوب وما حف بها

– فإذا بالبراق قائما وجبريل يقوده ، وإذا هو دابة لا تشبه الدواب ، فوق الحمار ودون البغل ، له وجه كوجه ابن آدم ، وجسده كجسد الفرس ، عرفها من اللؤلؤ الرطب ، منسوج بقضبان الياقوت يلمع بالنور وأذناها من الزمرد الأخضر وعيناها مثل كوكب درى يوقد لها شعاع كشعاع الشمس عليها جل مرصع بالدر والجوهر (١) .

– وجهها كوجه إنسان وخدها كخد الفرس وعرفها من لؤلؤة مشبك بالمرجان الأحمر وناصيتها من ياقوت أحمر مدرج بالنور ،وأذناها من زمرد أخضر ، وعيناها مثل الزهرة والمريخ يتقدان ، محجلة لها جناحان كجناحى النسر يقطر منهما مثل الجمان ، ذنبها كذنب البقر من فضة ، مسبوج العظام منسوج بالياقوت والمرجان ، لها جناحان كدائرة القمر ، فوق الحمار ودون البغل ، أظلافها كأظلاف البقر من زمرد ، بطنها كالفضة ، وعنقها وصدرها وظهرها كالذهب ، خطوها منتهى نظرها(٢)

– وزمامها من لجين مكلـــل بالجواهر ، ورجليها من ديباج لونه كلون السماء ، عليها ثلاثة مياسر : ميسرة من حرير وميسرة من سندس ، ميسرة من استبرق وفوق ذلك قطعة من أرجوان تتلألأ نورا (٣)

– فتقدمت لأركبه فاضطرب فقال له جبريل : يا براق اسكن : أما تستحى أن تنفر من بين يدى سيد الخلق (٤) .

– فوالله ماركبك خلق قط أكرم على الله منه ؛ أى ماركبك أحد قط فكيف يركبك أكرم منه (٥) .

---

(١) ابن عباس ص ٣–٤.   (٢) معراج القشيرى ص ٤٤ .

(٣) مخطوط بعنوان معراج محمد بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٩٣ تاريخ طلعت ص ١٢–١٣

(٤) ابن عباس ص ٤

(٥) المواهب اللدنية للقسطلانى ، نشر دار الكتب العلمية جـ ٢ ص ١٣

ـ فلما وضعت يدى عليها نفرت وعصت ، فلما رأى ذلك جبريل عليه السلام قال : يا أيها البراق ، أما تستحى من هذا النبى ، تنفرين منه وهو أكرم الخلق عند الله عز وجل ، فقالت : من هذا النبى يا جبريل؟ فقال لها : هذا محمد بن عبد الله .. فعند ذلك خضعت وتواطت ولزمت بجبريل فلما وضعت يدى عليها سمعت خشخشة اللؤلؤ والمرجان . . وكان الآخذ بركابى جبريل والماسك بعنانها ميكائيل والماسك بثيابى إسرافيل ، فلما استويت على ظهرها طارت بى حتى أتت بيت المقدس (١) .

٣ ـ الأصوات المنادية والمراة المتعرضة فى طريق الإسراء

ـ وكان جبريل عليه السلام معى لايفارقنى ، وميكائيل عن شمالى ، فبينما أنا فى المسير إذا سمعت صائحاً يصيح فلم أقف عليه وذلك بتوفيق من الله تعالى ، فسرت قليلا وإذا أنا بامرأة ناشرة شعرها باسطة ذراعيها وهى تجرى وعليها من كل زينة زينها الله تعالى فى الدنيا من الحلى والحلل قد أشرقت بحسنها وجمالها وهى تنادى يا محمد قف عن قليل فأنا من أنصح البرايا لك ولأمتك ، فمضت البراق ولم تقف . . ثم سرنا ما شاء الله تعالى فسمعت صوتاً أفزعنى وراعنى وكاد أن يطير له عقلى .. فقال لى جبريل هل سمعت أحدا ناداك وخاطبك قلت نعم ، سمعت صائحاً عن يمينى يقول الطريق عن يمينك فلم أجده ، وسمعت آخر يقول الطريق عن شمالك يا محمد فلم أجده ، واستقبلتنى امرأة مزينة فلم أكلم أحداً منهم ، فقال جبريل . . يا محمد أما الصائح الأول تلك داعية اليهود فلو أجبتها لتهودت أمتك من بعدك ، وأما الصائح الثانى فتلك داعية النصارى فلــو أجبتها لتنصرت أمتك من بعدك . وأما المزينة فتلك الدنيا لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا عن الآخرة وصارت كفاراً . (٢)

---

(١) المخطوطة السابقة ص ١٥ .

(٢) مخطوطة المعراج رقم ١٩٩٣-٢٣ .

— ثم سرنا ما شاء الله ، وإذا بصائح عن يمينى وهو يقول قف يامحمد فإنى أنصح لك ولأمتك فسرت ولم ألتفت إليه وكان ذلك فضلا من الله تعالى . وإذا بصائح عن شمالى وهو يقول قف يا محمد فإنى أنصح لك ولأمتك فسرت ولم ألتفت إليه . . وإذا بامرأة ناشرة شعرها عليها من كل زينة خلقها الله تعالى من الحلل والجواهر والدر والياقوت قد أشرق حسنها وجمالها وهى تنادى وتقول يا محمد قف حتى أكلمك فإنى أنصح لك ولأمتك ، فسرت ولم أقف . . . فقلت يا أخى جبريل أخبرنى عن الصائح الذى نادانى فى الطريق ، فقال : أما الصائح الأول فهو داعى النصارى ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك وأما الصائح الثانى فهو داعى اليهود ولو أجبته لتهودت أمتك من بعدك ، وأما المرأة الناشرة شعرها المتزينة بالحلل فتلك الدنيا ولو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة(١) —وسار حتى أتى مدينة بيت المقدس ودخلها من بابها اليمانى ثم نزل عن البراق وربطه بباب المسجد الأقصى بحلقة فى الصخرة السوداء التى كانت تربطه بها الأنبياء ، ودخل المسجد مع جبريل(٢) — حتى انتهينا إلى بيت المقدس فأنزلانى عنده فطعن جبريل بأصبعه الأسطوانة فثقبها ، أو وضع إصبعه فى الصخرة السوداء فخرقها وشد بها البراق ودخل معى المسجد(٣) .

٤ — الرسول يؤم جميع الأنبياء للصلاة فى بيت المقدس

— لما انتهى بى إلى المسجد فإذا أنا بالأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله قبلى من لدن إدريس ونوح إلى عيسى قد جمعهم الله ، فسلموا على وحيونى ، وقال جبريل سل هؤلاء هل كان لله شريك ، فأقروا لله بالعبودية وله سبحانه بالوحدانية ، ثم قدمنى فصليت بهم ركعتين(٤) . وفى رواية الحسن وابن مسعود ، فمضى رسول الله ومعه جبريل حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله

---

(١) ابن عباس ص٥-٦ (٢) الغيطى ص ٥٩-٦١ (٣) قشيرى ص ٤٥

(٤) قشيرى ص ٥٧

صلى الله عليه وسلم فصلى بهم(١) . أو · فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة ، قال فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل عليه السلام فقدمنى فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل يا محمد أتدرى من صلى خلفك ، قال : قلت لا ، قال : صلى خلفك كل نبى بعثه الله عز وجل . وعند أحمد فلما أتى صلى الله عليه وسلم الأقصى قام يصلى فإذا النبيون أجمعون يصلون معه(٢) وفى رواية أخرى : وقد حشر الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى المسجد الأقصى الملائكة والأنبياء ، فعرفهم النبى ما بين قائم وراكع وساجد ثم أذن جبريل وأقام الصلاة فقاموا صفوفا ينتظرون من يؤمهم فأخذ جبريل بيده الشريفة وقدمه للمحراب فصلى بهم ركعتين ، فلما انصرف من الصلاة أثنى كل نبى على ربه ثناء جميلا فقال النبى كلكم أثنى على ربه وأنا مثن عليه (ثم ذكر كلمات الثناء) فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد معشر الأنبياء فهو إمامكم فى الدنيا والآخرة وأنتم أتباعه ومن جملة أمته(٣) .

٥ – وصف مرقاة المعراج ودرجاتها وعملية العروج

– ثم إن جبريل عليه السلام أتى بى إلى الصخرة ، وإذا بالمعراج قد نصب إلى الصخرة من عنان السماء . فلم أر شيئا أحسن من المعراج وهو مرقاة من الذهب ومرقاة من الفضة ومرقاة من الزبرجد ومرقاة من الياقوت الأحمر فضمنى جبريل إلى صدره ولفنى بجناحه وقبل ما بين عينى وقال ارق يا محمد ، فصعدت أنا وجبريل(٤) . أو : ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه الأرواح عند حلول المنية ، لم تر الخلائق أحسن منه ، له مراق من العسجد واللجين مرقاة فوق مرقاة ، منضد باللؤلؤ وعن يمينه ملائكة وعن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام نشر الحلبى بالقاهرة عام ١٩٥٥ ص ٣٩٧/٣٩٨
(٢) المواهب اللدنية جـ ٢ ص ١٧/١٩
(٣) السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج ص ٥٢/٥٥
(٤) ابن عباس ص ٧

يساره ملائكة فصعدا(١) . أو : ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم ، فلم تر الخلائق أحسن منه ، له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب، وهو من جنة الفردوس ، منضد باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة فصعد هو وجبريل(٢) وثم حمل المعراج من جنة الفردوس منضودا باللؤلؤ عليه نصاف الدرج أحسن شيء خلقه الله من ياقوت أحمر وأصفر ولؤلؤ وفضة وذهب وزمرد حتى أدلى من السماء الدنيا إلى بيت المقدس ، من عن يمين المعراج أربعمائة ألف ملك وعن يساره أربعمائة ألف ملك ، وبين يديه ألف ملك ومن خلفه ألف ملك. لكل ملك جناحان أخضران ، ثم حمل جبريل النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل منعرج ملك متوج بتاج من نوره ، له جناحان أخضران معه خمسمائة من الملائكة ، وجوههم كالقمر ، كلهم يقولون : مرحبا بك يا محمد ، بين كل درجتين مسيرة أربعين عاما ، فالدرجة الأولى عليها ألف من الملائكة وعلى الثانية ألفان وعلى الثالثة ثلاثة آلاف ، على هذا النحو ذكروا إلى خمس وخمسين درجة(٣) .

٦ – ٧ – ٨ – وصف ملك الموت وبيده اللوح وعن يمينه ويساره أرواح الخلق وكيفية نزع الأرواح

– ثم رأيت ملـــكا عظيم الخلقة والمنظرقد بلغت قدماه تخوم الأرض السابعة ورأسه تحت العرش وهو جالس على كرسى من نور والملائكة بين يديه وعن يمينه وعن شماله ينظرون أمر الله تعالى عز وجل ، وعن يمينه لوح وعن شماله شجرة عظيمة إلا أنه لم يضحك أبداً فقلت يا أخى ياجبريل من هذا . . قال هذا هادم اللذات ومفرق الجماعات . . هذا ملك الموت عزرائيل . . أدن منه وسلم عليه ، فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد

---

(١) البرزنجى ص ١٦ (٢) الغيطى ٧٣/٧١

(٣) القشيرى ص ٤٥

على السلام ، فقال له لم لم ترد السلام على سيد الخلق وحبيب الحق ، فلما سمع كلام جبريل وثب قائما ورد السلام وهنأني بالـكرامة من ربى وقال أبشر يا محمد فإن الخير فيك وفى أمتك إلى يوم القيامة ، فقلت يا أخى يا عزرائيل هذا مقامك ؟ قال نعم منذ خلقنى ربى إلى قيام الساعة ، فقلت فكيف تقبض الأرواح وأنت فى مكانك هذا ؟ قال إن الله أمكننى من ذلك وسخر لى من الملائكة خمسة آلاف أفرقهم فى الأرض ، فإذا بلغ العبد أجله واستوفى رزقه وانقضت مدة حياته أرسلت إليه أربعين ملـكا يعالجون روحه فينزعونها من العروق . . فإذا انفصلت من الجسد أقبضها بإحدى حربتى هاتين ، وإذا بيده حربة من نور وحربة سخط ، فالروح الطيبة يقبضها بحربة النور ويرسلها إلى عليين والروح الخبيثة يقبضها بحربة السخط ويرسلها إلى سجين وهى صخرة سوداء مدلهمة تحت الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار والفجار ، قلت : وكيف تعرف حضر أجل العبد أم لم يحضر ؟ قال : يا محمد ما من عبد إلا وله فى السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يصعد إليه عمله ، وهذه الشجرة التى عن يسارى ما عليها ورقة إلا عليها اسم واحد من بنى آدم ذكورا وإناثا ، فإذا قرب أجل الشخص اصفرت الورقة التى كتب عليها اسمه وتسقط على الباب الذى ينزل منه رزقه ويسود اسمه فى اللوح فأعلم أنه مقبوض(١) .

ـ فلما خلصا رأى آدم عليه السلام وهو أبو البشر كهيئة يوم خلقه الله تعالى على صورته ، تعرض عليه أرواح الأنبياء وذريته المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة ، اجعلوها فى سجين ، ورأى عن يمينه أسودة وبابا يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله أسودة وبابا يخرج منه ريح خبيث منتنه ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك واستبشر وإذا نظر قبل شماله حزن وبكى . أما الأسودة فهم نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل

---

(١) ابن عباس ١٢ / ١٤

الجنة وأهل الشمال منهم أهل النار(١) أو قال : ثم مررت بملك جالس على كرسى جمع له الدنيا بين ركبتيه ، فى يده لوح كهيئة الحزين ينظر فيه لايلتفت يمينا ولا شمالا ، فقلت : من هذا يا جبريل ؟ فقال ملك الموت يكون دائبا فى قبض الأرواح فقلت كفى بالموت من طامة ، ولما سأل عنى وعرفنى قال لى : أبشر فإنى أرى الخير كله فى أمتك(٢) ،

ــ ثم رأيت ملكا عظيما على كرسى وبين يديه لوح مكتوب عن يمينه وهو ينظر إليه دائما ولا يفتر عنه ساعة واحدة فلما نظرت إليه فزعت منه ، قال جبريل : كلنا نفزع منه يا محمد ، فقلت : يا جبريل من هذا الملك ؟ فقال هذا ملك الموت عزرائيل ادن منه وسلم عليه فسلمت عليه فرد على السلام ، فقلت يا أخى يا عزرائيل ما هذا اللوح الذى أراك تنظر إليه ؟ قال هذا مكتوب فيه أسماء بنى آدم : ثم قال مرحبا بك يا محمد فنعم المجئ جئت ، أبشر بكرامة الله لك ولأمتك فإن الله لم يبعث نبيا أكرم منك عليه ولا أمة أكرم عليه من أمتك : فقلت : كيف تقبض أرواح العباد وأين أسماء من قبضت أرواحهم من الدهور الخالية ؟ قال تلك الأرواح فى لوح آخر علمت عليها وكذلك أصنع بكل ذى روح قبضتها حلقت عليها حلقة ، فقلت يا ملك الموت سبحان الله كيف قدرك الله على قبض أرواحهم فى مكانك هذا لاتبرح ؟ فقال : يا محمد ألا ترى الدنيا كلها من ركبتى إلى أسفل والخلائق كلهم بين عينى ، ويدى تبلغان المشرق والمغرب ، ومع ذلك أعطانى سبعين ألف ملك سامعين مطيعين بأمر الله عز وجل أبعثهم إلى بنى آدم فيعالجون نزول الووح فإذا بلغت الروح الحلقوم علمت ذلك ولايخفى على من أمرهم شيئا فأمد يدى وأقبض الروح ولا يليها أحد غيرى ، فذلك أمرى وأمر ذوى الأرواح من خلق الله تعالى(٣) .

ــ وروى مرفوعا أن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر ريحان فتستل روحه كما تستل الشعرة من العجين ويقال أيتها النفس

(١) الغيطى ٨١/٧٧ (٢) قشرى ٥٨

(٣) مخطوطة المعراج رقم ١٩٩٣ صفحات ٧٩/٧٣

المطمئنة اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وكرامته : فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان ثم طويت عليه الحريرة وذهب بها إلى عليين ، وأن الكافر إذا حضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه نزعاً شديداً ويقال أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك .. فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة ثم يذهب به إلى سجين (١) . أو إذا قبض النفس السعيدة تناولها ملكان حسان الوجوه عليهما أثواب حسنة ولهما روائح طيبة فيلفونها فى حريرة من حرير الجنة فيعرجون به إلى السماوات . . وأما الكافر إذا حضره الموت أخذت نفسه عنفاً وقال لها الملك أخرجي أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث .. فاذا قبضها عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب منتنى الرائحة أيديهم مسوح من شعر فيتلقونها بعنف فيعرج به حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيقرع الأمين الباب فيقال من أنت فيقول أنا الملك الموكل بزبانية العذاب.. فيقال من معك فيقول فلان بأقبح أسمائه وأبغضها إليه فى دار الدنيا فيقال لاأهلا ولا سهلا ولا مرحباً ولا تفتح له أبواب السماء لقوله تعالى « لاتفتح لهم أبواب السماء » (٢) فاذا سمع الأمين هذه المقالة طرحه من يده فتهوى به الريح فى مكان سحيق فإذا انتهى إلى الأرض أخذته الزبانية وسارت به إلى سجين (٣) .

وفى رواية : ثم مررت بملك آخر جالس على كرس فإذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه وبيده لوح من نور مكتوب ينظر فيه لايلتفت عنه يمينا ولا شمالا فقلت له من هذا يا جبريل قال هذا ملك الموت دائب فى قبض الأرواح .. فدنوت منه وسلمت عليه فرحب بى وأنعم بشاشتى ثم قال أبشر يا محمد فإن الخير كله فى أمتك .. قلت ما هذا اللوح الذى بين يديك قال مكتوب فيه آجال الخلق .فقلت يا ملك الموت فكيف تقدر

---

(١) التذكرة للقرطبى ص ٢٦ (٢) الأعراف آية ٤٠

(٣) الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة للغزالى ص ٧ – ١٠

على قبض أرواح جميع من فى الأرض أهل بلادها وكورها وما بين مشارقها ومغاربها قال : ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى وجميع الخلائق بين عينى ويداى يبلغان المشرق والمغرب فإذا نفذ أجل عبد نظرت إليه فإذا أبصر ذلك أعوانى من الملائكة ، عرفوا أنه مقبوض فعمدوا إليه يعالجون نزع روحه . ثم مددت يدى إليه فانتزعت روحه من جسده (١) .

٩ ـ الملك الديك والملك الثلجى النارى :

ـ ولم أزل أخترق صفوف الملائكة حتى انتهيت إلى ملك أفرق على هيئة الديك أصفر وأخضر وهو ساجد يقول فى سجوده سبحان الله العظيم ، فإذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الأرض جميعا وأجابوه كما يقول ، ولما تسمعه ديوك الأرض تميل بأعناقها وتصغى بآذانها لاستماع ذلك التسبيح من ذلك الديك وتخفق بأجنحتها مجيبة بالتسبيح والتقديس لله الواحد القهار وإذا سكت سكتت . ثم تقدمت وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار له ألف رأس ، فى كل رأس ألف وجه فى كل وجه ألف فم فى كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بألف لغة لا يشبه بعضها بعضا ، ومن جملة تسبيحه أنه يقول سبحان من ألف بين الثلج والنار . . ألف بين قلوب عبادك المؤمنين والملائكة تقول آمين (٢)

إن لله عز وجل ديكا جناحاه موشيان بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت ، جناح له فى المغرب وقوائمه فى الأرض السفلى ورأسه مثنى تحت العرش فإذا كان فى السحر الأعلى خفق بجناحه ثم قال سبوح قدوس ربنا الله لا إله غيره فعند ذلك تضرب الديكة بأجنحتها وتصيح ، ولما أسرى بى إلى السماء رأيت فيها أعاجيب من عباد الله وخلقه .

---

(١) اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى جـ ١ ص ٦٤ – ٦٦

(٢) ابن عباس ٢٨–٢٩–٨–٩ وص ٣٢٨ من المخطوطة

- ومن ذلك الذى رأيت فى السماء ديك له زغب أخضر وريش أبيض ، بياض ريشه كأشد بياض رأيته قط وزغبه تحت ريشه أخضر كأشدخضرة رأيتها قط ، وإذا رجلاه فى تخوم الأرض السابعةالسفلى ورأسه تحت عرش الرحمن ثانى عنقه تحت العرش ، له جناحان فى منكبيه إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب ، ثم إذا كان فى بعض الليل نشر جناحيه فخفق بهما وصرخ بالتسبيح لله تعالى ويقول سبحان الله العلى العظيم ، سبحان الله العزيز القهار ، فاذا فعل ذلك سبحت ديكة الأرض وخفقت بأجنحتها وأخذت فى الصريخ فاذا سكن ذلك الديك سكنت الديكة فى الأرض . ثم مررت بخلق عجب من الملائكة نصف جسده مما يلى رأسه ثلج والآخر نار ما بينها رتق فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار وهو قائم ينادى بصوت رفيع جداً يقول .. اللهم مؤلفا بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت : من هذا يا جبريل فقال ملك وصله الله بأكناف السماوات وأطراف الأرضين وهو من أنصح الملائكة لأهل الأرض من المؤمنين يدعو لهم بما تسمع فهذا قوله منذ خلق . (١)

١٠ – ١١ خازن النار وشرحه لكيفية تكوينها وغلظة خزنتها وأدواتهم

- وإذا بملك عظيم الخلقة مرهوب النظر ظاهر الغضب شديد البأس صعب المراس بين عينيه عقدة لو أشرف بها على الأرض لماتوا عن آخرهم وغارت منه البحار وتفطرت منه الجبال . قلت يا أخى جبريل من هذا الذى اقشعر منه جلدى ورجف منه فؤادى فقال ياحبيب الله هذا مالك خازن النار خلقه الله من غضبه وسخطه .. ادن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد على السلام فقال جبريل لم لا ترد على حبيب الله ؟ . فلما سمع مالك ذلك نهض قائماً على قدميه وقال الله الله العذر لك يا حبيب الله . فقلت له أرنى جهنم فقال مالك ليس الأمر لى وإذا

(١) اللالى المصنوعة-١ ص ٦٢ – ٦٤

بالنداء من العلى الأعلى لا تخالف حبيبى محمداً فعندذلك كشف عنها الغطاء فاذا هى سوداء مظلمة ممتزجة بغضب الله (١)

— فلما دخلنا لم نلق ملكا إلا ضاحكاً مستبشراً حتى لقيت ملكاً لم يضحك ولم أر منه البشر الذى رأيت من غيره ، فقال جبريل أما إنه لو ضحك إلى أحد بعدك لضحك إليك ، هذا مالك خازن النار لم يضحك قط ولم يتبسم قط ولم يزل عابساً كالحاً مغضباً معرضاً من شدة غضبه على أهل النار لغضب ربهم عليهم ، فقلت يا جبريل ألا يرينى النار قال يا مالك إن محمداً رسول الله يريد أن ينظر إلى النار فكشف عن غطائها ففارت النار وارتفعت وهى سوداء مظلمة لايضئ لهبها ولا نارها .. تكاد تميز من الغيظ (٢)

— قال رسول الله (ص) يا جبريل صف لى النار وانعت لى جهنم فقال جبريل إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لاتضئ شررها ،والذى بعثك بالحق لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من الأرض كلهم جميعاً من حره ، والذى بعثك بالحق لو أن خازنا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا فنظروا إليه لمات من فى الأرض كلهم من قبح وجهه ومن نتن ريحه ، والذى بعثك بالحق لو أن حلقة من سلاسل أهل النار وضعت على جبال الدنيا لا رفضت وما تقارت حتى تنتهى إلى الأرض السفلى . (٣)

— ورد أن الرسول قال : أوقـــد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة كالليل ، وقد خلق الله ملكا من نار له أصابع بعدد أهل النار فما يعذب أحد منهم إلا بأصبع من أصابع ذلك الملك فوالله لو وضع هذا الملك إصبعاً من أصابعه على السماء لذابت من حره (٤).

---

(١) ابن عباس ١٦/١٧ (٢) قشيرى ٤٦

(٣) يقظة أولى الاعتبار ص ١٠٤ (٤) التذكرة للقرطبى ص ١١٧ ١١٨

- وخزنة النار لايحصى عددهم إلا الله ، وأعينهم كالبرق الخاطف وأسنانهم كبياض قرن البقر وشفاههم تمس أقدامهم يخرج لهب النار من أفواههم وما بين كتفى كل واحد منهم مسيرة سنة لم يخلق الله تعالى فى قلوبهم من الرحمة والرأفة مقدار ذرة يغوص أحدهم فى بحار النار مقدار سبعين سنة (١) .

- روى أن جبريل جاء إلى النبى حزيناً لايرفع رأسه ، فقال له الرسول : مالى أراك ياجبريل حزيناً ، قال : إنى رأيت نفحة من جهنم فلم ترجع إلى روحى بعد(٢) .

- إن أهل النار يدعون ما لكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يقول : إنكم ما كثون ثم يدعون ربهم فيقولون : ربنا اخرجنا من هذه فإن عدنا فإنا ظالمون فلايجيبهم مثل الدنيا ثم يقول اخسئوا فيها ولا تكلمون ثم ييأس القوم فما هو إلا الزفير والشهيق (٣) .

- ثم نظرت عن يمينى وإذا أنا بباب مغلق وعليه سطران مكتوبان بالنور فقلت يا أخى جبريل ما هذه الكتابة التى على هذا الباب؟

قال : مكتوب لاإله إلا الله محمد رسول الله ، وإلى الباب ملك عظيم الخلقة مهوب المنظر ظاهر الغضب شديد البأس صعب المراس وهو جالس على كرسى من نار وعلى رأسه تاج من نار ونفسه مثل الرعد القاصف وبين عينيه عقدة لوأشرف بها على أهل الأرض لصعقوا من آخرهم وبيده مقمعة من حديد لووزنت بعشرجبال من جبال الدنيا لرجحت عنهم وبين يديه زبانية لايعلم عددهم إلا الله تعالى فنظر إلى بوجه عبوس فلولا أن الله ثبت قلبى كادت روحى تطير من شدة هوله فقلت يا أخى

---

(١) دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار ص ٣٦ .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٨٦٦

(٣) نفس المصدر ص ٩١٧

جبريل من هذا ؟ قال هذا مالك خازن النار يا محمد أوقدها ألف عام حتى احمرت ثم أوقدها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقدها ألف عام حتى اسودت ثم أغلقهافإذا هي تأكل بعضها بعضا إلى يوم القيامة فهي سوداء مظلمة لوقطرت منها قطرة على جبال الدنيا لصارت رماداً . . فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد على السلام فقال جبريل يامالك لم لاترد السلام على محمد رسول الله وهوحبيب رب العالمين فلما سمع مالك ذلك نهض قائما على قدميه وقال الله الله العذر يا حبيب الله (١) .

١٢ – في السماء الأولى ملائكة متكاثرون وابنا الخالة عيسى وزكريا

– ثم صعد بي إلى السماء الدنيا في أسرع من طرفة عين وبينها وبين الأرض خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك ، فطرق الباب فقالوا من هذا ؟ فقال جبريل قالوا ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا : أوأرسل إليه قال نعم قالوا : مرحبا بك وبمن معك فنعم المجيء مجيئكما ، ففتحوا لنا الباب ودخلناها فإذا هي سماء من دخان يقال لها الرفيعة وليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك راكع أوساجد ه . فنظرت وإذا بملك عظيم الخلقة وهو راكب على فرس من نور وعليه حلة من نور وهو موكل بسبعين ألف ملك مسومين بأنواع الحلي والحلل بيدكل منهم حربة من نور .. ثم تقدمت وإذا بملك . . له ألف رأس في كل رأس ألف وجه في كل وجه ألف فم ، في كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بألف لغة لايشبه بعضها بعضا . . ورأيت فيها شابين متشابهين فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال أحدهما يحيى بن زكريا والآخر عيسى ابن مريم عليهما السلام ادن منهما وسلم عليهما فدنوت منهما وسلمت عليهما فردا على السلام وقالا لي أبشر يا محمد فان الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة(٢) .

---

(١) مخطوطة المعراج من دار الكتب ص ١٩٧

(٢) ابن عباس ٩ / ١٠

— فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا يقال له باب الحفظة وعليه ملك يقال له اسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا ، يسكن الهواء . . وبين يديه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك جند من الملائكة سبعون ألف ملك فاستفتح جبريل باب السماء، قيل من هذا (١) .

— ثم رأيت ملائكة فى الهواء لايحصون فسألت جبريل عنهم فقال هؤلاء ملائكة يسبحون فى الهواء منذ خلقت السماوات والأرض رؤوسهم تحت أجنحتهم لم ينظر أحدهم إلى شىء من جسده قط خوفا من الله ... ثم انتهينا إلى باب من أبواب السماء الدنيا عليه ملك يقال له اسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك فاستفتح جبريل ففتح لهم ورحب بمحمد صلى الله عليه وسلم . واسم السماء الدنيا الرقيع وهى موج مكفوف . . ثم أتينا على عيسى ويحيى فقالا مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح(٢) .

— ثم صعدنا إلى عليين فانتهينا إلى السماء الدنيا وإذا هى موج مكفوف وعرضها خمسمائة عام فاستفتح جبريل ففتح لنا اسماعيل وجنوده حوله سبعون ألف ملك تحت كل ملك منهم مائة ألف ملك . . وهم صفوف صفوف يسمع لهم دوى وزميل بالتسبيح والتقديس والتهليل والدعاء لله وهم يقولون سبوح قدوس رب الملائكة والروح (٣).

١٣ — الثانية من البرونز وفيها يوسف ، أو من النحاس

— ثم صعدنا إلى السماء الثانية فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الدنيا خمسمائة عام وسمكها كذلك . . فإذا هى سماء من نحاس يقال لها المزينة ، ورأيت فيها ملائكة معهم ألوية خضر . . ونظرت فاذا فيها غلام جالس على كرسى من نور وقد أشرق النور من وجهه وصورته

(١) الغيطى ٧٣ / ٧٤
(٣) المخطوطة ص ٣٤
(٣) القشيرى ص ٤٦ / ٤٨

كالقمر ليلة البدر ، فقلت من هذا الشاب يا أخى جبريل ؟ قال هذا يوسف بن يعقوب فضله الله بالحسن والجمال كما فضل القمر على جميع الكواكب فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وهنأنى بالكرامة من ربى عز وجل وقال لى مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح واصطفت الملائكة صفوفاً (١)

— فلما خلصا إذ هو بيوسف ومعه نفر من قومه فسلم فرد عليه السلام ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ودعا له بخير ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، وفى رواية من أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب (٢)

— ثم أتينا السماء الثانية وهى نحاس يشبه نحاس الدنيا اسمها تينا واسم خازنها رفائيل فاستفتح جبريل ففتح له ، قيل ومن معك قال محمد . فما استقبلنى أحد من الملائكة إلا رحب واستبشر (٣) .

— ملائكة السماء الأولى على صورة البقر وألوانها أسود وأبيض وقرونه زرق وطرف ذيله أسود وجميع محاركه سود والباقى أبيض ، وملائكة السماء الثانية على صورة العقاب أسود اللون ليس بحالك السواد ورجلاه ومنقاره زرق وصدره ورؤوس أجنحته ذهب والله أعلم (٣)

١٤ — فى الثالثة ملائكة متلاحمة دائرية وإلياس وادريس

— ثم صعدنا إلى السماء الثالثة فى أسرع من طرفة عين ، وبينها وبين السماء الثانية خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك فطرق جبريل بابها (وبعد السؤال) فتحوا الباب فدخلناها . . فاذا هى سماء من فضة بيضاء يقال

---

(١) ابن عباس ١٠ / ١١ (٢) الغيطى ق ٨٧ / ٨٨

(٢) قشيرى ٤٨ (٣) عجائب المخلوقات للقزوينى جـ ٢ ص ٣٥٦ .

لها الزاهرة (١) فيها من عجائب ربى عز وجل أصنافاً من الملائكة ، ورأيت رجلا على وجهه نور ساطع وله قلب خاشع فقلت من هذا يا أخى جبريل قال هذا أخوك إدريس رفعه الله مكاناً عليا ادن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام واستغفر لى ولأمتى . . . فلما نظر الملك إلى وجدت الدنيا بين يديه كالدرهم بين يدى أحدكم يقلبه كيف يشاء(٢)

– ثم صعدا ففتح لهما فلما خلصا إذا هو بادريس قد رفعه الله مكاناً علياً فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم دعا له بخير (٣)

– ثم أتينا السماء الثالثة فإذا هى من فضة اسمها زيلون واسم خازنها كوكب ياليل ، فاستفتح جبريل الباب ففتح له ورحبوا بمحمد صلوات الله عليه وسلامه (٤)

– ثم أخذ جبريل بيدى وسار بى فى صفوف الملائكة الروحانيين فسلمت عليهم فردوا على السلام بالإشارة فقال جبريل : هؤلاء الملائكة الروحانيون منذ خلقهم الله ماكلم أحد منهم الاخر مخافة أن يشتغلوا عن التسبيح ولوعرفوك لكلموك ، ثم سار بى حتى مررنا بالملائكة المكرمين ولا يحصى عدتهم إلا الله (٥) .

١٥ – الرابعة من الذهب حارسها هائل وملائكتها من النور وفيها هارون

– ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الثالثة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك .. فدخلناها فاذا هى سماء من

---

(١) هذا عن السماء الرابعة
(٢) ابن عباس ١٠/١٤
(٣) الغيطى ٨٨ / ٨٩
(٤) قشيرى ٤٨
(٥) مخطوطة المعراج ص ٣٨

الذهب الأحمر واسمها المنيرة ورأيت فيها من خلق الله عز وجل ملكاً عظيما لو أمره الله أن يبلع السماوات السبع فى دفعة لهان عليــه لعظم خلقته(١) .

ـــ ثم أتينا إلى السماء الرابعة فإذا هى من ذهب صفراء اسمها الماعون واسم خازنها مؤمن يا ليل(٢) .

ـــ فلما خلصا إذا هو بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد تضرب إلى سرته من طولها وحوله قوم من بنى إسرائيل وهو يقص عليهم فسلم علية فرد عليه السلام ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بخير ، فقال : من هذا يا جبريل ، قال هذا الرجل المحبب فى قومه هارون بن عمران (٣) .

ـــ ملائكة السماء الثالثة على صورة النسر وردى اللون أطراف ويشه أسود لكن ورديته تميل إلى السواد شيئا يسيرا . صدره وصدر أجنحته ذهب منقط ريشها بسواد ومنقاره ورجلاه زرق والله أعلم بذلك(٤).

١٦ ـــ الخامسة ملكها من نار وفيها موسى يدعوه لطلب التخفيف

ـــ ثم ارتقينا إلى السماء الخامسة فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء الرابعة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك .. ودخلناها فاذا هى سماء من درة بيضاء يقال لها العجبية (السابعة) .. ورأيت رجلا كهلا طويلا كثير الشعر عليه مدرعة من صوف أبيض يتوكأ على عصا يكاد شعره يغطى جسده ، له لحية بيضاء على صدره فقلت من هذا يا أخى جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران فضله الله

---

(١) ابن عباس ١٥ــ١٦ (٢) قشيرى ٤٨ (٣) الغيطى ٩٠

(٤) عجائب المخلوقات للقزوينى جـ ٢ ص ٣٥٦

بكلامه وجعله كليماً له ادن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فنظر إلى وجعل يقول يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم الخلق على الله وهذا أكرم منى على ربه (١).

ـ وملائكة هناك لكل واحد ستمائة ألف جناح ، لكل جناح سبعون ألف ريشة ، فاذا سبح لسانه الكبير خرج من كل مكان من ريشه ملك من الملائكة يسبح الله تعالى لا يسأم ولا يعي ولا يكسل(٢).

ـ ثم صعدنا إلى السماء الخامسة . . فإذا بأخى موسى بن عمران عليه السلام فدنوت منه وسلمت عليه فصافحنى وقال : الحمد لله الذى أكرمك بهذه الكرامة ، أبشر يا محمد برضوان الله عليك وبشر أمتك فإن الله سبحانه وتعالى يحييك فى هذه الليلة . فاسأله التخفيف عن أمتك ما استطعت (٣).

ـ ثم انتهينا إلى ملك له ثمانون ألف جناح ، فى كل جناح ثمانية آلاف ريشة ، فى كل ريشة مثل الدنيا ، يدخل هذا الملك فى بحر تحت العرش يقال له بحر النور فيغمس فيه كل يوم سبعمائة ألف مرة ثم يخرج فينفض أجنحته وكل قطرة منه يخلق الله ملكا منها يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة(٤).

١٧ ـ فى السادسة جند الله بخيولهم وابراهيم بأنواره

ـ ثم ارتقينا إلى السماء السادسة وبينها وبين السماء الخامسة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك . . ودخلناها فإذا هى سماء من ياقوتة خضراء اسمها الخالصة. .فنظرت فإذا بملك عظيم الخلقة وهو راكب على فرس من نور وعليه حلة من نور وهو موكل بسبعين ألف ملك مسومين بأنواع الحلى والحلل بيد كل واحد منهم حربة من نور وهم جند الله تعالى . . فاذا

(١) ابن عباس ١٥/ ٢٤ (٢) قشيرى ٥٠

(٣) مخطوطة المعراج ص رقم ٧١ (٤) المخطوطة ١٠٣

عصى فى الأرض أحد ينادون إن الله تعالى قد غضب على فلان ابن فلان فيغضبون عليه وإذا استغفر العبد وتاب ينادون أن الله قد رضى عن فلان ابن فلان فيرضون عنه (١) .

— فلما خلصا فإذا النبى صلى الله عليه وسلم بابراهيم الخليل جالس عند باب الجنة على كرسى من ذهب مسند ظهره إلى البيت المعمور معه نفر من قومه ، فسلم عليه النبى . . فرد عليه السلام وقال مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح ، ثم قال : مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة فقال وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وفى رواية أقرئ أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (٢) .

— فانتهينا إلى السماء السادسة وإذا هى زمردة خضراء إسمها غزريون واسم خازنها من الملائكة ردعنيابيل . . وإذا نحن بكهل جالس على باب البيت المعمور لم أر رجلا قط أشبه بصاحبك منه فقلت من هذا يا جبريل قال أبوك ابراهيم فسلما عليه فقال مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح (٣) .

— ففتح الباب فدخلنا فرأيت فيه ملكاً من درة محفورة على سرير والملائكة حوله قياما قلت من هذا يا جبريل قال أبوك الخليل ابراهيم ادن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فقال أهلا وسهلا بالنبى الصالح والولد الناجح أبشر يا ولدى يا محمد فأنت تقدم فى ساعتك هذه على حبيب يحبك ، قلت لوجه ربى الحمد والشكر ، وإذا بملائكة بأيديهم حراب من نور وكل حربة مثل النخلة الباسقة أشد ضوءا من ضوء الشمس لهم سبعة الوان يسبحون الله بلغات مختلفة (٤) .

(١) ابن عباس ٢٣/ ٨
(٢) الغيطى ٩٧/٩٨
(٣) قشيرى ٤٩/٥٠
(٤) مخطوطة المعراج ص ٣٣٤

١٨ – السابعة من ياقوت بها الملائكة يرتلون التسابيح ويصلى بهم الرسول ويلقى آدم

– ثم ارتقينا إلى السماء السابعة فى أسرع من طرفة عين وبينها وبين السماء السادسة خمسمائة عام وسمكها مثل ذلك فطرق جبريل بابها .. ففتحوا لنا الباب ودخلناها ، ورأيت فيها من ملائكة ربى عز وجل ملائكة يقال لهم الروحانيون . . فالتفت عن يمينى فإذا أنا بشيخ حسن الوجه حسن الثياب جالس على كرسى من نور . . قلت يا أخى جبريل من هذا ؟ قال هذا أبوك آدم صلوات الله عليه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وهنأنى بالكرامة من ربى عز وجل . . واصطفت الملائكة صفوفاً وصليت بهم ركعتين على ملة ابراهيم الخليل (فى السادسة) (١) .

– ثم صعدنا فرأيت ملائكة صفوفا رافعين أصواتهم بالتسبيح والتقديس لله عز وجل ، ثم رأيت ملكاً عظيما له كرسى من نور أعظم ملك رأيت ،وجلاه فى تخوم الأرض السفلى ورأسه فى أعلى العليا وله جناحان فى المشرق وجناحان فى المغرب وحوله تسعمائة ألف ملك يسبحون الله وتسبيحهم سبوح قدوس رب الملائكة والروح (٢) .

– لما أسرى بى إلى السماء أذن جبريل فظننت الملائكة أنه يصلى بهم فقدمنى فصليت بالملائكة(٣) .

– ثم رأينا ملكا قد افترقت رجلاه من الأرض السفلى و افترق رأسه من السماء السابعة العليا ، غلظ كل جناح من أجنحته مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل جناحين مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع ، ومن لدن رأسه إلى منتهى قدميه ممتلىء وجوها ونوراً ، وفى كل جزء منه وجوه

---

(١) ابن عباس ٢٤–٢٥ (٢) مخطوط المعراج ص ١٠٦ – ١٠٧

(٣) خصائص حـ ١ ص ٤٢٧

كثيرة يسبح كل لسان فى هذه الوجوه بلغة أخرى لا يشبه وجه وجها ولا لغة لغة ولا عين عينا ، وفى جانب من جسده نور أحمر وفى جانب نور أصفر وفى جانب نور أخضر وفى جانب نور أبيض ، وليس فى جسده من أعضائه وريشه وبشرته وشعره جزء إلا وهو يسبح بتسبيح آخر فيخرج كل يوم من تسبيحه بعدد ما خلق الله من الملائكة يسبحون ، لو أراد أن يلتقم السماوات والأرض بلقمة واحدة لأطاق (١) .

١٩ — سماء الحجب الثامنة وملائكتها ودوائرها وألوانها وذهاب جبريل

— فبينما أنا كذلك وإذا أنا بملائكة قيام على أقدامهم فقلت يا أخى يا إسرافيل من هؤلاء ، ؟ قال : هؤلاء الروحانيون والكروبيون وهم حملة العرش . . فبينما أنا أخاطب الملائكة وإذا بالنداء من فوق رأسى الصلاة والسلام عليك يا محمد الصلاة والسلام عليك يا أحمد فرفعت رأسى وإذا أنا بملك عظيم الخلقة أشد بياضا من الثلج يتقدمه سبعون ألف ملك على صورته وشكله فعانقنى وقبلنى وقال سر يا حبيب الله . . فسرت مع هؤلاء الملائكة وهم عن يمينى وشمالى وبين يدى حتى اخترقنا سبعين ألف حجاب من نور أبيض وسبعين ألف حجاب من زمرد أخضر وسبعين ألف حجاب من الاستبرق وسبعين ألف حجاب من السندس وسبعين ألف حجاب من النور وسبعين ألف حجاب من الظلمة وسبعين ألف حجاب من المسك وسبعين ألف حجاب من الجبروت بين كل حجاب وحجاب خمسمائة عام . ثم تقدمت أمامى فلم أرى أخى جبريل فقلت أفى مثل هذا المكان يفارق الخليل خليله ، فلم تركتنى وتخلفت عنى ؟ فنادى جبريل يعز على أن أتخلف عنك ،

---

(١) قشيرى ٥٠-٥١

والذى بعثك بالحق نبيا مامنا إلا له مقام معلوم ولو أن أحداً منا تجاوز مقامه لاحترق بالنور (١) .

– ثم انتهينا إلى حجب الرحمن تبارك وتعالى وهى سبعمائة ألف حجاب عرض كل حجاب مسيرة ألف عام وهى حجب من الحديد وحجب من الرصاص وحجب من الثلج وحجب من النار وحجب من الفضة وحجب من الذهب وحجب من اللؤلؤ وحجب من الياقوت وحجب من النور وحجب من الظلمة ، وكل حجاب يتلألأ بالأنوار التى تخطف الأبصار وعلى كل حجاب سبعون ألف ملك لو أمر الله سبحانه وتعالى ملكا منهم على أهل السماوات والأرض وما عليها أن يقبضهم لقبضهم بقبضة واحدة لم يسقط من كفه شئ (٢) .

– فلم أزل أخترق صفوف الملائكة حتى انتهينا إلى إسرافيل عليه السلام وإذا هو قد نشر أجنحته وقد سد الخافقين وقد بلغت قدماه تخوم الأرض السابعة ورأسه تحت العرش وإذا له ألف جناح ، فى كل جناح ألف رأس ، وفى كل رأس ألف ألف وجه وفى كل وجه ألف ألف فم ، فى كل فم ألف ألف لسان يسبحون الله تعالى بألف ألف لغات لا يشبه بعضها بعضا (٣) .

– ورد فى الأثر بين الله وبين الملائكة الصافين حول عرشه سبعون حجابا من نور وسبعون حجابا من نار وسبعون حجابا من ظلمة وسبعون حجابا من رفارف الاستبرق وسبعون حجابا من رفارف السندس وسبعون حجابا من در أبيض وسبعون حجابا من در أحمر وسبعون حجابا من در أصفر وسبعون حجابا من در أخضر وسبعون حجابا من ضياء استضاء من ضوئه النار والنور وسبعون حجابا من ثلج

---

(١) ابن عباس ٣٠/٢٩/٢٦ (٢) مخطوطة المعراج ١١٤/١١٢
(٣) مخطوطة المعراج ص ١١٦

وسبعون حجابا من ماء وسبعون حجابا من برد غمام وسبعون حجابا من برد وسبعون حجابا من عظمة الله التي لا توصف (١) .

— واعلم أن ملائكة السماء السابعة كلهم مقربون ، ولكل من المقربين منزلة على قدر وظيفته التي أقامه الله فيها وليس فوقه إلا الفلك الأطلس سطحه هو الكرسى الأعلى . . واعلم أن الفلك الأطلس هو عرضه سدرة المنتهى وهى تحت الكرسى . . ويسكن سدرة المنتهى الملائكة الكروبيون(٢) .

٢٠ — كيف نودى عند العرش وفرضت عليه الصلاة والصيام ووصف الكرسى واللوح والقلم

— وبينما أنا أفكر وقد أخذتنى الهيبة مما رأيت من الجلال والكمال والبهاء والعظمة وهيبة الله تعالى نوديت يا أحمد أمامك أمامك ادن منى فخطوت خطوة مسيرة خمسمائة عام فقيل لى يا أحمد لا تخف ولا تحزن فسكن قلبى مما كنت أجده . . ودنوت من ربى حتى صرت منه كقاب قوسين أو أدنى . . فظننت أن من فى السماوات والأرض قد ماتوا فأنا لا أسمع حساً ولا حركة ثم رجع إلى عقلى وتفكرت فيما أنا فيه من الشرف العظيم فنوديت يا أحمد ادن منى ، فقلت إلهى وسيدى ومولاى أنت السلام ومنك السلام . . فنادانى ثانيا ادن منى فدنوت منه فقال وعليك السلام فقلت التحيات لله والصلوات والطيبات فقال السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . . يا أحمد عظم شأنى وعز سلطانى وارتفع مكانى . . يا محمد انظر إلى الموضع الذى كلمتك فيه فما بينى وبينك رسل ولا ترجمان . . وأنت السيد المفضل . . وعزتى وجلالى لقد آليت على نفسى قبل أن أخلق آدم بألف عام أن لا تسألنى شيئاً إلا أعطيتك . . وقد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة

---

(١) لآلىء ـ ١ ص ١٩ (٢) الإنسان الكامل للجيلانى ـ ٢ ص ٦٦

فى اليوم والليلة فقلت سمعنا وأطعنا (ثم راجعه موسى حتى صارت خمسا) ثم ودعت موسى وانصرفت حتى أتيت أخى جبريل عليه السلام وإذا هو قائم على حاله فلما رآنى عانقنى وقال مرحباً يا حبيب رب العالمين (١) :

ــ خلق الله الكرسى من نور وهو محيط بالسماوات والأرض مثل الحلقة الملقاة فى الفلاة وهى فى جوف الكرسى فذلك قوله عز وجل « وسع كرسيه السماوات والأرض (٢) » .

ــ وقال : عليك وعلى أمتك خمسين صلاة وصيام سنة فقلت يا إلهى وسيدى سألتك التخفيف عن أمتى فقال قد فرضت عليك وعلى أمتك خمساً وعشرين صلاة فى يوم وليلة وصيام ثلاثة أشهر فى كل سنة (فراجع موسى حتى صار صيام شهرين وعشرين صلاة ثم صيام شهر وخمس صلوات (٣)) .

ــ إن مما خلق الله لوحا محفوظا من درة بيضاء دفتاه من ياقوته حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة . يخلق فى كل نظرة ويرزق ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء (٤) .

ــ روى الترمذى عن الرسول قال : أول شىء خلقه الله تعالى القلم فقد خلقه من نور وقيل من لؤلؤة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض (٥) .

٢١ ــ ٢٢ ــ ٢٣ ــ حملة العرش ووجوههم وأصنافهم ووصف الكرسى والحجب :

ــ حملة العرش هم أعز الملائكة وأكرمهم على الله ، وهم يسبحون بحمد الله ويستغفرون للذين آمنوا ، فمنهم من هو على صورة النسر ومنهم من هو على صورة الثور ومنهم من هو على صورة الأسد ومنهم من هو على

---

(١) ابن عباس ٣٠ ــ ٤٠
(٢) قشيرى ٥٠ .
(٣) مخطوطة المعرج ١٢٢ ــ ١٢٥
(٤) اللآلىء حـ ١ ص ٢٠
(٥) ابن إياس ص ٥٣

صورة البشر ، قال ابن عباس رضى الله عنهما خلق الله حملة العرش وهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله تعالى بأربعة أخرى فذلك قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ،فالذى منهم من هو على صورة ابن آدم يشفع لبنى آدم فى أرزاقهم ، والذى منهم على صورة الثور يشفع للبهائم فى أرزاقها ، والذى على صورة النسر يشفع للطيور فى أرزاقها والذى على صورة الأسد يشفع للسباع فى أرزاقها(١) .

— ومررت بملائكة كثيرة لايحصى عددهم إلا الله ، منهم من له وجوه كثيرة بين كتفيه الله أعلم بعددها ثم وجوه كثيرة فى صدره ، وفى كل وجه من تلك الوجوه أفواه وألسن . . وإذا كل ملك منهم ممتلىء مابين رأسه ورجليه وجوه وأجنحة وليس من فم ولا رأس ولا وجه ولا عين ولا لسان ولا أذن ولا جناح ولا يد ولا رجل ولا عضو ولا شعر إلا يسبح الله بحمده ويذكر من آلائه وثنائه بكلام لايذكره العضو الآخر وافعين أصواتهم بالبكاء من خشية الله والتحميد له وعبادته لوسمع أهل الأرض صوت ملك منهم لماتوا كلهم فزعا من شدة هوله ، قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال سبحان الله العظيم هؤلاء الكروبيون من عبادتهم لله وتسبيحهم له وبكائهم من خشيته خلقوا كما ترى لم يكلم واحـــد منهم صاحبه إلى جنبه قط ولم ير وجهه ولم يرفعوا رؤوسهم إلى أعلى منـــذ خلقوا ولم ينظروا إلى ماتحتهم من السماوات والأرضين خشوعا فى جسمهم وخوفا من ربهم فجعلوا يردون على إيماء ولا يكلموننى ولا ينظرون إلى من الخشوع .. ثم انتهينا إلى عليين حيث رأينا أشراف الملائكة وعظماءهم ورؤساءهم فنظرت إلى سبعين صفا من الملائكة صفا خلف صف ، وقد اخترقت أقدامهم تخوم الأرض السابعة وجاوزت حيث لايعلمه إلا الله .. ونفذت فى عليين حيث شاء الله فى الهواء وإذا من وسط رؤسهم إلى منتهى أقدامهم وجوه ونور وأجنحة شتى لايشبه بعضها بعضاً تحار أبصار الناظرين دونهم فنبت عيناى عنهم

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ٩٤/٩٦

لما نظرت من عجائب خلقهم وشدة هولهم وتلألؤ نورهم . . ثم جاوزناهم بإذن الله تعالى حتى ارتفعنا فوقهم مسيرة خمسين ألف سنة لغيرنا ولكن الله قدر لنا سرعة جوازه فى ساعة من الليل فانتهينا أيضاً إلى سبعين صفاً من الملائكة صفاً خلف صف قد ضاق كل صف منهم بالصف الذى يليه ، ما بين كل صفين مسيرة خمسين ألف سنة للراكب المسرع قد ماج بعضهم فى بعض فهم طبق واحد متراصون بعضهم إلى بعض ، فلقد خيل إلى أنى قد نسيت كل ما رأيت من عجائب خلق الله الذى دونهم ولم يؤذن لى أن أحدثكم عنهم ولو كان أذن لى فى ذلك لم أستطع أن أصفهم لكم ولكن أخبركم أنى لو كنت ميتا قبل أجلى فزعا من شئ لمت عند رؤيتهم وعجائب خلقهم ودوى أصواتهم وشعاع نورهم ولكن الله قوانى لذلك برحمته وتمام نعمته ومن على بالثبات وهم الصافون حول عرش الرحمن(١) .

— ثم رأينا ملكا قد افترقت رجلاه من الأرضين السفلى وافترق رأسه من السماء السابعة العليا ، غلظ كل جناح من أجنحته مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل جناحين مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع ، ومن لدن رأسه إلى منتهى قدميه ممتلىء وجوها ونورا ، وفى كل جزء منه وجوه كثيرة يسبح كل لسان فى هذه الوجوه بلغة أخرى لا يشبه وجه وجها ولا لغة لغة ولا عين عينا ، ليس فيه عين إلا وفيها من البرق والنور ما لا يحصى ، فى جانب من جسده نور أحمر وفى جانب نور أصفر وفى جانب نور أخضر وفى جانب نور أبيض ، وليس فى جسده من أعضائه وريشه وبشرته وشعره جزء إلا وهو يسبح بتسبيح آخر فيخرج كل يوم من تسبيحه بعدد ما خلق الله من الملائكة يسبحون ، لو أراد أن يلتقم السماوات والأرض بلقمة واحدة لأطاق ، لا يستطيع أحد من الملائكة أن ينظر إليه من نوره ، وهو الروح المذكور فى القرآن (١) .

---

(١) لآلىء ص ٦٧/٦٩ (٢) قشيرى ص ٥٠/٥١

٤٢ - - ٢٥ بحور العالم الآخر من نور وسحب ونا ويقظتها الملائكة الضخام

- ثم ارتفعنا فوق ذلك حتى انتهينا إلى بحر من نور يتلألأ لا يرى له طرف ولا منتهى ، فلما نظرت إليه حار بصرى دونه حتى ظننت أن كل شيء من خلق ربى قد امتلأ نورا والتهب نارا ، فكاد بصرى يذهب من شدة نور ذلك البحر وتعاظمنى ما رأيت من تلألؤه وأفظعنى حتى فزعت منه جدا فحمدت الله تعالى على ما رأيت من هول ذلك البحر وعجائبه ، ثم جاوزناه بإذن الله تعالى متصعدين إلى عليين حتى انتهينا إلى بحر أسود فنظرت فإذا ظلمات متراكبة بعضها فوق بعض فى كثافة لا يعلمها إلا الله ولا أرى لذلك البحر منتهى ولا طرفا فلما نظرت إليه اسود بصرى وغشى على حتى ظننت أن خلق ربى قد اسود واعتمت فى الظلام فلم أر شيئاً وظننت أن جبريل قد فاتنى وفزعت وتعاظمنى جدا ؛ فلما رأى جبريل ما بى أخذ بيدى وأنشأ يؤنسنى ويكلمنى ويقول لا تخف يا محمد أبشر بكرامة الله . . فتثبت لما ترى من عجائب خلقه ، ثم جاوزنا بإذن الله متصعدين إلى عليين حتى انتهينا إلى بحر من نار يتلظى نارا ويستعر استعارا ويموج موجا ويأكل بعضه بعضاً ، ولناره شعاع ولهب ساطع وفيه دوى ومعمعة وهو هائل . . ثم جاوزناها بإذن الله متصعدين إلى عليين حتى انتهينا إلى جبال الثلج بعضها خلف بعض لا يحصيها إلا الله ، شوامخ منيعة الذرى فى الهواء وثلجها شديد البياض له شعاع كشعاع الشمس فنظرت فإذا هو يرعد كأنه ماء يجرى فحار بصرى من شدة بياضه وتعاظمنى ما رأيت من كثرة الجبال وارتفاع ذراها فى الهواء . . ثم انتهينا إلى بحر آخر من نار تزيد ناره أضعافا لهباً وتلظيا وأمواجا ودويا . . وإذا جبال الثلج بين النار ولا تطفئها . . ثم جاوزنا تلك النار متصعدين حتى انتهينا إلى بحر من ماء وهو بحر البحور لا أطيق وصفه لكم غير أنى لم آت على موطن من تلك المواطن التى حدثتكم كنت فيه أشد فزعا ولا هولا منى حين وقف بى على ذلك البحر(١) .

---

(١) اللآلىء المصنوعة ج ١ ص ٦٩-٧١

- فمضى بى حتى انتهى إلى بحر من نور أبيض ، وإذا بملك ذلك البحر واسع ما بين كتفيه لو أن الطير المسرع يطير بين منكبيه لما بلغه فى خمسمائة عام ، ثم زج بى فى بحر من نور أخضر يتلألأ وإذ أنا بملك ذلك البحر لو أذن الله له أن يبلغ السماوات السبع والأرضين السبع فى دفعة واحدة لهان عليه ذلك لعظمة خلقته ، ثم خرجت من ذلك البحر ولو وضع جميع ما خلق الله تعالى فى السماوات السبع والأرضين السبع فى يده لكان كخردلة فى أرض فلاة ، ثم خرجت من ذلك البحر إلى بحر أسود فلما رأيته خررت على الرفرف ساجداً لله تعالى . . . وإذا بالنداء من ساحل البحر يا محمد إلى أقبل ؛ فأقبلت وإذا أنا بملك عظيم الخلقة على ذلك البحر يكيل الماء بمكيال ويزنه بميزان فناديت السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا عبد الله فقال وعليك السلام يا حبيب الله (١)..

- ثم انتهينا إلى مكان آخر فرأيت بحراً عظيما أخضر يتلألأ نوراً وأمواجه تضرب وعلى شاطئيه ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى يسبحونه ويقولون سبحان الله المصور فى الأرحام كيف يشاء .. فقلت يا جبريل ما هذا؟ قال : هذا بحر يقال له الأخضر ثم انتهينا إلى بحر أسود أشد سواداً من كل شيء ورأيت فيه ملائكة كعدد التراب لا يحصى عددهم إلا الله سبحانه وتعالى ، فلما رأيت ذلك البحر أظلمت عيناى واقشعر جلدى ووقعت مغشياً على فقال جبريل أثبت يا محمد لأمر ربك ، ثم انتهينا إلى ملك عظيم له سبعون ألف رأس وفى كل رأس سبعون ألف وجه وفى كل وجه سبعون ألف فم وفى كل فم سبعون ألف لسان وفى كل لسان سبعون ألف لغة كل لغة لا تشبه الأخرى وتسبيحهم سبحان من له

---

(١) ابن عباس ص ٢٦/٢٧

نور فوق كل نور سبحان من هو فى ديوانه عال سبحان من هو فى علوه قريب (١) .

— أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره إن الله تعالى خلق العرش من نوره والكرسى ملتصق بالعرش وحول العرش أربعة أنهار نهر من نور يتلألأ ونهر من نار تلظى ونهر من ثلج أبيض ونهر من ماء ، والملائكة قيام فى تلك الأنهار يسبحون (٢) ؛

٢٦ — العوالم والأفلاك

— واعلم أن جملة الأفلاك التى خلقها الله تعالى فى هذا العالم ثمانية عشر فلكا ، الفلك الأول العرش المحيط ، الفلك الثانى الكرسى الفلك الثالث الأطلس وهو فلك سدرة المنتهى الفلك الرابع الهيولى الفلك الخامس الهباء الفلك السادس العناصر الفلك السابع الطبائع الفلك الثامن المكوكب وهو فلك زحل ويسمى فلك الأفلاك ثم المشترى والمريخ والشمس وزهرة وعطارد والقمر والأثير وهو النار ثم الهواء والماء والتراب الذى نعيش عليه : قال الله تعالى كل فى فلك يسبحون (٣) ؛

— رأيت الملائكة على هيئات مختلفة لايحصى عددهم إلا الله قد انطبقت أنوار التجليات عليهم حتى لايكاد أحد منهم يحرك جفن طرفه فمنهم من وقع على وجهه ومنهم من جثا على ركبتيه وهو الأكمل ومنهم من سقط على جنبه ومنهم من جمد فى قيامه وهو الأقوى (٤) .

— فإذا فيه ملائكة قيام صفاً واحدا متراصين كلهم متضايقين بعضهم فى بعض قد أحاطوا بالعرش واستداروا حوله فلما نظرت إليهم

---

(١) مخطوطة المعراج ص٩٩ / ١٠٢

(٢) ابن إياس ص ٣ (٣) الجيلانى ٦٧ — ٢

(٤) نفس المصدر ٦٦ —٢

ورأيت عجائب خلقهم كأنى نسيت كل شئ كان قبلهم مما رأيت من الملائكة وما وصفت لكم قبلهم حتى ظننت أنى حين رأيت عجائب خلقهم أنى نسيت كل شيء ، وقد نهيت أن أصفهم لكم ولو كان أذن لى فى ذلك فجهدت أن أصفهم لكم لم أطق ذلك (١) .

– سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خلق الله عز وجل ألف أمة منها ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فاذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه (٢) .

٢٧ – الأرض البيضاء مقر النفوس

– أما الطبقة الأولى من الأرض فأول ما خلقها الله تعالى كانت أشد بياضاً من اللبن وأطيب رائحة من المسك فاغبرت لما مشى آدم عليه السلام عليها بعد أن عصى الله تعالى وهذه الأرض أرض النفوس .. ثم يأجوج ومأجوج وهم فى الجانب الجنوبى من هذه الأرض نسبتهم من الأرض نسبة الخواطر من النفس لا يعرف عددهم ولا يدرك حصرهم ولم تطلع الشمس على أرضهم أبدا . وهذه الأرض بيضاء على ما خلقها الله تعالى من مسكن رجال الغيب وملكها الخضر عليه السلام ، أهل هذه البلاد تكلمهم الملائكة لم يبلغ إليها آدم ولا أحد ممن عصى الله تعالى فهى باقية على أصل الفطرة (٣) .

– ورد فى الخبر إن لله تعالى أرضاً بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوماً محشوة خلقا من خلق الله تعالى لايعلمون أن الله تعالى يعصى طرفة عين ، قالوا يا رسول الله أمن ولد آدم هم ؟ قال لايعلمون أن الله تعالى خلق آدم قيل يارسول الله أنى غفل عنهم إبليس ؟ قال لايعلمون أن الله

---

(١) لالى ـ ١ ٧٣ (٢) اللالىء ـ ١ ص ٨١ / ٨٢

(٣) الجيلانى ٦٧ .

تعالى خلق إبليس ثم تلا قوله تعالى « ويخلق مالاتعلمون »(١) .

٢٨ — الأرضين السبعة والملك قطروفين وقلته ولقاءجبريل وإسرافيل

— اعلم يا حبيب الله أنني سميت ميكائيل لأنى موكل بالقطر والنبات أكيل بمكيال وأزنه بميزان وأرسله إلى السحاب إلى حيث شاء الله تعالى (٢) . . والصرفت حتى أتيت جبريل عليه السلام وإذا هو قائم على حاله لم يتقدم ولم يتأخر .

— فلما نظرت إلى العرش فإذا ما رأيته من الخلق كله قد تصاغر ذكره وتهاون أمره واتضع خطره عند العرش ،وإذا السماوات السبع والأرضون السبع وأطباق جهنم ودرجات الجنة وستور الحجب والنار والبحار والجبال التى فى عليين كحلقة صغيرة من حلق الدرع فى أرض فلاة واسعة تياء لا يعرف أطرافها(٣) .

— أول شىء خلقه الله تعالى القلم من نور وقيل من لؤلؤة بيضاء طوله مابين السماء والأرض أى مسيرة خمسمائة عام(٤) .

٢٩ — صورة ديك العرش ورأسه فى سابع سماء ورجله فى تخوم الأرض وملك للثلج والنار

— رأيت فى السماء الدنيا ديكا أبيض له زغب أخضر تحت ريشه كأشد خضرة رأيتها ورجلاه فى تخوم الأرض السفلى ورأسه ملتصقا عند العرش يسبح الله بالليل يقول سبحان الملك القدوس المتعال لا إله إلا الله الحى القيوم فإذا فعل ذلك سبحت ديكة الأرض وخفقت بأجنحتها وأخذت فى الصرخ ، فإذا سكن ذلك الديك سكنت الديكة كلها ، قال ومررت بملائكة نصفهم

---

(١) عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات للقزوينى جـ ١ ص ١٠١

(٢) ابن عباس ٢٨ (٣) لآلى ٧٢/٧٤

(٤) ابن إياس ص ٣

من نار ونصفهم من ثلج يقولون اللهم يامن ألفت بين النار والثلج ألف بين قلوب عبادك المؤمنين (١) .

— ثم صعدنا فرأيت ديكا أبيض رأسه تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة السفلى يسبح الله بصوت حسن يقول سبحان من يسبح له ساعات الليل وساعات النهار سبحان من يسبح له الخلق بأصنافها وكلما سبح يضرب بجناحيه ويخفق بهما ويصرخ بالتسبيح لله ويقول سبحان الملك القدوس الكبير المتعال لا إله إلا هو الحى القيوم فإذا فعل ذلك سبحت ديوك الأرض كلها جوابا له ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : فلم أزل منذ سمعته مشتاقا إليه . ثم مررت بملك نصف رأسه نار والنصف الآخر ثلج وما بينها رتق وهو ينادى بصوت له وهو يقول اللهم يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين على طاعتك فقلت ياجبريل من هذا قال هذا ملك يقال له عنبر وكله الله على أكناف السماوات والأرض وهذا قوله منذ خلقه الله تعالى(٢) .

— ومن ذلك الذى رأيت فى السماء ديك له زغب أخضر وريش أبيض ، بياض ريشه كأشد بياض رأيته قط وزغبه تحت ريشه أخضر كأشد خضرة رأيتها قط وإذا رجلاه فى تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه تحت عرش الرحمن ثانى عنقه تحت العرش له جناحان فى منكبيه(٣) . (تابع تكملته فى الفقرة رقم ٩) .

٣٠ — جدار الجنة الذى كان محمد أول من يدخله ليرى خاصة جنة الخلد

— وعلى الجنان حائط طوله فى السماء مسيرة خمسمائة سنة ، والحائط لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، ولبنة من در ولبنة من ياقوت ، ولبنة من زمرد

(١) القشيرى ٥٧/٥٨
(٢) مخطوطة المعراج ص ٥٥/٥٦
(٣) لالىء ص ٦٣

أخضر ولبنة من ياقوت أصفر ولبنة من زبرجد أخضر وملاطه المسك ، وقد شرف فشرفه من نور يتلألأ يرى الرجل وجهه فى الحائط (١) .

ــ فلم يزل يطوف بى حتى انتهى بى إلى سدرة المنتهى فقال يامحمد هذه الشجرة التى ذكرها الله تعالى فيما أنزل فقال عند سدرة المنتهى لأنها كان ينتهى إليها كل ملك مقرب ونبى مرسل لم يجاوزها عبد من عباد الله قط غيرك وأنا فى سبيلك مرقى هذه وأما قبلها فلا . وإليها ينتهى أمر الخلائق بإذن الله وقدرته (٢) .

ــ عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله بنى الفردوس بيده وحظرها على كل مشرك وكل مدمن خمر ومتكبر ، وفى رواية إن الله لم يمس شيئا من خلقه غير ثلاث : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ثم قال لها تكلمى فقالت : قد أفلح المؤمنون (٣) ؟

ــ خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقى فقالت قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل (٤) .

ــ فأتى بى جبريل إلى باب الجنة قال : فضرب الباب فأجابه خازنها قال : من بالباب ؟ قال : جبريل ، قال ومن معك قال : محمد صلى الله عليه وسلم قال . وقد بعث محمد قال نعم ، ففتح الباب وإذا عرض الباب مسيرة ألف عام وهو من ياقوتة حمراء تلمع بالأبصار (٥) .

ــ فقلت ياجبريل إنى عطشان فقال يا محمد سر معى حتى أسقيك من الجنة

---

(١) قشيرى ١/٥٢ (٢) لالىء ٧٨
(٣) ابن القيم فى حادى الأرواح ص ١٠٧ (٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٨
(٥) مخطوطة المعراج ص ٦٣١

وأريك مافيها من النعم فتزداد بذلك زهدا فى الدنيا ورغبة فى الآخرة . . فقتح رضوان الباب فإذا هو من ذهب أحمر بمصراعين ما بين المصراع والمصراع خمسمائة عام(١) .

٣١ – سعة الجنة ومكانها ونورها وتداخل دوائرها

– ثم أصعد بى إلى الجنة ، وهى جنة واحدة قطعها الله على أربع جنات ذواتا أفنان مدهامتان ، والجنة كلها مائة درجة بين كل درجتين مسيرة خمسمائة عام ، فأول درجة من فضة دورها وبيوتها وأبوابها وأغلاقها ، والدرجة الثانية ذهب أحمر دورها وبيوتها وأبوابها وأغلاقها والثالثة من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد دورها وبيوتها وأبوابها وأغلاقها ، وسبع وتسعون درجة ما أخفى لهم من قرة أعين لم يطلع عليه بشر ، فأوسط الجنة عدن يتفجر من تحت عدن عين منها يتفجر جميع أنهار الجنة ، وفى هذه الجنان الثلاثة من الجنان فى الكثرة عدد النجوم وورق الشجر(٢)

– ثم يبدل الله تعالى الأرض التى عمل عليها المعاصى فينصب عليها من حميم جهنم فيأتى بأرض من فضة بيضاء فينصب عليها من ماء الجنة ، وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت يارسول الله يوم تبدل الأرض غير الأرض أين يكون الناس قال عليه السلام ياعائشة سألتنى عن شىء عظيم ماسألنى عنه غيرك إن الناس يومئذ على الصراط(٣) .

– قال الله تعالى وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وفى الأخبار إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى ياجبريل قرب الجنة للمتقين وبرز الجحيم للغارين فتصير الجنة إلى يمين العرش والجحيم إلى يسار العرش . .

– ثم يقول الله تعالى يارضوان أفتح أبواب الجنان ويا مالك أفتح أبواب

(١) المخطوطة الثانية المعراج ص ٣٣٨ ب. (٢) قشيرى ٥١.

(٣) دقائق الأخبار ٢٣.

النيران ثم يجيء ملك الرحمة بالحلل وملك الموت بالأغلال والسلاسل وأثواب من القطران ثم ينادى المنادى يا أهل الجنة خلود بلاموت ويا أهل النار خلود بلاموت (١) .

— قال وهب إن الله خلق الجنة يوم خلقها عرضها كعرض السماء والأرض وطولها لا يعلمه أحد إلا الله فإذا كان يوم القيامة ذهبت الأرضون السبع والسماوات السبع وصار موضعهما سعة فى الجنة فتتسع إلى حد يسع أهلها(٢) .

٣٢ — قياس المسافات الكونية بين الأرض والسماوات والحجب الالهية

— خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينها وهى ماء ودخان وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام وخلق السماوات السبع كلها كذلك غلظها خمسمائة عام ومسافة مابين كل واحدة منها والتى تليها خمسمائة عام ، ومن فوق ذلك غمامة غلظها كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين ومن السماء السابعة إليها كما بين سبع سماوات وسبع أرضين والعرش فوق ذلك فى عليين لا يعلم منتهاه إلا الله تعالى(٣) .

— ورد عن سهل بن سعد مرفوعا إن بين الله وبين الخلق سبعين ألف حجاب وأقرب الحجب إلى الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل وأن بينهم وبينه أربعة حجب حجاب من نار وحجاب من ظلمة وحجاب من غمام وحجاب من ماء . وروى إن أقرب الخلق من الله تبارك وتعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل وإنهم من الله تعالى لمسيرة خمسة آلاف سنة . وعن مجاهد قال بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب من نور وحجاب من ظلمة (٤) .

— ثم انتهينا إلى حجب الرحمن تبارك وتعالى وهى سبعمائة ألف حجاب

---

(١) نفس المصدر ص ٣٠ — (٢) نفس المصدر ص ٤٠

(٣) الثعالبى ص ٩ — (٤) اللآلىء ص ١٧/٢٨

عرض كل حجاب مسيرة ألف عام وهى حجب من الحديد وحجب من الرصاص ومن الثلج والنار والفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت والنور والظلمة ، وكل حجاب يتلألأ نوراً يخطف الأبصار وعلى كل حجاب سبعون ألف ملك(١) .

٣٣ ــ شكل الجنة وانبثاق أنهار أربعة منها النيل والفرات وسيحان وجيحان من لبن وعسل وخمر وماء

ــ فى صحيح البخارى : رفعت إلى سدرة المنتهى فى السماء السابعة نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ويخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان ، فقلت ياجبريل ما هذا قال أما النهران الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات . وفى صحيح مسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة ، وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أنزل الله من الجنة خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة ، من أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فى أصناف معاشهم(٢) .

ــ كان كعب الأحبار رضى الله عنه يقول نهر دجلة نهر ماء الجنة ونهر الفرات نهر لبنها ونهر مصر نهر خمرها ونهر سيحان نهر عسلها وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر (٣) .

ــ وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ليلة أسرى بى إلى السماء عرض على جميع الجنان فرأيت فيها أربعة أنهار نهر من ماء

(١) مخطوطة المعراج ١١٢/١١٣ (٢) حادى الأرواح ١٨١/١٨٣

(٣) التذكرة ١٣٨

غير آسن ونهر من لبن لم يتغير طعمه ونهر من خمر ونهر من عسل مصفى(١) .

— فأتى جبريل إلى باب الجنة فضرب الباب فأجابه خازنها وفتح لنا وإذا عرض الباب مسيرة ألف عام وهو من ياقوتة حمراء تلمع بالأبصار وإذا مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله لكل شيء حلية وحليـــة العيش الطيب القناعة وترك الجفاء وترك الحسد ومجالسة أهل الخير . .

— ثم انتهينا إلى الباب السابع فإذا مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون من أحب أن يدخل الدار فليتمسك بالصدق وحسن الخلق والكف عن أذى المسلمين(٢).

٣٤ ـ أسماء الجنان عدن ودار والقرار والمأوى والخلد والفردوس والنعيم ووصف مابها

— قال ابن عباس رضي الله عنهما للجنان ثمانية أبواب من ذهب مرصع بالجوهر مكتوب على الباب الأول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . وهي ثمان جنان ، أولها دار الجلال وهي من لؤلؤ أبيض وثانيها دار السلام وهي من ياقوت أحمر وثالثها جنة المأوى وهي من زبرجد أخضر ورابعها جنة الخلد وهي من مرجان أحمر وأصفر وخامسها جنة النعيم وهي من فضة بيضاء وسادسها جنة الفردوس وهي من ذهب أحمر وسابعها جنة عدن وهي من درة بيضاء وثامنها دار القرار وهي من ذهب أحمر وهي قصبة الجنان وهي مشرفة على الجنان كلها ولها بابان ومصراعان مصراع من ذهب ومصراع من فضة مابين كل مصراعين

(١) دقائق الأخبار ٤١

(٢) مخطوطة المعراج ص ١٣٤ - ١٣٥

كما بين السماء والأرض وأما بناؤها فلبنة من ذهب ولبنة من فضة وطينها المسك وترابها العنبر وحشيشها الزعفران وقصورها اللؤلؤ وغرفها الياقوت ، وفيها أنهار نهر الرحمة وهو يجرى فى جميع الجنان حصباؤه اللؤلؤ أشد بياضا من الثلج وأحلى من العسل وفيها نهر الكوثر وهو نهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أشجاره الدر واليواقيت وفيها نهر الكفور وفيها نهر التسنيم والسلسبيل والرحيق ومن وراء ذلك أنهار لا يحصى عددها (١) .

– ورد فى الحديث إن المتحابين فى الله تعالى لعلى عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة يضىء حسنهم على أهل الجنة كما تضىء الشمس على أهل الدنيا يقول أهل الجنة بعضهم لبعض انطلقوا بنا حتى ننظر إلى المتحابين فى الله تعالى فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم على أهل الجنة عليهم ثياب خضر من سندس مكتوب على جبتهم هؤلاء المتحابون فى الله (٢) .

– أرض الجنة من ورق وترابها مسك وأصول أشجارها ذهب وورق وأفنانها لؤلؤ وزبرجد وياقوت ، والورق والثمر تحت ذلك ، فمن أكل قائما لم يؤذه ، ومن أكل جالساً لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعا لم يؤذه ، وذللت قطوفها تذليلا(٣) .

---

(١) دقائق الأخبار ص ٤١

(٢) التذكرة ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٣) حادى الأرواح ص ١٧٠

٣٥ – وصف الحور العين ثيابهن وغناؤهن وجمالهن ونورهن

– إن أول زمرة يدخلون الجنة من أمتى على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، ثم هم بعد منازل أمشاطهم الذهب والفضة ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ولكل منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم(١) ، فإن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك بأن الله عز وجل يقول : كأنهن الياقوت والمرجان ، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه ، ينظر إلى وجهه فى خدها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤه عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب ، ولو أن بعض بنانها بدا لغلب ضوؤه ضوء الشمس والقمر(٢).

– إن فى الجنة نهرا طول الجنة حافتاه العذارى قيام متقابلات يغنين بأصوات حتى يسمعها الخلائق ما يرون فى الجنة لذ مثلها يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له(٣) .

– قال ابن وهب إن الحور العين يغنين أزواجهن فيقلن نحن الخيرات الحسان ، أزواج شباب كرام ونحن الخالدات فلا نموت ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط ونحن المقيمات فلا نظعن ، مكتوب فى صدر إحداهن أنت حبي وأنا حبك انتهت نفسى عندك ، لم ترعيناى مثلك ، ليس دونك مقصد ولا وراءك معدل(٤).

– عن أبى هريرة أنه قيل « يا رسول الله أنطأ فى الجنة ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده دحاما دحاما ، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرا (٥) .

---

(١) التذكرة ٤٨١

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٩٨٨/٩٩٠

(٣) حادى الأرواح ٢٥٠

(٤) نفس المصدر

(٥) نفس المصدر ص ٢٣٨

ـ قال الرسول (ص) يا جبريل قف بى على الحور العين فأوقفه عليهن فقال من أنتن فقلن نحن جوارى قوم كرام حلوا فلم يظعنوا وشبوا فلم يهرموا ونقوا فلم يدرنوا(١) .

٣٦ ـ وصف جنة النعيم برياضها وغرفاتها وموسيقاها وبقيه درجات الجنة المائة

ـ فنظرت فاذا أرضها بيضاء مثل الفضة ، حصباها من اللؤلؤ والمرجان وترابها المسك ونباتها الزعفران وأشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب والثمار عليها مثل النجوم المضيئه والعرش سقفها والرحمة حشوها والملائكة سكانها والرحمن جارها ، فأخذ رضوان بيدى وسرنا بين أشجارها وما فيها من سرور وعيون وحور عين وأبكار وقصور عاليات وولدان كأنهن الأقمار وخدم وحشم وكرم وأنعام ونعيم(٢) .

ـ آلا مشمر للجنة فان الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر يطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميله وحلل كثيرة فى حبرة ونضرة ودار عالية بهية .. وإن فى الجنة لقصورا من لؤلؤ ، فى كل قصر سبعون دارا من ياقوته حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء ، فى كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، فى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطى الله المؤمن من القوة فى غداه واحدة ما يأتى على ذلك كله (٣) .

ـ فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس (٤) .

(١) نفس المصدر ٢٣٤ (٢) ابن عباس ٤١

(٣) التذكرة ١٤٥ (٤) نفس المصدر السابق ١٤٣

— ينزل الله تعالى فى آخـــر ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فينظر الله فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ، ثم ينظر فى الساعة الثانية إلى جنة عدن وهى سكنه الذى يسكن فيه ولا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون ، وفيها ما لم تره عين أحد ولا خطر على قلب بشر ، ثم يهبط آخر ساعة من الليل فيقول ألا مستغفر يستغفرنى فأغفر له . . حتى يطلع الفجر(١) .

— خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقى فقالت قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل ، ثم تلا رسول الله « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٢) .

٣٧ — نعيم من هو فى أدنى الدرجات ، حجم أملاكه وعدد نسائه وتفصيل متعه

— ألا أخبركم بأسفل أهل الجنة درجة ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال رجل يدخل من باب الجنة فيتلقاه غلمانه فيقولون مرحبا بسيدنا قد آن لك أن تزورنا ، قال فتمد له الزرابى أربعين سنة ثم ينظر عن يمينه وشماله فيرى الجنان فيقول لمن ما ها هنا ؟ فيقال : لك ، حتى إذا انتهى رفعت له ياقوته حمراء أو زبرجدة خضراء لها سبعون شعبا فى كل غرفة سبعون بابا فيقال : ارقه ، فيرقى حتى إذا انتهى إلى سرير ملكه اتكأ عليه سعته ميل فى ميل له فيه قصور ، فيسعى إليه بسبعين صحفة من ذهب ليس فيها صفحة من لون أختها ، يجد لذة آخرها كما يجد لذة أولها ، ثم يسعى إليه بألوان الأشربة فيشرب منها ما اشتهى ، ثم يقول الغلمان : اتركوه وأزواجة فينطلق الغلمان ثم ينظر فاذا حوراء من الحور

---

(١) حادى الأرواح ١٠٦ (٢) نفس المصدر السابق ١٠٨

العين جالسة على سرير ملكها عليها سبعون حلة ليس منها حلة من لون صاحبتها فيرى مخ ساقها من وراء اللحم والدم والعظم والكسوة فوق ذلك فينظر إليها فيقول من أنت ؟ فتقول أنا من الحور العين من اللاتى خبئن لك، فينظر إليها أربعين سنة لا يصرف بصره عنها ، ثم يرفع بصره إلى الغرفة فإذا أخرى أجمل منها فتقول : ما آن لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيرتقى إليها أربعين سنة لا يصرف بصره عنها (١) .

— إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسروره مسيرة ألف سنة (٢) .

— إن أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء، وله سبعة قصور قصر من ذهب وقصر من فضة وقصر من در وقصر من زمرد وقصر من ياقوت وقصر لا تدركه الأبصار وقصر من لون العرش ، فى كل قصر من الحلى والحلل والحور العين ما لا يعلمه إلا الله عز وجل (٣) .

— والذى بعثنى بالحق ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله وثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله لعبادتهما الله عز وجل فى الدنيا ، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجا من سندس واستبرق . فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله .. فبينا هو كذلك إذ نودى إنا قد

(١) الترغيب والترهيب ص ٩٤١ / ٩٤٢ (٢) نفس المصدر ٩٤٣.

(٣) التذكرة ص ١٥٧

عرفنا أنك لا تمل ولا تمل إلا أنه لامنى ولامنية ، إلا أن تكون له أزواج غيرها فتخرج فتأبتهن واحدة واحدة كلما جاءت واحدة قالت والله ما فى الجنة شئ أحسن منك ، وما فى الجنة شىء أحب إلى منك » (١) .

— إن أدنى أهل الجنة منزلة له سبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة ، إن له لثلاثمائة خادم ويغدى عليه كل يوم ويراح بثلاثمائة صفحة من ذهب ، فى كل صفحة لون ليس فى الأخرى ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره . . وإنه ليقول يارب لو أذنت لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص ما عندى شىء . وإنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيجئ مشويا بين يديك (٢) .

— إن فى الجنة طائراً له سبعون ألف ريشة يجىء فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة فينتفض فيقع من كل ريشة لون أبيض من الثلج وألين من الزبد وألذ من الشهد ليس منها لون يشبه صاحبه ثم يطير (٣) .

— الرمانة من رمان الجنة يجتمع حولها بشر كثير يأكلون منها فإن جرى على ذكر أحدهم شىء يريده وجده فى موضع يده حيث يأكل .

— إن فى الجنة طيراً مثل أعناق البخت تطيف على يد ولى الله فيقول أحدهم ياولى الله رعيت فى مروج تحت العرش وشربت من عيون التسنيم فكل منى فلا يزال ذلك الطير بين يديه حتى يخطر على باله أكله فيخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منه ما أراد فاذا شبع تجمعت عظام الطائر ثم طار يرعى فى الجنة حيث يشاء (٤) .

---

(١) حادى الأرواح ص ٢٣٠

(٢) الترغيب والترهيب - ٤ ص ٩٧٦/٩٧٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٧٧/٩٧٨ (٤) التذكرة ص ١٥

— إن الرجل من أهل الجنة ليزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب ، يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا (١) .

٣٨ — ترشيح الأكل والعينان النضاختان ووصف الولدان المخلدين

— يأكل أهل الجنة ويشربون ولايتمخطون ولايتغوطون ولايبولون ، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس ، والذى نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى المطعم والمشرب والشهوة والجماع . وتكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بدنه (٢) .

— كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول فى قوله تعالى « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » إن أول ما يدخل أهل الجنة الجنة يعرض لهم عينان يشربون من إحداهما فيذهب الله تعالى مافى قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون منها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم وتعرف فيها نضرة النعيم ؛ فلا تغير أبشارهم ولاتشعث أشعارهم أبداً ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، ثم تتلقاهم الولدان فيطوفون بهم كما يطرف ولدان الدنيا بالرجل يجئ من الغيبة الطويلة ويقولون له أبشر بما أعد الله تعالى لك فى الجنة كذا وكذا ثم يذهب الغـلام منهم إلى الزوجة من زوجاته فيقول لها قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدار الدنيا فتقول له أنت رأيته ، ثم تستخفها العجلة من الفرح حتى تقوم على أسكفة الباب ثم ترجع ، فيجيء فينظر فإذا زرابى مبثوثة وأكواب موضوعة ، ثم يرفع رأسه

---

(١) الترغيب والترهيب جـ٤ ص ٩٨٦

(٢) حادى الأرواح ١٨٧/١٨٨

إلى سقف بنيانه فلولا أن الله تعالى أقدره على رؤيته لذهب بصره ..ثم يقول الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله(١) .

— والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة ، عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مثل مد البصر ، وينتهون إلى باب الجنة وإذا شجرة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحداهما جرت فى وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدا ، وإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب ، فيضربون الحلقة بالصفيحة فلو سمعت طنين الحلقة ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة فتبعث قيمها فيفتح له الباب ، فلو أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا مما يرى من النور والبهاء ، فيقول أنا قيمك الذى وكلت بأمرك ، فيتبعه فيقفو أثره فيأتى زوجته فتستخفها العجلة فتخرج من الخيمة فتعانقة وتقول .أنت حبى وأنا حبك ، وأنا الراضية فلا أسخط أبدا ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبدا ، والخالدة فلا أظعن أبدا ، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفة مائة ذراع مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت طرائق حمر وطرائق خضر وطرائق صفر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها ، فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشا ، عليها سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من باطن الحلل تجرى من تحتهم أنهار مضطردة ، أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طيور بيض ، فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ثم تطير فتذهب فيها ثمار متدلية ، إذا اشتهوها انشعب الغصن إليهم فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ المكنون(٢) .

---

(١) التذكرة ١٦٠ (٢) حادى الأرواح ١٤٨ /١٤٩

- فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنائه . . ثم طأطأ رأسه فنظر إلى أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ، فنظروا إلى تلك النعمة ثم اتكئوا وقالوا « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ثم ينادى مناد . تحيون فلا تموتون أبدا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدا ؛ وتصحون فلا تمرضون أبدا(١) .

٣٩ - شجرة طوبى وأغصانها وثمارها وأنواع الخمر وألوانها وصنوف مذاقها

- قال أعرابى يارسول الله هل فى الجنة فاكهة قال نعم شجرة تدعى طوبى . . لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرما ، قال فهل فيها عنب ؟ قال : نعم ، قال فما عظم العنقود منها قال مسيرة الغراب الأبقع شهرا ولا يفتر ، قال فما قدر الحبة منها ؟ فقال كالدار العظيمة ؛ فقال يارسول الله إن هذه الحبة لتشبعنى وأهل بيتى قال نعم وعامة عشيرتك (٢) .

- نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وفروعها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال والدلاء أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس فيه عجم(٣) .

- إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لو سخر الجواد الراكب أن يسير فى ظلها لسار فيها مائة عام ، ورقها برود خضر ، وزهرها رياض صفر ، وأفنانها سندس واستبرق ، وثمارها حلل ، وصمغها زنجبيل وعسل ، وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر وترابها مسك وحشيشها زعفران ، ويتفجر من أصلها أنهار السلسبيل والمعين والرحيق ، وظلها مجلس من مجلس أهل الجنة يألفونه(٤).

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٥٠
(٢) التذكرة ١٤٠
(٣) نفس المصدر ص ١٤١
(٤) حادى الأرواح ص ٢٦٨.

- كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى «كان مزاجها زنجبيلا» و «يسقون من رحيق» هو الخمر ختامه مسك ، وهو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلا وضع أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها ؛ ومثل بالرحيق من الخمر والزنجبيل لكون العرب كانوا يستطيبون خلطهما فخاطبهم بما كانوا يعرفون ويحبون (١) » .

- وقال عبد الله بن مسعود فى قوله « ومزاجه من تسنيم » يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا (٢) .

- قال كعب سألت رسول الله عليه السلام عن أشجار الجنة فقال : لاتيبس أغصانها ولا تتساقط أوراقها ولايفنى رطبها وإن أكبر أشجار الجنة شجرة طوبى أصلها من در ووسطها من ياقوت وأغصانها من زبرجد وأوراقها سندس وعليها سبعون ألف غصن أغصانها متصلة بساق العرش وفيها من الثمار ما تشتهى الأنفس(٣) .

- ثم انطلق يطوف بى فى الجنة حتى انتهينا إلى شجرة لم أر مثلها فوقف تحتها فرفعت رأسى فإذا أنا لم أر شيئاً من خلق الله تعالى مثلها ولها رائحة طيبة لم أشم فى الجنة مثلها فرفعت رأسى فإذا أنا بألوان ظرائف الجنة ما بين أبيض وأخضر وثمارها مثال شىء عظيم فتعجبت منها وما رأيت من حسنها فقلت يا أخى جبريل أى شجرة هذه قال هذه شجرة طوبى التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى القرآن فى قوله « طوبى لهم وحسن مآب » وتكون أمتك فى ظلها يوم القيامة وهى شىء عظيم ونعيم طويل(٤) .

- وإذا فى الجنة شجرة عظيمة ليس فى الجنة ثمرة إلا فيها من جميع الأنهار المختلفة ، وليس فى الجنة قصر ولابيت ولا دار إلا عليه غصن من اغصان

---

(١) التذكرة ص ١٦٢

(٢) الاتحاف جـ ١٠ ص ٥٤٣

(٣) دقائق الأخبار ص ٤٢

(٤) مخطوطة المعراج ص ١٣٨-١٣٩

تلك الشجرة ، قضبانها من الفضة وأوراقها من الذهب حاملة بثمار أبيض من الثلج وأحلى من العسل وألين من الزبد فقلت ياحبيبي يا جبريل ماهذه الشجرة ؟ قال . هذه شجرة طوبى تظل العابدين يوم القيامة(١) .

— ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة ، تكاد الورقة تغطى هذه الأمة وتظل الخلائق ، على كل ورقة فيها ملك فغشيتها ألوان لا يدرى ماهى فتحولت يا قوتا وزبرجدا ، فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها(٢) .

٤٠ — يجلسون لسماع الأقاصيص فتأتى قافلة الرؤية محملة بالهدايا

— وظلها مجلس من مجالس أهل الجنة يألفونه ومتحدث يجمعهم فبينما هم يوما يتحدثون فى ظلها إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجبا جبلت من الياقوت ثم نفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من ذهب ، كأن وجوهها المصابيح نضارة وحسنا ، وبرها خز أحمر ومرعزى أبيض مختلطان لم ينظر الناظرون إلى مثلها ، عليها رحائل ألواحها من الدر والياقوت ، مفصصة باللؤلؤ والمرجان ، وصفافها من الذهب الأحمر ملبسة بالعبقرى والأرجوان فأناخوا إليهم تلك النجائب ، ثم قالوا لهم إن ربكم تبارك وتعالى يقرئكم السلام ويستزيركم لتنظروا إليه وينظر إليكم وتحبونه ويحبيكم ويكلمكم وتكلمونه ويزيدكم من سعته وفضله ، إنه ذو رحمة واسعة وفضل

---

(١) المخطوطة الثانية ص ٢٣٩ أ برقم ٧٣٨ تيمورى دار الكتب المصرية .

(٢) الغيطى ص ١٠٢ — ١٠٤

عظيم . فيتحول كل رجل منهم على واحلته، ثم انطلقوا صفاً واحدا معتدلا لا يفوق منه شيء شيئاً ولا يقرب أذن ناقة أذن صاحبتها ولا تركب ناقة بركت صاحبتها ، ولا يمرون بشجر من أشجار الجنة إلا أتحفتهم بثمرها ورحلت لهم عن طريقهم ، كراهية أن ينثلم صفهم أو يفرق بين الرجل ورفيقه(١) .

— الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فى ظلها مائة عام فى كل نواحيها ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها ، قال فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا (٢) .

— فبينما أنتما فى لذاتكما وسروركما وقد مضت الأحقاب من الدهور وما تشعران من اشتغال قلوبكما بنعيمكما إذ هجمت الملائكة بالسلام عليك وأتتك بالتحف والألطاف من عند ربك . . فخرجت مع أولياء الله تحت ظل طوبى تتحدثون إذ أمر الله منادياً من ملائكته فنادى أولياءه لينجزهم ما وعدهم من غاية كرامته وعظيم مسرته بأن يقربهم منه ويناجيهم بترحيبه .. فبينماهم كذلك وقد كادت قلوبهم أن تطير بأرواحهم فى أبدانهم فرحاً وسروراً إذ أقبلت الملائكة يقودون نجائب نجت خلقت من الياقوت ثم نفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من ذهب ، كأن وجوههم المصابيح نضارة وحسناً ، لاتروث ولاتبول ، ذوات أجنحة ، قد علاها خز من خز الجنة أحمر ومرعز من مرعزها أبيض مشرق فى بياضه ، على ظهرها خطان حمرة فى بياض على هيئة وتر النجائب فى الدنيا . ـ فتوهمها بحسنها أحسن ركب بخائب الجنان . . فلما استووا عليها واستويت على نجيبك معهم ثارت النجائب فثار

---

(١) حادى الأرواح ص ٢٦٨/٢٦٩

(٢) الترغيب و الترهيب حـ ٤ ص ٩٦٦

عجاج المسك لوثوبها فعلا ذلك ثيابهم وجمامهم.. ثم استوت النجائب صفاً واحداً معتدلا فصاروا موكباً معتدلا لاعوج فيه ولا يتقدم بعضهم بعضاً . . تهتز أجسام أولياء الله عليها من نعيمها وأكنافهم متحاذية فى سيرهم وأخفاف رواحلهم وركبها متحاذية فى خببها ، فانطلقوا كذلك تثير رواحلهم المسك بأخفافها وتهتز رياض الزعفران بأرجلها ، فلما دنوا من أشجار الجنة رمت الأشجار إليهم من ثمارها فصارت الثمار فى أكفهم . وتزحزحت وتنحت الأشجار عن طريقهم لما ألهمها مولاها أن لاينثلم صفهم فينعوج بعد استوائه ويختلف بعد اعتداله ، ويفرق بين ولى الله ورفيقه فهم يسيرون فرحين وقد شخصت قلوبهم بالتعلق إلى نظر حبيبهم فهم يسيرون بالسرور ويلتفت بعضهم إلى بعض يتحادثون ويضحك بعضهم إلى بعض ، يتداعبون فى سيرهم ويحمدون ربهم على ما صدقهم وأباح لهم من جواره (١)

٤١ ـ وصف الرؤية الإلهية وزيادة الحسنى والنعيم

ـ فلما دفعوا إلى الجبار تبارك وتعالى أسفر لهم عن وجهه الكريم وتجلى لهم فى عظمته العظيمة تحيتهم فيها السلام ، قالوا ربنا أنت السلام ومنك السلام ولك حق الجلال والإكرام ، فقال لهم ربهم ، إنى أنا السلام ومنى السلام ولى حق الجلال والإكرام فرحباً بعبادى الذين حفظوا وصيتى ورعوا عهدى وخافونى بالغيب ؛ وكانوا منى على كل حال مشفقين ٥ قالوا : أما وعزتك وجلالك وعلو مكانك ما قدرناك حق قدرك ولا أدينا إليك كل حقك فائذن لنا بالسجود لك ، فقال لهم ربهم تبارك وتعالى إنى قد وضعت عنكم مؤونة العبادة ؛ وأرحت لكم أبدانكم ؛ فطلما أنصبتم الأبدان وأعنيتم الوجوه فالآن أفضيتم إلى روحى ورحمتى وكرامتى فسلونى ما شئتم وتمنوا على أعطكم أمانيكم فإنى لن

(١) التوهم للمحاسبى ص ٥١/٥٦

أجزيكم اليوم بقدر أعمالكم ولكن بقدر رحمى وكرامتى وطولى وجلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى ؛ فما يزالون فى الأمانى والمواهب والعطايا حتى إن المقصر منهم ليتمنى مثل جميع الدنيا منذ يوم خلقها الله عز وجل إلى يوم أفناها . قال ربهم : لقد قصرتم فى أمانيكم ورضيتم بدون ما يحق لكم فقد أوجبت لكم ما سألتم وتمنيتم وزدتكم على ما قصرت عنه أمانيكم ؛ فانظروا إلى مواهب ربكم الذى وهب لكم ؛ فإذا بقباب فى الرفيع الأعلى ؛ وغرف مبنية من الدر والمرجان ، أبوابها من ذهب وسورها من ياقوت وفرشها من سندس واستبرق ومنابرها من نور ؛ يثور من أبوابها وأعراضها نور كشعاع الشمس مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء ؛ وإذا قصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهر بنورها ؛ فلولا أنه سخر لالتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض وماكان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقرى الأحمر ؛ وماكان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وماكان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر مموة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء (١) .

٤٢ — قافلة العودة يجرها الولدان المخلدون ويتضاحك معهم الملائكة .

— فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من الياقوت الأبيض منفوخ فيها الروح بجنبها الولدان المخلدون ، وبيد كل وليد منهم حكمة برذون ، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء مطوقة بالدر والياقوت ؛ وسرجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق ، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم وتنظر رياض الجنة ، فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا فيها جميع ما تطول به ربهم عليهم مما سألوه وتمنوه(١) .

---

(٢) الترغيب والترهيب حـ ٤ ص١٠١٥ — ١٠١٧

(١) نفس المصدر ص ١٠١٧

- ثم يبعث الله ريحاً غير مؤذية فتنسف كثائب من مسك عن أيمانهم وعن شمائلهم ، فيأخذ ذلك المسك فى نواصى خيولهم وفى مفارقهم وفى رؤوسهم ، فيتعلق ذلك المسك فى تلك الجمام وفى الخيل وفيما سوى ذلك من الثياب ثم يقبلون حتى ينتهوا إلى ما شاء الله تعالى (١)

- إن أهل الجنة يركبون الرفارف الخضر فتسير بهم حيث شاءوا يحف بهم الولدان المخلدون ، فإذا ركبوا الرفارف التى هى كالخيل أخذ إسرافيل فى السماع فتميل الناس يميناً وشمالا وخفضاً ورفعاً من حلاوة سماع صوته . . فلم يتخلف من حضوره شجرة فى الجنة ولم يبق فيها ستر ولا باب إلا ارتج وانفتح ولم تبق حلقة على باب إلا طنت بأنواع الطنين كلها ، ولم يبق اجمة من آجام الذهب ولا قصبة فيها إلا زمرت بفنون الزمر ، ولم تبق جارية من جوارى الحور العين إلا غنت بأنواع الغناء وكذلك جميع طيور الجنة ، ثم يوحى الله تعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم وأسمعوا عبادى فيجاوبونهم بألحان وأصوات روحانية فتختلط هذه الأصوات كلها فتصير رجة واحدة ماسمع بألذ منها ، ثم إن الله تبارك وتعالى يقول لداود عليه السلام قم عند ساق عرشى فمجدنى فيندفع داود بصوت يغمر الأصوات كلها فتتضاعف اللذة وأهل الخيام على تلك الرفارف تهوى بهم وتصعد كيف أرادوا وقد حفت بهم أفانين اللذات والأغانى والسرور فذلك قوله تعالى « فهم فى روضة يحبرون »(٢).

٤٣ – عوالم من الجبال الكريمة والحدائق والجنان الأربعة

- فلما انتهوا إلى منازلهم وإذا على باب كل قصر من قصورهم أربعة

---

(١) حادى الأرواح ص ٢٦١

(٢) التذكرة ص ١٦٣

جنان : جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاحتان وفيهما من كل فاكهة زوجان وحور مقصورات فى الخيام (١) .

— إن فى الجنة لغرفا من جوهر يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، فقال رجل لمن هى يا رسول الله ؟ فقال : لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام (٢) .

— سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال ، هو رجل يجىء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أى رب . كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت يارب فيقول له : لك مثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت ربى فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقـــول رضيت ربى (٣) .

— فى الخبر عن النبى عليه السلام أنه قال . ليلة أسرى بى إلى السماء عرض على جميع الجنان فرأيت فيها أربعة أنهار نهر من ماء غير آسن ونهر من لبن لم يتغير طعمه ونهر من خمر ونهر من عسل مصفى .. فقلت يا جبريل : من أين تجىء هذه لأنهار وإلى أين تذهب ؟ فجاء ملك فسلم على وقال يامحمد اغمض عينيك فأغمضت عينى ثم فتحتها فاذا أنا عند شجرة ورأيت قبة من درة بيضاء ولها باب من ياقوت أخضر وقمله من ذهب أحمر لو أن جميع مافى الدنيا من الجن والإنس وقفوا على تلك القبة لكانوا مثل طير جالس على جبل فرأيت هذه الأنهار الأربعة تجرى من تحت هذه القبة (٤) .

---

(١) الترغيب والترهيب حـ٤ ص١٠١٧

(٢) التذكرة ١٤٥ (٣) حادى الأرواح ٢٧٦

(٤) دقائق الأخبار ص ٤١

- وقصور الجنة وغرفها قطعة واحدة صناعة الملك العلام وليس فيها قطع ولا وصل فيدخل الولى تلك القصور ويتفرج فيها مقدار سبعين عاما ويوجد فيها بساتين خيل لكل فرس منها لون مشرق وجناحان من الذهب . ولا يزال سائرا فى وسط جنته حتى يرى قصورا من نور وأشجارا من جوهر وأنهارا من ماء ولبن وخمر وعسل وعليها قباب من الياقوت والزمرد والمرجان فيها خدم وحور وولدان فيمر لها على قناطر من جوهر وجبال من ياقوت(١) .

٤٤ - مذاق الثمار والفواكه وخيام الحور المقصورات وزيارة الله لهم

- الرمانة من رمان الجنة يجتمع حولها بشر كثير يأكلون منها ، فإن جرى على ذكر أحدهم شيء يريده وجده فى موضع يده حيث يأكل ، وإن التمرة من تمر الجنة طولها اثنا عشر ذراعا ليس لها عجم(٢) .

- أليس الله يقول « فى سدر مخضود » خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمرا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ، مافيها لون يشبه الآخر(٣) .

- والذى نفسى بيده إن فيها لنخلا جذوعه من ذهب وكرانيفه وجريده من ذهب ، وسعف كأحسن حال يراها أحد من العالمين ، وعراجين من ذهب وشماريخ من ذهب وأقماع من ذهب وثمار كالقلال أشد لينا من الزبد وأحلى من العسل(٤) .

- مامن عبد يصوم يوما من رمضان إلا زوج زوجة من الحور العين فى خيمة من درة مجوفة مما نعت الله عز وجل بقوله « حور مقصورات فى الخيام » على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس منها حلة على لون الأخرى

---

(١) الدر الحسان ص ٤٣ ، ٤٤
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٩٧٩
(٣) نفس المصدر السابق ٩٧٨
(٤) التذكرة ص ١٤١

ويعطى سبعين لونا من الطيب ليس منها لون على ريح الآخر لكل امرأة منهن سبعون سريرا من ياقوتة حمراء موشحة بالدر ، على كل سرير سبعون فراشاً على كل فراش أريكة ، لكل امرأة منهن سبعون ألف وصيفة لخدمتها وسبعون ألف وصيف ، مع كل وصيف صحيفة من ذهب فيها لون من الطعام يجد أحدهم للآخر منها لذة لم يجدها لما قبلها ، ويعطى زوجها مثل ذلك على سرير من ياقوت أحمر(١) .

- بينما أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم يزورهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وهو قوله عز وجل « سلام قولا من رب رحيم » فلا يلتفتون إلى شىء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره(٢) .

٤٥ ـ خازن الجنة على كرسى من نور وترابها من المسك وخيلها وطيورها

- ثم أخذ بيدى وسرنا حتى أتينا الجنة وإذا أنا بملك عظيم الخلقة حسن المنظر بهى الوجه والنور يلوح من وجهه ، جالس على كرسى من نور وعليه الحلى والحلل ، فقلت يا أخى جبريل من هذا ؟ قال : هذا رضوان خازن الجنان ، فتقدمت وسلمت عليه ، فلما رآنى نهض مبتسما ورد على السلام وعانقنى وصافحنى وقال مرحباً بالنبى الناصح والأخ الصالح ، فقال جبريل يا رضوان خذ بيد حبيب الله وأره الجنة وما أعد الله له ولأمته ، فأخذنى وأدخلنى الجنة ، فنظرت فاذا أرضها بيضاء مثل الفضة وحصباؤها من اللؤلؤ والمرجان وترابها المسك ونباتها الزعفران وأشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب والثمار عليها مثل النجوم المضيئة . . وسرنا بين

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٠

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٠٢٥

أشجارها وما فيها من سرور وعيون وحور عين وأبكار وقصور عاليات وولدان كأنهم الأقمار . . ورأيت قبة من لؤلؤة بيضاء لها ألف باب من الذهب(١) .

– نهر أعطانيه الله فى الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير مثل أعناق البخت تطيف على يد أولياء الله وتقول لأحدهم . يا ولى الله رعيت مروج تحت العرش وشربت من عيون التسنيم فكل منى فلايزال ذلك الطير بين يديه حتى يخطر على باله أكله فيخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منه ما أراد فاذا شبع تجمع عظام الطائر ثم طار يرعى فى الجنة حيث يشاء(٢) .

– إذا دخل أهل الجنة جاءتهم خيول من ياقوت أحمر لها أجنحة لا تبول ولا تروث ، فقعدوا عليها ثم طاروا بها فى الجنة ، فيتجلى لهم الجبار ، فإذا رأوه خروا سجدا فيقول لهم تبارك وتعالى : ارفعوا رؤوسكم فان هذا ليس يوم عمل ، إنما هو يوم نعيم وكرامة ، فيرفعون رؤسهم فيمطر الله عليهم طيبا ، فيمرون بكثبان المسك ، فيبعث الله على تلك الكثبان ريحا فتهيجها عليهم . وإن أهل الجنة ليتزاورون على العيس الجون ، عليها رحال الميس ، تثير مناسمها غبار المسك ، زمام أحدها خير من الدنيا وما فيها (٣) .

– يبعث أهل الجنة على صورة آدم فى ميلاد ثلاث وثلاثين سنة جردا مردا مكحلين ، ثم يذهب بهم إلى شجرة فى الجنة فيكسون منها ، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم ، صورتهم على صورة القمر ليلة البدر (٤) .

---

(١) ابن عباس ص ٤٠/٤١

(٢) التذكرة ص ١٥٤

(٣) حادى الأرواح ص ٢٥٧ – ٢٦٢

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٥٢–١٥٣

٤٦ – نهر يحتضن كل الجنان والحور ينبتن في الخيام وتتفتح عنهن كاللآلىء

– ورأيت نهرا ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك على رضراض الدر والياقوت ، حشيشه المسك والزعفران وأشجاره من ذهب أحمر فقلت ياجبريل ماهذا النهر؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك الله إياه وهو التسنيم ، يخرج من تحت العرش إلى دور أهل الجنة وقصورهم وغرفهم ويمزجون به أطعمتهم من الماء والعسل واللبن والخمر وتتفجر منه كل عيونهم(١) .

– إن فى الجنة نهرا يقال له البيدج . عليه قباب من ياقوت تحته جوار ، يقول أهل الجنة انطلقوا بنا إلى البيدج فيتصفحون تلك الجوارى فاذا أعجب رجلا منهم جارية مس معصمها فتتبعه (٢) .

– إن فى الجنة نهرا يقال له البيدخ ، عليه قباب من ياقوت ، تحته جوار نابتات ، يقول أهل الجنة انطلقوا بنا إلى البيدخ فيجيئون فيتصفحون تلك الجوارى فاذا أعجب رجل منهم بجارية مس معصمها فتتبعه وتنبت مكانها أخرى . . وشعر الحور بمنزلة جناح النسر (٣) .

– كان الحكيم الترمذى رضى الله عنه يقول : بلغنا أن سحابة مطرت من العرش فخلق الله تعالى من كل قطرة خيمة مجوفة فيها حوراء لم ير أحسن منها ، وسعة كل خيمة منها أربعون ميلا على شاطىء أنهار الجنة وليس لهذه الخيام أبواب ولكن إذا دخل ولى الله تعالى الخيمة انصدعت الخيمة عن باب وذلك ليعلم ولى الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم ترها قبل ذلك (٤) .

---

(١) مخطوطة تيمور ص ١٢٧ (٢) حادى الأرواح ١٨٤
(٣) إتحاف السادة المتقين جـ ١٠ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤
(٤) التذكرة ص ١٦٣

— يدخل المؤمن وهو يتنعم ويتفرج فى الجنة فيسير إلى وسط جنته فينظر إلى قصر من ذهب ودرفيه شجرة من جوهرة حاملة حللا وورقها حلل وفيها ثمرة أحلى من العسل ، فاذا أكلها بقيت حبتها فتخرج منها جارية مكتوب على خدها اسم صاحبها أحسن من الشامة على الخدود وتقول السلام عليك يا ولى الله قد طال شوقى إليك ثم ينظرون بين تلك القصور إلى أنهار من لبن وعسل وعليها قباب من ياقوت ودر ومرجان فيها من الخدم والحور والولدان شىء كثير فيمكث المؤمن فى نعيم ولذة (١) .

٤٧ — الحوريات يعرفن أزواجهن ويفرحن بلقائهن والأشجار تتدلى للآكلين

— تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم يقدم من غيبته ، فيقولون : أبشر بما أعد الله لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان باسمه الذى يدعى به فى الدنيا ، فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول : أنا رأيته وهو ذا بأثرى ، فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها وتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول : أنت حبى وأنا حبك . فيدخل بيتا من أساسه إلى سقفه مائة ذراع مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت .. تجرى من تحته أنهار مضطردة .. فاذا اشتهوا الطعام جاءتهم طيور بيض فترتفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ثم تطير فتذهب ، فيها أشجار ذات ثمار

(١) قرة العيون ومفرج القلوب المحزون للسمرقندى ص ٤

متدلية ، إذا اشتهوها انشعب الغصن إليهم فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، إن شاء قائماً وإن شاء متكئاً (١) .

— إن فى الجنة حوراء يقال لها اللعبة ، كل حور الجنان يعجبن بها ويضربن بأيديهن على كتفها ويقلن طوبى لك يالعبة ، لو يعلم الطالبون لك لجدوا ، بين عينيها مكتوب : من كان يبتغى أن يكون له مثلى فليعمل برضاء ربى (٢) ولو بصقت فى الماء المالح لعذب ماء البحر كله .

— وفى حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف حوراء فقال : ولقد رأيت جبينها كالهلال ، طولها ألف وثلاثون ذراعاً ، فى رأسها مائة ضفيرة ، ما بين الضفيرة والضفيرة سبعون ألف ذؤابة والذوائب أبيض من البدر ، وخلخالها مكلل بالدر وصنوف الجوهر ، على جبينها سطران مكتوبان بالدر والجوهـــر . فى السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم وفى السطر الثانى من أراد مثلى فليعمل بطاعة ربى (٣) .

— قال : قلت ياجبريل أخبرنى كيف يخلق الله الحور العين ، فقال يا محمد إن الله تعالى خلقهن من قضبان العنبر والزعفران مضروبات عليهن الخيام ، أول ما يخلق منهن نهد من مسك أذفر أبيض عليه يلتئم البدن .. من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ، ومن ركبتيها إلى ثديها من المسك ومن ثديها إلى عنقها من العنبر الأشهب ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض ، عليها سبعون ألف حلة مثل شقائق النعمان (٤) .

---

(١) حادى الأرواح ١٤٨ / ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(٣) التذكرة ص ١٥٠ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٥٢

٤٨ — وصف سدرة المنتهى ويبقى جبريل مع رضوان ويمضي الرسول وحده

— ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لا يقطعها .. الورقة منها تظل الخلائق ، فغشيتها ألوان لا يدرى ما هى ، فتحولت ياقوتاً وزبرجدا فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها ، فيها فراش من ذهب (١) .

— فرفعت لنا سدرة المنتهى ؛ فانتهينا إليها وإذا ساقها ذهب أحمر وقضبانها لؤلؤ أبيض ومرجان وعقيان وفضة ، على كل قضيب سبعون ألف ورقة ما بين الورقة والورقة مسيرة أربعين عاماً ، وورقها زمرد أخضر مثل ريش الطاووس فى الحسن ، الورقة منها تظل الدنيا ؛ على كل ورقة ملك كأن وجهه الورق مكتوب على جباههم سكان سدرة المنتهى .. ويقع نور العرش على سدرة المنتهى . فلا يقدر أحد ينظر إليه . وإن جبريل عليه السلام ينزل إلى نهر يقال له الشرق ؛ فيغتسل فيه ؛ فيخرج وينفض أجنحته فيقطر من أجنحته سبعون ألف قطرة ، يخلق الله من كل قطرة ملكا . . وسدرة المنتهى حيث انتهى إليها الملائكة ما جاوزها بعد إلا محمد صلى الله عليه وسلم (٢) .

— ثم تقدمت أمامى فلم أر أخى جبريل معى ؛ فقلت يا أخى جبريل : أفى مثل هذا المكان يفارق الخليل خليله والأخ أخاه ، فلم تركتنى

---

(١) قصة الإسراء والمعراج الغيطى ص ١٠٢ وما بعدها .

(٢) معراج القشيرى ٥٣ / ٥٤ .

وتخلفت عنى ؟ فنادى جبريل : يعز على أن أتخلف عنك والذى بعثك بالحق نبيا مامنا إلا له مقام معلوم ، ولو أن أحداً منا تجاوز مقامه لاحترق بالنور (١) .

— فلم يزل يطوف بى حتى انتهى إلى سدرة المنتهى لأنه كان ينتهى إليها كل ملك مقرب ونبى مرسل . . فنظرت إليها فاذا ساقها فى كثافة لايعلمها إلا الله وفرعها فى جنة المأوى وهى أعلى الجنات كلها . . وحملها من أصناف ثمار الجنة ضروب شتى وأصناف شتى وطعوم شتى . . وإذا نهر يجرى من أصل الشجرة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ومجراه على رضراض من در وياقوت وزبرجد حافتاه مسك أذفر فى بياض الثلج (٢) . .

٤٩ — ترتفع الحجب ويدنو قاب قوسين وتم الرؤية والمناجاة

— ثم ارتفع لى حجاب الفردانية وحجاب الرحمانية . . وحملنى الرفرف ووضعنى عند العرش فرأيت الحجب ساجدة والأصوات خامدة ولم أر شيئاً يختلج فعلمت أنى واقف بين يدى الله عزوجل فغشيتنى الهيبة فتقطرت من العرش قطرة فوقعت على لسانى فلم أذق شيئاً أحلى منها وعلمت بها علم الأولين والآخرين وسكن روعى وإذا بالنداء من العلى يا محمد قف أمامك فوقفت وألهمنى ربى أن قات التحيات لله والصلوات الطيبات لله فقال الله جل ثناؤه عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فقلت السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فتجاوبت الأفلاك والحور والأشجار والقصور والحجب والنور أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، قال الله تعالى : ترانى بعينك ، قلت : إلهى قد غشيتنى الهيبة وغشينى نور جلالك ولكن أراك بعين قلبى ، قال الله تعالى : يا أحمد عظم شأنى وعز سلطانى فى ارتفاع مكانى أنا الله لا إله إلا أنا جبار الجبابرة وملك الملوك وقاضى القضاة

---

(١) ابن عباس ص ٢٦

(٢) اللآلىء ج ١ ص ٧٨

ورب الدنيا والآخرة ، أنظر إلى أى موضع رفعنك . . ليس بينى و بينك رسول ولا ترجمان ولا ستر ولا حجاب ، يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ يا محمد هل تدرى ما الدرجات العلى ؟ قلت : أنت أعلم يارب بكل شىء وأنت علام الغيوب . قال : يختصم الملأ الأعلى فى أفضل الأعمال وهى إسباغ الوضوء فى المكروهات والصلاة فى أول الأوقات والمشى إلى الصلاة فى الجماعات ، والدرجات العلى إفشاءالسلام وإطعام الطعام ، ثم قال : يا محمد هل تدرى أين أنت منى ؟ أنت منى كقاب قوسين أو أدنى ، هـــذه مفاتيح كنوز الأرض ، قلت : إلهى ما أصنع بها ، بحساب أم بغير حساب ؟ بعقاب أم بغير عقاب ؟ قال : أما الحساب فلا بد منه وأما العقاب فحاشاك منه ، قال الله تعالى : آمن الرسول : قلت نعم آمنت بك يارب ، قال ومن ؟ قلت والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير : قال · قد غفرت لك أسأل تعط : قلت : ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . قال : قد غفرت لك ولأمتك الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . قلت : ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال : قد فعلت ذلك بك بأمتك . ثم أفضى لى بعد ذلك بأمور لم يأذن لى أن أعلمك بها(١) .

ـ فرفعت الحجب التى لايعلم عددها إلا الله تعالى فأخذتنى الهيبة مما رأيت من الجلال والجمال والكمال فنوديت يا أحمد سر أمامك ادن منى فخطوت خطوة سرت بها خمسمائة عام فسمعت قوله لاتخف ولا تحزن فسكن قلبى من الرعب . فقربت من حضرة سيدى ومولاى فأبصرت أمرا عظيما لاتدركه الأوهام ولا تصفه النواظر ولا تحصيـــه الأفئدة والخواطر . . فحار بصرى عند ذلك مما عاينت من الأنوار والهيبة والجلال

---

(١) مخطوطة تيمور ص ٣٣٧ وما بعدها .

فغمضت عيني فرد الله تعالى بصري إلى قلبي فأبصرت بقلبي ولم أر شيئاً بعيني ولم يؤذن لي أن أحدثكم بأكثر من هذا ، فدنوت من ربي عز وجل حتى كنت منه كقاب قوسين أو أدنى فوضع ربي سبحانه وتعالى يده بين كتفي فوجدت بردها على كبدي فأورثني علم الأنبياء والمرسلين والأولين والآخرين وما كان وما يكون ، وزال عني ما رأيته من الأهوال والعجائب ، وملئت فرحاً وسروراً فأخذني عند ذلك السبات فظننت أن كل من السماوات والأرض قد ماتوا لا أرى ولا أسمع حساً ولا حركة ثم رجع ذهني وعقلي إلى ثم تفكرت فيما أنا فيه من الكرامة والشرف العظيم فنوديت يا أحمد ادن مني أنا ربك ، فقلت : إلهي وسيدي ومولاي أنت السلام ومنك السلام ، فناداني ثانية فدنوت منه فقال لي آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه . . وإن كنت قد أعطيت داود الزبور فقد أعطيتك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، وأعطيتك الفاتحة وسورة البقرة وآل عمران ما قرأهما أحد من أمتك إلا غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر (١)

- فقال لي ربي : يا محمد اتخذتك حبيباً كما اتخذت إبراهيم خليلا وكلمتك كما كلمت موسى تكليما وأعطيتك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة وكانا من كنوز العرش ولم أعطها لنبي قبلك . . وأنزلت عليك سيد الكتب كلها ومهيمنا عليها وإنا فرقناه ورفعنا لك ذكرك حتى تذكر كلما ذكرت . . يا محمد : هل تعلم ما الدرجات وما الحسنات : فقلت : أنت أعلم يارب ، فقال : الدرجات إسباغ الوضوء في المكروهات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة والحسنات إفشاء السلام وإطعام الطعام والتهجد بالليل والناس نيام(٢) .

---

(١) مخطوطة تاريخ طلعت رقم ١٩٩٣ ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) معراج القشيري ص٣ ٤٩، ٦٠

٥٠ – فرض الصلاة والصيام وطلب التخفيف

– ولك عندى من الشفاعة فى أمتك حتّى ترضى ، لاأجيب لغيرك ، فقلت ، إلهى وسيدى ، قد فرضت لى ولأمّى ، قال عليك وعلى أمتك خمسون صلاه وصيام سنة ، فقلت يا إلهى وسيدى سألتك التخفيف عن أمّتى ، فقال : قد فرضت عليك وعلى أمتك خمساً وعشرين صلاة فى يوم وليلة وصيام ثلاثة أشهر فى كل سنة . قال النبى صلى الله عليه وسلم فسكت ولم أقدر أراجع ربى فى الكلام(١) .

– قال النبى صلى الله عليه وسلم فقمت وهممت بالنزول فنادانى على رسلك يا أحمد ، قال : ها أنا بين يديك ، قال : يا محمد إنى مفترض عليك وعلى أمتك فريضة من أوفاها دخل الجنة ومن قصرها حاسبته عليها إن شئت غفرت له وإن شئت عذبته ، قال : فافترض على وعلى أمتى يارب ، قال : افترضت عليكم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فقلت : سمعاً وطاعة(٢) .

٥١ – موسى يشير عليه بطلب التخفيف عند عودته

– فرجعت أنا وجبريل من سماء إلى سماء حتّى مررت بأخى موسى عليه السلام فقال لى يا محمد ماذا أخذت من ربك وماذا فرض عليك وعلى أمتك ؟ فقلت : فرض على وعلى أمتى خمساً وعشرين صلاة فى اليوم والليلة وصيام ثلاثة أشهر فى كل سنة ، فقال : يا محمد أمتك لايقدرون على ذلك فارجع إلى ربك وأسأله التخفيف عن أمتك ، فرجعت إلى ربى تبارك وتعالى فقلت : يا إلهى وسيدى أسالك التخفيف عن أمتى فإنهم لايطيقون ذلك قال : يامحمد فرضت عليك وعلى أمتك صوم شهرين

---

(١) مخطوطة المعراج ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) مخطوطة تاريخ حلب ص ١٣٨

وعشرين صلاة فى كل يوم وليلة فرجعت إلى موسى فقلت له ذلك فقال يا محمد أمتك لايطيقون ذلك فارجع إلى ربك واسأله التخفيف عن أمتك فرجعت إلى ربى عز وجل فقلت يارب أسألك التخفيف عن أمتى فإنهم لايطيقون ذلك فما زلت أختلف بين موسى وربى يحط خمسا بعد خمس حتى رجعت بخمس صلوات فى كل يوم وليلة وصيام شهر واحد . . . ونوديت أن قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ، هذه خمس وهى خمسون فى أم الكتاب ، الحسنة بعشر أمثالها(١) .

ـ فلم أزل أسير حتى أتيت أخى موسى بن عمران عليه السلام فلما رآنى نهض قائما وقال : مرحبا بالصادق الأمين أمن عند ربك ؟ قلت : نعم قال : ما أعطاك ، قلت أعطانى وأرضانى ، قال : فما أعطى أمتك؟ قلت أعطاهم وأرضاهم وفرض على وعليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة. قال موسى فارجع واسأله التخفيف فإنى قد بلوت بنى إسرائيل من قبلك وأمتك أمة آخر الزمان جسدهم ضعيف وعمرهم قصير لايطيقون ذلك ، فاسأل ربك أن يخفف عنهم ، فقلت يا أخى ومن يخترق تلك الحجب التى اخترقتها ؟ قال موسى : اسأله من هنا فإنه قريب مجيب فلم أزل أسأل ربى عز وجل وموسى يكلمنى حتى فرض على وعلى أمتى خمس صلوات ، قال موسى اسأله التخفيف قلت يا أخى قد استحييت من ربى فنادانى ربى جعلناها خمسا فى العمل وخمسين فى الميزان ما يبدل القول لدى(٢) .

٥٢ ـ الأشربة الأربعة ومغزاها

ـ فانطلق جبريل فأتانى بأربعة أقداح ، فى الواحد لبن وفى الآخر عسل وفى الآخر خمر وفى الآخر ماء، فتركت الكل بتوفيق الله وشربت

---

(١) مخطوطة المعراج الأولى ص ١٢ وما بعدها .

(٢) ابن عباس ص ٣٩/٤٠

اللبن ، وإذا بقائل يقول : بخ بخ : لو شرب محمد الماء لغوت أمته فى الدنيا ، واو شرب العسل لهلكت أمته فى الدنيا ، ولو شرب الخمر لكفرت أمته ، ولو شرب اللبن كله ما دخل أحد من أمته النار ،قلت : يا أخى جبريل : رد إلى باقية اللبن لأشربه كله ، قال : جرى القلم بما حكم فمنهم شقى وسعيد(١) .

— وإنما شرب اللبن فهدى وهديت أمته ، ولو شرب اللبن كله ما دخل أحد النار من أمته(٢) .

— ثم تبعنى جبريل إلى بيت المقدس فاتبعت أثره ، فاستقبلنى وفى يده ثلاثة أقدح : أحدها ماء والثانى خمر والثالث لبن ، وإذا هاتف ينادى من فوق رأسى إن شرب محمدالماءغرق وغرقت أمته من بعده ، وإن شرب الخمر غوى وغوت أمته من بعده إلى يوم القيامة . فقال لى جبريل عليه السلام : اختر أيها شئت يا محمد ، فضربت بيدى إلى اللبن وشربت إلا قليلا ، وإذا أنا بها تف ينادى عن يمينى هديت وهديت أمتك من بعدك . قال النبى صلى الله عليه وسلم وإذا بها تف آخر يقول : لو شرب محمد اللبن كله ما دخل أحد من أمته النار ، فقلت حبيبى جبريل رده على حتى أشربه ، فقال يا محمد هيهات هيهات ،قضى الأمر وجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم كان ذلك فى الكتاب مسطورا(٣) .

— وإذا هو قد أقبل ومعه ثلاثة أقداح فى الأول لبن وفى الثانى خمر وفى الثالث ماء ، فقال لى اشرب أيها شئت فأخذت اللبن فشربته إلا قليلا فقال لى جبريل : أخذت الفطرة كلها ، ولو أخذت الخمر لغوت أمتك ولو أخذت الماء لغرقت أمتك ولو شربت اللبن كله ما دخل أحد من أمتك

---

(١) مخطوطة تيمور ص ٣٣٩ ب . (٢) مخطوطة طلعت ص ١٥٤ ا .
(٣) المخطوطة الأولى من رواية أنس ص ٢٨/٢٩

النار فقلت يا أخى رد على القدح فقال هيهات يا محمد قضى الأمر وجف القلم بما هو كائن فقلت كان ذلك فى الكتاب مسطوراً(١) .

٥٣ ـــ عين فى الجنة أو نهر لعله الكوثر

– الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج ، وفى رواية ابن عباس قال : هو نهر فى الجنة عمقه سبعون ألف فرسخ ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، شاطئاه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم قبل الأنبياء(٢) .

– ورأيت إلى نهر ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك على رضراض الدر والياقوت ، ترابه المسك وحشيشه الزعفران وعليه خيام من الدر والجوهر والزبرجد الأخضر وأشجار من الذهب الأحمر وقصور لايعلمها إلا الله فقلت : ياجبريل ماهذا النهر ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك الله إياه وهو التسنيم عين تخرج من تحت العرش إلى دور أهل الجنة وقصورهم وغرفهم يمزجون به أطعمتهم من الماء والعسل واللبن والخمر وذلك قوله تعالى « عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا(٣) .

– ثم نظرت وإذا بنهر يقال له الكوثر على أطرافه خيام الدر وعلى حافته المسك وحصاه الياقوت واللؤلؤ والمرجان والزبرجد ورياض حوله وطينه من العنبر ومن جوانبه قباب الزبرجد الأخضر والياقوت الرطب ، كل قبة سعتها فرسخ فى فرسخ ، على كل قبة أربعة آلاف مصراع من ذهب أحمر ، أمام كل باب من أبوابها شجرة من فضة وأوراقها ذهب حاملة بثمار أبيض من الثلج وأحلى من العسل وألين من الزبد . . وإذا على نهر

---

(١) ابن عباس ص ٦ / ٧

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٩٥٩ /٩٦٠

(٣) مخطوطة المعراج الأولى من رواية ابن سهل عن أنس ص ١٣٧

الكوثر أباريق من الجواهر أكثر من قطر المطر وأقداح بعدد نجوم السماء . من شرب من ذلك الماء شربة لم يظمأ بعدها أبدا (١) .

٤ - صورة الكون وشكل الأرضين ووصف الأولى

- فاذا أنا أنظر إلى واد تحت بيت المقدس يقال له وادى جهنم وإذا فيه من العذاب الشديد مايذهب العقول ، وإذا ملك عظيم لم أر أعظم منه تخرج من فيه النار وهو كما بين السماء والأرض فناداه مالك ياصوحائيل قال لبيك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعت مغشياً على من شدة صوته ، فقال جبريل : اثبت لأمر ربك يا محمد واصبر ، فقلت الأمان الأمان ياجبريل ، من هذا الملك ، قال : هذا صوحائيل خازن النار سيريك ما أعد لأعدائه ففتح الطبقة العليا وعرضها خمسمائة عام فاذا هى فيها خلق لايقدر على وصفهم إلا الله تعالى وإذا هى سبع طباقات بين كل طبقة خمسمائة عام وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وصارت الأرضون كلها على كف الملك صوحائيل وهو قاعد بين قرنى الثور ، والثور له سبعون ألف قائمة ، مشتكات متصلات بالعرش كما شاء الله تعالى ، والثور على ظهر الحوت والحوت على ظهر الماء والماء على الريح والريح على الظلمة والظلمة على السر والسر على القدرة والقدرة على الكون والكون على الكيفية والكيفية على طبق جهنم (٢) .
- إن الأرضين بين كل أرض إلى التى تليها مسيرة خمسمائة سنة ، فالعلياء منها على ظهر حوت قد التقا طرفاه فى سماء والحوت على صخرة والصخرة بيد ملك ، والثانية سجن الريح ، فلما أراد الله أن يهلك عادا قال يارب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور فقال له الجبار تبارك وتعالى إذن

(١) مخطوطه تيمور رقم ٧٣٨ ص ٤٣٨ ب و ٣٣٩ أ

(٢) المخطوطة الأولى ص ١٤٥ و مابعدها .

تكفأ الأرض و من عليها و لكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهى التى قال الله تعالى فى كتابه « ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريت جهنم ، قالوا يارسول الله للناركبريت قال نعم والذى نفسى بيده إن فيها لأودية من كبريت لوأرسل على الجبال الرواسى لماعت ، والخامسة فيها حيات جهنم إن أفواهها كالأودية تلسع الكافر فلا يبقى منه لحم ولا وضم ، والسادسة فيها عقارب جهنم إن أدنى عقربة منها كالبغال المؤكفة تضرب الكافر ضربة تنسيه حر جهنم والسابعة صقر وفيها إبليس مصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه فاذا أراد الله أن يطلقه لمن يشاء من عباده أطلقه(١) .

— لما خلق الله الأرض كانت طبقاً واحدا ففتقها وصيرها سبعاً وذلك قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ثم بعث الله من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتق ، إحدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمى الملك على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأحضر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة فى الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه . وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهى كالحسكة تحت العرش ومنخر ذلك الثور فى البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله تعالى صخرة خضراء غلظها كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها(٢) .

---

(١) كنز العمال فى ثبوت سنن الأقوال والأفعال للهندى ؛ مطبعة دائرة المعارف فى حيدر أباد جـ ٣ ص ٢١٨ .

(٢) قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للثعلبى ص ٣

٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - أطباق الأرض وسكانها

- روى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، وهى سبعة أطباق . الأرض الأولى هذه فيها سكانها ، والأرض الثانية مسكن الريح ومنها تخرج الرياح المختلفة وتتصرف ، وفى الأرض الثالثة خلق وجوههم مثل وجوه بنى آدم وأفواههم مثل أفواه الكلاب وأيديهم كأيدى الإنس وأرجلهم كأرجل البقر وآذانهم كآذان المعز وأشعارهم كأصواف الضأن، لايعصون الله طرفة عين ، ليس لهم أثواب ، ليلنا نهارهم ونهارنا ليلهم ،والأرض الرابعة فيها حجارة الكبريت التى أعدها الله لأهل النار تسجربها جهنم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسلت فيها الجبال الرواسى لانماعت ، قال وهب بن منبه هى مثل الكبريت الأحمر الصخرة منها مثل الجبل العظيم والأرض الخامسة فيها أهل النار كأمثال البغال لها أذناب كأمثال الرماح لكل ذنب منها ثلاثمائة وستون فقار ، فى كل فقار ثلاثمائة وستون فرقا من السم كل فرق منها ثلاثمائة قلة من سم ، لو وضعت قلة من السم فى وسط الأرض لمات أهل الدنيا من نتنه وفسد منه كل شىء . وفيها أيضاً حيات أهل النار كأمثال الأودية لكل حية منها ثمانية عشر ألف ناب ، كل ناب منها كالنخلة الطويلة ، فى أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم لو أمر الله حية أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل فى الأرض لهدته حتى صار رميما ،والأرض السادسة فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الخبيثة واسمها سجين والأرض السابعة جعلها الله مسكنا لإبليس وجنوده وفيها عشه فى أحد جانبيه سمرم وفى الآخر زمهرير وقد احتوشته جنوده من المردة وعتاة الجن ومنها يبث سراياه وجنوده فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة لبنى آدم (١) .

---

(١) قصص الأنبياء الثعلبى ص ٤ /٥

— أما الطبقة الأولى من الأرض فأول ماخلقها الله تعالى كانت أشد بياضا من اللبن وأطيب رائحة من المسك ، فأغبرت لما مشى آدم عليه السلام عليها بعد أن عصى الله تعالى ، وهذه الأرض أرض النفوس ولهذا كانت يسكنها الحيوانات . . وهذه الأرض بيضاء على ما خلقها الله تعالى من مسكن رجال الغيب وملكها الخضر عليه السلام وأهل هذه البلاد تكلمهم الملائكة . . فهى باقية على أصل الفطرة .

— أما الطبقة الثانية من الأرض فان لونها كالزمردة الخضراء تسمى أرض العبادات يسكنها مؤمنو الجن ليلهم نهار الأرض الأولى ونهارهم ليلها لايزال أهلها قاطنين فيها حتى تغيب الشمس عن أرض الدنيا فيخرجون إلى ظاهر الأرض يتعشقون ببنى آدم تعشق الحديد بالمغناطيس ويخافون منهم أشد من خوف الفريسة للآساد . ودورة كرة هذه الأرض ألفا سنة ومائة سنة وأربعة أشهر وليس فيها خراب بل جميعها معمور بالسكنى .

— وأما الطبقة الثالثة من الأرض فان لونها أصفر كالزعفران تسمى أرض الطبع يسكنها مشركو الجن فيها مؤمن بالله قد خلقوا للشرك والكفر يتمثلون بين الناس على صفة بنى آدم لايعرفهم إلا أولياء الله تعالى لا يدخلون بلدة فيها رجل من أهل التحقيق إذا كان متمكنا بشعاع أنواره وأما قبل ذلك فإنهم يدخلون عليه ويحاربهم فلا يزال كذلك حتى ينصره الله تعالى عليهم فلا يقربون بعد هذا من أرضه ومن توجه إليه احترق بشعاع أنواره ، ليس لهؤلاء عمل فى الأرض إلا إشغال الخلق عن عبادة الله تعالى . ودورة هذه الأرض مسيرة أربعة آلاف سنة وأربعمائة سنة وسنتين وثمانية أشهر كلها عامرة بالسكنى ليس فيها خراب .

— وأما الطبقة الرابعة من الأرض فان لونها أحمر كالدم تسمى أرض الشهوة ، دورة كرة هذه الأرض مسيرة ثمانية آلاف سنة وخمس وستين سنة ومائة وعشرين يوما كلها عامرة بالسكنى يسكنها الشياطين

وهم على أنواع كثيرة يتوالدون من نفس إبليس فإذا تحصلوا بين يديه جعلهم طوائف يعلم طائفة منهم القتل ليكونوا أدلة عليه لعباد الله ثم يعلم طائفة منهم الشرك و يحكمهم معرفة علوم المشركين ليوطن بقيان الكفر فى قلوب أهله و يعلم طائفة المكر و طائفة الخداع و طائفة الزنا والسرقة حتى لايترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا وقد أرصد لها طائفة من حفدته ثم يأمر أن يجلسوا فيعلموا أمثال ذلك ؛ ثم جعل بأيديهم سلاسل وقيوداً يأمرهم أن يجعلوها فى أعناق من يحتكم لهم سبع مرات متواترات ليس بينها توبة ثم يسلمونه بعد ذلك إلى عفاريت الشياطين فينزلون إلى الأرض التى تحتهم و يجعلون أصول تلك السلاسل فيها فلا يمكنهم مخالفتهم بعد أن توضع تلك السلاسل فى أعناقهم أبداً .

— وأما الطبقة الخامسة من الأرض فانها لون أزرق كالنيلة و اسمها أرض الطغيان ودور كرتها سبعة عشر ألف سنة وستمائة سنة وعشر سنين وثمانية أشهر كلها عامرة بالسكنى يسكنها عفاريت الجن والشياطين ليس لهم عمل إلا قيادة أهل المعاصى إلى الكبائر وهؤلاء كلهم لا يصنعون إلا عكس ما يقال لهم .

— وأما الطبقة السادسة من الأرض فهى أرض الإلحاد لونها أسود كالليل المظلم ودور كرة هذه الأرض مسيرة خمس وثلاثين ألف سنة ومائة وإحدى وعشرين سنة ومائة وعشرين يوما يسكنها المردة ومن لا يتحكم لأحد من عباد الله تعالى .

— وأما الطبقة السابعة من الأرض فانها تسمى أرض الشقاوة وهى سطح جهنم خلقت من سفليات الطبيعة يسكنها الحيات والعقارب وبعض زبانية جهنم ودور كرة هذه الأرض مسيرة سبعين ألف سنة وأربعمائة واثنتين وأربعين سنة وأربعة أشهر ، وحياتها وعقاربها كأمثال الجبال وأعناق البخت وهى ملحقة بجهنم ، أسكن الله هذه الأشياء فى الأرض لتكون أنموذجا فى الدنيا لما فى جهنم من عذابه .

وأعلم أن أطباق الأرض إذا أخذت فى الانتهاء دار الدور عليها فى الصعود كما أن أهل النار إذا استوفوا ما كتب عليهم وخرجوا لا يخرجون إلا إلى مثل ما ينتهى إليه حال أهل الجنة من كريم المشاهدة والتحقق بتحقق المطالعة إلى أنوار العظمة الإلهية (١) .

٦١ – ثقب من النار يذيب الأرضين السبع

– قال جبريل عليه السلام والذى بعثك بالحق نبياً لو أن مثل ثقب إبرة فتح منها جهة المشرق لاحترق أهل المغرب من شدة حرها ، والذى بعثك بالحق نبياً لو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لماتوا من حرها لما يجدون من نتنها والذى بعثك بالحق نبياً لو أن ذراعاً من السلسلة التى ذكرها الله تعالى فى كتابه وضع على جبل لذاب الجبل حتى يبلغ الأرض السابعة .

– روى فى الخبر أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى ملك النار بأن يأخذ من النار فيأتى بها إلى آدم عليه السلام حى يطبخ بها طعاماً ، قال مالك يا جبريل كم تريد من النار قال أريد منها مقدار ثمرة قال مالك يا جبريل لو أعطيتك مقدار ثمرة لذاب سبع سماوات وأرضين من حرها قال مقدار نواتها قال لو أعطيتك ما تريد لم تنزل من السماء قطرة ولم ينبت فى الأرض نبات ثم نادى جبريل إلهى كم آخذ من النار قال الله تعالى خذ مقدار ذرة منها فأخذ جبريل منها مقدار ذرة وغمسها فى النهر سبعين مرة ثم جاء بها إلى آدم عليه السلام فوضعها على جبل شاهق فذاب ذلك الجبل ثم رد النار إلى مكانها وبقى دخانها فى أحجار وحديد إلى يومنا هذا (٢) .

– فإذا أراد الله قيام الساعة أمر فلذا بالجبال تتطاير وتسير مثل السحاب..

---

(١) باختصار الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل لعبد الكريم الجيلانى ، طبع صبيح ج ٢ ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار للعلامة عبد الرحيم للقاضى ، طبع الحلبى ص ٣٤

ثم يكشف الله تعالى عن بئر فى صقر فيخرج منها لهيب فتشتعل فى الأربعة عشر بحراً كما تشتعل النار فى الصوف المنفوش ، فما تدع منها قطرة واحدة وتدع الأرضين جملة سوداء والسماء كأنها عكر الزيت والنحاس المذاب(١) .

- إن فى جهنم لبئراً ما فتحت أبوابها بعد وهى مغلقة تستعيذ منها جهنم كل يوم مخافة أن يكون فى البشر من العذاب مالا طاقة لجهنم به ولا صبر لها عليه وهى الدرك الأسفل من النار(٢)

- كان ابن عباس يقول الفلق سجن فى جهنم إذا فتح بابه صاح جميع أهل جهنم من حره (٣)

٦٢ - الأرضون كالسفينة الحيرى على قرنى الثور والحوت

- يروى أن الله تعالى لما خلق الأرض صارت واقفة فى الهواء فحركها الريح فاضطربت وماجت فشكت ذلك إلى ربها وقالت يارب قد ضعفت قوتى واستخفنى الريح وحركنى فأوحى الله تعالى إليها إنى مؤيدك بالأطواد وهى الجبال فاستقرت بعد ذلك الاضطراب ، ولما خلق الله تعالى الأرض بعث إليها ملكا من تحت العرش فدخل من تحت الأرضين السبع وأخرج إحدى يديه من المشرق والأخرى من المغرب وقبض على أطراف الأرض فلم يكن لقدميه قرار ، فأهبط الله تعالى ثوراً من الجنة اسمه نون له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة من القرن إلى القرن خمسمائة عام فاستقر قدم ذلك الملك على ذلك الثور فلم يكن لأقدام الثور قرار فأنزل الله ياقوتة خضراء من يواقيت الجنة غلظها

---

(١) الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة للغزالى طبع صبيح ص ٢١

(٢) التذكرة ص ١١٢

(٣) نفس المصدر ١١٩

خمسمائة عام فاستقرت قوائم الثور على تلك الياقوتة الخضراء ، ثم خلق الله تعالى صخرة كغلظ السماوات والأرض واسمها صيخور وفيها تسعة آلاف ثقب فى كل ثقب منها بحر لايعلم عظمه إلا الله فاستقرت تلك الياقوتة الخضراء عليها ، ولما لم يكن للصخرة قرار أهبط الله تعالى إليها حوتاً عظيما من البحر السابع الذى تحت العرش ، ويقال اسم الحوت بهموت أو بلهوت فاستقرت تلك الصخرة على ظهر الحوت ، وقيل لايقدر أحد أن ينظر إلى ذلك الحوت من بريق عينيه ولو وضعت بحار الدنيا كلها فى إحدى منخريه لكانت كالخردلة فى أرض فلاة ، فاستقر الحوت على الماء وصار واقفاً مكانه لايتحرك إلا بالسجود كل يوم إلى يوم القيامة ، وقد وكل الله بذلك الحوت ملائكة يأتونه بغذائه فى كل يوم على قدر شبعه فيأتونه من البحر المسجور بألف حوت كل حوت طوله مسيرة يوم وليلة ، أما الثور فوكل الله تعالى ملائكة بغذائه فى كل يوم بألف شجرة من بساتين القدرة طول كل شجرة مسيرة يوم وليلة (١) .

— ثم قالوا إن الأرض كانت تتكفأ على الماء كما تتكفأ السفينة على الماء فارساها الله بالجبال وذلك قوله تعالى « والجبال أرساها » وقوله « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم »(٢) .

٦٣ — والبحر يمده سبعة أبحر والأرض محوطة بجبل قاف

— وأما البحار الكبيرة المشهورة فسبعة وهى المحيط أى المحيط بالدنيا ، ويقال إن مسافته أربعة وعشرون ألف فرسخ وجميع البحار تأخذ منه ويسمى بالإكليل لأنه حول الأرض بمنزلة الإكليل من الرأس وبهذا

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ص ٨/٩

(٢) قصص الأنبياء الثعلبى ص ٣/٤

البحر من العجائب مالا يسمع بمثلها ويخرج من هذا البحر ستة بحار كبار أعظمها اثنان هما اللذان ذكرهما الله تعالى في القرآن في قوله تعالى «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان» (١)

أول ما خلق الله الأرض هاجت وقالت يارب تجعل على بنى آدم يعملون الخطايا ويقولون الخبائث فاضطربت فأرساها الله تعالى بالجبال فأقرها وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء يقال له جبل قاف فأحاط بها كلها ، قال وهب إن ذا القرنين أتى على جبل قاف فرأى حوله جبالا صغاراً فقال له من أنت ؟ قال أنا قاف قال فأخبرنى ما هذه الجبال التى حولك فقال هى عروقى فاذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أمرنى فحركت عرقاً من عروقى فتتزلزل الأرض المتصلة به .. وإن ورائى لأرضاً مسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضاً ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها لولا ذلك الثلج والبرد لاحترقت الدنيا من حر جهنم (٢)

واعلم أن البحار السبعة المحيطة أصلها بحران لأن الحق سبحانه وتعالى لما نظر إلى الدرة البيضاء التى صارت ماء فما كان مقابلا فى علم الله تعالى لنظر اللطف والرحمة صار طعمه عذبا وما كان مقابلا فى علم الله تعالى لنظر الهيبة والكبرياء صار طعمه مالحاً .. ثم خرج من العذب جدول ومن الملح ثلاث جداول (٣)

واعلم أن هذ البحر المحيط وما كان منه منفصلا عن جبل قاف مما يلى

---

(١) بدائع الزهور ص ١١

(٢) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤.

(٣) الإنسان الكامل للجيلانى حـ ٢ ص ٧٠

للدنيا فهو مالح وما كان منه متصلا بالجبل فهو وراء المالح فإنه البحر الأحمر الطيب الرائحة وماكان من وراء جبل قاف متصلا بالجبل الأسود فإنه البحر الأخضر وهو مر الطعم كالسم القاتل : وماكان منه وراء الجبل بحكم الانفصال والحيطة فهو البحر الأسود . واعلم أن أمواج هذا البحر كل موجة منها تملأ ما بين السماء والأرض ألف ألف مرة إلى مالا ينتهى ولولا أن عالم القدرة يسع هذا البحر لما كان يوجد فى الوجود بأسره .. فهو بحر الذات الذى حارت دونه الصفات (١)

٦٤ — بين أرضنا والأرضين السبع عالم الجن وطيوره حاملة الأحجار

بل تدرون ما هذا العنان ؟ هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولايدعونه ، هل تدرون ما فوقكم ؟ فانها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف ، هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ بينكم وبينها خمسمائة سنة ، هل تدرون ما فوق ذلك ؟ فان فوق ذلك سمائين ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عدد سبع سماوات ما بين كل سمائين كما بين السماء والأرض ، هل تدرون ما فوق ذلك ؟ فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء التى تليه مثلما بين السمائين . هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ فإنها الأرض ، هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ فإن تحتها أرض أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عدد سبع أرضين ، بين كل اثنتين مسيرة خمسمائة سنة ، والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ، ثم قرأ « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم(٢) » .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٣/ ٧٤

(٢) كنز العمال فى ثبوت سنن الأقوال والأفعال الهندى ج٣ ص ٢١٦/٢١٧ .

— قال كعب الأحبار إن بين السماء والأرض سحاباً لطيفاً وفوقه طيور بيض رؤوسها كرؤوس الخيل ولها ذوائب كذوائب النساء ولها أجنحة طوال وليس لها فى السماء ملجأ ولا فى الأرض مأوى وأنها تبيض وتفرخ على السحاب فى الهواء كما تقر الطيور فى الماء (١) .

— وكانت الجن تأتى إلى السماء الدنيا فتسمع أصوات الملائكة لأنها مع أنها فى عالم الأجسام والكثافة كانت ترتقى حتى تبلغ العالم الروحى وهو صفيح سماء الدنيا فتسمع بواسطة ذلك الارتقاء كلام الملائكة مسترقة السمع وترجع إلى مشركيها فتخبرهم بالمغيبات فهى الآن إذا رقت إلى ذلك المحل نزل بها الشهاب الثاقب فأحرقها (٢)

— قال الماوردى أصول الخلق أربعة أشياء الماء والتراب والهواء والنار ، فالماء والتراب ظاهران للخلق والهواء والنار خافيان عنهم ومعلوم أن النار مشتملة على نور ولهب ودخان فالنور ضياء محض والدخان ظلمة محضة واللهب هو المارج المتوسط وخلق الله الجان من مارج من نار فلهم نسبة إلى الملائكة بالنورانية ولهم نسبة إلى الشياطين بالظلمة الدخانية ولذا كان منهم المطيع والعاصى والمؤمن والكافر (٣)

٦٥ — الأمانة التى تحملها الإنسان

— روى أن أعرابياً دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقال متى الساعة ؟ فمضى رسول الله فى حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال . حتى إذا قضى حديثه قال : من السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنذا يارسول الله ، قال . فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال وكيف إضاعتها قال . إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة .

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ص ٥ (٢) الإنسان الكامل للجيلانى حـ ٢ ص ٦٢

(٣) اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر للشعرانى حـ ٢ ص ١٠

— إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال يعنى وسط قلوبهم ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ... وترفع الأمانة من قلب الرجل وهو نائم ، فينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كالمجل ، كجمر دحرجته على رجلك . . فيصبح الناس يتبايعون لايكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أميناً وحتى يقال الرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .. عندئذ تقوم الساعة(١)

— إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا (٢)

— تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم : إنه كان حليما غفوراً (٣)

٦٦ — يحشر الناس وينصب الميزان

— عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا قلت يا رسول الله: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٤)

— تشخص أبصارهم إلى السماء يقفون أربعين سنة لايأكلون ولايشربون ويعرق كل واحد منهم حياء من الله تعالى فمنهم من يبلغ العرق قدميه ومنهم من يبلغ ساقيه ومنهم من يبلغ بطنه ومنهم من يبلغ صدره ومنهم من يبلغ وجهه ، يسوقهم بأجمعهم إلى أرض المحشر عند بيت المقدس فى أرض يقال لها الساهرة (٥)

---

(١) التذكرة للقرطبى ص ٢٠٩ / ٢١٠ (٢) قرآن كريم سورة الأحزاب آية ٧
(٣) سورة الاسراء آية ٤٤ (٤) التذكره ص ٦٦ (٥) دقائق الأخبار ص ٢٧

— أنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كأنكم أبناء ثلاث وثلاثين ، واللسان يومئذ بالسريانة سراعاً إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر . . فتقفون فى موقف حفاة عراة غرلا أى غير مختونين مقدار سبعين عاماً لا ينظر الله إليكم ولا يقضى بينكم فتبكى الخلائق حتى تنقطع الدموع ثم تدمع دماً ويعرقون حتى يبلغ منهم الأذقان ويلجمهم فيضجون (١).

— فبينما هم كذلك إذ برز لهم العرش العظيم تحمله ثمانية أملاك قدر كل ملك مسيرة عشرين ألف سنة .. حتى يستقر العرش فى الأرض البيضاء التى خلقها الله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات . . فهنالك ننصب الميزان وهو كفتان : كفة من نور عن يمين العرش وكفة عن يساره من ظلمة ، ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجد الناس تعظيما له وتواضعاً إلا الكفار فإن أصلابهم تعود حديداً (٢).

— يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول ألا ليتبع كل إنسان ماكان يعبـــد ، فيتمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ماكانوا يعبدون ويبقى المسلمون (٣)

٦٧ — توزن الأعمال وتشهد الأعضاء

— روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : ينصب الميزان يوم القيامة على عمد طول كل عمود منها ما بين المشرق والمغرب وكفة الميزان كأطباق الدنيا طولها وعرضها واحد وإحدى الكفتين عن يمين العرش وهى كفة الحسنات والأخرى عن يساره وهى كفة السيئات ، وبين الميزان كالجبال

---

(١) التذكرة ٦١ (٢) الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة للغزالى ٣٣

(٣) التذكرة ص ٩٣

من أعمال الثقلين مملوءة من الحسنات والسيئات فى يوم كان مقـــداره خمسين ألف سنة ، فيؤتى بالرجل و معه سبع وسبعون سجلا كل سجل مد بصره فيه خطاياه وذنوبه فيوضع فى كفة الميزان ويخرج له قرطاس مثل الأنملة وفيه شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله فيوضع فى كفة أخرى فترجح على الذنوب كلها ، فمن رجحت موازين حسناته بالخير والطاعات على سيئاته فهو فى عيشة راضية فى الجنة ومن خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية (١) .

— روى مسلم عن أنس كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : أتدرون مم أضحك ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : من مخاصمة العبد ربه فيقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ قال فيقول بلى ، قال : فيقول فانى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى ، قال : فيقول « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » والكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيه فيقال للأركان انطقى فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول يعنى لأعضائه — بعدا وسحقاً لكن فعنكن كنت أجادل .. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »(٢)

٦٨ — مراجعة لشكل السماوات والأرض وما يحملهما

— لما خلق الله تعالى الأرض بعث إليها ملكا من تحت العرش فدخل من تحت الأرضين السبع وأخرج إحدى يديه من المشرق والأخرى من المغرب وقبض على أطراف الأرض فلم يكن لقدميه قرار ، فأهبط الله تعالى ثوراً من الجنة اسمه نون له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة من القرن إلى القرن خمسمائة عام فاستقر قدم ذلك الملك على ذلك الثور ، فلم يكن لأقدام الثور قرار فأنزل الله ياقوتة خضراء من يواقيت الجنة

(١) دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار لعبد الرحيم القاضى ص ٣٢

(٢) مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ٨٢

غلظها خمسمائة عام فاستقرت قوائم الثور عليها . . ثم خلق الله صخرة كغلظ السماوات والأرض واسمها صيخور وفيها تسعة آلاف ثقب فى كل ثقب منها بحر لايعلم عظمه إلا الله فاستقرت تلك الياقوتة الخضراء عليها، ولما لم يكن للصخرة قرار أهبط الله تعالى إليها حوتاً عظيما من البحر السابع الذى تحت العرش اسمه بهموت أو بلهوت فاستقرت تلك الصخرة على ظهر الحوت . . ثم جعل الله تحت الماء الهواء وتحت الهواء الظلمة (١) .

— خلق الله تعالى جبلا من زبرجدة خضراء خضرة السماء يقال له جبل قاف يحيط بالأرضين كلها وهو الذى أقسم الله تعالى به فقال « ق والقرآن المجيد » .. وبين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام وهى سبعة أطباق (٢)

— قال كعب الأحبار رضى الله عنه إن خلف جبل قاف سبعين ألف أرض من فضة ومثلها من حديد ومثلها من مسك وهى مشرقة بالنور وسكانها ملائكة ولا يرى فيها قمر ولا شمس ولا حر ولا برد طول كل أرض عشرة آلاف سنة وخلف ذلك بحار من ظلمة وخلف ذلك حجاب من ريح وخلف ذلك حية عظيمة محيطة بجميع الدنيا تسبح الله إلى يوم القيامة (٣)

٦٩ — ملخص لمشاهد الملكوت وعود إلى الصراط

— روى فى بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . خلق الله أرضا بيضاء مثل الفضة وهى قدر الدنيا ثلاثين مرة وبها أمم كثيرة لا يعصون الله طرفة عين ، قالت الصحابة يا رسول الله من ولد آدم هم؟ قال : لا يعلمهم غير الله ليس لهم علم بآدم قالوا :

---

(١) بدائع الزهور ص٨/٩ (٢) قصص الأنبياء الثعلبى ص ٤ وقد تقدمت تفصيلات أخرى.
(٣) بدائع الزهور ص ٢٣

يارسول الله فأين إبليس منهم ؟ فقال ولا يعلمون بإبليس ثم تلا قوله تعالى « ويخلق مالا تعلمون(١) » .

– خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتفكرون ، فقال فيم أنتم تتفكرون ؟ قالوا نتفكر فى الخالق ، فقال لهم تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنه لاتحيط به الفكرة ، تفكروا فى أن الله خلق السماوات سبعا والأرضين سبعا وتحت كل أرض خمسمائة عام وبين السماء والأرض خمسمائة عام وتحت كل سماء خمسمائة عام وما بين كل سماءين خمسمائة عام ،وفى السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله وفيه ملك قائم لايجاوز الماء كعبه .

– إن فى السماء السابعة بحراً من نور يقال له الحيوان يدخل فيه جبريل عليه السلام كل غداة فينغمس فيه الغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج منه سبعون ألف قطرة من نور فيخلق الله من كل قطرة ملكا فيؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيدخلون فيه ويصلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه إلى يوم القيامة . . وسدرة المنتهى شجرة فى السماء السابعة مما يلى الجنة أصلها ثابت فى الجنة وعروقها تحت الكرسى وأغصانها تحت العرش إليها ينتهى علم الخلائق ،كل ورقة منها تظل أمة من الأمم ، يغشاها ملائكة كأنهم فراش من ذهب(٢) .

– يقول الله ياجبريل . انطلق فأخرج من النار من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيخرجهم ضبائر ضبائر أى جماعات جماعات وقد امتحشوا من النار فيلقيهم على نهر يقال له الحيوان فيمكثون فيه حتى يعودوا أنضر مما كانوا ، وفى رواية فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل(٣) .

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ص ٢٣

(٢) قصص الأنبياء الثعلبى ص ٨/١٠

(٣) التذكرة ٩٨ / ١٣٢

— لا يجوز أحد الصراط حتى يسأل فى سبع قناطر ، فأما القنطرة الأولى فيسأل فيها عن الإيمان بالله وفى الثانية عن الصلاة فان جاء بها تامة جاز وفى الثالثة عن صوم رمضان وفى الرابعة عن الزكاة والخامسة عن الحج والسادسة عن الغسل من الجنابة والوضوء وفى السابعة وهى أصعب القناطر عن ظلامات الناس . . وجهنم تحت الجسور سوداء مظلمة يتطاير شررها على المارين ومنهم من يمر كالبرق أو كالريح أو كالجواد أو مشيا أو زحفا حتى يمر أحدهم فى مائة عام . . والجسر أرق من الشعر وأحد من السيف وفيه كلاليب وخطاطيف . . ويكون الصراط يوم القيامة على المتقين مثل الوادى الواسع والروضة الكبيرة بحسب كثرة أعمالهم الصالحة . . وفى الآخرة صراطان أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر ولا يخلص منه إلا المؤمنون فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا(١) .

— إن من وراء الصراط صحراء فيها أشجار طيبة تحت كل شجرة عينا ماء انفجرتا من الجنة إحداهما عن اليمين والأخرى عن الشمال والمؤمنون حين يجوزون الصراط وقد قاموا من القبور قاموا إلى الحساب ووقفوا فى الشمس وقرأوا الكتب وجاوزوا الميزان وجاءوا إلى تلك الصحراء شربوا من إحدى العيون فإذا بلغ ماء العين إلى صدورهم خرج كل ما كان فيهم من غل وغش وحسد وزال عنها فإذا استقر الماء فى بطونهم خرج كل ما كان فيها من فساد وداء وبول فيطهر ظاهرهم وباطنهم ثم يجيئون إلى العين الأخرى فيغتسلون فيها فتصير وجوههم كالقمر ليلة البدر وتطيب نفوسهم وتطيب أجسامهم كالمسك(٢) .

— فإذا نجوا من هذه القناطر وخلصوا منها يشربون من حوض النبى صلى الله عليه وسلم فإذا شربوا منه زال عنهم التعب والشقاء والظمأ ، ماؤه أشد

---

(١) بإيجاز من مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) دقائق الأخبار ص ٤٣

بياضا من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة واحدة لا يعطش بعدها أبدا طوله مسيرة شهر وعرضه كذلك(١) .

٧٠ - توزيع الرزق والنعمة والعيوب فى السماوات والأرض والشعوب

- إن الملائكة عشرة أجزاء ، فتسعة أجزاء الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون وجزء واحد الذين وكلوا بخزائن كل شىء ، والملائكة والجن والإنس عشرة أجزاء وتسعة أجزاء الملائكة وجزء واحد الجن والإنس ، والجن والإنس عشرة أجزاء، تسعة أجزاء الجن وجزء واحد الإنس ، فاذا ولد من الإنس ولد ولد معه تسعة من الجن ، والإنس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج وجزء واحد سائر الناس ، وما فى السماء موضع إهاب إلا عليه ملك ساجد أو قائم(٢) .

- اعلم أن الله تعالى خلق جميع الأرزاق والأقوات المتنوعة فى أربعة أيام وجعلها بين السماء والأرض مخزونة فى قلب أربعة أفلاك . ثم جعل ملائكة الإنزال الموكلة بإيصال كل رزق إلى مرزوقه فى السبع السماوات ثم جعل فى كل سماء ملكا يحكم على من فيها من ملائكة الأرزاق ويسمى ملك الحوادث(٣) .

- روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قسم الحسد عشرة أجزاء تسعة فى العرب وواحد فى سائر الخلق ، والكبر عشرة أجزاء ، تسعة فى الروم وجزء فى سائر الخلق ، والسرقة عشرة أجزاء ، تسعة فى القبط

---

(١) الدر الحسان فى البعث ونعيم الجنان للسيوطى ص ٢٩ .

(٢) كنز العمال للهندى ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٣) الإنسان الكامل للجيلانى ج ٢ ص ٥٩ .

وواحد فى سائر الخلق ، والبخل عشرة أجزاء تسعة فى فارس وجزء فى سائر الخلق ، والزنا عشرة أجزاء تسعة فى السند وجزء فى سائر الخلق ، والرزق عشرة أجزاء تسعة فى التجارة وجزء فى سائر الخلق ، والفقر عشرة أجزاء تسعة فى الحبش وجزء فى سائر الخلق ، والشهوة عشرة أجزاء تسعة فى النساء وجزء فى الرجال ، والحفظ عشرة أجزاء تسعة فى الترك وجزء فى سائر الخلق ، والحدة عشرة أجزاء تسعة فى البربر وجزء فى سائر الخلق ؛ والسخاء عشرة أجزاء فتسعة فى السودان وجزء فى سائر الخلق وقسم الحياء عشرة أجزاء فتسعة فى العرب وجزء فى سائر الناس(١) .

٧١ – ٧٢ - لها سبعة أبواب وجبالها وأنهارها وشجرها

أما النار فلها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم من الرجال والنساء وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام أكانت أبوابها كأبوابنا هذه قال لا ولكنها مفتوحة بعضها أسفل من بعض ، من الباب إلى الباب مسيرة سبعمائة سنة ، كل باب منها أشد حرا من الذى يليه سبعين ضعفا . أما الباب الأسفل ففيه المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون واسمه الهاوية . والباب الثانى فيه المشركون واسمه الجحيم ، والباب الثالث فيه الصابئون واسمه سقر ، والباب الرابع فيه إبليس ومن تبعه والمجوس واسمه لظى ، والباب الخامس فيه اليهود واسمه حطمة ، والباب السادس فيه النصارى واسمه سعير ، ثم أمسك جبريل ، فقال عليه السلام : ياجبريل لم لا تخبرنى عن سكان الباب السابع؟ فقال يامحمد أتسألنى عنه ؟ فقال بلى ، قال يا محمد أهل الكبائر من أمتك الذين ماتوا ولم يتوبوا(٢) .

ـــ فكشف عن جهنم الغطاء فاذا هى سوداء مظلمة ممتزجة بغضب الله . .

---

(١) اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٢) دقائق الأخبار ص ٣٥ .

ورأيت فيها سبعين ألف بحر من غسلين وسبعين ألف بحر من غساق وسبعين ألف بحر من قطران وسبعين ألف بحر من رصاص مذوب ، على ساحل كل بحر ألف مدينة من نار ، فى كل مدينة ألف قصر من نار ، فى كل قصر سبعون ألف تابوت من نار ، فى كل تابوت سبعون ألف صندوق من نار ، فى كل صندوق سبعون ألف صنف من العذاب ، ورأيت فيها حيات كأمثال النخل الطويل ، وعقارب كأمثال البغال : ورأيت فيها سبعين ألف بئر من الزمهرير(١) .

– إن جهنم سوداء مظلمة لاضوء لها ولا لهب ، لها سبعة أبواب ، على كل باب منها سبعون ألف جبل ، فى كل جبل سبعون ألف شعبة من نار ، فى كل شعبة سبعون ألف شق من نار ، فى كل شق سبعون ألف واد من نار ، فى كل واد سبعون ألف قصر ، فى كل قصر سبعون ألف بيت من نار فى كل بيت سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب ، لكل عقرب سبعون ألف ذنب ، لكل ذنب سبعون ألف فقار ، فى كل فقار سبعون ألف قلة من سم فإذا كان يوم القيامة كشف عنها الغطاء فيطير منها سرادق عن يمين الثقلين وسرادق آخر عن يسارهم وسرادق أمامهم وسرادق من فوقهم وآخر من ورائهم فاذا نظر الثقلان إلى ذلك جثوا على ركبهم وصاروا يتنادون كلهم رب سلم(٢) .

– إن أدنى أهل النار عذابا لرجل عليه نعلان يغلى منهما دماغه كأنه مرجل، مسامعه جمر وأضراسه جمر وأشفاره لهب النار ، وتخرج أحشاء جنبيه من قدميه ، وسائرهم كالحب القليل فى الماء الكثير فهو يفور(٣) .

– قال ابن جريج : النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم

---

(١) ابن عباس فى الإسراء والمعراج ص ١٧/١٨ .
(٢) التذكرة ١١٣ .
(٣) الترغيب والترهيب المنذرى ج ٤ ص ٩١٢ .

السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ، فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصـــارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين ، فيجزىء الله أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كل جزء وقسم دركه من النار ، ومراتب الكفر والمعاصى مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم فى النار ، وجعلت سبعة لأن أهل النار سبع فرق ، وقيل على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات (١).

— إن لجهنم ساحلا كساحل البحر فيه هوام وحيات كالبخت وعقارب كالبغال الدهم فإذا استغاث أهل النار طلبوا الساحل فإذا خرجوا إلى الساحل سلط عليهم تلك الهوام فتأخذ أشفار أعينهم وشفاههم وما شاء الله منهم تكشطها كشطا فيستغيثون منها ويطلبون الرجعة إلى النار فإذا ألقوا فى النار سلط عليهم الجرب فيحك أحدهم جلده حتى يظهر عظمه وإن جلد أحدهم لأربعين ذراعا(٢) .

٧٣ — يؤخذ بزمام جهنم كالوحش العملاق

— ثم يأمر الله تعالى بأن يؤتى بالنار فترعب وتفزع وتقول للمرسلين إليها من الملائكة أتعلمون أن الله خلق خلقا يعذبنى به فيقولون لا وعزته ، وإنما أرسل إليك لتنتقمى من عصاة ربك ولمثل هذا اليوم خلقت ، فيأتون بها تمشى على أربع قوائم ، تقاد بسبعين ألف زمام ، فى كل زمام سبعون ألف حلقة ، لو جمع حديد الدنيا كلها ماعدل منها حلقة واحدة ، على كل حلقة سبعون ألف زبانى ، لو أمر زبانى منهم أن يدك الجبال لدكها وأن يهد الأرض لهدها ، وإذا لها شهيق ودوى وشرر ودخان تفور حتى تسد الأفق ظلمة . . فإذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام انفلتت من

---

(١) يقظة أولى الاعتبار فيما ورد فى ذكر النار وأصحاب النار للشيخ صديق حسن خان ص ٧٤

(٢) التذكرة ص ١٢٠ .

أيدى الزبانية حتى تأتى إلى أهل الموقف ولها صلصلة وتصفيق وسحيق فيقال ما هـذا فيقال جهنم انفلتت من أيدى سائقيها ولم يقدروا على إمساكها لعظم شأنها فيجثو الكل على الركب حتى المتوسلون ويتعلق ابراهيم وموسى وعيسى بالعرش هذا قد نسى الذبيح وهذا قد نسى هارون وهذا قد نسى مريم ، ويجعل كل واحد منهم يقول يارب نفسى لا أسألك اليوم غيرها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول أمتى أمتى سلمها ونجها يارب وليس فى الموقف من تحمله ركبتاه . وعند تفلتها تكبو من الحنق والغيظ ، فيبرز صلى الله عليه وسلم ويأخذ بخطامها ويقول لها ارجعى مدحورة إلى خلفك حتى تأتيك أفواجك فتقول : خل سبيلى فانك يا محمد حرام على ، فينادى مناد من سرادقات العرش اسمعى منه وأطيعى له ثم تجذب وتجعل عن شمال العرش ويتحدث أهل الموقف بجذبها فيخف وجلهم وهو قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(١) .

– روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها . . فبينما هم كذلك إذ شردت عليهم شردة تفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من فى الجمع(٢) .

– روى أن جبريل نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ياجبريل فأين تكون الناس يوم القيامة؟ قال : يا محمد يكونون على أرض بيضاء لم يعمل عليها ذنب وتكون الجبال كالعهن المنفوش يعنى الصوف وتذوب الجبال من مخافة جهنم

---

(١) الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة للغزالى ص ٣٢ /٣٣

(٢) التذكرة ص ١١٣ ؟

فى ذلك اليوم ، يا محمد إنه ليجاء بجهنم يوم القيامة تزف زفا عليها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك حتى توقف بين يدى الله عز وجل فيقول لها ياجهنم تكلمى ، فتقول : لا إله إلا الله وعزتك وعظمتك لأنتقمن اليوم ممن أكل رزقك وعبد غيرك ولايجوزنى إلا من عنده جواز . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ياجبريل وما الجواز يوم القيامة ؟ قال : أبشر أبشر إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، فمن شهد أن لا إله إلا الله جاز جسر جهنم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى ألهم أمتى قول لا إله إلا الله .

— إذا جمع الله الناس فى صعيد واحد يوم القيامة أقبلت النار يركب بعضها بعضا ومعها خزنتها وهى تقول : وعزة ربى ليخلين بينى وبين أزواجى أو لأغشين الناس عنقا واحدا ؛ فيقولون ومن أزواجك فتقول : كل متكبر جبار(١) .

— يؤتى بجهنم يوم القيامة وحولها سبعون ألف صنف من الملائكة كل صنف أكثر من الثقلين يجرونها بأزمتها ولجهنم أربع قوائم مابين كل قائمة وقائمة ألف عام ، ولها ثلاثون رأسا وفى كل رأس ثلاثون ألف فم وفى كل فم ثلاثون ألف ضرس مثل جبل أحد ألف مرة وفى كل فم شفتان كل شفة مثل طباق الدنيا ، وفى شفتيها سلسلتان من حديد ، لكل سلسلة منهما سبعون ألف حلقة ويمسك كل حلقة مالا يعد من الملائكة فيؤتى بها عن يسار العرش وهو قوله تعالى « إنها ترمى بشرر كالقصر(٢) » .

---

(١) مختصر تذكرة القرطبى للامام الشعرانى ص١١٤ / ١١٥

(٢) دقائق الأخبار ص ٣٥

٧٤ — عود لوصف الميزان ورجحان الشهادة

— روى الترمذى وابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يستخلص رجلامن أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول لايارب . فيقول : ألك عذر ؟ فيقول لا يارب . فيقول : بلى لك عندنا حسنة وأنه لاظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهدا أن محمداً عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات : فيقال إنك لاتظلم ، قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع الله تعالى شىء عز وجل(١) .

— ثم لاتغفل عن الفكر فى الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها ، وقسم آخر لا سيئة عليهم فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها ، ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى إن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عندالعفو وعدله عند العقاب ، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وتوضع الجنة عن يمين العرش والنار عن يسار العرش ، وينصب الميزان بين يدى الله تعالى فتوضع كفة الحسنات مقابل الجنة وكفة السيئات مقابل النار ، وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال ؛ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب

---

(١) التذكرة ص ٩١

السيئات أو الحسنات وقيل صاحب الميزان جبريل عليه السلام الذى يفصل بين الجن والإنس ويستقبل به العرش إحدى كفتيه على الجنة والأخرى على جهنم ولو وضعت السماوات والأرض فى إحداهما لوسعتهن وجبريل عليه السلام آخذ بعموده ينظر إلى لسانه، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . ويقوم الناس عند الميزان ألف عام فمن رجح ميزانه بحسناته فاز ونجا فى طرفة عين ، ومن خف ميزانه من حسناته وثقلت سيئاته حبس عند الميزان ألف عام فى الغم والهم والحزن والعذاب والجوع والعطش . وروى أنه يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبدا ، وإن خفت ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا ، وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار ، وإذا ثقلت حسناته خرج رافعا رأسه يتبختر بين الخلائق ويتلألأ من جبينه الرضا والملائكة يمشون بين يديه يزفونه إلى الجنة(١) .

٧٥ - هول القيامة يوم تذهل كل مرضعة

- روى فى الآثار أن الله تعالى يحشر الأمم من الجن والإنس عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك أهل الأرض ولزمهم الذل والصغار بعد عزهم وتجبرهم على عباد الله فى أرضه . . فاذا ساقتهم الملائكة زمرا وأفواجا وجمعوا فى صعيد واحد من إنس وجن وشيطان ووحش وسبع وطير تحولهم الملائكة إلى الأرض الثانية وهى أرض بيضاء من فضة نورية وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة فاذ هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات . . والخلق تتداخل ويندرج بعضهم فى بعض حتى

---

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للزبيدى وبهامشه الإحياء الغزالى جـ ١٠ ص ٤٧١ .

يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام ويخوض الناس فى العرق على أنواع مختلفة إلى الآذان وإلى الصدر وإلى الحلقوم وإلى المنكبين وإلى الركبتين .
وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رؤوسهم حتى لو أن أحداً مد يده لنالها ويضاعف حرها سبعين مرة فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة(١) .

– فإذا تكاملت عند أهل الأرض تناثرت نجوم السماء من فوقها وطمست الشمس والقمر فأظلمت عليهم الدنيا وصارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت بعظمها فوق رؤوسهم وهى مسيرة خمسمائة عام حتى يقطع سمكها فياشدة هول صوت انشقاقها فى أسماع الخلائق ثم تمزقت وانفطرت من هول ذلك اليوم ثم ذابت حتى صارت كالفضة المذابة ، فعندئذ يشيب الصغير وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد(٢) .

– ثم يقول الله تعالى يا اسرافيل قم وانفخ فى الصور نفخة البعث فينفخ وينادى أيتها الأرواح الخارجة والعظام النخرة والأجساد البالية والعروق المتقطعة والجلود المتمزقة قوموا لفصل القضاء . فيقومون بأمر الله تعالى ينظرون إلى السماء قد مارت وإلى الأرض قد بدلت وإلى العشار قد عطلت وإلى البحار قد سجرت وإلى الزبانية قد أحضرت وإلى الشمس قد كورت وإلى الموازين قد نصبت ، يومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه ثم ينظرون إلى الجنة وقد أزلفت علمت نفس ما أحضرت(٣) .

---

(١) الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة للغزالى ص ٢٧ /٢٨

(٢) مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ٦٦ وما بعدها .

(٣) دقائق الأخبار ٢٤ص .

٧٦ ــ ٧٧ ــ ٧٨ وصف الصراط مرة ثانية بجسوره السبعة

ــ فإذا تم وزن العباد يأمر الله ملكين بنصب الصراط على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف على حافيته كلاليب معلقة تأخذ من أمرت بأخذه ، طوله مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، ألف منها صعود وألف منها استواء وألف منها هبوط ، وجاء أن جبريل عليه السلام فى أوله وميكائيل فى وسطه يسألان الخلق عن أربعة أشياء ، عن عمرهم فيم أفنوه وعن شبابهم فيم أبلوه وعن علمهم ماذا عملوا به وعن مالهم من أين اكتسبوه وفيم أنفقوه ، ونور كل إنسان مقصور عليه لايمشى فيه غيره، وأول من يجوز الصراط محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ثم عيسى وأمته ثم موسى وأمته ثم يدعى كل نبى وأمته حتى يكون آخرهم نوحا وأمته ، فمنهم من يجوز كالبرق الخاطف ومنهم من يجوز كالريح العاصف ومنهم أسرع من الخيل ومنهم من يجثو على ركبته ومنهم من يجوز كالطير ومنهم من يجوز ماشيا ومنهم من يسقط على وجهه فى النار . ذكر العلماء أنه لايجوز أحد على الصراط حتى يسأل على سبع قناطر : الأولى يسأل فيها عن الإيمان بالله وعن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا جاء بها مخلصاً جاز ، ويسأل فى الثانية عن الصلاة فإذا جاء بها تامة جاز ، وفى الثالثة عن صوم شهر رمضان فإذا جاء به تاما جاز ، ويسأل فى الرابعة عن الزكاة فإذا جاء بها تامة جاز ويسأل فى الخامسة عن الحج والعمرة ، فإذا جاء بهما تامين جاز وفى السادسة عن الوضوء والغسل فإذا جاء بهما تامين جاز وفى السابعة ــ وليس فى القناطر أصعب منها ــ عن مظالم الناس فإذا نجوا من هذه القناطر وخلصوا منها يشربون من حوض النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا شربوا منه زال عنهم التعب والظمأ ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وريحه أطيب من المسك(١) .

---

(١) الدرر الحسان فى البعث ونعيم الجنان للسيوطى ، طبع الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٥٥ ص ٢٨ ، ٢٩ .

— قال النبي عليه السلام إن الله تعالى خلق على النار جسرا وهو الصراط على متن جهنم مد حضة مزلقة عليه سبع قناطر ، كل قنطرة منها مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، ألف منها صعود وألف منها استواء وألف منها هبوط ، أدق من الشعرة وأحد من السيف وأظلم من الليل . . كل قنطرة عليها سبع شعب ، كل شعبة كالرمح الطويل محدد الأسنان يجلس العبد على قنطرة منها ويسأل عما أمره الله تعالى به ، ففي الأولى يحاسب على الإيمان . قال وهب إنه عليه السلام يدعو يارب سلم سلم أمتي فيركب الخلائق الجسر حتى يركب بعضهم على بعض ، والجسور تضطرب كالسفينة في البحر في الريح العاصف ، فتجوز الزمرة الأولى كالبرق الخاطف والزمرة الثانية كالريح العاصف ... والزمرة السابعة قدو يوم أوشهر أو سنة ، حتى يكون آخر من يمر على الصراط قدر خمس وعشرين ألف سنة من سنى الدنيا ، والنيران تحت أقدامهم وفوق رؤوسهم حتى يجوزوها كالفحم سوادا ، ومنهم من يجوزها لا يخشى شيئاً من أهوالها ولا يناله شيء من نيرانها حتى إذا جاوزها يقول أين الصراط فيقال له قد جزته من غير مشقة برحمة الله تعالى . وقد جاء في الخبر أنه إذا كان يوم القيامة تجيء أمة فإذا صعدت على الصراط التفت إليهم عليه السلام فيقول من أنتم فيقولون نحن أمتك فيقول هل كنتم على شريعتي فيقولون لا فيتبرأ منهم ويتركهم فيقعون في جهنم . . وفي الخبر يأتي قوم يقفون على الصراط ويقولون من ينجينا من النار ولا يتجاسرون على المرور فيأتي جبريل عليه السلام فيقول لهم مامنعكم أن تعبروا الصراط فيقولون نخاف من النار فيقول جبريل كنتم في الدنيا إذا استقبلتم بحرا عميقاً كيف كنتم تعبرون ، فيقولون بالسفينة فيأتي جبريل عليه السلام بالمساجد التي كانوا يصلون فيها كهيئة السفن فيجلسون عليها ويعبرون الصراط فيقال لهم هذه مساجدكم التي صليتم فيها جماعة(١) .

---

(١) دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار للعلامة عبد الرحيم القاضي ص ٣٢/٣٣

– إذا عصف الصراط بأمتى نادوا وا محمداه فأبادرمن شدة إشفاقى عليهم وجبريل آخذ بحجزتى فأنادى رافعا صوتى رب أمتى أمتى لا أسألك اليوم نفسى ولا فاطمة ابنتى ، والملائكة قياما عن يمين الصراط ويساره ينادون رب سلم سلم . انتهى ، هذا وقد عظمت الأحوال واشتدت الأهوال والعصاة يتساقطون عن اليمين وعن الشمال ، والزبانية يتلقونهم بالسلاسل والأغلال وتناديهم الملائكة أما نهيتم عن كسب الأوزار ، أما خوفكم نبيكم من عذاب النار ، أما أنذركم كل الإنذار .. ففكر يا أخى فيما يحل بك من الفزع إذا رأيت الصراط ودقته وهو منصوب على جهنم وهى سوداء مظلمة وشررها يتطاير على العباد ولها زفير وشهيق وغيظ والخلائق يتساقطون فى النار كالذر ، ومنهم من يزل فتمسكه الخطاطيف وتأكل جوانبه النار فلا يزال كذلك مقدار سنين(١) .

– روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة يخرج من النار شىء اسمه حريش يتولد من العقرب رأسه فى السماء السابعة وذنبه تحت الأرض السفلى فينادى سبعين مرة أين من بارز الرحمن وأين من حارب الرحمن فيقول جبريل عليه عليه السلام ماذا تريد يا حريش ؟ فيقول أريد خمسة ، أين من ترك الصلاة أين من منع الزكاة وأين من شرب الخمر وأين من أكل الربا وأين من يتحدث بحديث الدنيا فى المساجد فيجمعهم فى فمه ويرجع بهم إلى جهنم(٢) .

– إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون زراعا وإن ضرسه مثل أحد وإن مجلسه فى جهنم كما بين مكة والمدينة وإن فخذه مثل جبل البيضاء ويسحب من لسانه الفرسخ والفرسخين تطوه الناس (٣)

---

(١) مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ٩٥ – ٩٦

(٢) دقائق الأخبار ص ٣٨

(٣) التذكرة ١٢٢

ـــ إن فى جهنم واديا يدعى أثاما فيه حيات وعقارب فى كل فقار من ذنب ذلك العقرب سبعون قلة كل عقرب منهن قدر البغلة الموكفة تلدغ الرجل فينسى حر جهنم من حرارة لدغها (١) .

٧٩ ـ بعض مشاهد العذاب التى لايطيق رؤيتها

ـــ ثم أتى على قوم تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لايفتر عنهم من ذلك شىء ، قال يا جبريل ما هؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ، ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلايستطيع قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال ؛ هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع (٢) ،

ـــ أصحاب الفروج الزانية يحشرون يوم القيامة وفروجهم توقد ناراً وأيديهم مغلولة إلى أعناقهم تسحبهم الزبانية وتنادى عليهم فيتفرجون عليهم فتفيح النار من فروجهم روائح منتنة فلا يبقى بار ولا فاجر إلاقال اللهم العن الزناة ، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى السماء رجالا ونساء محبوسين مع العقارب والحيات ، العقارب تلدغهم والحيات تنهشهم ، فوضع كل قبلة جرت بينهما تدقهم العقارب بمقاراتها وفى كل مقارة راوية سم تفرغ فى لحم من تقرصه وهم معلقون بشعورهم قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هم الزانون والزانيات (٣) .

ـــ من ملك نصابا ولم يزكه جاءه يوم القيامة فى صفه ثعبان عيناه تتقد ناراً وأسنانه من حديد فيجرى خلف مانع الزكاة فيقول له أعطنى يمينك البخيلة حتى أقطعها فيهرب مانع الزكاة فيقول له أين المهرب من الذنوب

---

(١) المصدر السابق ص ١١٩ (٢) الترغيب والترهيب ٤ ص ٨٥٩ .

(٣) قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى ، طبع صبيح ص ١٠-١١

فيلحقه ويقطع يمينه بأسنانه ثم تعود كما كانت ثم يقطع اليسرى وكلما قطع بأسنانه صاح صيحه من الوجع يرتعد لها أهل الموقف (١) .

— ثم قال جبريل يا مالك : انفخ النار نفخة واحدة فطار فؤداى وأظلم بصرى ووقعت مغشياً على فظننت أنه ما بقى أحد من خلــق الله تعالى إلا وهلك ، فقال لى جبريل أثبت لأمر ربك يا محمد إن الله أكرمك بما لم يكرم به غيرك (٢) .

— قلت يا مالك اطبق كدت أموت من شدة هذا العذاب ، فقال يا محمد قد رأيت وشاهدت . وقد يرى الحاضر مالا يرى الغائب ، أبدأ أمتك وحذرهم لئلا يقعوا فى هذا العذاب (٣).

٨٠ — عودة إلى بيت المقدس وامتطاء للبراق ورجوع للبيت وحوار مع أهله

— فلما انتهينا إلى السماء الدنيا إذا الليــل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر ، فركبت وأتيت مكة ونزلت عن البراق فودعنى جبريل وقال : يا محمد إذا أصبحت فحدث قومك بما رأيت من العجائب فى هذه الليلة وبشرهم برحمة الله تعالى ، فقلت : يا أخى جبريل إنى أخاف أن يكذبونى ، فقال جبريل : إن كذبوك صدقك أبو بكر فلا تبال بمن كذبوك بعده ، فنمت على فراشى إلى وقت صلاة الصبح (٤) .

— فرجعت حتى أتيت بيت المقدس فرأيت البراق مشدودة فصليت ركعتين وحمدت الله تعالى على ما من على به ، ثم أدخلنى جبريل بيت المقدس فنظرت إلى صور الأنبياء وصورة أبى بكر عن يمينى وعمر عن شمالى ،

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٣ . (٢) مخطوطة المعراج الأولى ص ٩٤ .

(٣) مخطوطة تاريخ تيمور ٧٣٨ ص ٣٣٢ ب .

(٤) ابن عباس ص ٤٣ .

فركبت البراق وأتيت مكة والليل على حاله ، قالت أم هانئ : فالتف النبي صلى الله عليه وسلم فى ردائه وذهب حتى وقف على قريش(١) .

- فأخذ جبريل بيدى وهبط بي من سماء إلى سماء حتى وصلنا إلى سماء الدنيا وإذا أنا بالباب مفتوح والمعراج منصوب فهبطنا فرأينا البراق على حاله فسميت باسم الله وركبتها ، فأخذ جبريل عليه السلام بعنانها بأسرع من طبقة عين ، فعانقنى جبريل عليه السلام وقال غدا إذا أصبحت حدث قومك بما رأيت من عجائب الله عز وجل فى هذه الليلة وبشرهم برحمة الله تعالى ، قلت إنهم لايصدقونى ، قال إن كذبك أبو جهل لعنه الله يصدقك أبو بكر الصديق ، ثم ودعنى جبريل ورجعت إلى منزلى فلما أصبحت حدثت قومى (٢) .

- ورد فى رواية أم هانئ . . قال : وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم ما رأيت ، فأخذت بثوبه فقلت : إنى أذكرك الله إنك تأتى قوماً يكذبونك وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطوا بك . قالت فضرب ثوبه من يدى ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس(٣) .

- فتعلقت بردائه وقلت أنشدك الله تعالى يا ابن عم أن لاتحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك فضرب بيده على ردائه فانتزعه من يدى فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عكنه فوق إزاره كأنه طى القراطيس وإذا نور ساطع عند فؤاده كاد يختطف بصرى فخررت ساجدة فلما رفعت رأسى إذا هو قد خرج(٤) .

---

(١) مخطوطة المعراج الأولى ص ١٥٦/١٥٧

(٢) مخطوطة تاريخ تيمور ص ٣٤١

(٣) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ ١ ص ٤٣٩/٤٤٠

(٤) نفس المصدر السابق ص ٤٤١/٤٤٢

٨١ – ٨٥ المرحلة الأخيرة من الرحلة وبراهين الصدق

– ثم خرجت إلى باب المسجد وكان من عادة أبي جهل الخبيث إذا مر على يقول بم نبثت يا محمد البارحة ؟ فمر على وسألني على حسب عادته ، فقلت له : أسرى بي ، قال : إلى أين ؟ فقلت : إلى بيت المقدس ثم إلى العرش وخاطبت الحق وخاطبني وأعطاني وأكرمني ، ورأيت الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم المقيم ، ورأيت النار وما أعد الله لأهلها من الزقوم والحميم . قال أبوجهل : يا محمد ! كتم هذا الأمر ولا تتكلم به وإلا كذبك الخلق ، فقلت له أأكتم أمراً أنعم الله به على وقد قال تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث» قال أبوجهل : يالله ، العجب من قولك ، هل تقدر أن تحدث قومك بما أخبرتني به فقلت نعم ، فنادى . يا أهل مكة هلموا الى ، فاجتمع أهل مكة كلهم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً وقال يا معشر قريش اعلموا أن الله سبحانه وتعالى أسرى بي في هذه الليلة إلى بيت المقدس ثم عرج بي إلى السماوات السبع وشاهدت الأنبياء عليهم السلام ورفعت إلى العرش ودست بساط النور وخاطبت الحق وخاطبني ورأيت الجنة والنار ، وجعلت أصف هذا كله وأبو بكر الصديق يقول .. صدقت يا صفوة الله صدقت يا حبيب الله ، فقال أبوجهل . وصفت فأحسنت فما أريد منك خبر السماء ولكن نريد منك خبر بيت المقدس كيف هو ، صفه لنا حتى نعلم أن كلامك حق وقولك صدق ، فأطرق النبي صلى الله عليه وسلم رأسه إلى الأرض لأنه دخل بيت المقدس بالليل ومر عليه راجعاً بالليل ولم يرله علامة ولا إشارة فأوحى الله إلى جبريل أن اهبط إلى بيت المقدس واقتلعه بأرضه وجباله وتلاله وأوديته وأزقته وشوارعه ومساجده وابسطه بين يدي حبيبي محمد . قال فعند ذلك هبط الأمين جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس

فجعل النبي ينظر إليه ويصفه مكانا مكانا وموضعا موضعا حتى أطرقوا جميعا إلى الأرض وأبو بكر الصديق يقول : صدقت ياحبيب الله . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لما كنت أنا وأخي جبريل في الهواء رأيت من بني مخزوم فلانا وفلانا هم وركب عند جبل الأراك وقد ضل منهم جمل أورق فناديتهم من الهواء إن جملكم في وادي النخل وهم عند طلوع الشمس من الغد يفدون عليكم فإذا جاءوكم فاسألوهم، فلما أصبح ذلك اليوم وكان الركب بعيداً ولم يقدروا أن يدركوا مكة عند طلوع الشمس قال فأمسك الله في ذلك اليوم الشمس حتى لحق الركب مكة إكراما وتصديقا لكلام سيد الخلق ، ولما طلعت الشمس دخل الركب مكة وأخبروا أنه ضل منهم بعير قالوا وكنا نبحث عنه فنادانا شخص من الهواء إن البعير في وادي النخل فأتينا الوادي فوجدناه كما ذكرلنا ، فلما سمع المسلمون ذلك فرحوا فرحا شديداً وضجوا بالتهليل والتكبير وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حوله وهو بينهم كالقمر وهم حوله كالنجوم وأسلم في ذلك اليوم أربعة آلاف رجل ، وعاداه أبو جهل وجحده وحسده وقال هذا سحر عظيم منك يا محمد . وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه بما رآه في السماوات والعرش من العجائب(١) ..

— فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فكبر على الناس وقالوا والله الذي لا إله إلا هو إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وتطرد شهرا مقبلة ، فيذهب محمد في ليلة ويرجع إلى مكة ، فرجع كثير من الناس عن الإسلام ممن كان قد أسلم ، فذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا : هالك من صاحبك ، يقول إني أتيت الليلة بيت المقدس ورجعت إلى مكة في ليلة واحدة ، فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه ، فقالوا بلى ها هوذاك في المسجد يحدث الناس ، فقال أبو بكر : والله لئن كان قال لقد صدق ، ما يعجبكم

---

(١) رواية ابن عباس عن الاسراء والمعراج ص ٤٣ — ٤٦

من ذلك . إنه ليخبر بالخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدق به وهو أبعد من بيت المقدس ، فما تعجبون منه ، ثم أقبل أبو بكر حتى أتى النبى فقال له يا رسول الله . تحدث هؤلاء أنك قلت انى أتيت بيت المقدس الليلة وصليت فيه ورجعت قال نعم قال أبو بكر فصفه الى ، قال الرسول فرفع لى بيت المقدس حتى نظرت إليه ، ثم جعل يصف لأبى بكر وجعل أبو بكر يقول صدقت صدقت ، أشهد أنك رسول الله حتى انتهى ، قال الرسول وأنت يا أبا بكر الصديق ، فسمى يومئذ صديقا(١) .

- كنت فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب ليلة الإثنين فى السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة(٢) .

- فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تكذبه فقعد حزيناً ، فمر به عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزئ . هل كان من شئ قال نعم ، قال ما هو؟ قال أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس ، قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه ، قال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى ؟ قال نعم . . فلما حدثهم إذا بهم ما بين مصفق وواضع يده على رأسه متعجباً ، وضجوا وأعظموا ذلك فقال المطعم بن عدى . كل أمرك قبل اليوم كان أمما غير قولك اليوم ، وأنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعدا شهرا ومنحدراً شهراً وتزعم أنك أتيته فى ليلة .

فقال أبو بكر . يا مطعم ، بئس ما قلت لابن أخيك ، جبهته وكذبته ،

---

(١) المعراج للقشيرى ص ٥٤/٥٥

(٢) ابن عباس ص٢

أنا أشهد أنه صادق ، فقالوا : يامحمد صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، وفى القوم من سافر إليه . فذهب ينعت لهم حتى التبس عليه النعت فكرب كربا ماكرب مثله ، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فقالوا كم للمسجد من باب ولم يكن عدها فجعل ينظر إليها ويعدها بابا بابا ويعلمهم وأبو بكر يقول صدقت(١) .

- فلما أصبحت أخبرت قومى فكان أبو بكر كلما قلت كلمة يقول صدقت يارسول الله ، ولما كذبتنى قريش قالوا صف لنا بيت المقدس ، فحمله جبريل بإذن الله وصوره أمامى وصرت أصف لهم ماقدامى فقال القوم لقد أصاب وقال أبو بكر رضى الله عنه صدق محمد أشهد أنه عبدالله ورسوله وإنه لمن الصادقين . وفى رواية أخرى قالوا له يا محمد إن كنت صادقاً فأين لقيت عير بنى فلان ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكان كذا وكذا ، ثم قالوا فأين لقيت بنى فلان ومساعدتها ، وكنت عن عدتها مشغولا فرأيتها قدحملت إلى فأخبرتهم بها وكم فيها من راع وأينها سائرة ، فانكسر منها جمل أورق ، فقالوا إذا قدموا عليكم فاسألوهم عن ذلك . ثم قالوا يامحمد أين رأيت عير فلان ؟ قال فى العقبة وهى أربعون بعيرا تسعة منها تحمل الحبوب وعشرة منها تحمل البسر وأحد عشر بعير يحمل الزيت يقدمها بعير بغرارتين فاخرجوا إليها فإنكم ترونها مقبلة الساعة ، فخرج الناس بجمعهم مبادرين لينظروا ما قال محمد صلى الله عليه وسلم فقال له أبو بكر صدق الله وصدق رسوله الكريم ، فقالوا ياعتيق آمنت بما قال ؟ قال : كيف لاأومن وقد رأيته عيانا ، ثم وجدوا ما قاله جميعاً حقاً(٢) .

ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم فقام مطعم بن عدى فقال : يامحمد

---

(١) قصة الإسراء والمعراج للعلامة نجم الدين الغيطى ص ١٣١ وما بعدها .

(٢) مخطوطة المعراج رقم ١٩٩٣ تاريخ طلعت بدار الكتب المصرية صفحات ١٥٥ وما بعدها .

لوكنت شابا كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا ، فقال رجل من القوم : هل مررت بإبل لنا فى مكان كذا وكذا ، فقال نعم والله وجدتهم قد أضلوا بعيرا لهم فهم فى طلبه ، قال : فهل مررت بإبل لبنى فلان ؟ قال نعم وجدتهم فى مكان كذا وكذا قد انكسرت لهم ناقة حمراء فوجدتهم وعندهم قصعة ماء فشربت مافيها ، قالوا فأخبرنا ماعدتها وما فيها من الرعاء ، قال : قد كنت عن عدتها مشغولا فنام فأتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاء ثم أتى قريشاً فقال لهم ، سألتمونى عن إبل بنى فلان فهى كذا وكذا ، وفيها من الرعاء ابن أبى قحافة وفلان وفلان وهى مصحبتكم بالغداة على الثنية ، فقعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال ؟ فاستقبلوا الإبل فسألوا : هل ضل لكم بعير؟ قالوا نعم ، قالوا: فهل كان عندكم قصعة ماء قال أبو بكر أنا والله وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريقت فى الأرض فصدقه أبو بكر وآمن به(١) ،

- ذكر السيوطى أن أتقن روايات المعراج وأجودها حديث أنس الذى سلم من التعارض الذى لم يسلم منه غيره(٢) ،

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ ١ ص ٤٤٠

(٢) معراج القشيرى ص ٢٧

فهرس المراجع العربية

د . إحسان صدقى و د . حسين مؤنس :

تراث الإسلام ، تصنيف شاخت وبوزورث ، القسم الثانى والثالث سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨

إخوان الصفا :

رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء ، أربعة مجلدات دار صادر بيروت . ١٩٥٧ .

د . إبراهيم عبد الرحمن محمد :

دراسات مقارنة ؛ مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٥

ابن إياس (محمد بن أحمد) :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مطبعة صبيح بالقاهرة

بدر محمد عسل :

السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج ، مطبعة عباس بالقاهرة ١٩٣٧

البرزنجى :

السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج مكتبة القاهرة ١٩٧٣

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى)

رحلة ابن بطوطة ، دارصادر ببيروت ١٩٦٠

الثعلبى (ابن إسحق أحمد بن محمد إبراهيم)

قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ، مكتبة ابن شقرون — القاهرة .

الجيلانى (عبد الكريم بن إبراهيم)

الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل . مطبعة صبيح بالقاهرة ١٩٥٥

د. حسن عثمان : ترجمة الكوميديا الإلهية لدانتى .

— الجزء الأول ، الجحيم دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٥

— الجزء الثانى ، المطهر دار المعارف ١٩٦٤

— الجزء الثالث ، الفردوس، القاهرة ١٩٦٩

الدميرى (الشيخ كمال الدين)

حياة الحيوان الكبرى ؛ دار القاموس الحديث ، بيروت

د . رجاء عبد المنعم جبر

رحلة الروح بين ابن سينا وسنائى ودانتى ، مكتبة الشباب بالقاهرة ١٩٧٧

الزبيدى (المرتضى)

إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، دار إحياء التراث العربى بيروت

سعيد محمد حسن

حقائق الإسراء والمعراج ، القاهرة ١٩٧٧

السمرقندى (الشيخ نصر بن محمد إبراهيم)

— تنبيه الغافلين

— بستان العارفين ، مكتبة عيسى الحلبى ، بالقاهرة

— قرة العيون ومفرح القلب المحزون . طبع صبيح بالقاهرة

د . سهير القلماوى

أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية (فى الأدب) ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)

— اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة

دار المعرفة — بيروت ، ١٩٧٥ .

— شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور ، مطبعة الحلبى القاهرة ، ١٩٥١ .

الشعرانى (الإمام عبد الوهاب)

— مختصر تذكرة الإمام القرطبى ، طبع صبيح بالقاهرة ١٩٦٨

— اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر . دار المعرفة ، بيروت

— الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر ، دار المعرفة بيروت

صديق حسن خان

يقظة أولى الاعتبار مما ورد فى ذكر النار وأصحاب النار

تحقيق د . أحمد حجازى السقا . مكتبة عاطف بالقاهرة ١٩٧١

د . صلاح فضل

— منهج الواقعية فى الإبداع الأدبى ، الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٨

— نظرية البنائية فى النقد الأدبى ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٨

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)

جامع البيان فى تفسير القرآن . دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٢

د . عائشة عبد الرحمن

تحقيق رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣

ابن عباس

الإسراء والمعراج : مكتبة الجمهورية بالأزهر .

د . عبد الرحمن بدوى

— ترجمة كتاب «ابن عربى» لأسين بلاثيوس ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥

ـ دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥

عبد اللطيف الطيباوى

ـ التصوف الإسلامى العربى ، بحث فى تطور الفكر العربى . دار العصور بالقاهرة ١٩٢٨

ابن عربى (محى الدين)

ـ الفتوحات المكية ، طبعة مصورة دار صادر ببيروت أربعة أجزاء وطبعة أخرى محققة بالقاهرة ، قدمها الدكتور عثمان يحى صدر منها ستة أجزاء عن الهيئة العامة للكتاب من عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٧٨

ـ ترجمان الأشواق . دار صادر ببيروت ١٩٦٦

د . على حسن عبد القادر

تحقيق كتاب المعراج للقشيرى ، القاهرة ١٩٦٤

الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد)

ـ الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة ، مطبعة صبيح بالقاهرة ١٩٧١

ـ إحياء علوم الدين ، على هامش الإتحاف للزبيدى . بيروت .

القاضى (عبد الرحيم بن أحمد)

ـ دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار ، طبع الحلبى بالقاهرة ١٩٥٥

القسطلانى (أحمد بن محمد بن أبى بكر الخطيب)

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، دار الكتب العلمية ، بيروت

القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود)

عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات ، دار القاموس الحديث ـ بيروت.

القشيرى (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن)
كتاب المعراج ، تحقيق د . على حسن عبد القادر دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٤

ابن القيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر)
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . دار الكتب العلمية . بيروت .
- حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، مطبعة المدنى بالقاهرة .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) .
تفسير القرآن العظيم . طبع عيسى الحلبى بالقاهرة .

د . لويس عوض
على هامش الغفران . دار الهلال بالقاهرة ١٩٦٦

المحاسبى (أبو عبد الله الحارث بن أسد)
كتاب التوهم . القاهره ١٩٧٨ م

د . محمد الجوهرى
علم الفولكلور ، دراسة فى الأنثروبولوجيا الثقافية ، القاهرة دار المعارف ١٩٧٧

د . محمد زهير السمهورى .
ترجمة كتاب تراث الإسلام تصنيف شاخت وبوزورث القسم الأول ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨

محمود شاكر
أباطيل وأسمار ، القاهرة ١٩٦٥

د . محمود على مكى (بالاشتراك)
أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية . (فى الأدب) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠

ابن مخلوف

العلوم الفاخرة فى النظر فى أمور الدار الآخرة ؛ القاهرة ١٣١٧هـ

المليبارى (زين الدين)

ـ الجواهر فى عقوبة أهل الكبائر ، مكتبة القاهرة ١٩٧٨

المنذرى (زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى)

ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، مكتبة الجمهورية العربية

ـ مختصر صحيح مسلم ؛ تحقيق محمد ناصر الألبانى ، الكويت ١٩٦٩

نجم الدين الغيطى

قصة الإسراء والمعراج . مكتبة الجندى ؛ القاهرة ١٩٧٠

النووى (الحافظ أبو زكريا محى الدين بن شرف)

ـ بستان العارفين . إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة ١٣٤٨ هـ

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك)

السيرة النبوية ؛ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ١٩٥٥

الهندى :

كنز العمال فى ثبوت سنن الأقوال والأفعال ، القاهرة ١٣١٢هـ

اليافعى

روض الرياحين فى حكايات الصالحين ، مكتبة ابن شقرون القاهرة

المراجع الاجنبية

Asin Palacios, Miguel.

« La escatologia musulmana en la Divina Comedia » Madrid 1961.

Cerulli, Enrico.

« Libro della Scala e la questione della fonti Arabo – Spagnole della Divina Commedia. Citta del Vaticano 1949.

Della Vida, Levi .

Nueva luce sulle fonti islamiche, della Divina Comedia, en Al – Andalus. Madrid 1949,

Eliot, T. S.

« To criticiz the critic » Trad. Madrid 1967.

What is a clasic '' Trad. Barcelona 1965.

Escarpit, Robert.

« Sociolgia de la literatura » Trad. Buenos Aires 1962.

Nicholson. R. A.

« A persian forerunner of Dante » Jurnal. of the Bombay branche of The Royal Asiatic Society XIX 1943.

Pichois, Claude. Rousseau, André–M.

« La littérature comparée » Trad. Madrid 1969.

Sanchez – Ablornoz, Claudio. .

« El Islam de Espana y el Occidente » Madrid 1974.

Sandino, José Mûnoz .

« La escala de Mahoma » Trad. por Alfonso El Sabio ». Madrid 1949.

Tylor, Koeber, Malinowski, White y Coodenough.

« El concepto de cultura. Textos fundamentales » Barćelona 1975.

Vernet, Juan.

« La cultura Ilispanarabe en oriente y occidente. » Barcelona 1978.

Weisstein, Ulriche.

« Introdnccion a la literatura comparada » Trad, Barcelona 1975.

Wellek, Rene.

« Concepts of criticism » Trad. Caracas 1968.

رقم الإيداع ١٨٠٦ / ٨٦ الترقيم الدولى ٥ – ٠٥٤ – ١٤٨ – ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني – هاتف ٧٧٤٨١٤ – ٧٧٤٥٧٨ – برقيا: شروق – تلكس 93091 SHROK UN

بيروت ، ص ب ٨٠٦٤ – هاتف ٣١٥٨٥٩ – ٨١٧٧٦٥ – ٨١٧٢١٣ – برقيا داشروق – تلكس: SHOROK 20175 LE

